ܒܝܬ ܡܪ̈ܕܘܬܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܫܩܠ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܪ̈ܙܐ
ܐܘ ܦܣܩ ܡܢܗ ܡܕܡ ܢܗܘܐ ܡܫܬܐܠ ܒܝܬ ܕܝ̈ܢܐ
ܘܢܘܟܪܝܐ ܡܢ ܟܢܝ ܢܟܠܝܐ ܘܫܒܪܐ ܕܢܣܒ ܢܟܠ ܐܘ
ܠܒܬ ܠܗ ܫܒܪܐ ܥܠ ܢܣܒ ܢܗܘܐ ܠܗ ܫܒܪܐ ܒܝܬ
ܚܝ̈ܘܗܝ ܒܪܡܐ ܕܢܗܦܘܟ ܠܗ ܠܕܘܟܬܗ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

أحاديث ديريّة

الأمّ مريم (زكّا)

الجزء الثّاني

دير القدّيس يوحنّا المعمدان

دوما — لبنان

آب ٢٠١١

جميع حقوق الطبع محفوظة
لدير القدّيس يوحنّا المعمدان
دوما - لبنان

✠

الإهداء

إلى أبينا ورئيس كهنتنا المتروبوليت جاورجيوس (خضر) الجزيل الاحترام، الّذي له الشّكر العميم، المكلّل حياتنا بالبركة... لتكن سنوه عديدة.

إلى روح أبينا صفروني (سخاروف) الّذي نفخه لي مُسْلِمًا إيّاي، أنا غير المستحقّة، قبسًا من روحه الذي من الرّوح القدس.

إلى روح أبي إلياس (مرقص) الّذي قبلني وأحبّني، على الرّغم من هشاشتي، فرفعني إلى اقتبال آلام السّقوط بحنوّ رأفات الابن الكلمة.

إلى روح والديّ فؤاد وناديا.

إلى أخي ورفيق درب مسيرتي الرّهبانيّة الأرشمندريت توما (بيطار)، والإخوة والأخوات في عائلة الثّالوث القدّوس،

وكلّ الّذين اختارهم يسوع المسيح ليأتونا بالصّلاة والبركات!

الأمّ مريم

مقدّمة

هذا الكتاب، المثلّث الأجزاء، حصاد تَعَبِ سنين، جاوزت العشرين، في سفر في أدغال الرّهبانيّة. أحاديث بثّتها الأمّ مريم (زكّا)، رئيسة دير القدّيس يوحنّا المعمدان، في دوما، في مسايا الآحاد ومناسبات أخرى، أسبوعًا تلو أسبوع، مذ ذاك، ممّا تمخّض عن صراعٍ لها وملاكَ الظلمة، وآخرَ وملاكَ النّور. ملاك الظّلمة كان، بلا هوادة، ولا يزال، في سعيٍ لجعل ترحالها، في صحارى البرّيّة الدّاخليّة، عقمًا ومعاناة كيانيّة يائسة! وملاك النّور كانت هي إليه في ضراعة لا تكلّ، في عنفٍ داخليّ، في ليلٍ ألْيَل، كليل يعقوب الّذي جاهد وغلب، لا تشاء أن تخليه قبل أن يعطيها البركة! شيء من سيرة ذاتيّة يتكوّن ممّا فاضت به روحها كلامًا من وجعٍ ورجاء، كلّما خلدت إلى الشّركة لتمدّ إليها مائدة من حربها غير المنظورة، وحلاوات الرّوح المعزّي إليها! الأمّ مريم أعطاها الأرشمندريت صفروني بعض نَفَسِه، وبعض روحه في النَّفس. لذا، قال لها كلامًا في انطلاقتها في جامعة الصّحراء، وبثّها شيئًا من السّرّ تفتّق، في أوانه، كلامًا خرج من معاناة كيان.

عرفتُها أختًا ورفيقةَ جهاد، فتسنّى لي أن أطالع مَطالعَ من تَوَثُّبها وأوهانها، من فرحها ومعاناتها. لذا، أحسبُني، بإزائها، شاهد عيان، وهذا الّذي عبّرتُ به، في هذه الأحاديث، عمّا جال داخلها من أصالات روحيّة. الأمّ مريم إليّ إنسانُ كلّيّات، لا تكتفي ببعض السّيّد بركاتٍ عليها؛ تشاؤه كلّه، وتصارع لتكون لديه. هي لم تدخل الرّهبانيّة فتيّةَ الجسد، بل في الخمسين. لذا، كان تعبُ الصّحراء مضاعَفًا عندها. لا تقف عند حدود جِدّة الحياة، ولا تكتفي بأقلّها. تقتحمها بعنف وإصرار كبيرين!

لذا، تلقاها، في هذه الأحاديث، تفتّق ما في كيانها العميق، في صولات كتابيّة، أو في جولات في مضامين الحياة الدّاخليّة. همّها، أوّلًا وأخيرًا، أن تكون في مستوى ما ائتُمِنَتْ عليه، لجهة الّذين جعلهم الرّبّ الإله أبناء وبنات يتسقّطون منها الكلمة، وحركة

الفكر والكيان، توقًا إلى ملء قامة المسيح. لسان حالها، في تعاطي هذا الائتمان ورد، هنا وثمّة، في ما تكلّمت، كما في حديث أعطته في ٢ تمّوز ٢٠٠٦، جعلت له عنوان "هاءنذا والأولاد الّذين أعطانيهم الله". قالت: "نحن أتينا إلى هذا الدّير، لكي نأخذ روحًا. لكنّ هذا يحتاج إلى ذرف دم، وأعراق، وأتعاب، ودموع، وصمت، وصلاة، وحبّ. وأنا، الآن، أقول لكم إنّني لستُ أطلب شيئًا بعد. هذا سرٌّ صغير جدًّا، لكنّه كبير جدًّا أيضًا، أعترف به لكم، اليوم، وهو أنّني لستُ أطلب سوى شيء واحد فقط: يا ربّ، ارحمهم، واجعلني خادمةً لك، حتّى أبلّغهم إليك. أمّا أنا، فبصلاتهم أَصِلُ..." (الجزء الأوّل، ص٤٠).

كانت الأمّ مريم تعي أنّ خبرة الحياة الدّاخليّة تتكوّن في الخفية. ينام العالم، ويسهر الرّاهب في صمت اللّيل، يتروّض على بلاغة العِشرة الإلهيّة. هذا، فيما الأكثرون، من حولنا، يلتمسون الكِبَر في تعظّم العيش. هذا التّضادّ بين صمت الدّير وثرثرات الدّهر، بين مناطحة الطّامحين إلى المعالي وتواري العارفين المستسمِحين عن خطاياهم، قالته في ما تتشوّف إليه نفوس هؤلاء وأولئك. دونك هذه القولة: "الجميع يسعى للكِبَر المبنيّ على الأفعال، والمظاهر، والأشكال؛ لكنّهم لا يبحثون عن الّذين تجفّ عيونهم، في اللّيل، بسبب البكاء، والخوف على أنفسهم، وعلى العالم بأسره" ("تجربة السّلطة"، الجزء الثّاني، ١٩ تمّوز ١٩٩٥، ص٣٥).

وقد منّ الرّبّ الإله على الرّاهبة المحدِّثة الكاتبة، منذ مطلع سعيها في الحياة، بموهبة الكلمة. كانت الكلمات تتراقص في حركة قلمها تعابيرَ تقفز من الألم إلى الفرح إلى الجمال، إلى النّور كالفراشات بين أزاهير الوجود. لذا، بدا لعارفها طبيعيًّا أن تنتقل في الوصال، بألفاظ خلّابة وتعابير ملوّنة بألوان حدائق الحياة، من الكلام السّرد إلى الأنشودة حين لا تعود الكلمات تَسَعُ المعاني. من هذا أنّها في حديث، عنونته: "سقوط آدم وحوّاء من الفردوس"، رسمت بكلمات صورة الفردوس، أفلتت سياق الكلام؛ فانسابت تعابيرها كما لتصوّر لوحة نورانيّة تنضح بألوان الفردوس. قالت: "في الفردوس... كلّ شيء كان للإنسان. الكلّ كان لنا من دون طلب منّا... كنّا خِلقَةَ الله الإلهيّة... كنّا نورًا من نوره، وشعاعًا من شعاعه، وجمالًا من جماله، وألوهةً من ألوهته، وفرحًا من فرحه، وكلًّا من الكلّ... كنّا، في الفردوس، أطفالًا من فرح، أطفالًا من نور... كنّا مغمورين بالشّعاع،

بالحبّ، بالنّور الّذي لا يغرب... نسير مع الملائكة، ونسبّح بغير فتور، ونلعب مع الغزلان، والحساسين، والأزهار... الكلّ كان في الفرح، الكلّ كان في النّور، الكلّ كان يحكي الإله..." (الجزء الثّالث، ص٩).

لذا، يجيء هذا المثلّث الكتابيّ بقدرٍ ليس قليلًا من دُرَرِ المعنى، ومعالم الحياة الرّوحيّة، وأصداء الجهد الرّهبانيّ المبرور، والجهاد ضدّ الأهواء حتّى لا تتحوّل إلى خطايا، وكيفيّـة صدّها، والوقوف بوجه الشّرّير مُفعِّلِها في كلّ نفس بشريّـة! وهو، وإن كان، أساسًا، موجّهًا إلى الرّهبان، في أُطُرٍ رهبانيّـة، فإنّ فيه ذخرًا لعامّة المؤمنين أيضًا، لأنّنا نحسب أنّ طلب روح الله واحد لدى هؤلاء وأولئك. والتّداخل كبير بين سعي الجميع إلى وجه الله. الكلّ يقتات من أُكُلِ الجميع، لأنّ الطّعام واحد، على ألوان، من كلام النّور، وروح الحياة، ولحم السّيّد ودمه...

أشكر الله على خروج هذه الأحاديث إلى النّور... رجائي أن يكون لها موضِع في اهتمام أبناء الإيمان، لأنّ فيها فائدة لبنيانهم، لا شكّ فيها.

الأرشمندريت توما (بيطار)

رئيس دير القدّيس سلوان الآثوسيّ

دوما — لبنان

حبل حنّة بوالدة الإله

(لوقا ٨: ١٦- ٢١)
(غلا٤: ٢٢- ٢٧)

في عيد حنّة، اليوم، أمّ والدة الإله، ما هي الحقيقة المرسومة أمامنا؟! ماذا نتعلّم؟! في الرّسالة الّتي تُليت، وفي فصلَيْ الإنجيل، وقِطع العيد، هناك فكرة واحدة، هي أنّ الله هو المعطي الحياة.

المأساة أنّنا لا نعرف أنّ الله هو المعطي الحياة! العالم، بعد أن غاب، أو غيّب نفسه عن وجه الإله؛ سقط في العدم، في الموت، في الفناء؛ وصار ليس له أيّ وجود حقيقيّ؛ لأنّ الوجود الحقيقيّ والحقيقة الحقّ هما ما يبقى. لماذا صار الفناء؟! لماذا صار الموت؟! لأنّ الإنسان، الّذي خلقه الله من ذاته، ابتعد عن الذّات الإلهيّة، عن الحقيقة الوحيدة، عن الله... وصار ذاتًا في ذاته، يسعى لأن يبقى ويتألّه؛ لكن، إلى موت!

غبيّ هو هذا العالم، وأغبياء هم كلّ من في هذا العالم، الّذين لا يعودون من غربتهم إلى وجه ربّهم! منه خُلقوا، وعنه انشطروا؛ فذاقوا الموت والجحيم! ولكن، إذا أرادوا أن يعودوا إليه، فلا بدّ لهم من أن يلقَوا كلّ النّعمة؛ إنّما بعد أن يتطهّروا، ويبكوا، ويجاهدوا، ويتمرمروا... لكي يدركوا انسلاخهم العظيم عن الرّبّ، والوجع الّذي أذاقوه إيّاه، إذ ابتعدوا عنه بجحودهم!... نعم، نحن نُوجع الله، إذ نبتعد عنه! نحن نُبكيه، إذ نُخطئ!... الله هو حبّ، ورفق، ورأفة، وحنان، وتوق إلينا، نحن الّذين خلقنا ليحيا معنا، في فردوس حبّه الأبديّ. وإذ نبتعد عنه، يَبكينا!... أنتم لا تعرفون أنّ الله يبكي، أنّ الله يئنّ؛ لأنّه حبّ هو!... وإذا ما نحن بكينا، فهذا شيء من بكائه هو علينا. الله بكانا قبل أن نبكيه نحن. منذ فجر التّاريخ وحتّى اليوم، قلّة هم الّذين ذاقوا وجع الانسلاخ عن الله. هؤلاء أعطاهم الله كلمة نبوءة عنه، وكلمة تعليم لشرائعه. ولهؤلاء قال، مِرارًا وتكرارًا: "تعالَوا، يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المُعدَّ لكم" (متّى ٢٥: ٣٤).

لِمَن خلق الله الفردوس، إن لم يكن لآدم وذرّيّته، أي للبشريّة جمعاء؟! أهو في حاجة إلى فردوس؟! إنّه الملء والحقيقة، وهو لا يحتاج إلى أيّ شيء؛ لأنّه مكتمل بذاته. لكنّه، من فرط حبّه، أفرغ ذاته في الإنسان، الّذي جحده، وابتعد عنه!... الله نادانا، عبر الأجيال. نادى الإنسانَ ليعود إليه. وفي النّهاية، حنّ قلبه، فقال: "أكسر ذاتي، مرّةً أخيرة، وأقدّمها متجسّدًا، وأسامح الإنسان الّذي تركني، أجيالًا وأجيالًا، وأعود إليه لأولد منه"؛ فكانت السّلالات، والأجيال، والأجداد الّذين سنعيّد لهم يوم الأحد المقبل، لنعرف سلالة الرّبّ يسوع المسيح، الّذي أتى إلينا بها مملوءةً وهَنًا، وضعفًا، وضياعًا، وزنًى، واستكبارًا!...

هكذا، ارتضى الله العظيم، القدير، المالئ الكلّ، أن ينزل إلينا، متجسّدًا منّا، ليولد من عذراء نقيّة طاهرة. وهنا، لا بدّ من وجود "حنّة" الّتي كانت تنتظر بلا ولد. لماذا لم تُرزق ولدًا؟! "زكريّا" و"أليصابات" أيضًا كانا ينتظران ولدًا، ولم يُعطَيا بحسب ناموس الجسد، لأنّ أليصابات كانت عاقرًا. لماذا، إذًا؟! لكي نعرف أنّ كلّ الّذين اختارهم الله يولدون منه هو! لقد أعطى اللّهُ الكونَ "راحيلَ"، و"أليصابات"، و"حنّة"؛ ليقول له: "أنا لا أولد منك، أيّها الإنسان، بحسب الطّبيعة؛ بينما أنت تولد منّي أنا بحسب الطّبيعة". كلّ هؤلاء النّسوة، وأخريات كثيرات، تخطّين موعد الإخصاب الطّبيعيّ، بحسب الطّبيعة البشريّة. لذلك، مَن وَلَدَنهم، في الحقيقة، إنّما الله ولدهم منه له.

اليوم، حنّة تلد والدة الإله، الّتي منها يولد الرّبّ مخلّص العالم، الّذي كان في حضن الله، منذ الأزل، ولم ينفصل عنه. ماذا يعني هذا لنا، نحن الرّهبان؟! اليوم، نعيّد لـ"حنّة"، لأنّها أمّنا، نحن الآتين لنولد جديدًا من كلمة الله. إنّ أجسادنا تكوّنت من أجساد آبائنا وأمّهاتنا. لكنّ أرواحنا تتكوّن، اليوم، في بطن حنّة أمّنا.

كلّنا اسمنا "مريم"، ونحن نولد، اليوم، جديدًا من بطن حنّة، من عقر العالم؛ لكي نلد نحن الرّبَّ يسوع المسيح من أحشائنا بالنّعمة، والدّموع، والطّاعة، والانكسار، والاتّضاع، والفرح، والمحبّة، وقبل كلّ شيء بالمعرفة، معرفة الله! عظيم هو الله في قدّيسيه!

الله لم يلقَ في المدينة مكانًا يولد فيه؛ لذلك، وُلد في مذودٍ للبهائم، خارج المدينة!

وهو قال، بعد أن كبر وبشّر: "ليس لابن الإنسان مكان يسند إليه رأسه" (متّى٨: ٢٠). هكذا، يستمرّ بكاء الله وحسرته، إذ ليس من مكان له في هذا الكون! ليس من مكان لابنه! ليس من مكان للحبّ، للنّعمة، للحياة!... لكن، افرحوا وتهلّلوا؛ فاليوم، كلّكم، أنتم الّذين قلتم "نعم" للرّبّ، وأتيتم إليه من العالم البعيد القاصي والدّاني، تولدون من حنّة؛ فيصير اسمنا كلّنا واسمكم "مريم" القابلة للإله!...

اليوم، ينفتح عقر العالم!...

اليوم، يصالح الكونَ سيّدُه، إذ يولد من أحشاء هو باركها وقدّسها!...

اليوم، نوضع كلّنا على مائدة الرّبّ "مريمَ"، ليطهّرها هو، ويقدّسها هو، كنيسةً جديدةً، أحشاء نقيّة لا عيب فيها؛ فيأتي ويولد منها مفتديها بدمه، وبالماء الخارج من جنبه المطعون!...

اليوم، كلّ واحد قال "نعم للرّبّ، أذكرًا كان أم أنثى، يصير اسمه "مريم"! ويصير اسم كنيسة المسيح، أيضًا، "مريم"؛ لأنّه هو خالقها، وهو المولود منها، وهو عريسها وفاديها، وهو خادمها ومعلّمها، وهو معيدها معه، بعد موته وقيامته، إلى حضن أبيه!...

هذا هو معنى العيد، اليوم: أنّ حنّة ولدت مريم من عقر جسدها؛ ولكن، من خصب إلهها فيها، وأتت بها إلى الهيكل، وقدّمتها إلى إلهها!...

اليوم، عرس المسكونة!...

اليوم، خطبة الله لشعبه الجديد المُسمّى باسمه!...

اليوم، يصير كلّ واحد منّا سراجًا مُضيئًا، حاملًا اسم المسيح وختمه، على جبينه، وعلى كلّ كيانه؛ فيحيا لحظةً فلحظة، ساعةً فساعة، ليتجدّد بالاسم القدّوس ويقول: "لا تصرف وجهك عنّي" (مز١٤٢: ٧)، بل اعضدني، وخلّصني، واحتضنّي!... ضمّني إليك، فأنا جالس عند قدميك، معلّقًا بكلّيّتي على نور وجهك، صارخًا، متمتمًا: أنت سيّدي، أنت إلهي، أنت ربّ الكون، أنت مبدع الخلائق، أنت وحدك الإله؛ "فعلّمني أن أعمل رضاك، لأنّك أنت هو إلهي" (مز١٤٢: ١٠)! قدّوس أنت، يا ربّ! قدّوس أنت، يا سيّد! قدّوس أنت، يا ملك! ارحمني، أنا عبدك الخاطئ، واحفظني عروسًا لك!...

٩ كانون الأوّل ١٩٩٤

طابيثا قومي*

(مر٥: ٢٢- ٤٣؛ ٦: ١)

ماذا يعنينا إنجيل اليوم، نحن كرهبان؟! نحن نعرف أنّ المسيح هو معطي الحياة، وأنّه سيقيم الموتى إلى الحياة الأبديّة، وهو إله الكلّ، وقد أتى إلى الأرض ليخلّص البشر من لعنة الموت والفساد. ولكن، ماذا يعنينا، نحن كرهبان، أنّه دخل المجمع وخرج منه، وأنّه التقى رئيسَ المجمع، وذهب لشفاء ابنته؟!

هناك أمر جديد، وجديد جدًّا، في إنجيل اليوم، بالنّسبة إلينا. كلّ منّا، في العالم، كان مسؤولًا عن أمر ما. بعضنا كان ناجحًا، وبعضنا الآخر كان متوسّط العلم والمعرفة!... بشكلٍ عامّ، كلّنا كنّا نعمل، ومعظمنا كان ناجحًا في عمله. هذا كان شأننا. يايرس كان رئيس المجمع؛ ونحن كنّا، في بعض الأحيان، رؤساء في العالم. كنّا، مثل يايرس، نحيا من دون يسوع! كنّا في مجمع العالم! كنّا في حياة العالم! كنّا في غنى العالم، ونجاحه، وفساده!... ثمّ ماتت ابنتنا! كيف تموت ابنتنا، إذا لم تكن لنا ابنة؟! ابنتنا هي النّفس، نفس كلّ واحد منّا، الّتي هي لله، وقد كُوِّنت على صورته، وهي ابنته. هذه ماتت! لقد أماتت نفسها في حبّ العالم، في عشق الشّهوة، في الدّنس، في الكبرياء، في حبّ الظّهور، في التّعظّم!... كلّنا كنّا نريد أن نكون مشهورين، في العالم. كلّنا سعينا للشّهرة لكي نُعرف، ويُصَفَّق لنا، ويُقال لنا: "نِعِمّا، نِعِمّا"!... كلّنا ضللنا، وابتعدنا عن يسوع، وعن وجهه؛ فأقامت نفوسنا في الموت! ونحن نعرف أن لا أحد يموت، إلّا بإذن الله. لكنّ الله أتى إلى العالم "ليخلّص الخطأة الّذين أنا أوّلهم" (١تيمو١: ١٥)، كما يقول الرّسول بولس.

ولكن، كيف عرفنا أنّ نفوسنا ماتت؟! هذا سؤال مهمّ. كيف عرفنا ذلك، ونحن نحيا بلغة العالم، وناموس العالم، وحقيقة العالم، وجسدانيّة هذا العالم، ولبس رذائله؟!... كيف عرفنا، وقد أُتخمنا، في العالم، من المآكل والمشارب، والعلم والثّقافة، وحبّ ما في

---

* مر٥: ٤١.

العالم حتّى الثّمالة، وغرقنا في بحره، في بؤرة هذا الجسد، وصارت الطّحالب تشدّنا إلى الأعماق؛ لتأتي الأسماك وتأكلنا قطعةً قطعة؟!... في الحقيقة، لا أحد يعرف شيئًا، إلّا بالمسيح. ها هوذا آتٍ، ها هوذا آتٍ!... لقد أتى المسيح إلى الأرض، مبشّرًا، حاملًا كلمة الحياة، حاملًا النّور، حاملًا الخلاص؛ فارتجّت أنفسنا، وأحسسنا بالقليل الباقي فينا من النّعمة والنّور! أحسسنا بأنّه هنا! ارتجّ كياننا، لأنّ المسيح قائم في وسطنا، على الأرض. حتّى ولو لم نسمع كلمته، فإنّ شيئًا فينا يسمعها! حتّى إذا أعرضنا عنه وعنها، فنحن نعرض عن شيء ما، لا عنه فعليًّا! ليس بإمكاننا أن نلغي المسيح. ليس بإمكان أحد، كائنًا مَن كان، أن يلغي المسيح! الملحد هو ملحد لأنّه لا يريد أن يعرف الرّبّ، وهو بعيد عن الله. لكن، بالموت فقط نلغي المسيح؛ لأنّ فكرنا وحسّنا ماتا في العالم. نحن نلغي المسيح، إذا متنا في الحسّ، وأحببنا أنفسنا أكثر منه!

كلّ واحد في هذا الجسد، كلّ كيان، إمّا أن يكون مع الله، وإمّا ضدّه. هناك موقف، على الإنسان أن يتّخذه. ولأنّ موقف الإنسان كان ضدّ الحياة، بدأت ابنة يايرس تموت! بدأت نفوسنا تموت؛ فأحسسنا بالله، بالكلمة؛ فركضنا إليه صارخين مع يايرس: "ربّي، خلّص ابنتي، فإنّها تموت!". هكذا، يأتي الكلّ إلى منبع الحياة. هكذا أتى يايرس، سيّد المجمع، صاحب السّلطان، الّذي كان يهوديًّا لا غشّ فيه، صاحب المعرفة والأموال، رئيس الرّبْع والعسكر!... هذا هو العالم الغارق في سلطة المال والقوّة.

لكن، الكلّ يموت!... "لا تُتعب المعلّم، فإنّها قد ماتت" (مر٥: ٣٥)! هذا ما قيل ليايرس؛ فالكلّ كانوا يعرفون أنّ الرّبّ يسوع المسيح يشفي المرضى، لكنّ أحدًا لم يكن يعرف أنّه يُقيم الموتى! لذلك، كان جواب الرّبّ: "لاتخف، آمن فقط" (مر٥: ٣٦)! هناك انفعال يقابله جواب: "لاتخف، آمن فقط"! هذه الكلمة نسمعها، صباح كلّ يوم، في قلالينا، عندما نستيقظ باكرًا لنقدّم التّسبيح إلى الله. إنّه ينظرنا في العين والقلب، ويقول لنا: "لا تخافوا، آمنوا فقط!". هو يأتينا، ليقيمنا من موتنا. النّفس ماتت في حبّ العالم، في اللّذّات... لكنّها تشكو؛ لذلك، يقول لنا السّيّد: "لا تخافوا"! إنّه يأتي إلينا، يدخل إلينا، مع تلاميذه وأنبيائه، ليقيمنا من موت الرّوح. لقد قال لطابيثا، وهي ابنة اثنتي عشرة سنة: "طابيثا، قومي" (مر٥: ٤١)! وهنا، تجدر الإشارة إلى أنّ النّفس لا تموت، إلّا بعد أن

تبلغ مبلغًا في حبّ ذاتها، في حبّ العالم. عادة، الإنسان البالغ لا يُخطئ. لكنّ نفوسنا كانت قد نمت وكبرت في الفساد. والرّقم "١٢". هو رمز النّضوج. بقول الرّبّ لابنة يايرس:"طابيثا، قومي"، وكأنّه يقول لكلّ نفس من نفوسنا: "يا نفس، قومي إلى مسيحك، إلى حبيبك، إلى سيّدك! يا نفس، قومي!". وقيامة الموتى، في هذه الحياة، هي إعلان عن الحياة الأبديّة؛ إذ ليس من موت في المسيح: هذا هو العلم الكبير، هذه هي المعرفة الحقيقيّة، هذه هي الحياة الّتي لا موت فيها! هناك أقام طابيثا، وهنا يُقيم أنفسنا، إذ نعرفه. وما هي الحياة الأبديّة؟! هي الله: قومي إليّ! تعالي إليّ! " تعالوا إليّ، يا جميع المتعبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم!" (متّى ١١: ٢٨).

هكذا، تقوم النّفس من موتها، وتأتي إلى السّيّد المبسوط على الصّليب، الحامل الكلّ في جسده العاري، المطعون!... تقوم إلى كلمة شفاء، إلى الحياة، إلى النّعمة... هكذا قمنا، وأتينا إليه، في هذا الدّهر؛ لكي لا نعود نسقط، مرّة أخرى، في العالم، وفي حبّ العالم!... طابيثا قامت إلى أهلها، ونحن قمنا من العالم إلى أهلنا الجدد، وإخوتنا وأخواتنا الجدد، إلى حياة جديدة، هنا، في المسيح، في عالم الله الّذي لا يفنى: "ألا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معًا، ذلك كالأطياب على الرّأس النّازلة على اللّحية، لحية هارون، النّازلة على جيب قميصه" (مز١٣٢: ١- ٢)!...

هذا هو معنى الإنجيل، اليوم. فلنشكر الله، لأنّنا سمعناه، ونفوسنا ارتجّت لسماعه، ولأنّ صوت الرّبّ أتى إلينا وأقامنا، وأتى بنا إلى هذا الدّير. فلنفرح، ونهلّل، ونَقُلْ مع كلّ من يسبّح الرّبّ، في كلّ الأديار، ومع كلّ الصّارخين، في كلّ العالم: "هذه هي القيامة! هذه قيامتنا إلى سرّ حبّ سيّدنا وحياته!"...

١٦ كانون الأوّل ١٩٩٤

التهيّؤ للميلاد

(مرقس٦: ٧- ١٣)

إنجيل اليوم دينونة عظيمة لنا! إنّه دينونة لكلّ العالم الّذي يقول إنّه يحبّ الله، غير أنّه لا يَتَّكِلُ على كلمته. هذا الإنجيل مخيف! لكن، ما معنى الخوف، ونحن لا نريد أن نحرّك ساكنًا لتغيير ما نحن عليه؟!

لقد أرسل الرّبّ تلاميذه "اثنين اثنين، وأعطاهم سلطانًا على الأرواح النّجسة" (مر٦: ٧). إذًا، أعطاهم كلّ شيء؛ فليس هناك، بعدُ، من عدوٍّ يحاربهم. "أرسلهم اثنين اثنين". والأب، قبل أن يرسل أولاده في مهمّة ما؛ يباركهم، ويحمّلهم الوصيّة الأخيرة، ويضع يديه على رؤوسهم، وكلمتَه في أفواههم. لقد ذهبوا اثنين اثنين، وأخذوا سلطانًا على الأرواح النّجسة. إذًا، لا أحد يستطيع أن يحاربهم، فيما بعد، أو يقوى عليهم. هم حاملو الحرّيّة: حملوا كلمة المسيح، حرّيّة المسيح، قوّة المسيح، قوّة الرّوح القدس... وذهبوا وهم لا يخافون شيئًا بعد. لقد أطلقهم المسيح بالبركة؛ فليس من محارب لهم، لأنّه أعطاهم قوّة على الأرواح النّجسة.

مَن هو عدوّنا، نحن الّذين أتينا إلى الرّبّ؟! إنّه الرّوح النّجس المقاوم لكلمة الله، المعاند لروح الله، الّذي يريد أن يهدم بيت الله، و"يضرب" أحبّته، ويقوّض مملكته على الأرض!... فكيف يحارب اللّهُ ذاك الشّيطانَ النّجسَ؟! لقد قاوم الرّبُّ يسوعُ الشّيطانَ، في البرّيّة، بعد صومه أربعين يومًا وليلة؛ فقد ظنّ الشّيطان أنّ الرّبّ، إذا جاع، وأتاه هو في قسوة جوعه، بعد أن يكون قد تعب وانهارت قواه الجسديّة والنّفسيّة؛ فإنّه، أي الرّبّ، يخضع له. لكنّ الرّبّ قال له: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله" (متّى٤: ٤)... هكذا، لم يعتمد الرّبّ، في آخر أيّام صيامه، أو في نصفها، أو في أوّلها، على الخبز؛ بل على الكلمة النّازلة من عند أبيه. كما قال للشّيطان أيضًا: "لا تجرّب الرّبّ إلهك" (متّى٤: ٧)، و"مكتوب: للرّبّ إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد"

(متى٤: ١٠). إذًا، لم يركع يسوع للخبز، ولم يجرّب الآب السّماويّ بالارتماء من أعلى الجبال، ولم يشتهِ السّلطان المُعطى له.

ونحن، على مثال الرّبّ، ثلاثة تعوزنا مقاومتها، كما قاوم الرّبّ يسوع تجربة البرّيّة. نحن لا نأكل خبز الأرض. وإذا أكلناه، فلضعفنا البشريّ؛ حتّى نصل إلى الخبز السّماويّ. لذلك، نحن لا نركع لمشتهى الجسد. القوت، هنا، هو الرّبّ يسوع. إنّه هو مشتهى هذه النّفس المشتّتة بين حبّها لإلهها وحبّها لنفسها! لقد أوصى الرّبّ تلاميذه بألّا يأخذوا شيئًا للطّريق. والكلمات، في الإنجيل، تترابط: لقد أعطاهم البركة، وهم "يأكلون" بركة الله، "يطحنونها" طحنًا في أحشائهم. "يأكلون" كلمة الله، روح الله... ويذهبون ليبشّروا، غير مهتمّين بما يلبسونه أو يأكلونه؛ فإنّ الله يكفيهم! يكفيهم أن يقول لهم: "البسوا ثوبًا واحدًا لضعف أجسادكم، وانتعلوا نعلًا واحدة، ولا تأخذوا ذهبًا وفضّة... أنا هو دفؤكم، أنا هو مأكلكم، أنا هو مشربكم، أنا هو بركة حياتكم... فقط، احملوا الكلمة، واذهبوا وبشّروا بها، ولا تخافوا من الأرواح النّجسة، فقد جَعَلْتُكُم أسيادًا عليها؛ فاذهبوا وبشّروا، وقولوا كلمة العليّ، وكونوا هيئة العليّ ونوره". إنّ الله يريد أن يملك على الأرض كما في السّموات. لذلك، اختار حفنةً له، أخصّاء له؛ ليتمّموا وعده على الأرض، بعده، وفي أثناء وجوده الدّائم معنا، في آن؛ وأرسلهم قائلًا لهم: "قولوا كلمة الإنجيل! وإن دخلتم بيتًا جدّف أصحابه على الكلمة، فانفضوا الغبار عن أرجلكم، وانطلقوا!"...

ونحن قد أخذنا البركة، وأتينا إلى هذا الدّير؛ لنشهد باسم الله القدّوس، والشّياطين لن تقوى علينا بإذن الله، وإن كانت تقاتلنا، في كلّ يوم، وكلّ ساعة، وكلّ ثانية. لا تخافوا! تقوّوا، لأنّه يتمتم في قلوبنا وآذاننا: "أنا هو". هكذا قال لتلاميذه، وهكذا يقول لنا، في كلّ يوم. فلْنكتفِ، إذًا، بالقليل، ولا نطلبنّ شيئًا! اهدأوا! فإنّ الله قد أعطانا كلّ شيء، لنقوى بكلمته، يوميًّا، صبحًا وظهرًا، مساءً وليلًا. لقد أعطانا السّلام، فلْنقاوم ضعفنا! هذه هي مذلّتنا، بعد أن قلنا له الـ"نعم"، وأتينا لابسين ثوبنا الوحيد، إذ ليس لنا أثواب كثيرة، مثل أهل العالم، بل واحد نلبسه لنقول للعالم إنّ رداءنا هو كلمتنا. وهو ثوب أسود للدّلالة على أنّنا قد متنا عن العالم، ونحن في العالم. يحاول النّاس أن يغيّروا هيئة

الكهنة والرّهبان، من خلال إقناعهم بأن يخلعوا الرّداء الأسود، متذرّعين بأنّ النّاس يتضايقون من مظهرهم، وكأنّهم مشبوهون كيفما تحرّكوا! أمّا نحن، فليس لنا سوى رداءٍ واحدٍ، هو كلمتنا، ومظهرنا، وبشارتنا. هذا ما أعطانا إيّاه الرّبّ، وليس عندنا شيء آخر.

الرّاهب لا يبشّر بكثرة الكلام، ولا يعظ كثيرًا، لكنّه يبني بيت الله، ويقعد فيه؛ فيمرّ النّاس ويقولون: "انظروا، ذاك هو حبيب المسيح"، ويقول آخرون: "هذا إنسان معقّد! من المؤكّد أنّ مصيبة حلّت به، وإلّا لَما أتى وسجن نفسه، طول عمره، في مكان واحد!". كما يمرّ آخرون ويبصقون عليه؛ لأنّه، في نظرهم، ينجّس حياتهم المماثلة لنجاسة الشّياطين... هكذا، يقاتلنا الشّيطان، من الدّاخل والخارج؛ ليعيدنا إلى العالم، قائلًا لنا: "عودوا لِما كنتم عليه، من قبلُ، في العالم! قوموا بأعمال خيريّة: أطعموا الجياع، واسقوا العطاش، وعزّوا القلوب المنكسرة!"... نعم، هذه كلّها أعمال عظيمة. لكنّ المسيح قال: "نقّوا داخل الصّحفة" (متى٢٣: ٢٦). إنّه يريد مكانًا له، يريد إناءً يسكب فيه روحه القدّوس، في داخلنا، في قلوبنا، في أفكارنا، في الجسد!

ولكن، هناك قلّة تأتي لتتنقّى؛ لتتنظّف؛ لتنظر، في كلّ لحظة، إلى خطاياها، إلى أوجاع جسدها، إلى احتيال نفسها، إلى ظلمة قلبها، إلى شرود ذهنها!... هناك قلّة قالت، وتقول، للمسيح: "أنا أكره ضعفي، ولا أريده! لا أريد خطيئتي! نقّني، يا ربّ، وطهّرني، واجبلني مجدّدًا بروحك القدّوس، وتعال اسكن فيّ؛ لأنّي عرفتك أنّك أنت الإله. ناديتني، فسمعتك! كلّ كياني يحملك، ويحمل ضعفي أيضًا؛ فكيف بإمكاني أن أحيا الإله، وأن أحيا المسكنة؟!". لهذا، أتى المسيح. أتى ضعيفًا في كياننا! ألم يكن يستطيع، بجبروته، أن يقذف بنفسه عن الجبل، حين جرّبه الشّيطان؟! بلى، لكنّه أعطانا مَثَلَ التّواضع؛ لكي نقبل ضعفنا وهشاشتنا، فنُقرّ قدّامه باكين: "ربّي، أنا مكسور عند قدميك! ربّي، لا أستطيع شيئًا، إلّا بك! ربّي، احملني على ذراعيك، وأجلسني عند قدميك؛ فلا شهوة لي إلّا سماعك، والجلوس عند قدميك، ولمسك، لا بشهوة الجسد، بل بتوق الرّوح! لا عكّاز لي، إلّا أنت! أنت بيتي، أنت سؤلي، وخلاصي، وتوقي!... عليك وضعت رجائي! إليك ألتجئ! عند قدميك أقعد!... كيف أسير في هذا العمر، إن لم تكن أنت معي؟! كيف أقوم، إن لم تشدّد أنت هاتين الرّكبتين المخلّعتين؟! جسدي مكسور، وركبتاي مخلّعتان، ونفسي

ضعيفة، وقلبي حزين، وذهني مشتّت!... هذه إنسانيّتي، يا ربّ، فكيف لي أن أكون إناءً مختارًا لك؟! لا تصرف وجهك عنّي (مز١٤٢: ٧)! تعال، ربّي، أسرع إلى نصرتي! مدَّ يدك، والتقطني كعصفور مَهيص الجناح*، مبلّل، واحتضنّي، ولتكن كلمتك عزائي، وليكن نورك مضيئًا أمامي، وليكن حبّك مقيمًا لي؛ حتّى أنظر من حولي، إذا عرفتُ أنّك أنت معيني وناصري ورافع رأسي؛ لأفتقد الغرباء، وأضيفهم، وأطعم المساكين، وأسقي العطاش، وأعزّي القلوب المنكسرة"...

طبعًا، أنا لا أستطيع أن أفعل هذا، إلّا بعد أن أتنقّى من خطيئتي، بل وأنا في خطيئتي أقدّم العون إلى الآخرين! بعد أن أعرف أنّني نكرة، أنّني "لا شيء"؛ عندئذٍ، تصير أنت، يا ربّ، كلّ شيء! تصير أنت الكلّ في الكلّ، وتأتيني لتقوم بي، ببركتك، إلى البشارة، وترسلني كما أرسلت التّلاميذ، وتعطيني سلطانًا على الأرواح النّجسة؛ فلا تقدر، من بعد، على مقاتلتي! وإن قاتلتني، أطردها بكلمتك، وأنطلق في مسيرتي، ولا أهتمّ لا برداء، ولا بمأكل؛ فكلمتك هي الّتي تمنحني الحياة! هي عصاي وعكّازي! لا تسمح، يا ربّ، بأن يُخزيني في رجائي مَن يسمع كلمتك منّي! اجعل العالم يسمعك، وتعال بالنّاس كلّهم إليك؛ لتصير مملكتك، هنا على الأرض، مملكةَ حبّ، لا قتال فيها، ولا خصام، ولا حروب، ولا تعدّي، ولا كبرياء... بل حبّ مبذول ورحمة!... نعم، يا ربّ، تعال بكلّ عالمك الّذي لا يعرفك، وضمّنا وإيّاه إليك؛ فأنت قادر على أن تلمس قلوب النّاس وعقولهم، فتجعلهم يرتدّون عن ضلالهم... أهلّنا، ونحن نتهيّأ لميلادك، لأن تولد قلوبنا، وعقولنا، ونفوسنا، وكياننا كله، طفلًا جديدًا! اجعلنا، يا الله، أطفالًا في الشّرّ؛ لأنّك، وإن كنت طفلًا مقمّطًا تحت رعاية مريم، إلّا أنّك أنت الإله الوحيد، الجالس في السّموات عن يمين الآب!...

هذه هي مسيرتنا الجديدة. هذا هو وعدنا. هذا ميلادنا؛ فاحفظنا، يا ربّ، أمناء لك في القليل، حتّى تُقيمنا على الكثير، كما وعدْتَ؛ فنستضيء بنورك، لأنّك أنت وحدك الإله، ولا أحد سواك، ولا نعبد إلّاك.

٢١ كانون الأوّل ١٩٩٤

---

* مهيص الجناح: مبلّل الجناح.

الميلاد

(مر٨: ١- ١٠)

... وكانوا في القفر، كانوا في الصّحراء، وليس معهم ما يأكلون. أتوا من بيوتهم، من بعيد، ليسمعوا كلمة المعلّم، ليجلسوا حول النّبيّ. أتَوا، وهم لا يعرفون إلى أين هم آتون! فقط، قيل لهم إنّ هناك معلّمًا في الصّحراء، في التّخوم. قيل لهم إنّ هناك نبيًّا يشفي المرضى، ويُقيم السّقماء، ويردّ البصر للعميان، ويُسمع صوته لمَن هم ذوو آذان مطبقة... فقالوا بعضهم لبعضهم الآخر: "تعالَوا، لنذهب ونرى مَن هو هذا الإنسان!". وقد لازموه ثلاثة أيّام، يسمعون كلمته. بعضهم كان ينتظر أعجوبة، وبعضهم الآخر أتى بدافع فضوليّته، وآخرون أتَوا للاستطلاع، ومنهم مَن أتى لأنّه لم يكن عنده ما يفعله، وآخرون لبَّوا دعوة الجيران لهم إلى الذّهاب معهم... هؤلاء كلّهم لم يأتوا بخبز ليأكلوا، أو ربّما أتَوا ببعضه، لكنّهم جاعوا، في الطّريق؛ فأكلوه، ظانّين أنّهم سيجدون هناك ما يأكلونه، فيما بعد. ذاك الجمع الغفير، الهارب من واقعه، التّارك واقعه وراءه، أتى إلى المسيح، إلى ذاك النّبيّ، إلى المعلّم؛ ليرى من هو!

وفي الميلاد، كان المسيح مُضْجعًا في مغارة؛ فنادى نجمُ السّماء المجوسَ ليأتوا إليه. والنّجم هو كلمة الله، في السّماء، الّذي كلّم المجوس بما يفهمونه. هؤلاء كانوا يدرسون الفلك، وحركة النّجوم، والأقمار، والشّموس الكبيرة والصّغيرة؛ فتكلّم الله معهم من خلال النّجم، وأتى بهم ليرَوا الصّبيّ. كذلك الرّعاة، الّذين كانوا يحرسون في اللّيل مع قطعانهم، أتى إليهم ملاك الرّبّ. والمعروف أنّ الرّاعي هو إنسان بسيط، يحيا مع الغنم ببساطة كلّيّة، لا يعرف شيئًا سوى أنّه يأخذ أغنامه إلى الحقل لترعى، ويتناول من الطّعام ما يسدّ به حاجته، ومن ثمّ ينام ليلًا، بعد تعبه من حرّ النّهار وصقيع اللّيل. إذًا، هؤلاء الرّعاة أتى إليهم ملاك الرّبّ، الّذي لا يأتي إلّا إلى القلوب البسيطة، وقال لهم: "تعالَوا انظروا ربّكم وإلهكم مُضْجَعًا في مذود!". هكذا، أتى الجميع إلى المسيح: هؤلاء إلى الصّحراء، وأولئك إلى

المغارة. لكن، من أين يأكلون؟! هؤلاء رأَوا الصّحراء قد أزهرت، قد أنبتت زهرة عدم البِلى – المسيحَ المخلّص؛ فسجدوا قدّامه، سجدوا في الصّحراء للسّرّ؛ وأولئك أيضًا سجدوا في المذود ليسمعوا كلمة...

إذًا، حين نُنادى، نأتي إليه، ونجلس عند قدميه، ساجدين له، وننتظر حركةً منه، ننتظر ما عنده ليعطينا، ننتظره ليطعمنا!...

هؤلاء في القفر، بعد ثلاثة أيّام، كسر الخبزات السّبع وأطعمهم. كذلك، بعد ثلاثة أيّام، قام من القبر. بعد ثلاثة أيّام، بزغ نورًا من نور الآب. بعد ثلاثة أيّام، لم يبقَ في الموت من موت!... والجمع انتظر ثلاثة أيّام. وأولئك عند المغارة، انتظروا قدّامه ثلاثة أيّام! يوسف، ومريم، والمجوس، والرّعاة، كلّهم كانوا ملتفّين حول الطّفل، لثلاثة أيّام! وفي اليوم الرّابع، أتى الملاك إلى يوسف، في الحلم، وقال له: "قم خذ الصّبيّ وأمّه، واذهب بهما إلى مصر!" (متّى٢: ١٣). لم تُعطَ مريم فرصةً لترتاح، بعد ولادتها للطّفل. والصّبيّ أيضًا لم يُعطَ فرصة ليرتاح في حضن أمّه، في الهدأة. ولا يوسف أُعطي الفرصة الكافية ليفهم السّرّ العظيم: كيف أنّ خطيبته تنجب ولدًا ليس من زرعه!...

لا، يا يوسف! الطّفل ليس من زرعك، بل من ربّك وإلهك، خالق السّماء والأرض! أنت ولدت أطفالًا بحسب الجسد. أمّا هذا، فقد زُرع، بالرّوح القدس، في أحشاء مريم! لقد حلّ في أحشائها من عند الآب، فكيف لك أن تفهم؟! إذًا، اسجد له، "وقم خذ الصّبيّ وأمّه، واذهب بهما إلى مصر"!...

ما أريد قوله هو أنّ لنا، في المغارة والقفر، أن ننتظر حتّى يُؤتينا الرّبّ نفسه وعدًا، آيةً، خبزًا، حياةً، كلمة قيامة... ثمّ يُطلقنا، بعد ثلاثة أيّام. قال الملاك ليوسف: "قم اهرب، يا يوسف، من وجه الشّرّ!". فلننظر إلى هذا الأمر كم هو شديد الصّعوبة، بشريًّا! كم يصعب على الأمّ أن تحتضن ابنها ذا الثّلاثة الأيّام، وتهرب به، في صقيع اللّيل وحرّ النّهار، لتصل إلى صحراء مصر!... هناك، كان الطّفل في المغارة، ومن ثَمّ انتقل إلى صحراء مصر – صحراء الخطيئة. وفي المكانين، الرّبّ يسوع المسيح هو الزّهرة، هو النّبع، هو ينبوع الماء، هو الخبز!...

إذًا، نحن في انتظار له، قدّامه، عند قدميه، قدّام مذوده! ونحن، أيضًا، سائرون وراءه في تخطٍّ، في حركة، في ديمومة امتداد، وليس لنا أن نهدأ. من هدأ في نفسه ولنفسه، فقد هدأ للخطيئة، والكسل، والتّهاون، وعدم المحبّة، والثّرثرة، والحسد، والاستكبار... هذا ما عند هذه النّفس لتعطيه، وليس لها شيء آخر، بعد السّقوط!

لذلك، يأتينا سيّدنا في مذود للأكل، وهو نفسه يعمّد الأرض؛ ليصبح هو المأكل الحيّ، والمشرب الحيّ. "ليس لابن الإنسان مكان يُسند إليه رأسه" (لو٩: ٥٨)! منذ طفولته، لم يكن له مكان، لا في المنزل، ولا في القرية، ولا في المدينة... وُضع في مذود للبهائم، ثمّ اقتُلع إلى مسيرة أطول، إلى صحراء غربة. وعندما كبر وجال في الأرض، قال: "ليس لابن الإنسان مكان يسند إليه رأسه". هذا هو مطلب الله، ووعده لنا: أن نحسّ ونعرف أنْ ما من مكان نُسند إليه رؤوسنا، في هذا العمر. وهو يريد منّا أيضًا أن نلتقيه في غربتنا، هو الغريب الكبير: "أعطني هذا الغريب"! هذا ما قاله يوسف ونيقوديموس لبيلاطس، عندما طلبا إليه جسد المسيح ليدفناه. هذا هو الطّفل ذو الثّلاثة الأيّام، يُقتلع من أرضه؛ ليصير غريبًا، لا في أرضه، بل في أرض الغرباء!... في ملء هذا العالم الّذي هو أبدعه، الّذي لم يقبله!...

هذه هي مقولة الميلاد لنا: إنّنا غرباء في هذه الأرض، نتبع واحدًا ليس هو نجم السّماء، بل شمس العدل. نحن نتبع المسيح، ونبقى غرباء؛ لأنّه هو غريب!... إن وجدنا لنا مكانًا، في هذه الأرض، نصبح غرباء عنه! أمّا إذا التقيناه هو، فنصبح وإيّاه غرباء. وهو، عندئذٍ، يأتي ويسكن في غربتنا، مُعزّيًا إيّانا بأنّه هو أيضًا غريب.

لقد أتى الرّبّ يسوع المسيح، متجسّدًا، إلى هذه الأرض، من حضن أبيه؛ ليحتضننا، ويعزّي مسيرتنا، على هذه الأرض. هذا هو بدء المسيرة، ووسطها، وخاتمتها: غربة من غربة إلى غربة!... نحن نعرف بعضنا بعضًا لأنّنا غرباء؛ إذ في هذه النّفس وهذا القلب، هناك جرح عميق، يقطر دمًا ودمعًا، يومًا بعد يوم، ولا تعزية لنا إلّا به وفيه، وفي مَن هم له، الّذين ختموا على جباههم باسمه! فيصير هو مذودنا حيث نُسند رؤوسنا لنرتاح، وهو طعامنا نأكله ونشبع منه؛ لكي نتمكّن من الاستمرار بهذا العمر، ونؤمن بأنّه هو الإله الفادي المخلّص وحده؛ لأنّ من يؤمن به، "ستجري من بطنه أنهار ماء حيّ" (يو٧: ٣٨).

وفي النّهار، نردّد اسمه ونخدمه؛ لأنّ حياتنا هي أن نتّكئ في مذوده، إذ نكون متعبين؛ وإذ نجوع، نأكله؛ لأنّه قد أعطانا جسده قائلًا: "خذوا كلوا..." وإذ نعطش، نشرب ماء جنبه ودمه؛ وإذ نهدأ، في نهارنا، نردّد اسمه... هكذا، نغزل أيّامنا حوله؛ فطوباكم، لأنّكم عرفتم هذه الحقيقة!...

إذًا، فلْنجدّد وعينا، وسجودنا، وانتظارنا، وهدأتنا وصمتنا؛ كي نسمع صوته القائل: "تعالَوا إليّ، يا جميع المتعبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم!" (متّى ١١: ٢٨). فلنأتِ، من صحراء هذا العمر، لننضمّ إليه في مذوده، وفي مسيرته إلى مصر، ومن ثمّ نعود وإيّاه إلى النّاصرة، ونكبر معه!... فلتكن حياتنا كلّها ملتفّة حوله: هذا هو الوعد، ولا وعد إلّاه! هذه هي الحقيقة، ولا حقيقة إلّاها؛ المسيح هو الحياة؛ فطوبى لـمَن ارتشف هذه الحياة، وامتزج بها؛ لكي يستطيع أن يحيا خطفة هذا العمر ويلقى وجهه!...

فيا ربّ، أعطنا، في ميلادك، وعدًا يتجدّد بأن تبقى معنا، في كلّ لحظة من ليلنا ونهارنا، من صبحنا وظهرنا ومسائنا... كن معنا، يا ربّ، ولا تتركنا في مسيرتنا! أطعمنا جسدك، واسقنا دمك، وضع في قلوبنا، وعقولنا، ونفوسنا، وكلّ كياننا، اسمَك القدّوس؛ حتّى نستطيع، يا سيّد، أن نحيا هذا العمر، ونلقاك هناك، في الأبديّة، جالسًا عن يمين الآب في الفردوس؛ فنستريح عند قدميك، ونسمع كلامك، ناظرين نورك الّذي لا يعروه مساء.

٣٠ كانون الأوّل ١٩٩٤

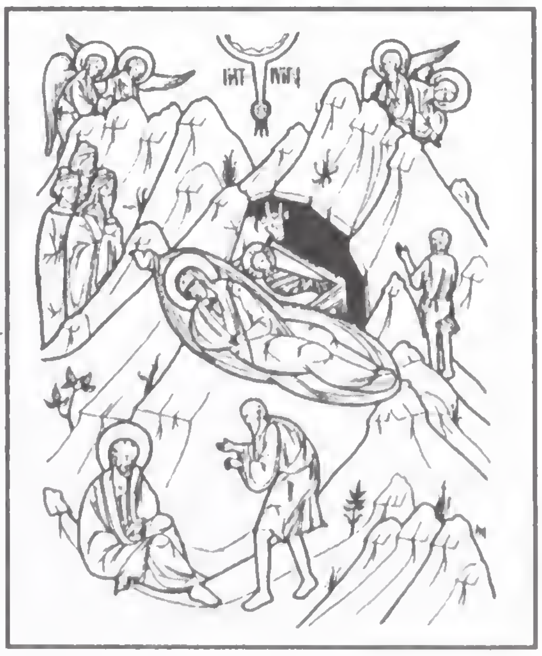

حسّ الخطيئة

(لو١٨: ٣٥- ٤٣)

"السّالكون في الظّلمة وظلال الموت أبصروا نورًا عظيمًا..." (إش٩: ٢).

مَن لا يجلس وحده، في قلّايته، بصمت، ومن دون أن يمسّ حتّى الكتاب المقدّس، في بعض الأحيان؛ فهذا لا يعرف ما معنى القول: "السّالكون في الظّلمة وظلال الموت أبصروا نورًا عظيمًا...".

في الحياة اليوميّة، الإنسان يعتاد حالته: يعتاد قانونَه الصّباحيّ، وقرعَ النّاقوس، وسجداته، ودموعه – إذا كان هناك من دموع – وصلوات الكنيسة، وصلاة يسوع، ونومه... إنّه يعتاد حتّى ما يظنّ أنّه حسّ الخطيئة، ومعرفته لخطاياه. هذا أمر نعرفه، ونلاحظه من خلال اعترافاتكم الأسبوعيّة.

في الحقيقة، ما من شيء مهمّ في هذه الحياة. عندما "يضرب" الرّبُّ الإنسانَ بالألم الكبير، فإنّه يسحقه؛ فيصير غير قادر على أن يصلي، أو يبكي، أو يستجير... يضع الرّبّ يده عليه، ويشدّ، ويضغَط عليه حتّى الأعماق، حتّى ينفجر! هذه الحالة تتمّ على مستويين: على مستوى الحياة اليوميّة، الإنسان الحسّاس، الرّقيق الطّبع، الّذي يكون دائمًا مقبوضًا عليه، متألّمًا؛ يُضغط حتّى يحين وقتٌ تنفجر فيه خطيئته أمامه؛ فينفجر بالبكاء. أمّا على مستوى الحياة الرّهبانيّة، فإنّ الرّاهب، بعد سنوات من بقائه في الدّير، يصبح رقيقًا بفعل عملِ الله الدّائم فيه، تمامًا كرغيف العجين الّذي يكون، قبل وضعه في الفرن، سميكًا؛ فيضربه الخبّاز "بالشَّوْبك" حتّى يخرج رقيقًا من النّار، كمثل الخبز المرقوق الّذي ترون فيه دوائر صغيرة، وحروقًا، وأمكنة رقيقةً، وأخرى سميكة... هكذا الإنسان، كلّما رقّ، صارت خطاياه واضحة أمام عينيه، وصار المسيح عديلًا للخطيئة فيه، أي إنّ إحساسه بالخطيئة يأتي من حضرة الرّبّ في حياته اليوميّة! هذا كلام دقيق وصعب. يجب أن تفهموا أنّ الإنسان غير موجود قدّام الرّبّ يسوع المسيح، إلّا لأنّه خاطئ. لماذا صرخ الأعمى، في

إنجيل اليوم: "يا يسوع، يا ابن داود، ارحمني" (لو١٨: ٣٨)؟! لأنّه أعمى، لأنّه "مضروب"، لأنّه مريض، لأنّ فيه شيئًا غير سليم، لأنّه يريد أن يخرج من حالة معيّنة، من عماه؛ ليصير ككلّ البشر المبصرين!

في حياتنا اليوميّة، جرح الخطيئة يصير غير واضح، وصلاة يسوع تصبح روتينيّة جدًّا، والخطيئة تصبح كلمة من صلاة يسوع: "ربّي يسوع المسيح، ارحمني، **أنا الخاطئ**". هذه تُسمّى "المراوحة في المكان نفسه". نحن نفرح بقوانيننا، وعدد سجداتنا، ونادرًا ما تتفتّق هذه النّفس عن هول الموت الّذي فيها، حتّى يأتي الألم الرّوحيّ، والألم النّفسيّ، والألم الجسديّ؛ حتّى يصبح الكلّ في وقفة: المأكل، والمشرب، والصّلوات، والعمل، والسّهرانات... وكلّ شيء يتوقّف. عندما يرانا السّيّد في مكاننا نراوح، يأتي لينقلنا إلى مرحلة جديدة؛ فينخزنا حسّ الموت، وهو أهمّ شيء، بالنّسبة إلى الرّاهب. وأقصد بذكر الموت، لا أن يتذكّر الإنسان أنّه سيكبر ويموت، بل ذاك الذّكر الّذي يتكلّم عليه الآباء، أي أن يذكر الإنسان، دائمًا، أنّه ميت، لا قوام له، ولا وجود! يرى جسده ما زال حيًّا، لكنّه ميت، في الوقت نفسه، وكلّ شيء من حوله ميت! العالم لا يأتيه بالفرح، والآخرون لا يعاملونه كأنّه المسيح، ولا يغسلون رجليه... هكذا، يدخل الإنسان في الرّتابة اليوميّة؛ فيحسّ أنّ الحياة، حياته، موت بموت هي، وحوله كلّ شيء ميت ويموت!... هذا الحسّ هو بركة من عند الرّبّ، لا يأتي في عمق الأعماق، إلّا إلى القلّة القليلة من البشر! لكنّه مخيف جدًّا، ويمكن أن يقضي على الإنسان، إذا لم يصرخ: "يا ابن داود، ارحمني!". هكذا، لا يكون الرّبّ حالة، ورتابة يوميّة؛ فنعرف، إذ ذاك، الرّبّ يسوع، من خلال قراءة المزامير، والصّلوات، والتّراتيل؛ إذا كنّا نقرأ بروح الرّبّ، أو إذا كان الله حاضرًا قدّامنا في الكنيسة. في هذه الحالة، يسمح الرّبّ بأن "تنفجر" الخطيئة، أمام عيوننا، من أعماقنا.

أكثرنا ينسى جرح الخطيئة! ينسى أنّه أخطأ، وبصعوبة يتذكّر هفواته وزلّاته السّابقة... هل نتذكّر، مثلًا، عندما وقعنا في شهوة الجسد، وابتعدنا عن الرّبّ يسوع، وتحرّكنا، من خلال هذه الشّهوة، نحو الآخرين؟! هل نتذكّر عندما فسقنا في فكرنا، وتلذّذنا بالفكر، بدلًا من أن نرفضه حالًا؟! هل نتذكّر أنّنا طمّاعون، ولا نحبّ إلّا "أنانا"،

ونريد أن نحصل على كلّ شيء بذواتنا؟! هل نتذكّر تهاوننا في محبّتنا تجاه الآخر، واستكبارنا عليه، وأنّنا ما زلنا نستكبر؟! هل نتذكّر عدم إحساسنا بأنّ الّذي نستكبر عليه هو المسيح الواقف قدّامنا؟! هل نمشي مطأطِئين الرّأس، مستحين، خائفين من خالقنا؟! هل نصمت، إذا أخطأنا، أو نبرّر ذواتنا وبسرعة؟!... من هنا، إنّ الرّاهب يقبل الألم ويفرح به، ويقبل التّجربة ويفرح بها؛ لأنّ التّجربة تخضّه، وتُرجع له يسوع حيًّا فيه، وخطيئته حيّة أمامه... هذه اللّغة لا نجدها عند أهل العالم، لأنّ لغتنا غير لغتهم، وقاموسنا غير قاموسهم. لا تستغربوا إذا كنّا نشعر بأنّنا غرباء، أو بعيدين عن العالم، وإذا تساءل بعض الآباء عن سبب عيش النّاس الّذين يأتون ويذهبون إليهم، ومع ذلك، هم لا يريدون أن يخرجوا من ظلمتهم!...

ربّما كنتم تنتظرون منّي، بعد هذا الغياب لمدّة أسبوع تقريبًا، أن أخبركم نكتة، أو أمرًا مفرحًا. ولكن، كوننا رهبانًا دفعني إلى قول ما قلت. ألا أعطانا الله أن نبقى في هذا الدّير، في فرحنا وألمنا، في اتّحادنا على الطّريق نفسها. هنا، تتفاوت درجات الجهاد، والحسّ بالخطيئة، من فرد إلى آخر بيننا. لكنّنا نبحث عن الكلام نفسه، وفي القاموس نفسه. فلنصلِّ، بحرارة، بعضنا لبعضنا الآخر، لأنّنا هكذا نصير واحدًا. وإذا ما انوجع أحدنا، فإنّ الجماعة تحمله. لكن، انتبهوا دائمًا، حتّى لا تقعوا في الرّتابة؛ وحاولوا أن تحسّوا بالخطيئة، حتّى تحسّوا بالمسيح؛ لأنّه لا يأتي إلينا، إلّا بذكرنا لخطيئتنا. عندما سُئل القدّيس أرسانيوس الكبير: "هل تعرّفت إلى القيامة، يا أبانا؟"، أجاب: "عند خروجي من هذا الجسد، أتعرّف إليها. أمّا وأنا في هذا الجسد، فإنّي على الصّليب أبقى معلّقًا، وإلى المسيح ناظرًا، وإيّاه منتظرًا حتّى يدعوني باسمي إلى الملكوت". هذا ما قاله أيضًا القدّيس باخوميوس، عندما طُرح عليه السّؤال نفسه.

من هنا، على قدر محبّة المسيح لنا، يكون الجرح أعمق. أمّا المأكل والمشرب وما شابهها... كلّ هذا يطفو على السّطح فقط. فطوبى لمَن لهم آذان للسّمع لكي يسمعوا.

٢٢ كانون الثّاني ١٩٩٥

وعد الحياة الجديدة!

(مرقس١٣: ٢٤- ٣١)

"الحقّ أقول لكم، لا يزول هذا الجيل حتّى يكون هذا كلّه. السّماء والأرض تزولان، لكنّ كلامي لا يزول" (مر١٣: ٣٠- ٣١). علامَ كان الرّبّ يسوع يتكلّم، في إنجيله هذا؟! إنّه يتكلّم على "[تلك الأيّام الّتي فيها]، "بعد ذلك الضّيق، الشّمس تُظلم، والقمر لا يعطي ضوءه، ونجوم السّماء تتساقط، والقوّات الّتي في السّموات تتزعزع. وحينئذٍ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحابٍ بقوّة ومجد عظيمَين" (مر١٣: ٢٤- ٢٦).

عندما تجسّد المسيح، وأتى إلى الأرض، مُعلِنًا ملكوت أبيه الّذي في السّموات؛ لم يقبله أحد من النّاس. ومَن آمن به وقبله، عاد وتركه من جديد. حتّى تلاميذه شكّوا فيه؛ وعندما صُلب، تركوه مُعلَّقًا، وحده، على الصّليب، "لا صورة له، ولا جمال، فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه"(إش٥٣: ٢)، كما قال إشعياء النّبيّ. لكنّ الرّبّ أتى إلى الأرض ليعطي كلمته. أتى ليعلّم كلّ البشريّة، ويفتديها بموته وقيامته. أتى لينبّه النّفوس، ويزلزلها. أتى ليقلب كلّ المفاهيم رأسًا على عقب. أتى ليقول للنّاس: "توبوا فقد اقترب ملكوت السّموات" (متّى٤: ١٧)؛ والتّوبة هي خروج ممّا نحن فيه إلى الآتي؛ ومن ثَمّ هي نقضٌ وزعزعةٌ للأسس الّتي ابتنيناها كبشر، لنخرج إلى أسس جديدة، وعالم جديد، وفكر جديد هو فكر المسيح.

عندما تجسّد الرّبّ السّيّد، أراد أن يقول لنا إنّ كلّ ما ابتنيناه، عبر الأجيال، من حضارات، وفكر، وعادات، وأبنية، وفلسفة، وعلم، وثقافة... كلّ هذا، الّذي رسّخنا عليه حياتنا، إنّما فعلناه سدًى. وكأنّه أراد أن يقول لنا: "[حياتكم لم تكن مهمّة، قبل أن أتجسّد؛ لأنّكم لم تسمعوا كلمتي من أنبيائي. اليوم، أتيت لأعلّمكم الحقّ، وأرشدكم إلى الحياة. لهذا، فتحت ذراعيَّ وقلت: تعالوا إليّ]... أنا هو الطّريق والحقّ والحياة... تعلّموا منّي، لأنّي وديع ومتواضع القلب؛ فتجدوا راحة لنفوسكم" (يو١٤: ٦؛ متّى١١: ٢٨- ٢٩).

قبل تجسّد الرّبّ، العالم بأسره كان بعيدًا عنه. البشريّة كلّها كانت تجهله. لقد ابتنت لنفسها شموسًا، وأقمارًا، ونجومًا، وأرضًا، ومالًا، وذكاءً، وفلسفة، وعلمًا... لكنّها لم تبتنِ لها قلبًا. ابتنت عقلًا، وصار العقل مريضًا؛ "فضرب" الكيان كلّه بالموت والفساد. والرّبّ أتى ليعلّمنا أنّ ملكوت السّموات هو حبّ وقلب؛ وقد قال، في العهد القديم: "يا بنيّ، أعطني قلبك" (أم٢٣: ٢٦)، كما قال في العهد الجديد: "أحبّوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم، حتّى يعلم العالم أنّكم تلاميذي" (يو١٣: ٣٤- ٣٥)، وأيضًا: "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ فكرك، وأحبب قريبك كنفسك" (متّى٢٢: ٣٧- ٣٩). ماذا يعني هذا الكلام لنا، نحن الرّهبان؟! نحن نقول إنّنا نعرف هذه الأمور ونفهمها، إذ إنّنا نقرأها، يوميًّا، في القراءات والمزامير، ونرتّلها في الكنيسة. نحن نحياها في قوانيننا، وفي جهاداتنا. لكن، هناك كلمة سرّ، في هذا الإنجيل، سأحاول أن أفتّقها لكم، في ما يلي.

قال الرّبّ لتلاميذه: "في تلك الأيّام، بعد ذلك الضّيق، تظلم الشّمس، والقمر لا يعطي ضوءه..." (مر١٣: ٢٤- ٢٦). الرّبّ يريد أن نعرف أنّه آتٍ أيضًا، وقد قال هذا الكلام لأنّه عرف أنّ البشريّة ستعود وتحيا كما كانت تحيا، قبل أن يأتي هو، أي إنّها ستعود إلى كبريائها، وأنانيّتها، وبنيان مجدها الأرضيّ، واستكبارها، وفسقها، وزناها، وعشق الجسد والملذّات وطيب العيش، وإلى الاستغلال، وحبّ التّملّك، وقهر الآخر، وقمعه، وإلى الدّينونة، والكره، والحقد، والموت!!! عرف أنّها ستنسى أنّ الرّبّ، صانع السّماء والأرض، كان، وهو كائن، وسيكون. البشريّة ستنسى أنّ إلهها القدّوس هو الّذي افتداها بجسده ودمه الكريمين، وستدوس ذلك الحبّ العظيم، الجسد والدّمَ المحييَيْن، وستُلحد، وتلعن آحادَ الرّبّ، وفداءَه، وستُعرض عنه بوجهها وعقلها، وفكرها، وقلبها!

الرّبّ، في هذا الإنجيل، يطلق لنا صوت تهديد، يزلزل كياننا، يأتي إلينا قابضًا على أكتافنا، مُحرِّكًا إيّانا بعنف، قائلًا لنا: "سماؤكم ستزول، والشّمس والقمر والكواكب الّتي أنا أبدعتها ستزول، وكلّ العالم الّذي ابتنيتموه بكبريائكم وألوهيّتكم المريضة سيزول أيضًا".

لذلك، إذ عرفنا، نحن الرّهبان، شيئًا من هذا؛ التجأنا إلى الرّبّ، بعد أن نادانا،

وتبعناه؛ لأنّ الحياة من دونه لا معنى لها، والعمر هباء؛ ولأنّ نفوسنا، بعيدًا عنه، تُظلم؛ فنيأس ونخور... ما الّذي ينتظرنا في هذا العمر؟! عذاب، ومرض، وانتظار، وشهوة فانية، وهوى يتآكلنا ثمّ يدفعنا إلى الرّغبة في هوى أكبر منه، وتوق إلى الخطيئة يجتاح عقولنا وقلوبنا... فينزل العقل، بأوساخه وأدناسه وكبريائه، بكلّ ما فيه من أمراض، إلى قلوبنا، ويبثّ فساده فيها؛ فتبدأ بالحسد، والكره، والاستكبار، والدّينونة... ثمّ يظهر كلّ ذلك في حركة جسدانيّة تجرّنا إلى الفساد، وإلى اقتراف أعمال الفسق والدّنس... هكذا، نسقط في الخطيئة، ونجلس في الحمأة، نتمرّغ فيها أكثر من الخنازير، وأكثر من الكلب الّذي يعود إلى قيئه؛ لأنّ الإنسان، عندما يسقط، إنّما يسقط بوعيٍ، وفكرٍ، وإرادة، وتصميم، لا بحسٍّ جسدانيٍّ فقط!

هذه هي حال العقل. إنّه مشوّش ومضطرب. وإذ يتحرّك في الكيان، فإنّه ينزل إلى القلب، ويشوّشه أيضًا. وبتشوّش القلب، يمرض الكيان بكلّيّته. يمرض الجسد، ويتّجه نحو الخطيئة. لذلك، نحن ننقّي العقل، أوّلًا، بذكر اسم الرّبّ يسوع. هذا هو الدّواء لدائنا. اسم الرّبّ يسوع هو الدّواء لمرض العقل والقلب، ولكلّ هذا الكيان. نحمل الاسم القدّوس، ونضعه في أكفّنا، ونطأطئ الرّأس إليه، ونفتح الفاه، ونأكله ونشربه، نغترفه من معينه، ونستنشقه حياة جديدة، ونردّد باطّراد: "ربّي يسوع المسيح...". نادي اسم يسوع الكريم: "ربّي يسوع المسيح" في حركة شهيق، ثمّ نُخرج من أحشائنا خطيئتنا في حركة زفير، بقولنا: "ارحمني، أنا الخاطئ".

هكذا، يصير اسم الرّبّ حياةً. إنّه نَفَسُ الحياة الّذي نستنشقه. وإذ نمتلئ من نَفَسِ الحياة الجديد، من اسمه القدّوس؛ نُخرج خطيئتنا بالإعلان عنها، بمعرفتها. والرّبّ قال: "أنا اخترتكم، لستم أنتم الّذين اخترتموني" (يو١٥: ١٦). الرّبّ وضع إصبعه على قلب كلّ واحد منّا، وأتى بنا إليه؛ لأنّنا لا قدرة لنا على أن نأتي إليه بملء إرادتنا، إذ قد خطئنا وأثمنا كثيرًا: "الجميع أخطأوا، وأعوزهم مجد الرّبّ [حتّى يخلصوا]" (رو٣: ٢٣)...

لهذا، نركع، اليوم، وكلّ يوم، متمتمين، وسائلين: "لماذا، ياربّ، يا قدّوس إسرائيل، اخترتني، أنا الخاطئ، من بين جميع النّاس؟! لماذا تريد أن تخلّصني؟! أنا لست أفضل من غيري. لقد خطئت كثيرًا، واليوم فقط عرفتك، وأحببتك؛ لأنّك أنت أحببتني

من قبل. اليوم، واصلتك الحبّ حبًّا؛ لأنّك احتضنتني، وسترتني، وعلّمتني اسمك، ووصاياك، وكلمتك، وحبّك. اليوم، عرفتُ أنّ العالم يموت، ويتفتّت، وإنّني لَأشعر بهذا التّفتّت في نفسي، وأنا أموت في العالم عن العالم؛ لأنّك أنت علّمتني ذلك، إذ متّ لأجلي. وأنا عارف، يا ربّ، أنّ الأيّام ضيّقة، وأنّك ستأتي، بعد هذا الضّيق، لتدين العالم. ولكن، رجائي، يا ربّ، وصرختي إليك أن تغفر خطاياي، وخطايا هذا العالم، وتردّ هذا الأخير بكلّيّته إليك. أنت وحدك القدّوس القادر، يا ربّ، على أن تلمس كلّ هذه القلوب الحجريّة؛ لتأتي إليك، وتعرفك؛ فتهلّل، وتسبّح، وتفرح... سامحني، يا ربّ، إن قلتُ لك إنّني لا أريد أن يموت العالم. وإن زلزَلْتَ الأرض، وأسقطتَّ السّموات، والقمر، والشّمس، والنّجوم؛ فمدّ يدك العزيزة القويّة القديرة، واغترف العالم إليك، ليخلص كلّ الكون؛ حتّى يعرف جميع البشر أنّك أنت الإله القدّوس، أنت هو الفادي، أنت منبع الحبّ، أنت هو الحنان، أنت هو الرّأفة، أنت هو الغافر ذنوب العشّار، والزّانية، والسّارق، واللّصّ... اقبلني، يا ربّ، أنا الخاطئ؛ وكما غفرت خطاياي، وما زلت تغفرها، اغفر أيضًا خطايا هذا العالم. إنّني أقدّم آلامي وتجاربي قربانًا متواضعًا لخلاص عالمك. أنا الرّاهب الحقير الآتي إليك لتفتديني؛ فافتدِ بي شعبك، وخلّص كنيستك وعالمك؛ لأنّك أنت وحدك رحوم وغفّار الذّنوب!

١٥ شباط ١٩٩٥

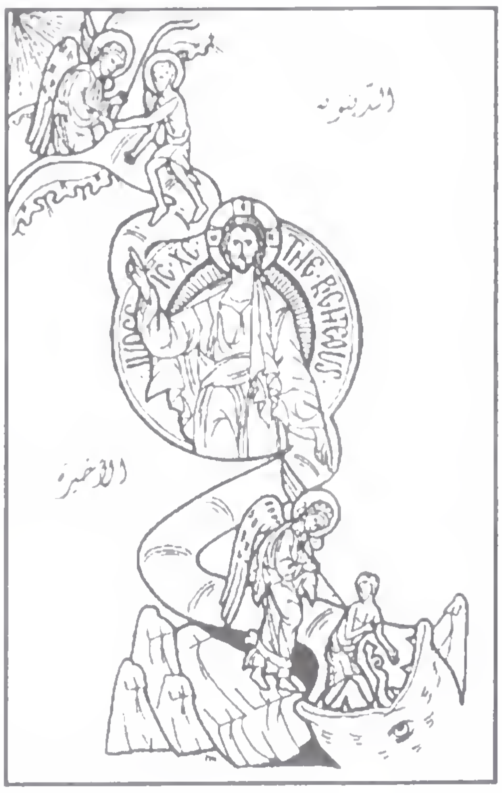

سرّ الشّفاء

(متّى٨: ١٤- ٢٣)
(رو٣: ٢٨- ٣١؛ ٤: ١- ٣)

هدف المسيح من مجيئه إلى الأرض واضح، اليوم. لقد أتى، من عند أبيه، عابرًا عبورًا على هذه الأرض؛ ليشفي البشريّة، ويخلّصها من سقطتها، ومن ثمّ يعود إلى أبيه. لذلك، قال: "للطّيور أوكار. أمّا ابن الإنسان، فليس له أين يسند رأسه" (متّى٨: ٢٠). هذه هي قصّتنا مع المسيح، الّتي لا نعرفها، إذ إنّنا كلّنا سمعنا عن المخلّص، في ماضينا، كلّ واحد منّا بحسب عمره. لكن، حتّى الآن، ما زلنا لا نعرف خلاص المسيح فينا.

في رسالة اليوم، تحدّث الرّسول بولس عن الخطيئة، وعن برّ الله فينا. لقد تكلّم على الخطيئة الّتي تشدّنا إليها، وقال إنّنا إن كنّا لله؛ فسنحيا. وإنجيل اليوم بدأ بالكلام على حماة بطرس الّتي كانت "ملقاةً محمومةً" مريضة؛ والمسيح، فقط، أتى ولمسها، وضع يده عليها؛ فقامت تخدمهم.

في الحقيقة، كلّنا مرضى. كلّ واحد منّا مُلقى، مثل حماة بطرس، محمومًا في فراشه، لا يستطيع أن ينهض. كلّنا مكبّلين بالخطيئة، وأيدينا وأرجلنا مثقلة بالعجز!... ونحن نعرف أنّ علينا أن نقوم. ولكن، عندما نُسأل عن سبب عدم قيامنا من عجزنا هذا، فإنّنا نكذب، ولا نقول الحقيقة، ونبرّر ذواتنا... نحن مرضى، وخطأة، ومكبّلون بالحمّى؛ لأنّنا نبرّر أنفسنا، ولا نحبّ المسيح كما ينبغي... مَن منكم يصمت، إذا سُئل "لماذا فعلتَ ذلك، ولِمَ تفعل ذاك؟"؟! أنا لا أرى فيكم الصّمت، إلّا نادرًا!... دائمًا أسمع تبريرًا. وما دمتم تبرّرون أنفسكم، فإنّكم ستبقون مصابين بالحمّى، مطروحين، مكبّلين... حماة بطرس لم تنطق بكلمة، في الإنجيل. غير أنّ المسيح دخل ورآها محمومة؛ فأبرأها... هكذا، علينا أن نحمل خطيئتنا، ونكون قابعين في قعر الجحيم، صامتين، مكبّلين بالحمّى، ساكنين، لا حراك فينا... نقرب الموت، ولا نموت؛ فيما الحياة الباقية فينا تنتظر المسيح!... إذ ذاك، إذا أتى

المسيح الرّبّ، ورآنا على هذه الحال؛ فإنّه ينتشلنا. هكذا، نقع، مرّة بعد مرّة؛ نُصاب بالحمّى، مرّة بعد مرّة؛ نقارب الموت، مرّة بعد مرّة؛ نختنق!... وفي كلّ مرّة، يأتي الرّبّ ويلمسنا. لكنّ الشّرط حتّى يلمسنا هو الصّمت العميق؛ وكأنّنا، في أعماق قلوبنا، نصرخ صرخة مكبوتة: "يا ربّ، أعنّا؛ فنحن ننتظر خلاصك! يا ربّ، لقد خطئنا إليك أكثر من الزّانية، لكنّنا ننتظرك!"...

هذا هو سرّ الشّفاء. إن أردتم، حقيقةً، أن تُشفَوا من خطاياكم، وسقطاتكم، وأوجاعكم؛ فاهدأوا فقط، وانزلوا إلى عمق البلوى. وإذ نسكن في الجحيم، نعرف أنّ الإله نزل إلى الجحيم، وأقام كلّ من فيه. نحن هنا لأنّه هو سبقنا إلى هذا المكان! هو هنا معنا، يحيط بنا من كلّ جانب، ويرعانا. لكن، هل هو، في الحقيقة، في قلوبنا؟! هذا هو السّؤال الكبير. لذلك، إن مرضنا، فنحن نصمت؛ وإن سقطنا، فنحن نصمت؛ وإن أخطأنا، فنحن نصمت، ولا نبرّر ذواتنا!...

تبرير الذّات هو عمل العقل الشّيطانيّ، وكأنّنا نقول:"لا خطيئة في ذواتنا"! إنّه نتاج "الأنا" الّتي فينا. أنتم لا تعرفون، حتّى الآن، أنّ "الأنا" هي موتكم! فقط، اصمتوا، ولا تبرّروا أنفسكم؛ حتّى يأتي الرّبّ، وينفخ فيكم روحه القدّوس؛ فتحيون! والرّبّ نافخ روحه القدّوس، في كلّ يوم، وكلّ ساعة، وكلّ لحظة؛ إذا وجد أنّنا قد أفرغنا ذواتنا من ذواتنا!

نحن نبقى في حالة التّقرّح وتعذيب أنفسنا، إذا برّرنا ذواتنا. ومع ذلك، في كلّ يوم، أسمع تبريرًا على ألسنتكم. إذا سُئلتم "لماذا تأخّرتم في صنع هذا؟"، تقدّمون تبريرًا؛ "لماذا تثرثرون؟"، تقدّمون تبريرًا؛ لماذا لم تفعلوا هذا؟"، تقدّمون تبريرًا!... أشتاق، بالنّعمة، إلى أن أحسّ بأنّ نفوسكم قد هدأت، وعندما تُسألون "لماذا؟"، يخيّم الصّمت العميق، والقول الصّامت: "لأنّي أنا خاطئ"، يخيّم الصّمت العميق واللّاجواب... هذه هي المرحلة الثّانية: ألّا نجيب. أمّا المرحلة الثّالثة، فهي الانحناء العميق: "كيف أعمل عملًا صالحًا، وأنا مجبول بالخطيئة؟!". المرحلة الثّالثة هي الانحناءة الصّامتة: "لأنّي أنتظر خلاص إلهي". أنتم لم تجرّبوا، بعد، المرَض الكبير، تلك الحمّى الّتي "ضربت" حماة بطرس، وهي ليست حمّى جسديّة وارتفاع حرارة الجسد، بل هي حمّى تعقّل العقل والقلب والكيان... إنّها حالة الموت الواعي، وكأنّنا لا نستطيع أن نمتدّ لنشفي أنفسنا، وليس باستطاعتنا أن

نصرخ: "اشفوني!". هذه الحالة هي حالة الشّيطان، الّتي تقبض علينا؛ لتميتنا! ولماذا نخاف؟! ألا نعرف أنّ الرّبّ هنا؟! ألا نعرف أنّه معنا، يحيط بنا، يضمّنا إليه؟! ألا نعرف أنّنا نتنفّسه في الهواء، وأنّه هو الهواء، وهو نقطة الماء، ولقمة الخبز، وهو الدّواء الّذي نتناوله؟!...

نحن أتينا إلى هذا الدّير، وكلّ الّذين تبتّلوا ذهبوا إلى المسيح؛ لأنّه هو صار لهم الكلّ في الكلّ. هكذا، إن نحن عرفنا أنّ الإله كلّ شيء، وإن استكنّا، وصبرنا، واستمررنا؛ فإنّنا نحيا له. المهمّ هو الصّبر والاستمرار: أنا عارف أنّك أنت الكلّ في الكلّ، ومتيقّن من ذلك؛ لأنّي قد ذقتك من قبل؛ فلن أنحرف عنك، لن أذهب عنك... لكن، إن سقطتُّ في ضعفي؛ فأعنّي، وانتشلني؛ وأنا أفعل، يوميًّا، ما تطلبه إليّ بالوصيّة الإنجيليّة؛ فوصيّتك هي أنت، وأنت وصيّتك، وأنا قد استنرت بضياء إنجيلك؛ فصرت أنت تحيا فيّ، ولست أنا، بعد، أحيا بالتّبرير!...

لماذا قال الرّبّ للّذي طلب إليه، في الإنجيل، أن يتبعه: "ليس لابن الإنسان مكان يسند إليه رأسه" (متّى٨: ٢٠)؟! لماذا قال "لابن الإنسان" ولم يتكلّم على نفسه، على الرّغم من أنّه هو خالق الكون كلّه؟! هذا لأنّه أتى من عند أبيه، ويريد أن يعود إليه؛ لأنّه انسلخ عن الثّالوث، وهو قائم فيه؛ لأنّه يريد أن يعود إلى الملء، وهو في الملء!... هذا هو سرّ التّجسّد، وسرّ الشّوق... لأنّه لبس البشرة كابن للإنسان، ليفتديه، حاملًا إيّاه إلى السّموات بصعوده!

إن أحببنا الرّبّ يسوع، فلا نستطيع أن نبتعد، ولو للحظة واحد، عنه؛ بل نذكر اسمه على الدّوام، ونراه في النّباتات والأرض، في المأكل والمشرب، في العمل، في كلّ شيء... وإذا ما تمّمنا عملًا ما، إنّما نتمّمه لكي نقدّمه إليه؛ لأنّه هو مالكه ومالكنا، لأنّه هو سيّده وسيّدنا، ونريد أن نعطيه كلّ ما أعطانا... هكذا، تميل نفوسنا إليه، فنعمل بدقّة وسرعة وانتباه؛ لكي نُرجع إليه كلّ شيء، ونقول له: "نحن نريد أن نراك، أن نتّحد بك بالصّلاة، بالرّكعة، بالهدأة، بتناول جسدك ودمك الكريمين... وإذ نحبّك كثيرًا، تعطينا هدأةً منك؛ فنضمّ الكلّ بحبّ واتّضاع ومسكنة، ونعامل الكلّ برفق؛ لأنّنا نلمسك في الكلّ، ولا نصرخ في وجه الآخر، ولا نستكبر عليه؛ لأنّك أنت الآخر، بل نضمّ الكلّ برفق، واتّضاع، ومسكنة، وتذلّل؛ لأنّك أنت قدّامنا في كلّ شيء، ونحن نريد أن نذهب إليك

بسرعة. لكن، إن لم نعرف أنّك أنت في كلّ شيء من حولنا: في الطّاولة والكرسيّ والفراش، في الشّراب والماء والطّعام، في الحجارة، في الزّرع، في الخياطة، في كلّ شيء، وأنّك أنت كلّ شيء؛ فلن نعرفك عندما نذهب إليك!...

لذلك، نحن نميل إلى المسيح، ونسير نحوه بسرعة، لا ببلادة؛ فلا يبقى وقت للثّرثرة، إنّما فقط للتّسبيح، لذكر اسم الرّبّ يسوع. هناك نَفَس يخرج من صدورنا ويذهب إليه، لكي نعود ونتنفّسه من جديد؛ فنحيا!...

هذه الأرض ليست لنا. إنّها من صنع الله، وقد أُعطيت لنا؛ حتّى تكون مكان تدريب لنا. نحن، هنا، في فترة تدريب، في فترة حركة وتوق إليه. هذا هدف حياتنا، على الأرض: نبقى متروكين، مطروحين في الحمّى... وإن استكنّا، يأتي المحبّ الكبير، ويقيمنا لكي نخدمه؛ فنقوم من الحمّى الّتي تشلّنا، فقط لكي نتعرّف إليه ونخدمه؛ فنصبح من صحبه، ونستخدم كلّ ما أعطانا، على هذه الأرض، لكي نمجّده في كلّ شيء، ولا نسند رؤوسنا إلى هذا الكون، ولا نرتاح له؛ لأنّنا نتبع المسيح، لأنّنا نعرف أنّ الملء هو عنده!... هو يعزف بمزماره، ويمشي أمامنا، ونحن نطير إليه!... وكلّما تطهّرنا من خطايانا، صار لنا أن نطير إليه، ونُحمل إليه بروحه القدّوس؛ حتّى نصل إلى قيامته في فردوسه، ونُلقي رؤوسنا عند قدميه! وإن هو ارتضى ذلك، فعلى صدره نسند رؤوسنا مثل حبيبه يوحنّا!... ألا أعطانا الله ألّا نسكن، إلّا في كلمته؛ وعلى كلمته نسير، ونلقاه هنا، ونتوق إلى اليوم الأخير حيث الملء!...

٨ تمّوز ١٩٩٥

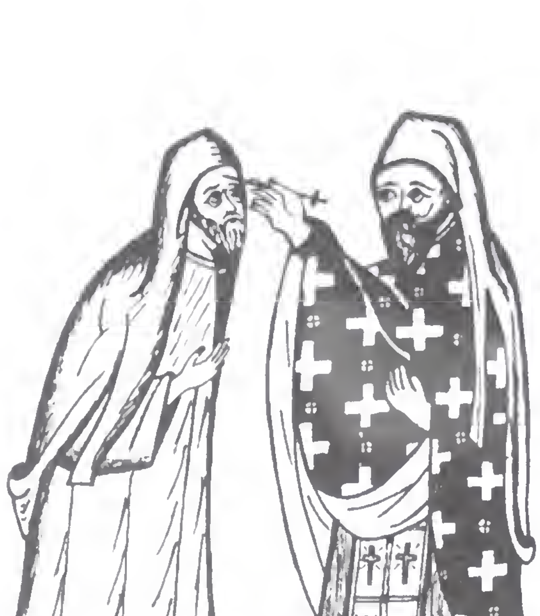

لصحّة النّفس والجسد

تجربة السّلطة!

(متى١٣: ٣١- ٣٥)

إنجيل اليوم هو لنا! في الحقيقة، كلّ إنجيل هو للمؤمن، لكنّ إنجيل اليوم هو لنا نحن، في عائلة الثّالوث القدّوس هذه. إنّه يخبرنا عمّا نحن غارقون فيه، حتّى تهدأ قلوبنا في داخلنا، في هذه العاصفة القويّة جدًّا الّتي تضربنا، وتحاول اقتلاع عائلتنا، وتفتيتها!...

الخطر شديد، والنّقمة قاسية! فالكلّ بدأ يتحرّك ضدّنا؛ لأنّنا لم نعطهم كاهننا، لأنّنا لم نسلمهم أبانا! لكن، لا بأس! فالرّبّ معنا، والعذراء حاضنتنا، والسّابق الكريم هو سيحمينا بمنجله، ويقطع دابر كلّ عدوّ يريد أن "يضربنا". والقدّيس سلوان يقول لنا اليوم، من السّماء: "احفظوا أذهانكم في الجحيم ولا تيأسوا!". فلنحفظ، إذًا، قلوبنا عند الله، وأذهاننا في جحيم هذا الوجع الأليم، الّذي ينقضّ علينا من الكنيسة، من أبناء الكنيسة نفسها، ومن أسيادها!...

نحن، اليوم، أمام هذا المثل: "يشبه ملكوت السّموات حبّة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله" (متى١٣: ٣١). وحبّة الخردل هي أصغر الحبوب كلّها. هكذا نحن، الرّهبان، أصغر البشر كلّهم! نحن "لا شيء" في عيون البشر، ولا نريد أن نكون شيئًا في عيونهم. إنّنا نصغر، ونصغر بالإرادة، والتّذلّل، والانكسار، والتّواضع، وقطع المشيئة الذّاتيـة، والبكاء، والصّوم، والمطّانيّات، والأسهار... أي بالتّوبة؛ لكي يذوب هذا الكيان، وتذوب هذه النّفس الحاملة خطيئة آدم، ويبقى روح الرّبّ في داخلنا؛ ليحكم فينا، كما قال الرّبّ يسوع، اليوم؛ لكي يبقى روح الرّبّ ساكنًا فينا. وهذه الأرض لنا، الرّبّ وَضَعَنا فيها، بصلوات الآباء القدّيسين؛ فإن بكينا، وتذلّلنا، وثبتنا؛ فلا أحد يستطيع أن يقتلعنا. هنا زُرعنا، حتّى نمو بروح الرّبّ، بسقي ماء الرّبّ، ببركة الرّبّ، بدمائه، بالماء المنسكب من جنبه، لكي يغسل التّربة وهذه البذرة، لكي نمو ببطء؛ فنصبح شجرة مُحِبَّةَ العطاء الرّوحيّ؛ فتأتي عصافير كلّ هذه المنطقة لتستظلّ تحتها!...

نحن اليوم في خطر! يريدون أن يقتلعوا هذه الحبّة الّتي زرعت. لكن، في الحقيقة، إذا أصبحنا صغارًا مثل حبّة الخردل؛ فلن يقدروا علينا! الإنسان يشقّ الطّرقات، ويفتّت الصّخور. لكن، كيف يمكنه أن يسحق حبّة خردل صغيرة؟! إنّه يرذلها، ولا يراها؛ فيعبر عنها! ربّما هذا هو المطلوب، الآن. لذلك، يسمح الرّبّ بأن نمرّ بهذه التّجربة! فلْنصِر، إذًا، كحبّة الخردل! وبعد أن ننمو بروح الرّبّ، نصير خميرة تخمّر عجينة هذه الكنيسة، الّتي لا تحبّ الرّهابين، ولا الرّهبنة، ولا تدعمها، ولا تسأل عنها... الجميع يسعى للكِبَر المبنيّ على الأفعال، والمظاهر، والأشكال... لكنّهم لا يبحثون عن الّذين تجفّ عيونهم، في اللّيل، بسبب البكاء، والخوف على أنفسهم، وعلى العالم بأسره.

اليوم، ونحن ننتظر أن تعبر هذه الكأس عنّا، نصلّي أن يحفظ الله أبانا، ويحفظنا جميعًا حبّةَ خردل، خميرةً؛ لكي نصبح شجرة بالنّعمة الإلهيّة، وبالاتّضاع، والصّلاة، والدّموع، والحبّ... فنصير شجرة يستظلّ المؤمنون بظلّها، وننعجن بعجين كنيسة المسيح؛ لكي ننمو بها، وتنمو بنا؛ فلا يجرؤ الشّيطان علينا، فيما بعد؛ لأنّنا نصير كلّنا حبّة واحدة، وخميرة واحدة؛ فلا نكون، بعد، أجزاء، وحدات، أرقامًا، بل واحدًا أحدًا! كنّا كذلك؛ لكنّنا، اليوم، عرفنا أنّنا واحد، بإزاء هذا الألم الكبير، وهذا الوجع الّذي يريد أن يفتّت عائلة الثّالوث القدّوس! لكنّ ما زرعه الله لا يستطيع أن يقتلعه إنسان. والله قد زرعنا، هنا، بصلوات أبينا صفروني وقداسته، وببركة القدّيس سلوان؛ فلنبتهل إليه، لكي يحفظنا ويحفظ أبانا، ولكي نصبح خميرة، وحبّة خردل، بصمت، وجهاد، وقوّة، واتّضاع، ومسكنة... كلّما أصبحنا صغارًا، ضعف اقتدار العدوّ، وصار لا يقوى علينا.

تعالوا، إذًا، نلتئم وحدة لا تتجزّأ؛ لأنّنا على الرّبّ اتّكلنا، وعليه وضعنا رجاءنا؛ ووالدة الإله ستحفظنا، إذ ليست أمامنا أمّ سواها؛ والسّابق سيسحق الشّيطان؛ والقدّيس سلوان سيعلّمنا كيف نحفظ أذهاننا في الجحيم من دون أن نيأس!... ألا أعطانا الله أن نستمرّ بهذا الجهاد، لكي لا نخزي رجاءه فينا!...

١٩ تمّوز ١٩٩٥

أين يسكن يسوع؟

(متى١٤: ٣٤- ٣٦، ١٥: ١- ١١)

هناك أناس كثيرون يبحثون عن يسوع. كلّ مَن سمعوا به تساءلوا: "مَن هو هذا؟!"، لأنّ النّاس يريدون أن يعرفوا مَن يشفي المرضى، ويطرد الشّياطين، ويقيم الموتى... وفي إنجيلنا، اليوم، يفصّل لنا الرّبّ يسوع نوعين من هؤلاء النّاس الّذين تبعوه:

أوّلًا، هناك رجال أرض جنّيسارت – أرض جنّيسارت هي مكان صغير بعيد عن أورشليم، تسود فيه الظّلمة وظلال الموت. وهي لم تقتبل الإيمان، أوّلًا، لأنّ الرّبّ يسوع لم يولد فيها – هؤلاء الرّجال الغرباء، إذًا، سمعوا أنّ يسوع قد أتى إلى أرضهم؛ فأرسلوا إلى الكورة المحيطة خبرًا، هو خبر الشّفاء، خبر الحياة الجديدة، خبر الخروج من الخطيئة والنّجاة من الموت، خبر الخلاص، خبر مَن أتى ليرحم النّاس. لقد أتى المخلّص، أتى الشّافي، أتى الّذي يقتلعنا من أرض الموت الّتي حيينا فيها، كلّ أيّام حياتنا؛ فهرع إليه كلّ مَن به سوء، كلّ من به علّة، كلّ مَن به مرض، نفسيًّا كان أم جسديًّا؛ إذًا، كلّ النّاس، في تلك البقاع، قد أتوا إليه. مَن منّا ليس بمريض؟! مَن منّا لا يحمل سوءًا، أو مرضًا، في جسده، أو في نفسه، أو في كيانه كلّه، أو في روحه؟! هكذا، الكلّ هرعوا إليه؛ فشفاهم. ولكن، كيف شفاهم؟!

أولئك النّاس، لأنّهم عرفوا أنّهم ليسوا من أورشليم؛ إذًا، ليسوا من الخاصّة، ليسوا من الجماعة الّتي تتحلّق حول الرّبّ يسوع، ليسوا من الكهنة، ليسوا من عظماء الكنيسة؛ لأنّهم عرفوا أنّهم بشر بسطاء، خلقهم الله، ونفخ روحه فيهم، فعاشوا في الخطيئة، وأصبحوا سلالة آدم السّاقط؛ لأجل كلّ ذلك، أتوا من مدينة متروكة، وطلبوا الشّفاء، فقط، بلمسهم هدبَ ثوب الرّبّ. وكلّ مَن لمسه شفي! هؤلاء، إذًا، عرفوا قيمة أنفسهم، عرفوا أنّهم خطأة، وأنّهم مجبولون بالحقارة، والتّواضع!... ولم يدّعوا معرفةَ الكتاب المقدّس، والشّريعة، والتّعليم، والأحكام... ولم يدّعوا أنّهم سينَهَضون، وسيُنهِضون الإيمان

معهم؛ لا بل عرفوا حقارتهم، وأنّهم أتوا من أرض هي أرض الموت! لكنّهم عرفوا أيضًا أنّهم أتوا إلى الحياة؛ لذلك، طلبوا، فقط، أن يلمسوا أطراف ثوب الرّبّ! ولو لمسوا أذيال الرّبّ يسوع، لَشفوا؛ لأنّ أذياله هي عبارة عنه هو بعينه.

ثانيًا، يقول الإنجيل: "حينئذٍ، دنا إليه كتبة وفرّيسيّون الّذين من أورشليم قائلين..." (متّى١٥: ١). إذًا، هناك "جنّيسارت"، موطن الخطأة؛ و"أورشليم"، موطن الفرّيسيّين. في جنّيسارت، نادى النّاسُ في الكورة: "لقد أتى المخلّص الشّافي، فتعالوا لنلمس هدب ثوبه"! أمّا هؤلاء الكتبة العظماء، في عيون أنفسهم، الّذين أتوا من أورشليم – مركز الشّريعة، مدينة الله؛ فأتوا إلى يسوع، لا ليطلبوا الشّفاء؛ إذ إنّهم يظنّون أنّهم بلا خطيئة؛ فهم لا يشعرون بخطاياهم؛ لذلك، سيموتون فيها! إنّما أتوا إليه ليحاكموه، ليقاضوه! لقد وضعوا أنفسهم في مستوى يسوع؛ فارتقوا من أذياله إلى وجهه، وتجرّأوا عليه سائلين: "لماذا يتعدّى تلاميذك تقليد الشّيوخ؟!" (متّى١٥: ٢). قالوا له: "تلاميذك"، ولم يقولوا "أنت"؛ لأنّهم ما كانوا ليفهموا أنّ تلاميذ المعلّم هم المعلّم نفسه، هو ينطق بهم، وهم روحه!...

هكذا، بدأ الفرّيسيّون ينتقدون يسوع قائلين: "إنّهم [أي التّلاميذ] لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزًا" (متّى١٥: ٢)؛ فأجابهم يسوع ليؤدّبهم، قائلًا: "وأنتم أيضًا لماذا تتعدّون وصيّة الله بسبب تقليدكم، فإنّ الله أوصى قائلًا: أكرم أباك وأمّك... (متّى١٥: ٣- ٤) [إنّ غسل الأيدي ليس تعدّيًا. هذا تصرّف خارجيّ بسيط. أمّا أنتم، الّذين تدّعون أنّكم أوصياء الشّريعة، فتتعدّون وصيّة الله الّذي قال: أكرم أباك وأمّك]". لقد ناقضهم، ونقض شريعتهم، وأظهر لهم خطيئتهم بأنّهم لا يكرمون أباهم وأمّهم! وكان بذلك يتكلّم على الآب السّماويّ، لا على الأب الجسديّ. أمّا هم، فكانوا يهتمّون بالدّنيويّات، بالأب الجسديّ، والعلاقات الاجتماعيّة... فأجابهم: "[أنتم] أبطلتم وصيّة الله [بعدم إكرام الأب والأمّ] بسبب تقليدكم". الله يشير، هنا، إلى إكرام الآب السّماويّ ووالدة الإله –ُ أمّ السّماء والأرض. هو ينوّه بذلك، ويشير إليه، ولو من بعيد. لقد أجابهم، وبإجابته كأنّه صفعهم على وجوههم... ثمّ شتمهم قائلًا: "يا مراؤون" (متّى١٥: ٧)! إنّ أقسى شتيمة تُوجّه إلى الإنسان هي شتيمة الرّياء. والمراؤون هم النّاس الّذين يُظهرون خلافَ ما يضمرونه، ولا يهتمّون إلّا بالأشكال والأفعال الخارجيّة، ولا ينظرون إلى القلب.

هؤلاء كانوا حول الرّبّ يعلّمون، لكنّ روح الله لم يكن فيهم؛ لذلك، كانوا يقاضون الرّبَّ، وتلاميذَه، والمسكينَ، والفقيرَ، والمحتاجَ... ويصنّفون البشر بحسب المدن الّتي يأتون منها، والطّعام الّذي يأكلونه، وبحسب أفكارهم، وكيفيّة تبخترهم في الأسواق والمجامع!... هؤلاء لم يعرفوا الله بقلوبهم، بل بالشّكل، بالأحكام والقوانين، وقد قال الرّبّ عنهم: "يا مراؤون، حسنًا تنبّأ عنكم إشعياء النّبيّ قائلًا: يقترب إليّ هذا الشّعب بفمه؛ ويكرمني بشفتيه؛ وأمّا قلبه، فمبتعد عنّي بعيدًا. وباطلًا يعبدونني وهم يعلّمون تعاليم هي وصايا النّاس" (متّى ١٥: ٧- ٩).

"يا بنيّ، أعطني قلبك" (أم٢٣: ٢٦)؛ فالمسيح أتى إلينا قلبًا من قلب الله، ليغيّر قلوبنا الحجريّة، ويخلق قلوبًا لحميّة تنبض بدم السّيّد، وتنطق باسمه، وتحبّ أعماله في البشر، وفي كلّ المسكونة. لذا، ذُبح الرّبّ؛ لكي يسقينا دمه؛ فيصير هذا القلب الحجريّ، في داخلنا، قلبًا لحميًّا مملوءًا بدم الرّبّ. لهذا، نحن نتناول جسد الرّبّ؛ لكي يصير فينا جسدُ الرّبّ، لكي يصير فينا روحُ الرّبّ، لكي نصير وإيّاه واحدًا؛ فنصبح محبّين لكلّ إنسان، متّضعين، غافرين، مسامحين، فاهمين، غير ديّانين، منكسرين، مصلوبين!...

"ثمّ دعا الجمع وقال لهم: اسمعوا وافهموا. ليس ما يدخل الفم ينجّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجّس الإنسان" (متّى١٥: ١٠- ١١)، وكأنّه يقول لهم: إن غسلتم أيديكم أو لم تغسلوها، وإن صلّيتم ساعات طويلة، ووقفتم في المعابد، وكتبتم باسم الرّبّ، وعلّمتم، وفقّهتم، وحملتم كلّ الكتب والنّواميس ووضعتموها قدّام الرّبّ... وليست في قلوبكم محبّة؛ فكلّ ما تصنعونه هباء وقبض الرّيح، إذ "ليس ما يدخل الفم ينجّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجّس الإنسان"!...

إذًا، أيّ نوع من البشر نريد أن نكون، نحن الرّهبان، أولاد عائلة الثّالوث القدّوس؟! لقد خرجنا من الظّلمة وظلال الموت، وأتينا إلى هنا؛ كي نلمس ولو هدب ثوب سيّدنا، لكي نلمس بشفاهنا ولو المكان الّذي داسته قدماه؛ حتّى نشفى، لأنّ الرّبّ يترك الشّفاء أينما مرّ!... هذا نحن، وهذا ما نريد أن نكون عليه؛ فلا يُغرينّنا أن نكون من أخصّاء الّذين يدّعون المعرفة، فيما هم يتكلّمون على النّاس، ويشتمونهم، ويحاكمونهم!... لا، لسنا نريد أن نكون من أولئك، ولا نريد أن نكون ديّانين لهم؛ فنحن لم ندنهم البارحة،

ولن نفعل اليوم، في هذه الأيّام العصيبة الّتي نمرّ بها!

ما أشعر به، في أعماق قلبي، هو القول: "اغفر لهم، يا أبتاه، لأنّهم لا يدرون ماذا يفعلون" (لو٢٣: ٣٤)! أمّا نحن، فإنّنا نطلب الشّفاء بك، بهدب ثوبك، بالسّكنى معك متذلّلين، مسحوقين، "لا هيئة لنا، ولا منظر يُشتهى"، كما كنتَ أنتَ، لا كما يريدوننا هم أن نكون من عظماء هذا الدّهر! لهذا، أتينا إليك، اليوم؛ لنحقّق قصدنا، رهبنتنا، توقنا، شوقنا!...

أنت هو الملء! والملء هو في الدّير، وفي القلب المتسامح، والمتّحد بدم الرّبّ، والنّابض روحًا من روحه، وماءً يغسل خطايانا وخطايا العالم! نحن هنا، كي نبكي على خطايانا وخطايا جميع الشّعب! ألا أعطانا الله ألّا نتمسّك بالقشور، ألّا نتمسّك بغسل الأيدي، بل بغسل القلوب، والنّفوس، والأذهان، والكيان كلّه، بلمسنا ولو هدب ثوب ربّنا!...

٢٦ تمّوز ١٩٩٥

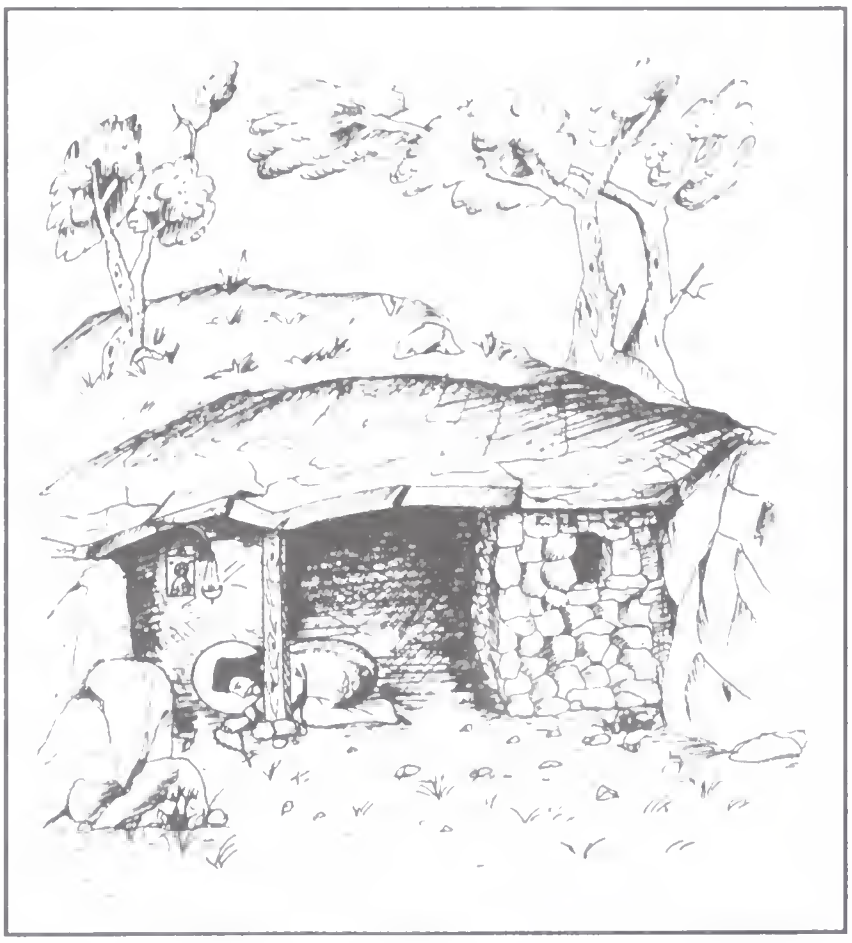

الشّـــــهادة

(متّى١٦: ٢٠- ٢٤)
(أع٦: ٨- ١٥؛ ٧: ١- ٥، ٤٧- ٦٠)

إنّني أشعر بأنّ هذا اليوم هو يوم عيد الشّهادة؛ إذ إنّ الإنجيل والرّسالة يتمحوران حولها. في الإنجيل، "بدأ الرّبُّ يسوع يُظهر لتلاميذه أنّه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم، ويتألّم كثيرًا..." (متّى١٦: ٢١). أمّا الرّسالة، فتتكلّم على شهادة استفانوس رئيس الشّمامسة.

بالنّسبة إلينا نحن، فإنّنا نمرّ، في هذه الأوقات، بآلام شهاديّة، كالآلام الّتي مرّ بها الرّبّ يسوع المسيح، أو كتلك الّتي مرّ بها القدّيس استفانوس. آلامنا، في هذه الفترة، هي لكي نبقى مُخلصين للوعد الّذي قطعناه، بأنّنا سنبقى رهبانًا للسّيّد، نبشّر بكلمته، نحيا مثله، نبكي خطايانا، نعزّي المحزونين، نسقي العطاش، نطعم الجياع!... لكنّ العالم – حتّى عالم الكنيسة – لا يُقيم للرّاهب اعتبارًا!!

الرّاهب مرميّ، لا هيئة له، ولا وجه، ولا منظر؛ فالكلّ يقول عنه: "ما لهذا؟! ماذا يفعل؟!" ولا يعلمون أنّ الرّاهب يحيا لأجل المسيح، لا بل يحيا المسيحَ، يحيا حياةَ المسيح، بفقره، واتّضاعه، وعفّته، وصبره، وطول أناته!... الرّاهب يُعيد المسيح إلى المجتمع، فيما العالم يريد، فقط، أن يتحدّث عن الله، لا أن يحيا الله! الرّاهب يأتي إلى الدّير، لكي لا يكون ثقيلًا على العالم، ولكي يكون مفتقرًا إلى الرّبّ، يحارب ذاته حتّى لا يطيع أهواءه ومشيئته، بل يطيع الله في كلمة إنجيله، ولكي يتعلّم كيف "يكسر" أنانيّته، ساحقًا أهواءه، مفتّتًا إرادته، واعيًا أنّه لا يساوي شيئًا، وأنّه ممتلئ من الخطايا، وأنّ هدف حياته كلّها هو أن يتنقّى من خطيئته!! وبعد الأصوام والجهادات النّسكيّة، يكتشف أن لا عطيّة له من ذاته، بل كلّ شيء من الله؛ فيبدأ بتعلّم الحبّ الإلهيّ الكبير... هذا كلّه وجع في ضمير العارفين، لأنّ الكنيسة تصنّف الرّاهب في مرتبة أدنى من مرتبة الكهنة والأساقفة؛ إذ

إنّها لا تعرف أنّه، على مثال المسيح، يعلّم بحياته، ولا يعلّم بأقواله!... فالرّبّ يسوع المسيح بشّر كثيرًا، وقال أقوالاً كثيرة، لكنّه فعل ما هو أكثر من الأقوال: لقد صُلب من أجل خلاص العالم، فيما فكر العالم يأتينا بقول بطرس: "حاشاك، يا ربّ، لا يكون لك هذا! [حاشاك، يا ربّ، أن تُعذّب وأن تُقتل! فزجره الرّبّ قائلًا]: اذهب عنّي، يا شيطان"، [ودعني أذهب إلى صليب الحبّ، إلى صليب الشّهادة، لأجل خلاص كلّ العالم!]" (متّى١٦: ٢٢- ٢٣). كذلك استفانوس، كان يشفي المرضى، ويقيم الموتى، ويعلّم؛ فاحتقره الشّعب، وظلمه، وقتله رجمًا! إذًا، "لا كرامة لنبيّ في وطنه" (يو٤: ٤٤)، كما قال السّيّد، ولا كرامة للرّاهب في كنيسته! فالرّاهب يؤلم المتكلّمين، بصمته؛ والأغنياءَ، بفقره؛ وأصحابَ السّيادة، بهدأته وطاعته!...

هكذا، نحيا، اليوم، كأنّنا نبدأ بشهادة جديدة في الإنجيل ومع الرّبّ يسوع؛ فنحن اخترنا الطّريق الضّيقة، يوم اخترنا عائلة الثّالوث القدّوس؛ واخترنا فكر الشّهادة، يوم اخترنا فكر أبينا صفروني، كما اخترنا أن نُجرَّح، ونُلطَم، ونُرجَم!... وهذه حالنا، اليوم، لأنّنا نريد أن نحقّق أمانتنا؛ فنحن نُلطم، ونُرجم، والكلّ يسعى، جاهدًا، ليجد ما يعاقبنا عليه؛ لأنّنا نقدّم أنفسنا قربانًا!...

صلاتي، اليوم، من أجل كلّ واحد منّا، في هذه العائلة، أن يفرح بالشّهادة، ويستحلي الشّهادة، ويسكن في الشّهادة؛ لكي يسكن الطّريقَ إلى أورشليم، وصليبَ الرّبّ يسوع! صلاتي ألّا نخور، أو نضعف، أو نتوانى؛ بل نثبت في الحبّ الإلهيّ، واثقين بأنّ الله سيقيمنا شهودًا وشهداء، كما أقام استفانوس، وكما قام هو أيضًا، وأقام شهداءه وأنبياءه!...

فاثبتوا، إذًا! فلْنثبت كلّنا في الطّاعة لنذورنا، ولمجيئنا إلى الدّير، هنا؛ فبالطّاعة نأتي إلى الرّبّ، ونصعد معه إلى الجلجلة وعلى الصّليب، ومن هناك نقول، كما قال هو: "اغفر لهم، يا أبتاه، لأنّهم لا يدرون ماذا يفعلون" (لو٢٣: ٣٤)، وكما قال القدّيس استفانوس، عندما كان يُرجم: "لا تُقم لهم هذه الخطيئة" (أع٧: ٦٠)! حينئذٍ، يقيمنا معه في قيامته، وبنا ومعنا كلّ الّذين نصلّي لأجلهم!...

٢ آب ١٩٩٥

بيتي بيت الصّلاة✠

(متّى ٢١: ١٢- ١٩)

في زمن المسيح، كان يأتي إلى الهيكل باعةُ حمام يبيعون ويشترون، وصيارفة أيضًا يتعاطون المال. من هم هؤلاء، اليوم، في كنيستنا؟ وكيف نفسّر هذا الإنجيل؟

عندما أخرج الرّبّ الجميع من الهيكل، قال لهم: "بيت أبي بيت الصّلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" (متّى ٢١: ١٣). الحقّ أقول لكم إنّ هؤلاء الصّيارفة وباعة الحمام الّذين يبيعون ويشترون، في الهيكل، هم نحن؛ إذ إنّنا ندخل بيتَ الله، الّذي هو بيت الصّلاة، ولا نصلّي! ندخل بيتَ الله وأفكارنا منشغلة بما سنعمله اليوم، أو ما عملناه البارحة! ندخل بيتَ الله ولا نستجيب لمفاعيل الصّلاة فينا، ولا نعي أنّنا، عندما نرفع الأيدي والقلب والكيان إلى الرّبّ يسوع، فإنّه يأتي ويسكن فينا، يجمّلنا، يلطّفنا، يهدّئنا، ينقّينا، ينظّفنا من كلّ شائبة!... نحن نأتي إلى بيت الله، ونبقى ممتلئين كبرياء، ولا نريد أن نتخلّى عنها، ونبيع ونشتري أنانيّاتنا، ونقايض بكراماتنا: "هذا الأخ أعرض عنّا، تلك الأخت غضبت علينا، لم يُحسب لنا مركز، لم يُعِرنا الآخرون انتباهًا..."! وتمرّ أوقات الصّلاة، وتمرّ الكلمات، من دون أن ننفتح كما ينفتح تراب الأرض الجيّدة؛ فلا تسقط بذور النّعمة الإلهيّة علينا، ولا نستقبل ندى الرّبّ دموعًا من دموعنا؛ فنبقى حجارة قاسية، وكتلةً من الأنانيّات، والحسد، والحرد، وعدم الطّاعة، والغضب، والانزعاج ممّن حولنا!... لقد صرنا كهؤلاء الّذين يبيعون ويشترون في هيكل الرّبّ، والرّبّ لا يريد بشرًا على شاكلتهم في هيكله! لا يريد صيارفة يتقاضون: "إذا أنت تكلّمت جيّدًا؛ فأنا أحبّك، وأبتسم لك، وأعاملك جيّدًا؛ وأنسى أنّك أخي، وأنّ الله وضعك أمامي، وعليّ أن أسجد قدّامك... أنا لا أخطئ، فيما أنت تخطئ، أنا ذو مسؤوليّات أكثر، أنا أفضل، أنا أرتّل، أنا أتكلّم مع الضّيوف، أنا أستقبل، أنا... أنا..."! هكذا، نصير أناسًا يبيعون، ويشترون، ويتقاضون!...

✠ متّى ٢١: ١٣.

أمّا الله، فيصبر علينا يومًا، يومين، سنة، سنتين، ثلاث سنوات... لكنّه، في النّهاية، يقول لنا: "بيت أبي بيت صلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" (متّى ٢١: ١٣)، إذ إنّ كلّ شيء يسرقنا من الصّلاة: يُطلب إلينا، مثلًا، أن نقرأ، فلا نقرأ؛ أن نصلّي، فلا نصلّي؛ أن نرتّل، فلا نرتّل؛ أن نسجد، فلا نسجد؛ أن نحبّ، فلا نحبّ؛ أن نسمع كلمة الله حتّى تفعل فينا، فلا نسمع!... طول اليوم، ندور حول أنفسنا، حول ما نريده نحن من الله، لا ما يريده هو!... وما النّتيجة؟! يأتي الرّبّ ويديننا! والرّبّ يحاسب الرّهبان أكثر من جميع النّاس! وبعد ذلك، يلتفت إلى الكهنة، والمطارنة، والعلمانيّين... وهو يحاسب الرّهبان أشدّ الحساب؛ لأنّه اصطفاهم له من بين جميع النّاس، وأتى بهم إلى خدره، إلى مسكنه، إلى منزله العجيب، إلى فردوسه، إلى ملكه؛ ووضعهم هناك لكي، يطعمهم مأكله، ويسقيهم مشربه، وينظّف قلوبهم، وعقولهم، ونيّاتهم!... لكي يخطبهم، ثمّ يجعلهم عُرسًا وعرائسَ لنفسه، لروحه القدّوس!... لأنّهم زُذلوا، وافتقروا، وصيّرهم النّاس مثله لا وجه لهم، ولا منظر! ولكن، إذا لم نكره خطايانا وذواتنا، وإذا لم ننكسر، ولم نتفتّت حتّى ينفخ الله القشور، كما ننفخها عن القمح ليطير ويبقى القمح؛ فسنبقى في أوساخنا، في حجارتنا، في زؤاننا، في قشورنا... فيما نحن قد أتينا إلى بيت الله، لكي نرفع كياننا بكلّيّته حتّى تدخل نعمة الله فيه، وتنقّي هذا البيدر الّذي هو نحن!

كلّ مَن يحبّ الله، يطلب التّنقية. كلّ من يرفع يديه للصّلاة عن حقّ، يسأل "القصاص"، إذا أخطأ، ويسأل التّنقية؛ لأنّه يعرف أنّه وسخ، وأنّ العدوّ قد تسلّل إلى نفسه، كما يتسلّل الزؤان إلى القمح، وهو قد رأى أنّ الزّؤان ينبت؛ لكنّه يريد أن يتخلّص منه، ليبقى القمح، الّذي يقدّمه بركة زرعه إلى سيّده. كيف لنا أن نعرف هذا؟! وكيف نصل إلى هذه المرحلة؟! نصل إلى هذه المرحلة، حين نعرف، بكياننا، بداخلنا العميق، بخلايانا، بأفكارنا، بقلوبنا، بأعراقِنا، أنّنا خطأة، وأنّ العدوّ قد بثّ سمّه فينا!... وهذا لا يتمّ لنا، إلّا إذا عرفنا أنّ الله هو الكائن الحيّ وحده، وأنّنا مخلوقاته ومن صنع يديه، وأنّنا مجبولون من تراب، وسنعود إلى التّراب، ولن يبقى إلّا الرّوح لنقدّمه إلى ربّنا وسيّدنا... وهذا الرّوح لا نقدّمه مرّة، فقط؛ إنّما هو تقدمة كلّ يوم، وكلّ ساعة، وكلّ لحظة. فإن لم نرفع الكيان إليه، صباح كلّ يوم، في قلالينا، ثمّ في الكنيسة، وبعد ذلك في العمل، وحين

نعود، في أوقات راحتنا اللّيليّة، إلى قلالينا... إن لم نرفع روحنا إليه بالصّلاة، ومحبّة الآخرين، وخدمتهم؛ فإنّ حياتنا لا تنفع شيئًا؛ لا بل يصبح كلّ ما نفعله دينونةً لنا، لأنّنا نفتخر، ونظنّ أنّنا نقدّم إليه إنجازات عظيمة من طعام، أو شراب، أو عمل...

انظروا إلى أنفسكم جيّدًا، ومحّصوا قلوبكم؛ فقد أتيتم إلى الدّير حبًّا بالله! لكنّ هذا القلب فيه فكر يُلحّ طالبًا: "أنا أريد أن أصبح ذا شأن في الدّير. أنا أتيت إلى الدّير لأصبح قدّيسًا، لأصبح معلّمًا للكلمة، لأصبح مسؤولًا عن التّرتيل، لكي أظهر، لكي أبني، لكي أطبخ، لكي أخيط، لكي أستقبل الضّيوف..."! هنا يكمن جهاد كلّ واحد منّا، في ردّه على هذا الفكر بالقول: "لا، لقد أتيت إلى الدّير لأشفى!"... هذا هو الموضوع الأوّل، الّذي تحدّث عنه إنجيل اليوم.

أمّا الموضوع الثّاني الّذي يتحدّث عنه، فهو أنّ "[عُميًا وعُرجًا تقدّموا إليه] في الهيكل؛ فشفاهم". إذًا، إن أتينا إلى الدّير حاملين إنسانَنا العتيق، لنحيا به في بيت الله؛ فالرّب سيقلب علينا الموائد، لأنّنا صرنا صيارفة في بيته! أمّا إذا أتينا عرجًا وعميانًا، باتّضاع وانكسار، صارخين: "نحن لا نرى الحقيقة! نحن لا نراك، ولا نستطيع أن نأتي إليك! لقد خلّعتنا الخطيئة، وربطت أيدينا وأرجلنا،؛ فأنت حلّنا لنأتي إليك! أَسْمِعْنا صوتك، يا ربّ، فإنّنا إليك نلتجئ!"... إذا فعلنا ذلك، وأردنا الشّفاء حقًّا؛ فالرّبّ سيشفينا. هو يذهب ويتركنا، لكنّه يعود إلينا، طالبًا الثّمار؛ فإذا كنّا صيارفة وباعة حمام، يقلب موائدنا، ويقول لنا: "أنتم خطأة، وأهلكم وعشيرتكم وماضيكم أيضًا". أمّا إذا أتينا إليه عُرجًا وعُميًا، فنشفى. لكن، ماذا نفعل، بعد الشّفاء؟! انتبهوا؛ فالشّفاء ليس مرحلة نهائيّـة؛ لأنّنا، إن شُفينا ولم نعمل، يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، لكي ننمّي ثمار الحبّ الإلهيّ الّذي أُعطيناه بالشّفاء؛ فإنّ الشّيطان يعود إلينا بوجع أكبر، وأشدّ، وأكثر عنفًا، سبعة أضعاف!...

صدّقوني إنّ ظهور الكبرياء، اليوم، عند بعضكم، بعد سنوات من الجهاد في الدّير، لَهو أقسى، وأكثر عنفًا ووجعًا، والرّبّ يعاقب عليه، الآن، أكثر ممّا لو أراد المعاقبة عليه، عند مجيئكم إلى الدّير! لأنّكم، في ذلك الوقت، كنتم لا تعرفون شيئًا، وما كنتم قد تمرّستم، بعد، بالسّجدات، والأصوام، والقصاصات، والتّنقية، والأتعاب، وتلقّي النّعمة، ورفضها، وسكب الدّموع!...

وفي عودة الرّبّ إلى المدينة، مدينة الصّلاة، ينظر إلينا؛ ليرى هل فينا ثمار، كما نظر إلى شجرة التّين، فرأى عليها ورقًا فقط، لا ثمار فيها تقدّمها إلى سيّدها، لكي يأكل منها ما يسدّ جوعه... إذا ما عاد الرّبّ ليجدنا على هذه الحال، فإنّه يعاقبنا، كما عاقب التّينة إذ لعنها؛ فجفّت لساعتها!...

مخيف هو قضاء الرّبّ! لذلك، لا تسمحوا لأنفسكم بأن "تتعوّدوا" على الرّبّ، ولا تقولوا: "مهلًا، مهلًا، فلن يأتي الآن"! الرّبّ آتٍ، وهو حاضر، الآن، هنا! إنّه أب محبّ، وطبيب شافٍ؛ لكنّه ديّان أيضًا! فاخرجوا، إذًا، من أنانيّاتكم، وكبريائكم، ومشيئاتكم، وعنادكم!... وافتحوا أنفسكم، مثل المريض الملتاع، العارف أن لا شفاء له إلّا بإصبع الرّبّ، واصرخوا إليه: "تعال، يا ربّ، تعال، واشفنا!".

٩ آب ١٩٩٥

أنتم نور العالم*

(متّى ٥: ١٤- ١٩)

قال الرّبّ لتلاميذه: "أنتم نور العالم" (متّى ٥: ١٤). اليوم، أكرّر هذا القول، في مناسبة نقل رفات الرّسول برثلماوس، وتذكار الرّسول تيطس. لقد رتّبت الكنيسة أن يُقرأ هذا الإنجيل، اليوم، لتقول لنا إنّ هذين الرّسولين هما نور العالم. ولكن، ما علاقتنا نحن بهذا الكلام؟! هل نحسّ بأنّ الرّبّ يخاطبنا بقوله لتلاميذه: "أنتم نور العالم"؟! هل هذا الكلام يعنينا؟! هل نحن رسل المسيح؟! أنريد أن نكون رسل المسيح؟!

"أنتم نور العالم"... نعم، الرّبّ يخاطبنا، اليوم، ويقول لنا إنّنا نحن نور العالم! فلننظر، إذًا، إلى أنفسنا، لنرى، في الحقيقة، إن كان فتيلنا مضاءً، إن كان سراجنا موقدًا، إن كان الزّيت في هذه الآنية الخزفيّة مُعبّأ، إن كانت هذه الآنية الخزفيّة منظّفة ومصقولة؛ حتّى نضيء، إذا أنارنا الله، كما يريد منّا أن نفعل!...

لماذا يريد الرّبّ أن يضيء هذا العالم، إن كان هذا الأخير مضيئًا أصلًا؟! الرّبّ هو نور العالم، هو وجهه، كلمته، وصاياه!... أمّا العالم، فمملوء بقوى شرّ كونيّة، ربّما لا تعرفون عنها الكثير، وهي ذات مخاطر مهمّة جدًّا. هذا العالم يغرق في ظلمة ظلماء! ومع ذلك، فإنّه يحاول أن يخترع أنوارًا خدّاعة، آلهة كذوبة، ليضيء بها حياته! هو يتحالف مع قوى الشّرّ، لكي يتطاحن ويصطرع مع قوى الخير، مع النّور!... الظّلمة ترخي سدولها على هذا العالم! إنّها ظلمة الأهواء، ظلمة الخطايا، ظلمة نقض الوصايا الإنجيليّة، ظلمة الشّرّ، ظلمة الحسد، ظلمة الحقد، ظلمة الطّمع، ظلمة القتل، ظلمة استباحة المقدّسات، ظلمة الأنانيّة، ظلمة الكبرياء، ظلمة التّحدّث باسم الخير!... ألا تستفيقون، في كلّ صباح، وبكم تغيّر ما؟! يومًا تشعرون، مثلًا، بالحزن، وآخر بالفرح، وثالثًا بالتّعب، ورابعًا بالاضطراب، وخامسًا بالغضب، وسادسًا بالانزعاج ممّا وممّن حولكم!... ألا تستفيقون، يومًا،

---

* متّى ٥: ١٤.

وأنتم تحسّون بالكره لمَن حولكم؟! بالانزعاج ممّن حولكم؟! بالضّيق الرّابض من حولكم، فيما تئنّ أحشاؤكم وتحسّون بأنّها ستنفجر؟! ألا تحسّون بحركة جسديّة تصارعكم؟! ألا تشعرون بأنّكم تريدون أن تغادروا بيت الله المقدّس؟! بأنّ مكانًا ما آخر، في العالم، هو أفضل؟! أو أنّ هناك ديرًا آخر أفضل؟! أو عالمًا تركتموه هو الجواب؟!... كلّ هذا طبيعيّ، وكلّ هذا نابع من قوى الشّرّ الكامنة في هذا الكون! هذه هي قوى الظّلمة، قوى الشّيطان، الّذي يريد أن يفتّت كلّ خير، كلّ صلاح، كلّ طريق مستقيمة مؤدّية إلى الله! إنّه يريد أن ينقض وصايا الله وتعاليمه!...

لماذا يقول الرّبّ، في إنجيله، اليوم: "إلى أن تزول السّماء والأرض لا يزول حرف واحد، أو نقطة واحدة من النّاموس، حتّى يكون الكلّ. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصّغرى، وعلّم النّاس هكذا، يُدعى أصغر في ملكوت السّموات..." (متّى٥: ١٨- ١٩)؟! حياتنا ليست نتاج أعمال كبيرة، إنّما هي مصنوعة من قطبة صغيرة تُحاك في مفرشٍ سنقدّمه إلى الرّبّ، ونضعه على المائدة؛ لكي يأتي الرّبّ ويتعشّى معنا، ليأكلنا ذبيحةً محرقةً، قربانًا، كما نتناوله نحن، ونأكله ذبيحة خلاص لحياتنا! هذا هو السّرّ العظيم، في حياتنا، سرّ دعوة الرّبّ لنا لكي نصير حملًا ذبيحًا، نوضع على مائدته ليأكلنا، ليُدخِلَنا أحشاءَه، ويطهّرنا، ويعصرنا في جوفه، ويغيّرنا؛ فنستنير بضياء نور أحشائه، وتحترق فينا كلّ خطيئة؛ فنتنقّى، ونتطهّر، ونستنير بنوره الدّاخليّ، ونصير نورًا من نوره! إذ ذاك، يرفعنا، يُخرجنا من جوفه، ويقول لنا: "من البطن عرفتك"، ويضعنا سراجًا، لينير بنا كلّ من حولنا!...

نحن، إذًا، لن نصير نورًا، إلّا إذا وضعنا أنفسنا على مائدة الرّبّ؛ حتّى يأكلنا، ويخرجنا نورًا من أحشائه، نورًا من نوره. نحن لا نصير ذلك السّراج، الّذي يتحدّث عنه الرّبّ، في إنجيله، إلّا إذا قدّمنا أنفسنا ذبيحةً سرّيّةً جديدةً على مذبحه... هل تعرفون أنّكم ممتلئون من ظلمات هذا العالم؟! أتعرفون كيف نعلم أنّنا من ظلمة مجبولون؟! فقط، إذا أحببنا الرّبّ، نعرف خطيئتنا! فقط بالحبّ، نعرف قصورنا وضعفنا!... ويل للّذي لا يعرف أنّه مجبول من الخطيئة؛ فذاك لا يعرف الله! قال الرّبّ لتلاميذه: "أنتم نور العالم" (متّى٥: ٤)، لأنّهم رأوا النّور فيه، لأنّهم أكلوه، لأنّهم سمعوا وصاياه، وطبّقوها في حياتهم اليوميّة،

لأنّهم صلّوا معه، لأنّه أرشدهم إلى طريق الحقّ، لأنّه قال لهم: "أنا الطّريق والحقّ والحياة" (يو١٤: ٦)، لأنّهم صاروا طريق الرّبّ!...

من هنا، إذا أردنا أن نصير، نحن أيضًا، نور العالم؛ فعلينا أن نصير حياة الرّبّ! وحياته، على هذه الأرض، كانت مملوءة ظلمًا، واستهتارًا، وبصاقًا، واستباحة لقدساته، وتجديفًا على روحه القدّوس، وطعنًا، وحسدًا، وصلبًا، وموتًا!... لقد أعطى النّاس الحياة، فأعطوه الموت! أعطاهم الشّفاء، فأعطوه اللّعنة! أعطاهم الصّلاة، فأعطوه التّجديف: "اصلبه! اصلبه!"... وصَلَبَ العالمُ مخلّصَه، صلب العالمُ نورَه، صلب العالمُ خلاصَه!... لكنّ الله، الأقوى من الشّيطان، صار غالبًا؛ إذ أقام ابنه القدّوس، في اليوم الثّالث، من بين الأموات!

هذه كلمة الحياة لنا، اليوم: أنّنا سنُصلب، وسيُجدّف علينا، ونُهان، ويُبصق علينا!... هذه هي الطّريق الملوكيّة، ونحن نصطرع وقوى الشّرّ الكونيّة الّتي تريد أن تمحقنا، لكي تطفئ روح الله فينا! لكنّ الرّبّ قال: "لكنّني سأقوم في اليوم الثّالث" (متّى١٧: ٢٣). هكذا، نحن أيضًا سنقوم معه، في اليوم الثّالث؛ إن قبلنا حياته، إن قبلنا الظّلم والإهانات والفقر، إن سلكنا في الاتّضاع والمحبّة، وأضأنا نورًا، هنا، على رأس هذا الجبل؛ فيضيء آخرون نورًا هناك، أو في صُقْعٍ آخر.

هذا العالم كتلة من اسوداد وظلمة، وفيه بعض النّجوم، كما السّماء في اللّيل. ألا أعطانا الله أن نكون نجمًا يضيء في هذه الظّلمات، نجمًا يمجّد الرّبّ، ويقول إنّ القدّوس هو حيّ هنا، في هذه البقعة، ولن يُطفأ نوره مهما اشتدّت الظّلمات؛ لأنّه هو نور العالم، ونحن بنوره نستنير؛ فننير من نوره، ونحيا من حياته!...

٢٥ آب ١٩٩٥

زمان الشّفاء

(مر ١: ٢٣- ٢٨)

"في ذلك الزّمان، كان إنسان فيه روح نجس، فصاح قائلًا: آه، ما لنا ولك، يا يسوع النّاصريّ؟! أتيت لتهلكنا! قد عرفتك من أنت. إنّك قدّوس الله" (مر ١: ٢٣- ٢٤).

هذا هو واقع حياتنا. إنّنا ممتلئون أرواحًا نجسة! منذ سقطنا من حضن الآب، من فردوس النّعيم، وأخللنا بالطّاعة لكلمة الله، وأشحنا النّظر عنه، وتمّمنا مشيئتنا، واحتكمنا لإرادتنا؛ امتلأنا بالأرواح النّجسة. والمفارقة هي أنّ الرّوح النّجس يعرف الله! هذا هو لبّ إنجيل اليوم. الرّوح النّجس السّاكن فينا يعرف الله، ونحن بكلّيّتنا نعرف الله؛ لذلك، نأتي إليه، نتبعه، نصلّي له... لأنّنا نعرفه، لأنّنا اقتُطعنا منه، لأنّنا جزء منه! ولكن، حين ابتعدنا عنه، صرنا وحدنا، جُرِّدنا من حمايته، سقطت عنّا ومن حولنا أسوار النّعمة؛ فوقفنا، وحدنا، في وجه الأرواح النّجسة السّاكنة في الهواء، وفي هذا الكون. ولأنّها أرواح نجسة، دخلت ببطء فينا، تسلّلت إلينا، وسكنتنا! هذا الصّراع واضح، في إنجيل اليوم. نحن أجزاء منشقّة عن ذات الله! الإنسان الّذي جُبل على شبه الله، وأخذ صورته، منذ البدء، ما زال يحمل صورة الله فيه، ويعرف الله بالرّوح القدس! لكنّ هذا الإنسان، في إنجيل اليوم، صاح قائلًا: "ما لنا ولك، يا يسوع النّاصري؟! أتيت لتهلكنا!"، وكأنّ هذا الرّوح يميّز الإله ويعرفه؛ لكنّه ينطق، أيضًا، بالمعرفة الّتي تأتي إليه من روح غريب!...

إذًا، لبّ الموضوع هو الفكر – المعرفة! هذه المعرفة، الّتي إن خلت من روح الله، إن خلت من القلب، فإنّها تبقى فكرًا نجسًا، وروحًا غريبًا. لذلك، صرخ الله إلينا، في كتابه القديم، قائلًا: "يا بنيّ، أعطني قلبك" (أم٢٣: ٢٦)، وفي كتابه الجديد: "[يا بنيّ]، أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ فكرك، وقريبَك كنفسك" (متى٢٢:٣٥- ٣٨)! لذلك، بعد أن عاش الآباء القدّيسون بروح الرّبّ القائم

فيهم، قالوا: "يا بنيّ، أَنْزِل عقلك إلى قلبك، حتّى تهدأ، حتّى تسكن في هدوء المسيح، في النّور الإلهيّ حيث يجلس العقل على أرائك* القلب الإلهيّ"!

ما هو الرّوح النّجس؟! إنّه كلّ روح يشوّش سلام المسيح فينا، ويجعلنا نيأس من خلاصنا، ويقول لكلّ واحد منّا: "أنت ضعيف؛ لذلك، أنت عديم الفائدة! إنّك نجس، زانٍ، متكبّر، معاند، لا تحبّ، تنتقد الآخرين، حسود، لا تمتنع عن تحقيق مشيئتك، تحتال حتّى تحصل على الكرامات من رئيسك، أو من إخوتك...". الرّوح النّجس هو روح ذكيّ، يعرف الكثير، ويقول الباطل في لباس الحقّ، في هيئة الحقّ! لذلك، عندما نأتي إلى الدّير، نسلّم أنفسنا إلى مرشد عارف، قد مرّ بهذه الخبرات الّتي انطبعت في جسده، وبذل عنها دمًا، وأعراقًا، ولياليَ من السّهر، وسنين من المرض، وواجه التّجارب في عمق الجحيم بالتّوبة، والدّموع، وقهر كلّ تلك الأهواء الّتي عدّدناها؛ لأنّها هي حاضرة فينا؛ لكنّ المسيح فينا يقهرها بالطّاعة، والحبّ، والنّعمة!...

عندما نجعل أنفسنا بين يديه، يقول لنا: "هذا كلّه صحيح! نحن ضعفاء، وأنجاس، ولا برّ فينا، ولا خير! نحن لسنا ذوي شأن! إنّنا أنانيّون، متكبّرون، ديّانون للآخرين... لكنّنا مخلّصون. لقد خلصنا بمجيء المسيح، بصليبه، بإراقة دمه على الصّليب، بالماء القاطر من جنبه!... لقد خرجنا من جنبه عروسًا حيّة مُشبَعَةً بالإنجيل، بالتّعاليم الآبائيّة، بالخدمات...". كما يقول لنا أيضًا: "يا بَنيَّ، لماذا نخاف والإنجيل بين أيدينا؛ وأقوال الله نقرأها، يوميًّا؛ ونحاول فهمها، يوميًّا؛ ونسعى لتطبيقها جاهدين، يوميًّا؟! لماذا نخاف ونحن محصّنون؟!"...

إنّ السّور الّذي سقط، يوم سقوط آدم؛ عاد فارتفع، يوم ارتفاع السّيّد على الصّليب! لقد صار صليبه سورنا وحمايتنا؛ فلا نخافنّ، بعد، من الرّوح النّجس؛ لأنّه لن يقوى علينا، إن نحن طردناه بكلّ قوّة، واقتدار، وحكمة. طبعًا، نحن لا نستطيع أن نطرد شيئًا، ولا حتّى روحًا نجسًا واحدًا، إلّا بسيف الملاك المخفيّ، المسلّط على الأرواح الشّرّيرة، في الكون. نحن محاطون بأرواح الشّرّ الكونيّة. لكن، هناك ملائكة تضجّ من

* أرائك: جمع أريكة.

حولنا. وهناك حرب ضروس بين ملائكة الخير وملائكة الشرّ، نحن نحسّ بها. الّذي يحبّ الله، يحسّ بالضّيق، وبالضّغطة من حوله وكأنّها تريد أن تمزّقه إربًا! إنّها تضغط على فكره، وجسده، وأعضائه، ورئتيه، وركبتيه... حتّى تقعده، حتّى تشلّه، ثمّ "تضربه"؛ فيبقى مرميًّا وحيدًا!... لكن، "حتّى ولو مشيت في وادي ظلّ الموت، فإنّي لست أخشى شرًّا؛ لأنّك أنت معي، عصاك وعكّازك هما يعزّيانني" (مز٢٣: ٤). فلماذا نخاف؟! ولماذا نضعف؟! ولماذا نتخاذل؟! ولماذا نشكّ؟!... لقد أرسل الله إلى كلّ إنسان ملاكًا يحميه، ويقف عن يمينه، ويكون حاضرًا فوق سريره، عندما ينام؛ وفوق كتفه، عندما يصلّي ويعمل... هكذا، يحملنا الملائكة، ويهتمّون بنا، يهدهدوننا؛ فلا نخافنّ بعد!...

نعم، سنتألّم، ونئنّ، ونحسّ بضغطة الجسد، والنّفس، والرّوح. ولكن، في اللّحظة نفسها، علينا أن ننتفض صارخين: "يا ألله مخلّصنا، أعِنّا! يا يسوع، ارحمنا! يا يسوع، قوّنا! يا يسوع، شدّدنا!"... الرّوح النّجس يعرف كلّ ذلك، لكنّه يقول لله: "ما لنا ولك، يا يسوع النّاصريّ؟! أتيت لتهلكنا" (مر١: ٢٤)! الرّوح النّجس يريد أن يبقى معشّشًا فينا، يفتّتنا؛ حتّى يزيلنا.

نحن أعداء الشّيطان، والله ساكن فينا؛ لذلك، لن نخاف بعد!... الرّوح النّجس يقول لروح الله فينا: " ما لنا ولك، يا يسوع النّاصريّ؟! أتيت لتهلكنا"! هذا هو الصّراع في قلوبنا. نحن حلبة الصّراع! هذا القلب هو حلبة الصّراع! روح الضّعف، والكبرياء، والأنانيّة... روح الشّرّ يريد أن يبقى فينا، ويصطرع مع روح الله، ليطرده! لكنّ روح الله، في قلوبنا، يقول: "ربّي يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني، أنا الخاطئ"! إنّه يردّد ويقول هذا القول من على صليب المسيح، المرسوم في قلوبنا. نعم، صليب المسيح في قلوبنا، ونحن معلّقون عليه! فمن ذلك الوهن، ومن ذلك التّعب، نتمتم: "أيّها الرّبّ يسوع المسيح، ارحمنا"! ونعرف أنّه معلّق معنا في قلوبنا، إذ قد اتّحدنا به، وصرنا وإيّاه واحدًا؛ لأنّنا نتناول جسده، ونحيا بأسراره، ونحاول تطبيق وصاياه، في كلّ لحظة من لحظات حياتنا، فاتحين كياننا وأيدينا على الصّليب، لنقول: "أيّها الرّبّ يسوع المسيح، ارحمنا، نحن الخطأة"! بهذا الموقف الضّعيف، نغلب الشّيطان الّذي يوسوس لنا أنّنا متكبّرون، وزناة، وأنانيّون... وفي كلّ مرّة نغلب روح الشّيطان بحركة حبّ، بالتفاتة محبّة نحو الإخوة، بطاعة

لهم، بفرح؛ وإن كنّا حزانى، فإنّ روح المسيح يقول فينا: "المسيح قام".

هذه هي الحرب اليوميّة الّتي نحياها، في قلوبنا. نعم، المسيح أتى ليهلك روح الشّيطان! ليهلك روح الضّعف واليأس في أنفسنا، روح الاستكبار والأنانيّة، روح المعرفة!... أتى ليصيّرنا مشبوحين على الصّليب، لا قوّة لنا، ولا اقتدار فينا، إلّا المسيح!... ولأنّه قام في اليوم الثّالث؛ فإنّنا، به وبقيامته، نغلب روح الضّعف ذاك، الّذي فينا، ونقوم مع سيّدنا وإلهنا.

هذا هو السّرّ، وهذه هي المعرفة الجديدة الّتي أتركها لكم، اليوم. صلاتي ورجائي أن نعيش كلّنا بحسب هذه المعرفة الجديدة: أنّ الله مصلوب فينا، لكنّه قائم فينا أيضًا!

٣٠ آب ١٩٩٥

مجد الصّليب لنا وفينا

(يو١٢: ٢٥- ٣٦)

قال الرّبّ، في إنجيل اليوم: "من أحبّ نفسه يهلكها، ومَن أبغض نفسه في هذا العالم فإنّه يحفظها إلى حياة أبديّة" (يو١٢: ٢٥). أيناقض الرّبّ نفسه، في كلامه هذا؟! لقد أوصانا، من قبل، بالحبّ، ووصيّته الأولى كانت: "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك" (متّى٢٢: ٣٧)، والثّانية: "أحبب قريبك كنفسك" (متّى٢٢: ٣٩). وقال أيضًا: "أحبّوا بعضكم بعضًا، ليعرف العالم أنّكم تلاميذي" (يو١٣: ٣٤- ٣٥). أمّا هنا، فيقول: "مَن أحبّ نفسه يهلكها، ومَن أبغضها فإنّه يحفظها إلى حياة أبديّة". وهو، بقوله هذا، ينقض الحبّ الّذي رسمه سابقًا. هذا أمر غريب، وتفسيره صعب! كيف يريدنا الرّبّ يسوع المسيح أن نحبّ، ثمّ يقول لنا "مَن أحبّ نفسه يهلكها"؟! كيف نحبّ العالم والآخرين، ولا نحبّ أنفسنا؟! هذه، في الحقيقة، هي علامة الصّليب، وهذه هي علامة الحبّ الإلهيّ، وهذه هي علامة حبّ الثّالوث!...

في الثّالوث القدّوس، الأقنوم لا يحبّ ذاته، بل يحبّ الأقنومَ الآخر. كما أنّه لا يتكلّم على ذاته؛ فابن الإنسان لا يتكلّم على ذاته، بل على الآب. ونحن، بالمعزّي – روح الحقّ – نعرف الابن، ونصلّي له. إذًا، الرّوح القدس يشير إلى الابن، والابن يشير إلى الآب، والآب يرسل الابن لخلاص جنس البشر.

كلّ مَن أراد أن يحبّ، على مثال حبّ الثّالوث، وحبّ يسوع المسيح؛ فإنّه ينقض حبَّ العالم، ويبدأ بالحبّ الإلهيّ، المبنيّ على الخروج من الذّات، ونسيان الذّات، والامتداد من الذّات إلى الآخر. في هذه الحركة الامتداديّة، من الذّات باتّجاه الآخر، في الخروج من هذا السّجن – سجن الذّات والجسد والنّفس – يتّجه الإنسان نحو الآخر ليخدمه، ليعطيه ذاته: يُخلي ذاته لأجل الآخر، يصير عبدًا للآخر بالحبّ، وبالخدمة... كما المسيح "أخلى نفسه آخذًا صورة عبد" (في٢: ٧)! هذا هو الحبّ المسيحيّ! هذا هو

الحبّ المصلوب! هذا ما أتينا لنتعلّمه، في هذا الدّير؛ وهذا ما علينا أن نرسم أنفسنا عليه، في هذه الحياة!...

هذا الكلام موجّه إلى الجميع، وخصوصًا إلى الأخت الّتي ستتقدّم، في هذا المساء، لتقف عروسًا على صليب الرّبّ يسوع؛ حتّى تخدمه، وتتعلّم منه الحبّ – حبّ الآخرين. كما أنّه موجّه، أيضًا، إلى القادمة الجديدة إلينا، الّتي تركت العالم، وقالت لسيّدها: "نعم، أنا أحبّك أكثر من العالم، وأكثر من أهلي، وأكثر من عشيرتي، ومن بيتي، وقريتي، وماضيّ!... إنّني أحبّك، فَأْتِ بي، يا ربّ، إلى منزلك، إلى قصر إقامتك، وعلّمني كيف أحبّك والآخرين الّذين معك، في زمن التّجديد، تجديد أنفسنا العتيقة، تجديد إنساننا القديم، ودرئه عنّا، ورميه؛ لكي ندخل ونولد على الصّليب، معلّقين بالحبّ مع سيّدنا"!...

ويتابع الرّبّ الكلام، في الإنجيل، فيقول، بعد أن ينقض الحبّ: "إن كان أحد يخدمني، فليتبعني! وحيث أكون أنا، فهناك أيضًا يكون خادمي" (يو١٢: ٢٦). إذًا، قد جعل الله لنا مرتبة؛ فهو السّيّد، هو الملك، ونحن خدّام الملك، نحن عبيدٌ وإماء للملك؛ فكيف يستكبر العبد؟! كيف لا يطيع؟! كيف تقول نفسه وفكره "لا"؟ كيف تصارعه أحشاؤه، صبحًا وظهرًا ومساءً، ويبثّ العدوّ في فكره القول "لا، لا تُطِع أخاك"؟! كيف يكون هذا و"أخي حياتي"، كما يقول القدّيس سلوان الآثوسيّ، والرّبّ ساكن في أخي؟! إذًا، إذا أردت أن أخدم الرّبّ، فعليّ أن أخدم أخي، لأنّ الرّبّ يسكن فيه!...

هذه هي، بكلّ بساطة، حياتنا الجديدة، حياة الحبّ الجديدة: أنا لا نفس لي، ولا رأي، ولا مشيئة، ولا فكر... أنا لا أساوي شيئًا! أنا أحيا في نفسي لكي أكون خارج نفسي، محمولًا إليك، "يا أخي"؛ فمُرني، بالمسيح الّذي فيك، أن أطيعك!... هكذا، فلنقف في كلّ صباح، قدّام أيقوناتنا، في سجداتنا، وتضرّعاتنا، وتتمّة صلاتنا؛ لنقول للرّبّ: "تعال، يا ربّ، وافتح هذا الصّدر، وشقّه، وأخرج القلب الحجريّ، والفكر المتعظّم المعاند، إليك!... أخرج المشيئة إليك، وضعها كلّها تحت قدميك وقدمَي أخي، أو أختي، في ديرنا هذا"!...

هكذا، نبدأ أغنية الحبّ الجديد! نحن نخدم المسيح بقلب المسيح، بفكر المسيح، بحبّ المسيح! لكنّنا لا نرى حبّ المسيح وفكره، في كلّ مجده، إلّا مصلوبًا ومعلّقًا، لا إرادة له، ولا مقاومة فيه، إلّا هذا الحبّ الكبير المبذول دمعًا، ودمًا، وماءً، على الصّليب. طبعًا، هذا ليس سهلًا. ولكن، لهذا أتينا إلى الدّير، لنأخذ الصّعب على أنفسنا... كلّنا عشنا الحياة، وفعلنا ما يحلو، لنا وما يحلو للعالم فينا، ووجدنا أنّ ذلك كلّه "باطل وقبض الرّيح" (جا١: ١٤)، وعرفنا أنّ الكلمة الكلمة والجواب الجواب لا نجدهما في هذا العالم، بل في مكان آخر!

جواب الحياة الأبديّة نلقاه على الصّليب!... أتينا إلى المصلوب، في هذا الدّير؛ لنقف، أوّلًا، تحت صليبه، ونتعلّم كيف نحبّه هو الفداء – فداؤنا!... وبعد حبّه والآخرين، يمدّ يده، ويرفعنا من تحت صليبه، ليضعنا معه عليه؛ فنحبّ مِن على صليبه الآخرين، أيضًا وأيضًا، كما أحبّهم هو؛ ونفتديهم، كما افتداهم هو معلّمنا! هكذا، نخدم المسيح!... المسيح، الرّبّ، السّيّد، الإله، القدّوس لا يحتاج إلى شيء منّا: "أنا لست أريد ما لكم، بل إيّاكم"؛ فلا يظنّنّ أحد منّا، باطلًا، أنّه يستطيع أن يقدّم أيّ شيء إلى الرّبّ غير ذاته! والذّات هي القلب؛ فلنحبّ، إذًا، من الآن وحتّى آخر يوم في حياتنا، الرّبَّ المعلّقَ على الصّليب. وبهذا الحبّ، نخرج من حبّنا لأنفسنا العتيقة، المريضة، المائتة، إلى حبّ أخينا، وأختنا، والعام كلّه.

مَن منّا يريد أن يموت ويفنى؟! لا أحد! الإنسان، بطبيعته، يطلب الحياة. لكنّه يطلبها بالأمجاد، والأموال، والقصور، والأردية، والألبسة، والإنجازات، العالميّة!... أمّا نحن، الّذين أتينا إلى الرّبّ، فإنّنا نطلب الحياة الأبديّة بالرّبّ يسوع، بصليب الرّبّ يسوع، بموتنا عن أنفسنا، ببغضنا لأنفسنا العتيقة، بتخلّينا عن عتاقة ماضينا!... نحن أتينا إلى الدّير، كي ننسى ماضينا، ونتبنّى الحياة الجديدة في الرّبّ، بكلّ بساطة، وبكلّ هدوء، وبكلّ صبر على أنفسنا، وبكلّ حنان!...

العبد والأمة شأنهما الطّاعة. هكذا، يصيران عبدًا وأمةً صالحَين، لأنّهما يطيعان. ونحن، بوضع أعناقنا تحت طاعة الرّبّ يسوع، وتحت يده ومشيئته؛ فإنّنا، بهذه العبوديّة، لا نكون مستعبَدين، بعدُ، للعالم المائت؛ بل نصير مستعبَدين للحياة الجديدة الأبديّة، للنّور، للقيامة!...

وصيّتي المتواضعة لكم، اليوم، أن تنسوا أنفسكم، أن تتخلّوا عن عتاقتكم، أن تمزّقوا حللكم القديمة؛ ليُلبِسكم الرّبّ حلّة المجد على الصّليب! هكذا، يفرح بنا العليّ، ونفرح نحن به؛ لأنّه أعطانا، بعبوديّتنا له، الحرّيّةَ، والعتقَ، والحياةَ الجديدة الّتي لا ظلام فيها، بل أبديّات، والتماعات مجد، وفرح بكلّ ما يحيط بنا، بالرّبّ يسوع!...

١٣ أيلول ١٩٩٥

اطلبوا تجدوا*

(لو٤: ٣٨- ٤٤)

الرّبّ يسوع المسيح يدخل بيوتنا ليشفينا، كما دخل بيتَ سمعان، وشفى حماته. لكنّه لا يشفينا، إلّا إذا طلبنا إليه ذلك؛ فالله لا يقتحم أحدًا، حتّى ولو كان ذلك لشفائه.

يقول الإنجيليّ لوقا إنّ الرّبّ "دخل بيتَ سمعان. وكانت حماة سمعان قد أخذتها حمّى شديدة؛ فسألوه من أجلها..." (لو٤: ٣٨). هنا، ندخل في معنى الصّلاة. لماذا نصلّي بعضنا لأجل بعضنا الآخر؟! هذا السّؤال كثيرًا ما يُطرح. ما فائدة الصّلاة؟! ما فائدة قولنا أحدنا للآخر: "صلِّ لأجلي!"، أو "بصلواتك..."؟! كلّ مَن يطلب الصّلاة يعرف أنّه هو إنسان مريض، وأنّ هناك إلهًا يصلّي له، وأنّ الصّلاة مسموعة، وهي مقتدرة؛ لأنّ الرّبّ قال: "اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم..." (متّى٧: ٧)، وأيضًا أضاف: "صلّوا بلا انقطاع" (١تس٥: ١٧).

الصّلاة هي أثمن هديّة يقدّمها أحدنا إلى الآخر. إنّها أثمن هديّة يقدّمها الرّاهب إلى العالم. لذلك، نحن هنا، حتّى نتعلّم الصّلاة، وحتّى نتعلّم كيف نصرخ، وكيف نبتهل، وكيف نركع عند قدمي الرّبّ الإله، عارفين أن ليس أحد سواه يستطيع أن يشفي، أو يحيي، أو يخلّص، أو يُنهض من الحمّى، أو يُقيم من الموت...

العالم، اليوم، يتّكل على الطّبابة والأدوية، وكثيرون منّا يلجأون إليها. لماذا؟! لأنّنا قُطعنا عن مصدر الشّفاء الحقيقيّ، وقُطعنا عن الرّبّ، وتركنا فردوسه، وسقطنا!... لأنّ كلمته صارت لا تحيينا بالكلّيّة لتأتي بنا إلى الملء!... لأنّنا خرنا وتعبنا!... لأنّ جسدنا هذا لم يعد الإناءَ المصطفى لكي يدخل الرّبّ ويسكن فيه، بل صار جسدَ الخطيئة، والأنانيّة، والكبرياء، والنّجاسة، والبلادة... لهذا، نحن نلجأ إلى عقاقير وأدوية أخرى غير الرّبّ

---

* متّى٧: ٧.

يسوع المسيح المحيي وحده... الرّسول بولس صرخ قائلًا للرّبّ: "خلّصني من جسد الموت هذا!" هكذا أيضًا، صرخ الكثيرون من الآباء والأمّهات، الّذين عرفوا الرّبّ بأجسادهم المائتة. في حين أنّ العالم، اليوم، يقول له: "نصرخ إليك فلا تستجيب!". في الحقيقة، هو يستجيب، **لكنّنا نحن الّذين لا نريد الله؛ لأنّنا لو كنّا نريده، في الحقيقة، لَكنّا قمنا من سقطتنا، ولم نعد إليها.** ليتكم تعرفون رحمة الله، وحنانه، ودمعته المسكوبة علينا، في كلّ لحظة!

ويتابع الإنجيليّ لوقا، فيقول "وفي الحال، قامت وصارت تخدمهم" (لو٤: ٣٩). إذًا، "أخذتها حمّى شديدة، فسألوا [الرّبّ] من أجلها"؛ فوقف السّيّد عندها، أتى إليها!... هو لا يطلب أن نأتي إليه. المريض يقبع في مكانه، لكنّه يصرخ، ويستغيث، وينتظر. والّذين يكونون من حوله يصرخون، هم أيضًا، طالبين لأجله الشّفاء. والله لا يطلب شيئًا، لا يطلب حتّى أن نأتي إليه. هو يعرف أنّنا مرضى، و"مضروبون" بكلّيّتنا بالحمّى الشّديدة، ومتألّمون... هو، فقط، يريد أن يُسأل من أجلنا؛ فيأتي إلينا. يتنازل، كما تنازل وتجسّد، ويقف عندنا، ويزجر الحمّى، يصيح بها، ويطردها؛ حتّى تخرج منّا. لكنّه، حينئذٍ، ينتظر حركة منّا نحن تجاهه... ما الحمّى؟! إنّها موت إنساننا المفترس جسدنا ليعود بنا إلى التّراب، ويمنعنا من خدمة يسوع!

"في الحال، قامت تخدمهم"! إذًا، الرّبّ ينتظر حركة منّا مباشرةً، آنيّةً، باتّجاهه. وحركتنا تكون لخدمته. وخدمته هي أن نسلك في وصاياه. وعندما نسلك فيها، يملأنا بِرًّا كثيرًا. عندها، لا نتوقّف، بعد، عن مخاطبته، ومناداته، والاستغاثة به، والتّشبّث بأذياله... وإذ نمتلئ من وصيّته، يملأنا من حنانه وحبّه. إذ ذاك، نرى أنّ المفترَض بنا أن نصلّي بلا انقطاع. وما الصّلاة إلّا الدّعاء، والتماس الرّحمة لكلّ المرضى؛ لأنّ العالم كلّه مريض؛ لذلك، نطلب إليه: "ارحمنا، يا ربّ، ارحمنا؛ فإنّنا قد لجأنا إليك"... عندها، يستجيب الرّبّ؛ لأنّ "صلاة البارّ تقتدر كثيرًا في فعلها" (يع٥: ١٦) عند الله. إذ ذاك، نصير أبرارًا بالنّعمة، لا ببرّنا الذّاتيّ، بل بكلمته، بوصيّته، بحركة حبّه إلينا، بشفائه أمراضنا والحمّى الّتي تتآكلنا لتقعدنا عن القيام بالخدمة، عن الحبّ، عن الخلاص...

إذا عرفنا أنّنا مرضى و"مضروبون" بحمّى شديدة، وإذا أخذنا أنفسنا مثالًا لآدم السّاقط؛ فإنّنا نعرف، عندئذٍ، أنّ العالم كلّه مريض، ويحتاج إلى الشّفاء. هكذا، تصير

الصّلاة العملَ الأكبر، والأهمّ، والأعظم، الّذي يقوم به الإنسان، في حياته، في هذا العالم. صدّقوني، إنّ صلاة الأبرار الأحياء، في هذا الكون، هي الّتي تخلّص هذا الكون كلّه من الانهيار الكامل الشّامل.

إذًا، في بدء سنتنا الجديدة هذه – وكلّ يوم هو بدء سنة جديدة تتجدّد بالمسيح – وفي تذكار القدّيس سلوان*، الّذي عيّدنا له، اليوم، فلْنستصرخ هذا القدّيس، مع السّابق، وجميع القدّيسين؛ لكي يمنحونا ما أنعم به الله عليهم، أي القدرةَ على الصّلاة والصّراخ؛ حتّى نشفى من الحمّى الّتي تتآكلنا نحن والعالم؛ فالله قريب، وهو حاضر ليشفينا. ألا أعطانا الله صرخة صادقة، لننجو به وحده.

٢٥ أيلول ١٩٩٥

* نعيّد للقدّيس سلوان الآثوسيّ في الرّابع والعشرين من شهر أيلول.

الطّعام السّماويّ

(لو٦: ١٧- ٢٣)

ليس الشّفاء هو غايةَ مجيء الرّبّ يسوع إلى الأرض. هذا واضح في إنجيل اليوم، الّذي استهلّه لوقا بالقول: "في ذلك الزّمان، وقف يسوع في موضِع سهل هو وجمع من تلاميذه وجمهور كثير... ممّن جاؤوا ليسمعوه ويشفوا من أمراضهم، ومن المعذّبين بأرواح نجسة، وكانوا يبرأون..." (لو٦: ١٧- ١٨).

عندما كان النّاس يأتون إلى المسيح، كي يستمعوا إليه ويسمعوا كلمته، كان يُبرئهم؛ لأنّه هو البرء، وهو الطّبيب والشّافي وحده؛ فكانوا يشفون. لكنّ الكلمة الإلهيّة لم تكن تنتهي عند هذا الحدّ؛ فالشّفاء الجسديّ ليس غايةَ مجيء المسيح إلى الأرض، إنّما هو غاية من غايات عديدة، سببه أنّ المسيح إله وأب حنون؛ فإذا ما رآنا عاجزين عن حمل وجعنا، الّذي ربّما يبعدنا عنه، ويجعلنا نيأس؛ فإنّه يشفينا محبّةً بنا. لكنّه يشفي، خصوصًا، المعذّبين بالأرواح النّجسة؛ لأنّ هذه الأخيرة تصارع الإنسان، حتّى تبعده عن المسيح. كثيرون من النّاس يقبلون أمراضهم الجسديّة بصبر، ووداعة، واتّضاع؛ لأنّ فيهم روح الصّبر، وروح الوداعة، وروح الاتّضاع، وروح المسكنة والبساطة. وإذ يعرفون الرّبّ، يقبلون أكثر، قائلين: "الله يعرف بمرضنا. إن أراد، فهو يستطيع أن يشفينا. وإذا لم يُرِد، فهذا يكون مفيدًا لنا. لذا، نحن راضون بأوجاعنا، لأنّنا نحبّ، والّذي يحبّ لا يتذمّر على حبيبه". هكذا، في تلك العلاقة السّرّيّة الحميمة بين الإنسان والرّبّ، يصبح الإنسان رقيقًا، شفّافًا، راضيًا، قابلًا، قابعًا في سكينة نفسه... لأنّ الرّبّ هناك معه. لكنّ الرّبّ لا يريد فناء أرواحنا؛ فيشفينا ببساطة، إن كنّا لا نستطيع الاحتمال. غير أنّه يتركنا في الآلام، كي نقتني الصّبر وطول الأناة. والأهمّ من كلّ ذلك، حتّى يجعلنا نحسّ مع المتألّمين والمرضى... هكذا، يرقّقنا؛ فنقترب منه ومن الآخرين...

أمّا المعذّبون بالأرواح النّجسة، فالكنيسة حدّدت لهم صلوات خاصّة،

واستقسامات* خاصّة، وتبريكات خاصّة، لطرد الأرواح النّجسة؛ لأنّ الرّوح النّجس، إذ يقهر الرّوح، ويفتّتها، ويسحقها؛ فإنّه يقضي، لا على الجسد وحسب، بل على شعلة الإيمان أيضًا. والله لا يريد أن تنطفئ شعلة واحدة من الإيمان، إذا أراد المؤمن أن يبقى مع السّيّد.

في إنجيل اليوم، الجميع أتوا ليشفوا. كان من الممكن أن تنتهي القصّة هنا؛ فيذهب الجميع إلى بيوتهم شاكرين، أو حتّى من دون أن يشكروا، كما فعل البرص العشرة. لكنّ الإنجيل لا ينتهي عند حادثة الشّفاء، إذ بعد أن أبرأ يسوع الجميع، "رفع عينيه إلى تلاميذه"، وأراد أن يزوّدهم بوصيّة مهمّة جدًّا؛ فقال لهم: "طوبى لكم، أيّها المساكين... طوبى لكم، أيّها الجياع... طوبى لكم، أيّها الباكون... طوبى لكم إذا أبغضكم النّاس، وإذا أفرزوكم، وعيّروكم، ونبذوا اسمكم كشرّير، من أجل ابن الإنسان..." (لو٦: ٢٠- ٢٢). بعض الآباء، في كنيستنا، يقول إنّ التّطويبات هي الوصايا الخاصّة الّتي لقنّها الرّبّ لتلاميذه، إذ أخبرهم بما عليهم أن ينتظروه من حياتهم على الأرض ومعه، ومن هذه المسيرة الإلهيّة السمويّة. واليوم، هذه الكلمة يوجّهها السّيّد إلينا نحن، إذا كنّا قد ارتضينا أن نصير تلاميذ له، في هذه الشّركة، وفي هذا الدّير. لقد وضع الرّبّ لنا قانون حياتنا، الّذي علينا، في كلّ يوم، أن نسعى لكي نقتنيه بروح الرّبّ، الّذي أعطانا هذه الكلمة.

إنّني أتوقّف عند هذا الكلام، اليوم؛ لأنّني، من خلال جلوسي وإيّاكم، في الأسبوع المنصرم، شعرت بأنّ معظمكم – إن لم أقل كلّكم – في الفترة الأخيرة، وبعد مضيّ أكثر من خمس سنوات على مجيئنا إلى الدّير، لا يرضى بهذه التّطويبات، ولا يريدها، لا بل يرفض المسكنة. والإنسان المسكين هو الإنسان المقهور، الإنسان المعذَّب، الإنسان المرذول الّذي لا كرامة له، ولا احترام، عند الآخرين. وهو الّذي لا يتفهّمه، لا إخوته، ولا النّاس الّذين من حوله. بالإضافة إلى أنّه لا يقاوم، ولا يقوى، ولا يحاجج، ولا يدافع عن نفسه... بل يقبل كلّ ما يأتي عليه... لكنّني اكتشفت أنّ معظمكم لا يقبل الإساءة من الآخرين، ولا الظّلم، ولا يريد أن يكون مظلومًا... وأرى أنّ في نفوسكم أجيجًا من

---

* استقسامات: أدعية.

الاعتراضات، وكأنّ كلّ واحد منكم يقول في نفسه: "أنا إنسان مهمّ"!...

المساكين بالرّوح هم الّذين يقبلون اللّطم، والبصاق، والشّوك، والاتّهامات... يقبلونها لأنّ مسيحهم يطلب أن يقبلوها، إذ إنّه هو نفسه اقتبلها في ذاته، على الأرض، من أجل خلاص جنس البشر. والرّبّ يخبر تلاميذه، هنا، بما سيجري لهم، وما سيصادفونه، ويعلّمهم كيف يجب أن يتصرّفوا، محبّةً به، وطاعةً لكلمته؛ لأنّ هذا ما يقوله ويطلبه.

"طوبى لكم، أيّها الجياع" (لو٦: ٢١). النّاس، في تلك الأيّام، كانوا فقراء، يعملون، نهارًا وليلًا، لكي يُعيلوا عائلاتهم. لكنّ الرّبّ أطعمهم، بوفرة، سمكًا وخبزًا؛ فهل يتكلّم الرّبّ، هنا، على الجوع الجسديّ؟! هل يتكلّم، فقط، على الطّعام؟! نعم، إنّه يتكلّم على الجوع الجسديّ؛ لكنّه يتكلّم، أيضًا، على الجوع إليه. هل توجد في السّموات موائد، ولحوم، وخراف، وخبز، وخمر، وعسل...؟! لا، ففي السّموات، **الإله هو** الخبز، **وهو** العسل، **وهو** الخمر، **وهو** الملء... لكنّه يريد أن يقول لنا: "لا تأكلوا كثيرًا، حتّى لا تُتخَموا؛ لأنّكم إذا أُتخمتم، فلا تجوعون إلى ما هو أكثر من ذلك". إنّه يتكلّم على الجوع النّفسيّ الرّوحيّ، على ذلك الجوع الّذي يشبع من مآكل أرضيّة، لكنّه لا يشبع، في آن معًا؛ يختبر التّخمة، لكنّه يبقى فارغًا في خواء معدته، يأكل، ويريد أن يأكل أيضًا؛ يشتهي الطّعام والتّنوّع في المآكل، ولا يشبع من التّلذّذ؛ فتصير حياته في حالة دوران حول التّلوين في المآكل والأطايب... لماذا كان الآباء كلّهم، في الصّحارى، لا يأكلون إلّا بقولًا، بل بعض البقول، وقليلًا من الملح، مع جرعة ماء، وبعض الخضار، إن نبت خضار في الصّحراء، ولا يطهون إلّا قليلًا؟! ذلك لأنّهم عرفوا أنّ الجواب ليس في الطّعام الأرضيّ، بل في طعام آخر، في جوع آخر، في وجبة يقدّمها الرّبّ إلينا على مائدة قدسه الأرضيّة. إنّه يطعمنا جسده ودمه؛ فيملؤنا، كما امتلأ إيليّا بوجبة واحدة، وبقي عليها أربعين يومًا...

هكذا، يمتلئ المؤمن بيسوع الجالس على المائدة الرّوحيّة، وينتظر الغذاء كلّما أتى إليه في كلّ قدّاس، ويحيا ليأكله مرّة، ومرّتين، وثلاث مرّات... حتّى يتناوله بلا توقّف، في الفردوس. هذا هو الجوع الّذي أصلّي أن يعطيكم إيّاه الرّبّ: الجوع إليه، والشّبع منه؛ فنتوقّف عن الاهتمام بما نأكله ونشربه، هنا، ونقبل كلّ شيء لتغذية هذا الجسد؛ حتّى يبقى في الخدمة الإلهيّة. نتغذّى، والرّبّ رحوم، يريد أن يغذّينا؛ لكي لا نفقد، بالتّعزية الأرضيّة،

التّعزيةَ السّمويّة... نحن، إذ نجوع، نأكل من كلمة الرّبّ، لا بل نأكل كلمته، وصيّته، حياته على الأرض، كما رسمها لنا؛ فنصير، في خلال مسيرتنا اليوميّة، في حالة ذكر لاسمه، في كلّ لحظة؛ إذ نعمل، ونفكّر، وننام، ونصلّي؛ لأنّه هو مأكلنا؛ فيصير اسمه قربانًا لنا، وحياةً نغتذي بها.

لذلك، أوصيكم بالصّلاة، في كلّ لحظة، حتّى في أثناء عملكم؛ لتتنزّل الكلمةُ إلى القلب؛ فيهذّ القلب بها، حتّى في أثناء النّوم. الرّبّ يبسط نفسه على مائدة نهارنا، فلِمَ تلتهون عنه بأحاديثكم المائتة؟! هذا لأنّكم لم تذوقوا، بعد، طعم النّعمة، والاختفاء بالصّلاة، والاختباء تحت أردية الرّبّ، كي لا تروا إلّا سماء السّموات الّتي فيه، والأرض المبسوطة الّتي فيه، والحياة الّتي فيه...

"طوبى لكم، أيّها الباكون" (لو٦: ٢١). لقد أتاني، في هذا الأسبوع، من الإخوة والأخوات، مَن شكا أنّه حزين ولا فرح في نفسه. أقول لكم، اليوم، إنّ الدّموع هي النّعمة النّازلة علينا من السّماء، لكي نتطهّر بها من صلف القلب، وعنف الفكر، وجيشان الأهواء. الباكي هو إنسان مقهور. لماذا يبكي الإنسان ذاته؟! لأنّه يكون مقهورًا، أو متألّمًا، أو معذّبًا... "طوبى لكم، أيّها الباكون"، لأنّكم وُضعتم تحت قهر سلاطين هذا العالم! لأنّكم مرذولون! لأن لا أحد يحبّكم، إلّا القلّة القليلة!... هكذا نحن: مساكين، وجياع، ونتوق إلى رحمة الرّبّ وحبّه، وإلى رحمة الإخوة الّذين من حولنا ومحبّتهم...

في نهاية إنجيل اليوم، نفهم قصد الرّبّ من قوله لنا إنّنا مساكين، وفقراء، وجياع؛ لأنّنا مضطهَدون، ومُبغَضون، ومفروزون، ومُعيّرون، ومنبوذون، بالنّسبة إلى هذا العالم، وهذا الكون الشّرّير. حين نعرف أنّ هذا الكون شرّير، ولا يحبّ الرّبّ، لذلك هو ينبذنا من أجل ابن البشر؛ فإنّنا نبدأ بالارتقاص، والتّهليل، والفرح، والتّعييد. هكذا، نشطر أنفسنا عن الكون، ونلجأ إليه هو الإله، ونقول له: "تعال! تعال، فنحن عرفناك إلهًا، وربًّا، ومخلّصًا، ومسيحًا، وختنًا، وحبيبًا، وصديقًا، وأخًا، وعكّازًا، وطبيبًا... نحن لك، وأنت لنا. لذلك، نتهلّل، ونفرح بالمسكنة، والجوع، والدّموع... نفرح بكلّ هذا، لأنّه كلّه هو أنت".

هذه هي وصيّتي لكم، اليوم: أن تفرحوا بالحزن، وتحوّلوه إلى حزن بهيّ. افرحوا

بالبكاء، واغتسلوا بدموعكم من خطاياكم! افرحوا؛ لأنّكم منبوذون، في هذا الكون الشّرّير؛ ولأنّكم تحملون ختمَ الرّبّ على جباهكم، وعلى وجوهكم، وعلى صدوركم، وعلى أيديكم، وعلى ظهوركم، وعلى بطونكم، وعلى أرجلكم؛ ولأنّكم موسومون بالنّور الإلهيّ، ومتجلببون بنعمته!... لا تشكوا بعضكم بعضًا، بعد اليوم، بل فليقل كلّ واحد منكم: "إنّي، بضعفي، أذيت أخي؛ فعلّمني (أو علّميني) كيف أخرج من ذاتي، لكي أحبّ الآخر"... وإذ نأتي إلى المحبّة، إلى الوجل على الإخوة، إلى حملهم كآنية خزفيّة مملوءة بالنّعمة الإلهيّة؛ نصير جُنْدًا يحمل راية الخلاص، منتظرًا على ضفاف هذا العمر، يومًا بعد يوم، مجيء سيّده ليأخذه إلى مملكته السّمويّة، إلى الحياة الأبديّة، إلى النّور، إلى الفرح، إلى الملء...

٢٩ أيلول ١٩٩٥

الرّاعي الصّالح

(يو ١٠: ٩- ١٦)

في إنجيل اليوم، هناك رسالة بسيطة جدًّا، لكنّها هي الأهمّ في حياة الإنسان. الإنسان مدعوّ إلى الحركة. ما من إنسان يولد ويبقى في مكانه. فهو، منذ ولادته، يرغب في أن يتحرّك، أو أن يقوم بعمل ما، أو يكون في موضع ما، لا في العراء؛ إذ لا أحد يسكن في العراء سوى الممسوسين الّذين تسكنهم الأرواح النّجسة. هذا ما قاله الرّبّ يسوع عن المجنون الّذي كان يسكن في الظّلمة، لا في بيت.

والرّبّ يخبرنا، هنا، أين هو البيت. هو يأتي، في هذا الصّباح، ليمسك أيدينا، ويسير بنا إلى البيت، ويدلّنا إلى الباب، ويقول لنا: "أنا هو الباب" (يو ١٠: ٩). عندما نجد الباب، نقرعه؛ فينفتح لنا، لندخل البيتَ. فإن كان باب البيت قويًّا صلبًا، نعرف أنّه مبنيّ على الصّخر، لا على الرّمال؛ ونعرف أنّ ما في داخل ذلك البيت قائم لا يتزعزع، وأنّ ذلك الباب صلب، حتّى إنّ السّرّاق واللّصوص لا يستطيعون اقتحامه.

هكذا، نعرف، اليوم، أنّ هناك بيتًا، وأنّ هناك بابًا واحدًا لذلك البيت، هو الرّبّ يسوع المسيح القائل: "إن دخل بي أحد؛ يخلص، ويدخل، ويخرج، ويجد مرعى" (يو ١٠: ٩).

في أوّل حياتنا مع الرّبّ، عندما نجد باب بيته، وندخله، ونبقى في الدّاخل؛ فإنّنا نحسّ، في وقت من الأوقات، أنّ هناك بعض الاهتمامات، وبعض مَن تركنا خارج ذلك البيت من الّذين علينا أن نذهب لنفتقدهم؛ أو بالأحرى، علينا أن نخرج إليهم، لنأتي بهم إلى بيت الرّبّ، ونقول لهم: "لقد وجدنا المرعى، لقد وجدنا الحظيرة، لقد وجدنا المكان؛ فتعالوا إلى ما وجدناه ومَن وجدناه! إنّ ذلك البيت محميّ بباب كبير، لن يدخله السّرّاق ليخطفونا وإيّاكم، ويذبحونا، ويهلكونا"...

هذه هي رسالة اليوم، في هذا الإنجيل: بعد أن ندخل بيت الرّبّ، بعد أن ندخل باب الرّبّ، لا يبقى بإمكان أيّ سارق أو لصّ أن يخرجنا، أو أن يضربنا ليهلكنا. بكلام

آخر، الرّبّ يقول لنا في إنجيله هذا: "لا تخافوا! لا تخف، أيّها القطيع الصّغير". إنّه يطمئننا، لأنّ الخوف هو مشكلة النّفس البشريّة السّاقطة.

كلّنا نخاف! أحدنا يخاف على صحّته، وآخر يخاف من الجوع، وثالث من الوحدة، ورابع من الموت... لكن، قلّة تخاف من الخطيئة! نحن نخاف، لأنّنا ما زلنا أطفالًا في الرّوح. عندما يرى الطّفل أنّه مُحاط بحنان أمّه وعطف أبيه، يتعلّق بأذيالهما، ويبقى معهما؛ فلا يبقى مكان للخوف في نفسه، لأنّه يحسّ، إذ ذاك، بالجماعة من حوله، ويعرف أنّ له بيتًا يحتضنه، وبابًا يُقفَل في المساء؛ حتّى لا يدخل الغريب... هكذا نحن، أيضًا. الرّبّ يعرف أنّنا ما زلنا أطفالًا في الرّوح، وأنّ فينا مخاوف كثيرة. لذلك، يأتي ليقول لنا: "أنا هو الباب، [فلا تخافوا]!" (يو١٠: ٩)، لأنّنا خرافه وغنم مرعاه.

القطيع، عادة، يكون في السّوق؛ فيأتي إنسان ويشتريه؛ ويأخذه إلى حظيرته؛ ويسوقه، صباحًا، إلى المرعى ليأكل ويشرب؛ ومن ثمّ يعود به، في اللّيل، إلى الحظيرة لينام.

هذا هو واقعنا، بكلّ بساطة. نحن لا عمل لنا، على الإطلاق، إلّا أن نكون مثل الخراف الّتي يملكها الرّاعي، وراعينا هو الرّبّ يسوع المسيح: "أنا هو الرّاعي الصّالح" (يو١٠: ١١). هذه هي المرّة الأولى والوحيدة الّتي يقول الرّبّ فيها عن نفسه إنّه صالح. في مكان آخر من الإنجيل، صرخت امرأة قائلةً: "طوبى للبطن الّذي حملك، والثّديَيْن اللّذين رضعتهما" (لو١١: ٢٧). لكنّه رفع عن نفسه ذلك التّطويب، وقال: "بل طوبى للّذين يسمعون كلام الله ويحفظونه" (لو١١: ٢٨). كذلك، عندما قيل له: "أيّها المعلّم الصّالح..." (متّى١٩: ١٦)، نفى عن نفسه الصّلاح، وقال: "ليس أحد صالحًا إلّا الله وحده" (متّى١٩: ١٧). لكنّه، هنا، في إنجيل يوحنّا، يسمّي نفسه "الرّاعي الصّالح"، لأنّه كان يخاطب أناسًا بسطاء؛ فالّذين تبعوه كانوا إمّا صيّادي سمك، أو رعاة؛ إذًا، كانوا بسطاء النّفس، والفهم، والفكر؛ فلم يعقّد عليهم الأمور، بل أخبرهم بما يفهمونه ويعرفونه، قال لهم: "هناك بيت، وأنا هو الباب. هناك خراف، وأنا هو الرّاعي الصّالح؛ فلا تخافوا، لأنّني أتيت إلى هذا العالم لأجعلكم خرافي. وبعد أن تصيروا خرافي، لن يكون أحد قادرًا عليكم، لأنّني سآتي بكم إلى الحظيرة وأقفل الباب؛ فلا يأتي السّارق ليسرقكم، أو القاتل ليقتلكم، أو يذبحكم... لذلك، اطمئنّوا، وليكن لكم رجاء الخلاص، والسّلام، والرّاحة"...

إذًا، الرّبّ يطمئننا إلى أنّه لن يتركنا يتامى، بعد الآن، لأنّه أتى ليتبنّانا؛ حتّى نعرف أنّ لنا أبًا. لقد صار هو لنا أبًا، وبيتًا، وراعيًا. وهو يَعِدنا بأنّه سيبذل نفسه عنّا... هذا هو الوعد الّذي يقدّمه الرّبّ إلينا، اليوم، في إنجيله: "أنا سأبذل نفسي عنكم، أنا سأدافع عنكم، أنا سأموت عنكم، يوم يأتي العدوّ إليكم؛ فلا تخافوا! أنا أموت، لكي لا تموتوا أنتم، بل تحيوا. أنا سأموت وأقوم، لكي أؤكّد لكم أن لا موت فيّ، ولا ظلمة قبر، ولا جحيم، ولا هاوية؛ بل فيّ القيامة في اليوم الثّالث"...

هكذا، كان يقف المسيح مع الّذين يتبعونه، ويخبرهم بأسراره وأسرار الملكوت، وأسرار الآب السّماويّ، ويصف لهم كيف ستكون حياتهم معه وفيه. كان يعطيهم أمثالًا بسيطة، لتطمئنّ قلوبهم. واليوم، هو يقول لنا: "لن أترككم يتامى، بعد الآن"...

هناك، بيننا، مَن يتّمه الموت من أهله، وهناك مَن يتّمه كره أهله ومجتمعه له، وهناك مَن يتّم نفسَه من العالم ومن أهله، وأتى لاتبّاع السّيّد. كيفما كانت الظّروف، ومهما كانت، فالمهمّ هو النّتيجة، هو أنّنا هنا، في حظيرة الرّبّ يسوع، ولقد أتى بنا، وأدخلنا داخل البيت، ماسكًا بيده الحنون أيدينا وكلّ كياننا، وأقفل الباب علينا حتّى يحمينا. والخروف، بعد أن يعرف صاحبه، كالحمار الّذي يعرف قانيه، فإنّه إن ذهب وضاع فهو يعود وحده، أو يموت. هو يصرخ، لكي يأتي الرّاعي ويحمله، ويعود به. لذلك، لا تخافوا، إن ضاع أحد؛ فالرّبّ يترك التّسعة والتّسعين في الحظيرة، ويذهب إلى أعالي الجبال، أو إلى أعماق الوديان؛ ليأتي به.

المهمّ أن ننتظره، ونصرخ له؛ لكي يسمعنا. وإن تأخّر علينا، فلا نخافنّ؛ لأنّه في المساء، عند عودة القطيع، سيقف ويعدّ قطيعه واحدًا واحدًا؛ ليرى هل من غائب. والرّبّ يسوع المسيح لا يحتاج إلى أن يعدّ قطيعه، كالرّعيان، في المساء؛ لأنّه هو معنا، في أثناء النّهار، وعكّازه تدلّنا إلى الطّريق، ونحن نسمع صوته؛ فنتبعه. كما أنّه هو أيضًا يسمع أصواتنا؛ فإن عثرت أرجلنا، أو علقنا بأشواك؛ يهرع إلينا ويخلّصنا، ليعود بنا إلى سير القطيع. فقط، علينا ألّا نخاف، بعد اليوم. فقط، علينا أن نعرف أنّنا ننتمي إلى قطيعٍ، الرّبُّ هو راعيه وحده. فقط، علينا أن نحسّ بتلك الطّمأنينة: أنّنا مستدفئون بالقطيع، وبصوت الرّبّ، وكلمته.

إن كان أحد منّا لا يزال يشكّ، بعد، في أنّ خلاصه في هذا القطيع الصّغير؛ فليتوقّف عن شكّه؛ لأنّ كلمة السّيّد راعينا أتت إلينا، اليوم، لتقول لنا: "أنا هو الرّاعي الصّالح (يو١٠: ١١)، [لن أترككم. أنا معكم. أنا هو الباب الّذي سيغلق عليكم ليحميكم من السّرّاق. أنا الحظيرة الّتي ستحتضنكم وتحميكم]"؛ فلا تخف، أيّها القطيع الصّغير، لأنّ الرّبّ معك.

٢ تشرين الأوّل ١٩٩٥

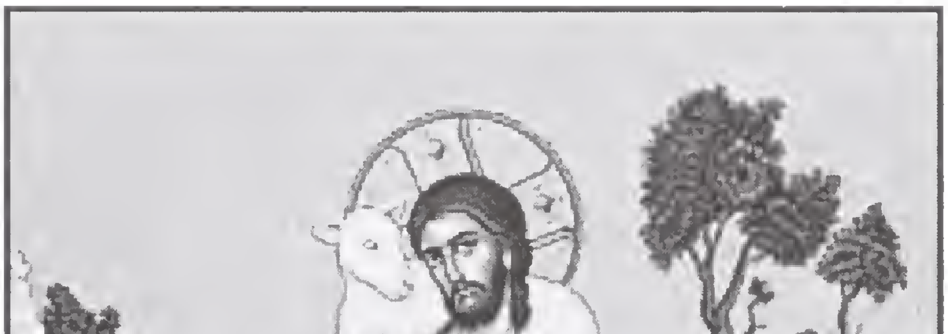

رأس الحكمة مخافة الرّبّ...*

(لو١٥: ١- ١٠)

في إنجيل اليوم، جوابان طويلان، من الرّبّ يسوع، عن فكرة واحدة فكّر فيها الفرّيسيّون، وقول واحد قالوه، وتذمُّرٍ واحد تذمّروه. قالوا إنّ هذا – أي يسوع – يقبل الخطأة، ويأكل معهم (لو١٥: ٢)؛ فأعطاهم الرّبّ مثلين: مثل الخروف الضّائع، ومثل الدّرهم الضّائع.

بالنّسبة إلينا نحن، بعد أن أقررنا بأنّنا خطأة، وأتينا إلى الدّير لنتوب، وننقّي أشواك قلوبنا، وأذهاننا، وأفكارنا، وعقولنا، ونفوسنا، وأرواحنا؛ ما لنا ولهذا المثل؟! الرّبّ ترك التّسعة والتّسعين، وذهب باحثًا عن كلّ خروف منّا، وأتى به إلى حظيرته، إلى ديره هذا؛ فجمعنا فيه. وباجتماعنا هنا جميعًا، صرنا قطيعًا صغيرًا يرعى في حقل الرّبّ: يأكل من نبات يطلعه الرّبّ له، ويشرب من ماء يسقيه إيّاه الرّبّ، ويغتذي من كلمة تظلّله، كخيمة الشّهادة، وتسكنه تحتها، لتقيه حرّ النّهار، وصقيع اللّيل، وخبط الشّياطين، وتجاربهم، واحتيالاتهم...

إذًا، "ما لنا ولهذا الإنجيل؟! إنّه ليس لنا!". هذا ما يقوله كلّ النّاس. هذا ما يفعله كلّ النّاس. وإلى حدّ ما، على هذا النّحو نحن نتصرّف، في عمق أعماق قلوبنا، إذ نميّز أنفسنا، ونحسّ بأنّنا خلصنا، وبأنّ العالم ما زال يسكن في الخطيئة، بعيدًا عن الله وعن كلمته. حسّ الخوف من الخطيئة ننساه، في بعض الأحيان! ننسى أنّنا ما زلنا مائتين في الخطيئة؛ وأنّ خطيئتنا، هنا، تتفجّر أكثر ممّا كانت تتفجّر في العالم... وبما أنّنا نميّز أنفسنا ونرفعها، فإنّنا كلّنا فرّيسيّون. نحن فرّيسيّون، بالنّسبة إلى العالم؛ لأنّنا ندينه، ونضع أنفسنا في مرتبة أفضل منه. نعتبر أنّنا خلصنا، فيما الآخرون لا يزالون في الخطيئة. والأهمّ من ذلك، أنّنا فرّيسيّون، بالنّسبة إلى بعضنا بعضًا. كلّ واحد منّا يدين أخاه. هكذا نبدأ.

---

* مز١١٠: ١٠؛ أم٩: ١٠.

وحتّى بعد ما تعلّمنا كيف ندين أنفسنا، فإنّنا ما زلنا ندين أخانا؛ لذا، نحن فرّيسيّون: "لماذا أنا أُنتَهَر؟! لماذا أخضع لرئيسي؟! لماذا يُقال لي ما عليّ أن أفعله، فيما أخي ساكن في التّراخي ولا يُقال له شيء؟!... هذه هي الدّينونة، وهذه هي الفرّيسيّة، وهذا هو الجحيم الّذي أُسكنه في نفسي، وفي ديري، وفي عائلتي الرّوحيّة الصّغيرة. هذا الجحيم هو "الأنا" التّي أدور حولها، فتشدّني إليها، وتغرقني. أنا أنظر "أناي" لأنّني لا أحبّ. لو كنت أحبّ محبّة صادقة روحيّة، لَكنتُ تصرّفتُ كما تصرّف صاحب الخروف الضّالّ، وصاحبة الدّرهم الضّائع، في هذين المثلين من إنجيل اليوم. ولأنّني لا أحبّ بصدق، أرى أخي غارقًا في ضياعه، ولا أسارع إلى مساعدته؛ لأنّني لا أريد أن أموت عنه؛ أو أبذل نفسي من أجله؛ أو أنتشله؛ أو أُرجعه، كما أرجعني الرّبّ صابرًا عليّ، حين مشى في حقل الشّوك، والجبل الوعر، وظلمة اللّيل، والصّقيع؛ ليأتي بي من شرودي...

هذا هو الدّم المبذول لأجل أخي! هذا هو العرق المتصبّب في ركعة صلاتي، والدّموع السّائلة، المنهمرة؛ لتغسل جراحات جسده وفكره، إذا غاب عنّي. والغيبة ليست بالجسد، بل هي بالرّوح والتّجربة. مَن منكم، إذا انتهره أحد إخوته، أو غضب في وجهه، يندفع ملقيًا بنفسه عند قدميه، قائلًا له: "سامحني، لأنّني أغضبتك! لا تجعل الجحيم يتحرّك في نفسك! لا، لا تفقد سلامك!..."؟! مَن منكم فعل هذا، ولو لمرّة، مع أحد إخوته، طول هذه السّنوات، أو الأشهر الّتي كنتم، في أثنائها، ساكنين في حظيرة الرّبّ هذه؟! مَن منكم، إذا شعر بأنّه لا يستطيع أن ينكسر هذا الانكسار الكلّيّ، الّذي ذكرته الآن، يستطيع، على الأقلّ، أن يطأطئ الرّأس قائلًا: "سامحني لأنّني أغضبتك"؟! أو أن يقول في نفسه: "أنا مخلّع، ولست أعرف كيف أتصرّف، وما زلت مشدودًا بأنانيّتي إلى ذاتي"؟!... ولكن، حتّى الآن، ما زلت أرى ردود فعل فيها الكثير من الكبرياء؛ فبدلًا من أن نتصرّف على نحو ما ذكرت، ننفعل في وجه الآخر، ونغضب عليه، ونرفض تصرّفه، أو كلامه... مَن منكم أحبّ ولو قليلًا، حتّى يحتوي الآخر؟! مَن منكم قال: "هذا مسيحي مُعذَّب ومجروح في أخي"؟!...

"رأس الحكمة مخافة الرّبّ" (مز١١٠: ١٠؛ أم٩: ١٠)! عليّ أن أخاف من الآخر، من الله السّاكن في الآخر؛ فلا أجيبه إذا صرخ بي، ولا أرفع الطّرف، ولا أنفعل...

هذا هو ربّي وسيّدي، ساكن في كلّ واحد من الجماعة. وإن قال كلمة، فعليّ أن أطأطئ الرّأس، وأشكره؛ لأنّه، بهذا، يعلّمني الصّبر، والانكسار؛ بهذا، يُنشئ نفسي على الوداعة؛ بهذا، لا أبقى متكبّرًا، متعظّمًا، رافضًا أن أُنتهَر، أو أن يُغضَب عليّ، أو أن تُوجَّه إليّ ملاحظة...

"رأس الحكمة مخافة الله". هكذا، عليكم أن تبدأوا، في كلّ يوم من أيّامكم، بمخافة الرّبّ السّاكن في إخوتكم؛ فإذا ما قال الرّبّ كلمة لكم من خلالهم، فعليكم أن تطأطئوا الرّأس، وتسمعوا... في إحساسنا العميق، علينا أن نلتزم تلك الوحدة، وهذا الموقف الّذي يجعلنا نفتقر إلى الآخر، ونبحث عنه، ونسعى لإرضائه في المسيح، وحصرًا في المسيح. هذه الغربة، الّتي يتحدّث عنها الآباء، هي مدخلنا إلى الخلاص، وإلى الحياة الرّوحيّة الحقيقيّة. غريب أنا وليس من مكان أُسند إليه رأسي. بهذا أفتقر إلى محبّة الأخ، والأخت، والأب، والأمّ. بهذا أسعى لإرضائهم فيّ؛ فأبحث عن الخروف الضّائع، الّذي هو المسيح.

مشكلتنا هي أنّنا، بعد أن نلتئم في دير، وفي جماعة؛ يصير الضّائع الوحيد هو الرّبّ يسوع المسيح! يصير هو الخروف الضّائع، والفلس الضّائع! صدّقوني، لو لم تكن هذه هي الحقيقة، أنّ المسيح هو الخروف الضّائع والفلس الضّائع؛ لَكانت رهبنات هذا العالم خلّصت العالم. لكنّنا، يومًا فيومًا، ننسى الأساس، ننساه هو، ونبدأ بالبحث عن أنفسنا، عن كراماتنا، عن احتياجاتنا، عن أنانيّاتنا... نريد أن نُثبت أفكارنا ومواقفنا... نريد أن نكون في غيبة عن المسيح يسوع! لو كنّا نحبّ الرّبّ من كلّ قلوبنا وأفكارنا، لَكنّا بكينا قدّام كلّ خاطئ، ولأجل كلّ أخ مجرّب، ولكنّا احتضنّا الآخر بالصّلاة، والصّمت، والدّموع؛ حتّى يعود إلينا من غربته، من تجربته، من خبط الشّيطان له. وعندما يعود، نسكب دموعنا على جراحاته، ونفرح به، كما الرّاعي بخروفه الضّالّ، وكما المرأة بفلسها...

ألا أعطانا الرّبّ هذا الحبّ، وأخرجنا بحبّه من فرّيسيّتنا، وأقامنا حظيرةً واحدة يُدفئ قلبه فيها، ويُدفئنا بحبّه وحنانه...

١٥ تشرين الثّاني ١٩٩٥

الطّاعة ملح النّعمة

(مر٩: ٤٢- ٥٠، ١٠: ١)

قراءة الإنجيل، اليوم، مهمّة جدًّا، في حياتنا؛ لأنّها تدلّنا على الطّريق المؤدّية إلى الملكوت، وتعلّمنا كيف علينا أن نحيا حتّى نسير في تلك الطّريق؛ لنصل، عبرها ومنها وعليها، إلى الرّبّ يسوع المسيح.

موضوع الإنجيل هو الشّكّ. وقد ركّز الإنجيليّ مرقس على الشّكّ، وكرّره أكثر من خمس مرّات، في هذا المقطع، الّذي يبدأ بالشّكّ الآتي إلى الصّغار من الخارج. إذًا، إن كنّا صغارًا، في الحقيقة، فالصّغير لا يشكّ، بل يصدّق كلّ شيء. أمّا الشّكّ، فيأتي به الشّيطان من الخارج، ويزرعه في الصّغار المؤمنين بالله. هنا، تجدر الإشارة إلى أنّ الإنجيليّ ركّز على أنّ الشّكّ يأتي إلى الصّغار المؤمنين بالله: "مَن أعثر أحد الصّغار المؤمنين بي، فخير له لو طُوّق عنقه بحجر رحى، وطرح في البحر" (مر٩: ٤٢). عندما ينبثّ الشّكّ في الإنسان، تنقسم إرادته ومشيئته، ولا يبقى وحدةً واحدة موحّدة مع الله؛ فيصبح هذا الشّكّ، الآتي من الخارج إلى الصّغار، طبيعةً، أو جزءًا من طبيعة المؤمن، ويصبح فعلًا فيه. يقول الإنجيليّ: "إن أعثرتك يدك، فاقطعها. خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنّم، إلى النّار الّتي لا تُطفأ، حيث دودهم لا يموت والنّار لا تُطفأ..." (مر٩: ٤٣- ٤٤). هذا قول مخيف، وقاطع، ولا شكّ فيه! في الحياة مع الرّبّ لا مجال للشّكّ. إذًا، كيف يتدارك المؤمن يده، أو رجله الّتي تشكّكه؟! هنا يقول: اقطع يدك، اقطع رجلك، اقلع عينك...

مع الرّبّ يسوع لا مجال لحلّ وسط. إن أرادت يدي أن تسرق، أو أن تمتدّ إلى الخطيئة، أو إلى فعل الزّنى، أو إلى فعل مشيئتها... فهل أسمح لها؟! هنا، يتدارك الإنجيليّ مرقس الكلام الإلهيّ، ويؤكّد أنّنا، في المسيح، ليست لنا إرادة، إلّا إرادة المسيح. هذا ما يريد أن يقوله الرّبّ: في المسيح، وفي الحياة الرّوحيّة، ليست لنا إرادة، إلّا إرادة الرّبّ. هذا

هو جهادنا، وهذا هو ملء النّعمة الّتي يجب أن نسعى للوصول إليها.

الشّكّ انبثّ في أجسادنا وكياننا، في إنساننا، بسقوط آدم في الخطيئة الأولى، بالشّكّ في كلام الله، إذ إنّه طلب إلينا ألا نلمس ثمرة معرفة الخير من الشّرّ، لكنّنا لم نطع الكلمة الإلهيّة. إذًا، نحن خالفنا الوصيّة، خالفنا النّاموس الإلهيّ، لم نطع الرّبّ. وفي هذا الإنجيل، نعود إلى الخلق الأوّل، إلى جذر الخطيئة؛ لنتعلّم كيف سقطنا، وكيف نقوم، إذا أردنا ذلك.

إذًا، الخطيئة كانت نتيجة العصيان، نتيجة عدم الطّاعة. لذلك، الجواب هو بالطّاعة. هذا أمر بسيط جدًّا، إذا أحببنا الرّبّ يسوع، وإذا أحببنا مَن أوكل إليهم الرّبّ يسوع أن يعلّمونا الطّريق الصّحيحة، وأيضًا، إذا أحببنا الرّبّ يسوع فينا. هنا، ندخل في سرّ حركة الحبّ هذه.

ولكن، لا تخافوا؛ فنحن منقسمون إلى اثنين: من جهة، إلى إنسان عتيق، إنسان العصيان الّذي يريد أن يمتدّ بيده، ورجله، وعينه، إلى الخطيئة؛ ومن جهة أخرى، إلى إنسان المسيح، إنسان الإرادة الجديدة – إرادة النّعمة والحياة الأبديّة، الّذي يطيع ويحجم عن الخطيئة، بل يكرهها في نفسه، ولا يريد أن يحياها بعد. هنا، تبدأ المسيرة، ويبدأ الانتباه، وحركة الحياة الفعليّة الرّوحيّة فينا، نحن الرّهبان، في أديارنا، ومع وفي كلّ مَن يريد أن يطيع المسيح، ويحيا إنجيله في تفاصيله. يدي تريد أن تمتدّ إلى الخطيئة؛ أمّا أنا، في الوصيّة الإنجيليّة، فلا أريد أن أحيا في الخطيئة؛ فهل أقطع يدي؟! هل هذا الكلام، هنا، فعليّ؟! هل الرّبّ يسوع المسيح، الّذي خلقنا على مثاله ويريدنا أن نبقى في البهاء الأوّل، يريد أن نصل إليه أجزاء، لا أعين لنا، ولا أرجل؟! الجواب هو جواب روحيّ، والفعل هو فعل إراديّ روحيّ. أن أقطع يدي يعني أن أمنعها من الامتداد ولو لأكل حبّة عنب واحدة، خارج وقت الطّعام؛ أو لفعل أيّ شيء لم يُعطَ لي الإذن لأفعله؛ أو، لا سمح الله، للسّرقة؛ أو ارتكاب خطيئة ما... هكذا، ننتبه لأدقّ التّفاصيل، حتّى نصبح دقيقين مع أنفسنا. كذلك أرجلنا، هل نسمح لها بأن تذهب إلى أماكن لم نأخذ الإذن للتّردّد إليها؟! أو إلى أماكن فيها شرّ؟! ونحن، الرّهبان، إلى أين نذهب؟! فقط، إلى المكان الّذي أُعطيت لنا البركة للذّهاب إليه: إلى قلالينا لنصلّي، ونسجد، ونبكي؛ إلى الكنيسة؛ إلى

أماكن عملنا؛ لا إلى مكان آخر. أمّا أعيننا، فلا بدّ لها من أن تنظر وتشتهي: ربّما الطّعام، أو حاجات جديدة للآخرين، أو ما يأتينا، أو ضيفًا، أو تستحلي طلّةً، أو أختًا، أو أخًا، أو أبًا، أو أمًّا، أو طفلًا... المهمّ، في كلّ هذا، أن نمتلك إرادة المسيح؛ حتّى لا نخطئ.

هذا هو الملح الّذي يتحدّث عنه الإنجيليّ مرقس، اليوم، والّذي نملَّح به حتّى لا نخطئ. إنّه الإيمان بكلمة الرّبّ يسوع، وبفعل خلاصه، وإرادته فينا. هكذا، نقف قدّامه صارخين: نحن عارفون أنّنا ضعفاء، وأنّ إراداتنا منقسمة، وأنّ أجسادنا تريد أن تذهب إلى الخطيئة. لكنّنا، بكلمتك وإرادتك فينا، لا نريد ذلك...

هكذا، يبدأ نموّ الإنسان الجديد، أي إنسان النّعمة، بوجه الإنسان القديم، أي إنسان العصيان وعدم الطّاعة. لذلك، يبارك الآباء الطّاعة، كأوّل سلاح للرّاهب. بالطّاعة نخلص، يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة. بالصّبر الّذي يولّد التّواضع والدّموع، بالصّراخ، بترجّي الرّبّ يسوع، والإيمان به، بالاتّكال على كلمته الّتي يعطينا إيّاها بوساطة الموكلين بنا؛ نخرج مظفَّرين بوجه إنسان الشّكّ الّذي زرعه العصيان فينا. ولكن، اصبروا، وملّحوا حياتكم بثلاثة: **بالإيمان بالرّبّ يسوع وطاعته، وبالصّبر على أنفسكم، وبالدّموع والصّراخ**: "ربّي، أنا أتيت إليك لكي أولد من جديد فيك ومنك؛ فأصبح إنسان النّعمة، إنسان النّور، إنسان الحياة الأبديّة؛ فآزرني، يومًا بعد يوم، لحظة بعد لحظة، حتّى أتأجّج بنار حبّك، حتّى أُملَّح بنار حبّك... هكذا، يصبح حبّك ملحي؛ فلا أعود أنساق إلى إنساني العتيق، الّذي يريد أن يمدّ يديّ ورجليّ وعينيّ إلى الخطيئة"...

فلنؤمن بما أتينا لأجله، ألا وهو الخلاص بالرّبّ يسوع المسيح.

٢٧ تشرين الثّاني ١٩٩٥

السّبت وشريعة الحبّ

(مر٢: ٢٣- ٢٨، ٣: ١- ٥)

الموضوع، اليوم، هو موضوع "يوم السّبت". وهذا قد قيل فيه الكثير، منذ أن تجسّد الرّبّ يسوع وحتّى الآن. ما هي مشكلة يوم السّبت؟!

الموضوع يتمحور، من جهة، حول القانون، والأحكام، والأعراف؛ الّتي يضعها الإنسان، لضبط حياته؛ ومن جهة أخرى، حول الاتّكال على روح الرّبّ الفاعل في هذا الكون وفي الإنسان. إذًا، المشكلة تكمن بين الرّوح والقانون، بين القلب والعقل، بين الحياة المعاشة في الرّبّ والأنظمة الموضوعة على الإنسان لكي لا يُخطئ، ولا يزلّ، ولا يؤذي أخاه. السّؤال الأوّل هو: "هل كان في الفردوس نظام؟! أو قانون؟! أو أعراف؟! أو وصايا؟! بماذا كان يتحدّث الرّبّ مع آدم وحوّاء خليقته؟! كان يتحدّث معهما بالحبّ، بالقلب المنكشف المنفتح على الآخر؛ فأنا أتلقّف ما يريده الآخر من دون نطق، من دون كلمة، من دون أمر، من دون قانون... أنا منفتح على الآخر والآخر منفتح عليّ بروح الرّبّ السّاكن فينا، والفاعل فينا. وكان آدم وحوّاء "يسمعون" كلمة الرّبّ في "قلوبهم"، و"كانوا يعيشون" كلمة الرّبّ في "أحشائهم". هنا، أستعمل صيغة الجمع لا المثنّى، لأنّ آدم وحوّاء ما كانا اثنين، فقط، إنّما الخليقة بأسرها.

كلّ حيوانات الفردوس، وكلّ الخليقة كانت تحيا مع الرّبّ بروح الرّبّ، كمثل الثّالوث. هل تظنّون أنّ هناك مَن يعطي أمرًا في حياة الثّالوث؟! الآب في الابن والرّوح القدس، والرّوح القدس في الآب والابن، والابن في الرّوح القدس والآب. لكلٍّ خاصّيّته وأقنومه، لكنّ الثّلاثة واحد في الحبّ، في الانكشاف الكامل على الآخر، في البذل لأجل الآخر، في صنع مشيئة الآخر. الرّبّ يسوع الابن قال للآب: "إن استطعت أن تبعد عنّي هذه الكأس، ولكن لتكن مشيئتك لا مشيئتي" (لو٢٢: ٤٢). في الحبّ ليس هناك من مشيئة فرديّة، بل مشيئة الثّالوث، مشيئة الآخر فيّ، ومشيئتي أنا في الآخر. أنا لا أحيا

بذاتي، ولا أحيا لذاتي، بل أحيا لأجل الآخر، ولأجل الجماعة. هكذا، أحيا لأجل الله. فأين القانون؟! أين النّظام؟! أين الّذي أفعله وما لا أفعله؟!... في الحبّ ما من خطيئة. الّذي يحبّ لا يخطئ، لأنّه يفعل مشيئة الآخر. ونحن، إن أخطأنا، فإنّنا نخطئ تجاه الآخر، ونؤذي الآخر. الخطيئة دائمًا تؤذي الآخر، تؤذي الجماعة؛ وفي النّتيجة، تؤذي النّفس. مشكلة الخطيئة أنّها تجرح النّفس؛ فتصير هذه الأخيرة مثلومة، وتفقد نضارتها الأولى، وشفافيّتها الأولى الّتي خلقها عليها الرّبّ.

المحبّة الفاعلة في الثّالوث هي المحبّة الّتي يرجوها الله لنا، في حياتنا، حتّى نصير على شاكلة الثّالوث. وكلّما شُكّلنا على شاكلة الثّالوث، نقترب من الألوهة، من الصّورة الّتي خلقنا عليها، والّتي علينا أن نحيا، في كلّ لحظة، لإتمامها. كيف نحيا هذا التّوق؟! كيف نحيا هذا الحبّ الثّالوثيّ؟! بالطّاعة!

هذا الكلام قد سمعتموه، منذ سنوات طويلة، وما زلتم تسمعونه. ولكن، هل هو فاعل فيكم؟! ماذا تعني كلمة "الطّاعة"، بالنّسبة إلينا؟! الطّاعة هي الحبّ. الّذي يحبّ، يطيع: يطيع الآخر حتّى يمتدّ به، وهو والآخر يمتدّان بالله. فإن أنا أطعت الآخر، فإنّني أقترب خطوة من الله. وكلّما تمّمتُ مشيئتي، أبتعد خطوات عن الله. البنيان صعب وطويل؛ أمّا الهدم، فسريع. ماذا أبني، في كلّ يوم؟! أبني وقفة قدّام العليّ، ويدَيْن منبسطتين، وقلبًا منفتحًا، وأقول: "هلمّ واسكن فيّ". وعندما يسكن الإله فيّ، لا أستطيع إلّا أن أطيع. مشكلة الإرادة الشّخصيّة غير موجودة أصلًا. إنّها مشكلة اختلقها الشّيطان، ليزرع الفُرْقَة بيني وبين الإله، وبيني وبين الآخر. قال لي: "أنت فرد مهمّ، لك فكرك، لك رأيك، لك إرادتك، لك كلمتك... فنمّها وقوّها! وعندما تصبح ذا مشيئة، تصبح ذا شخصيّة تفرضها على كلّ مَن حولك"... ألم نُربَّ على هذا النّحو؟! أليس هذا ما تعلّمناه في بيوتنا، ومدارسنا، ومجتمعاتنا؟! ونحن، إذ نحيا، الآن، في بيت الرّبّ، إنّما نحيا آنّين، ومتألّمين، ومجاهدين، ومقاتلين أنفسنا حتّى "نكسرها"؛ حتّى تموت "أنانا"؛ حتّى لا نحيا في أنفسنا، بل مَن يحيا فينا هو الرّبّ يسوع والرّوح القدس: "لست أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فيّ" (غلا٢: ٢٠)، "فحبّة الحنطة إن لم تقع وتمت، فلا تعطي ثمارًا" (يو١٢: ٢٤).

في الحبّ، هناك اثنان: الله والآخر. أمّا أنا، فغير موجود ولا منفعل. هذه هي

مسيرة النّسّاك والرّهابين، عبر الأيّام، حتّى يصلوا إلى النّسك، إلى اللّاهوى. أنا لا أريد شيئًا، بعد؛ إنّما، فقط، أريد الرّبّ يسوع والآخر؛ لأصبح نفخة الرّوح القدس الفاعلة، من حولي، في كلّ مَن أخدم، في كلّ مَن أحبّ، في كلّ مَن أشفي. هذا ما قامت عليه القيامة، منذ بدء الخليقة وحتّى أيّام الرّبّ يسوع. هذا هو "السّبت" الّذي يتكلّم عليه، اليوم، إنجيل مرقس. حينما يُلغى الحبّ، يظهر القانون! عندما تموت النّفس، تولد الشّريعة! لهذا، أتت الوصايا الإنجيليّة الجديدة، وصايا الرّبّ يسوع، لا متمّمَةً وصايا العهد القديم، فقط، بل مُوجِدةً أيضًا حقيقة جديدة، حياة جديدة، رؤية جديدة، ولادة جديدة. الوصايا أتت من الحبّ. **الحبّ** هو الوصيّة الجديدة، وهو الوصيّة الوحيدة. أمّا "السّبت"، فهو القيد، والرّباط الّذي يقزّمني؛ لكي لا أحيا الله بكلّيّته فيّ وفي الآخرين. "السّبت" لا يحبّ؛ لأنّه لو أحبّ، لَكان سمح للجياع بأن يأكلوا، ولليابس اليد بأن يُشفى... "السّبت" هو مرض الإنسانيّة السّاقطة، هو الكبرياء، هو العين النّاقدةُ الآخرَ والحاكمةُ عليه، والقلبُ القاسي تجاه الآخر. "السّبت" يميت الرّوح، ولا يموت عن الآخر، لكي يحيا هذا الأخير. "السّبت" هو ضدّ المسيح الّذي تجسّد ليعطي كلّ ما عنده، ولا يُبقي شيئًا لذاته؛ يعطي الحياة النّازلة من السّماء فيه، لكي تتحوّل البشريّة عن "السّبت" في خطيئتها، وتصبح قلبًا مبذولًا، ودمعة مهراقة، ومشيئة مقطوعة. "ضرب" المسيح "السّبتَ"، لأنّ "السّبت" ديّان: "مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمها، أوّلًا، بحجر" (يو٨: ٧). هكذا كان اليهود يحيون، وهذا ما نحياه نحن، حتّى اليوم: نحن ندين الآخر، نضع أحكامًا ميتة، لنقيّد بها الآخر، ونربطه إلى الموت، إلى التّفاهة؛ نربطه بعيدًا عن المسيح، الّذي مات لأجل كلّ البشريّة.

المسيح لم يأتِ لأجل الأورثوذكسيّين، أو المسيحيّين فقط. المسيح أتى ليخلّص البشريّة جمعاء. لهذا، صُلب عن البشريّة حبًّا بها. ونحن، إن أردنا أن نحيا المسيح؛ فعلينا بالطّاعة لمشيئته، وإرادته، وحبّه، وصليبه. أنا أُصلَب عن أخي، فيحيا فيّ وأنا فيه، ونحيا معًا في المسيح. إن فعلنا هذا، في نطاقنا الصّغير، فإنّنا نكون قد بدأنا بتقديس البشريّة من موتها. ما من قانون إلّا قانون الحبّ، وما من وصيّة إلّا وصيّة الحبّ، وما من حياة إلّا حياة الحبّ. بالحبّ أطيع، وبالحبّ أقطع مشيئتي، وبالحبّ أنكسر، وبالحبّ أُصلب عن

الآخر... بالحبّ أبكي عن البشريّة جمعاء، وأرفعها إلى الرّبّ. وفي هذا، ليس هناك من "سبت". "السّبت"، بالنّسبة إلى الفرّيسيّين، والكتبة، واليهود، بعامّة، هو أن أحيا أنا ويموت غيري. لذلك، كانوا يمنعون أكل الزّرع، وشفاء المرضى، يوم السّبت. إذًا، "السّبت" قاتل للجائع والمريض. أمّا في الحياة مع المسيح، فما من قانون، إلّا قانون الصّليب؛ وما من حبّ، إلّا حبّ الصّليب؛ وما من حياة، إلّا حياة المصلوبيّة عن الآخر. المسيح معنا وفيما بيننا كائن وسيكون. هذا أوان الرّضى، هذه وقفة الحبّ؛ فلنمدّ أيدينا، في هذه الوقفة، ولنقل للرّبّ يسوع: "أنت سيّدي، لا فقط فيّ، بل في الآخر أيضًا. لهذا، أنا أطيع الآخر، لأنّي أطيعك. وإذ أطيعك، فلا بدّ لي إلّا وأن أطيع الآخرين في المسيح، فيك".

هكذا، يُلغى كلّ نظام، وكلّ قانون، وكلّ شريعة، وكلّ "سبت"؛ ويبقى، فقط، قلب الله، وروح الله الفاعل فينا وفي الكون أجمع. على هذا الرّجاء نحيا، لكي نصل إلى قيامة الحبّ، إلى حياة الحبّ في الرّبّ يسوع، وفي أحبّته، من دون سبت.

١٥ كانون الأوّل ١٩٩٥

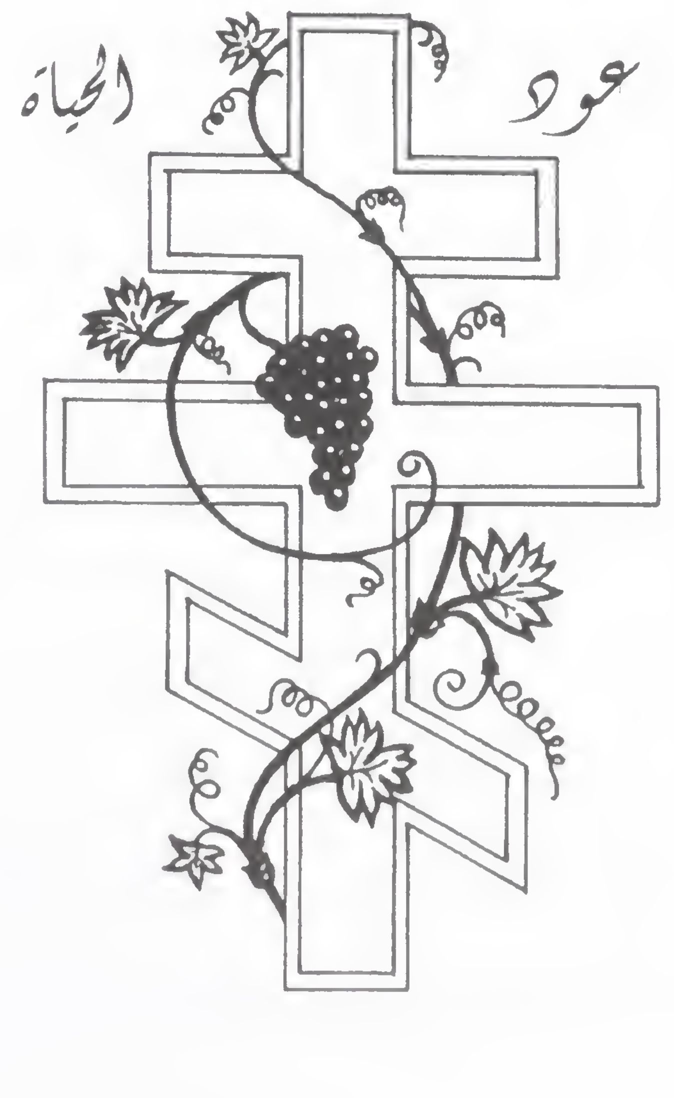

البتوليّة في الحبّ والكره المبارَك

(لو١٤: ٢٥- ٣٥)

عجيب هو أمر ربّنا، وسيّدنا، وإلهنا، يسوع المسيح. في الحقيقة، إنّه غير مُدرَك ولا مفهوم!

في إنجيل اليوم، يقول لنا الرّبّ كلامًا سمعناه وقرأناه كثيرًا. إنّه يعطينا وصيّة، يتحدّث فيها عن البغض. وهو، هنا، إنّما يوصي بالبغض جموعًا كثيرة، كما يقول الإنجيليّ لوقا، كانوا سائرين معه، وكأنّه أضرم النّار بينهم لتحرق مَن تحرقه، وتغربل مَن تغربله. لقد أخافهم وروّعهم! أنزل على رؤوسهم جمر نار: "إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وامرأته وأولاده وإخوته حتّى نفسه أيضًا، فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا..." (لو١٤: ٢٥- ٢٧). إذا أردنا أن نأتي إليه، فإنّما نأتي إليه بالحبّ؛ لأنّنا منجذبون إليه بقوّة لا نفهمها، ولا نستطيع أن نفسّرها. كلّ مَن يأتي إلى الله، يأتي من الله إلى الله. لكن، كيف نحبّ السّيّد، وكيف يطلب إلينا أن نأتي إليه بالحبّ؛ وفي الوقت نفسه، يوصينا بالبغض؟! ومَن علينا أن نبغض؟! أنبغض الّذين ولدونا، وسهروا علينا، وأطعمونا وألبسونا، وأرسلونا إلى المدارس، وهيّأوا لنا أجواء الحنان في المنزل: آباءنا، وإخوتنا، وأخواتنا، وأزواجنا، وأولادنا؟!... أيريدنا أن نكره كلّ هؤلاء ونأتي إليه؟! إنّنا لا نفهم كيف يريد الرّبّ أن يحوي هذا القلبُ الصّغيرُ البغضَ والحبَّ، في آن! كيف يريد الرّبّ، الحاوي البرايا بأسرها، أن نحبّه بالكلّيّة؛ وأن نبغض، أيضًا، بالكلّيّة؛ هو الّذي أعطانا الوصيّة الأولى، قائلًا: "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ قدرتك، ومن كلّ فكرك"؟! (لو١٠: ٢٧)

لهذا، كما قال الإنجيليّ، اليوم، خاطب الرّبّ الجموع الكثيرة؛ ليفرزها. ولهذا، يعجز الكثيرون عن المجيء إلى صليب الرّبّ الحقيقيّ؛ لأنّهم، في الدّرجة الأولى، لا يتبعون **هذه الوصيّة**؛ الّتي **هي**، اليوم، **أساس اتّباع الشّهادة إلى الجلجلة، إلى الصّليب**. "مَن

يخلّصني من جسد الموت هذا؟!" (رو٧: ٢٤). هكذا صرخ الرّسول بولس، لأنّه قال، في مكان آخر، إنّ إرادة جسده تريد شيئًا؛ وإرادة نفسه تريد شيئًا آخر؛ والّذي لا يريده يفعله؛ أمّا الّذي يريده، فلا يفعله (رو٧: ١٥...). هذا التّشرذم في النّفس البشريّة هو علامة السّقوط، هو السّمّ الّذي نقتنيه. الحيّة سكنت فينا، منذ أن قبلنا غوايتها! هذا هو الاحتيال الرّقيق النّاعس، الّذي لا نستطيع أن نقبض عليه، والسّمّ لا يُرى ولا يُقبض عليه، بل يدخل الجسدَ خلسة ليميته.

في هذا الإنجيل، يعطينا الله كلمته، بعد ميلاده، وهي الكلمة نفسها الّتي أعطاها للبشريّة جمعاء، منذ الأزل، من خلال مسيحه؛ قائلًا لنا إنّ علينا أن نحمل فينا لا إنسانَ المسيح فقط، ولا إنسان الأبديّة والحياة وحده؛ بل صار علينا، أيضًا، أن نحمل فينا إنسانَ الموت، والخديعة الكبرى، والكذبة. هكذا، فقد الإنسان بتوليّته الأولى. وما هي البتوليّة الأولى؟! إنّها خلق المسيح الأوّل في الفردوس. وهذا الخلق هو ألاّ نرى إلاّ وجه الله، وألاّ نسمع إلاّ كلمة الله، وأن نفرح في فردوس الله مع كلّ خليقته. هذه هي العذريّة! هذه هي البتوليّة! هذا هو الحبّ! لكنّنا سقطنا، وأحببنا غير الإله، وركعنا لغير الإله، واغتذينا واستقينا من غير جنب الإله. لذلك، هو يأتي، اليوم، في ميلاده؛ ليقول لنا إنّنا، إن أردناه، إن أردنا ولادة جديدة معه، وفيه، ومنه، وبه؛ فالطّريق واحدة، وهي أن نحمل حبّه، وكرهنا لأنفسنا، ولأمّهاتنا، وآبائنا، وإخوتنا، وأولادنا، وزوجاتنا، وأزواجنا...

الكنيسة وعت، في عمق لاهوتها، هذا السّرَّ العظيم. لذلك، رتّبت أن تعيّد لمريم أمّ الإله، لأمّ الكون، لأمّ الخليقة أجمع، لأمّ النّور، في اليوم الثّاني لميلاد السّيّد ابنها، شاكرةً إيّاها لأنّها اقتبلته في أحشائها، وقالت "نعم" للإله؛ وكانت، بهذا الفعل، تحمل العربون الأوّل للكره الّذي يتحدّث عنه الرّبّ، اليوم، باقتبالها بشارةَ الملاك، وأمرَ الرّوح القدس. لقد كرهت مريمُ نفسَها، وسُمْعَتَها، ومجتمعَها، وأهلَها، وكيانَها. مَن يفهم هذا السّرّ العظيم؟! مَن يفهم كيف تحبل فتاة عذراء، وهي نور الصّبح الطّالع، وأن تلوّث بتوليّتها بابن، على حدّ ظنّ النّاس؟! وكيف يعرف النّاس أنّه من الرّوح القدس؟! بالنّسبة إليهم، هي زانية؛ فارجموها! هكذا فكّر يوسف، والإنسان العتيق الّذي فيه، وكلّ واحد منّا. ألسنا كلّنا ندين البشريّة؟! ألا ندين بعضنا بعضًا، في كلّ لحظة؟!... فلْنعد إلى الأساس! مريم، باقتبالها

المسيح، أحبّت خالقها بكيانها كلّه، وقالت له: "هلمّ واسكن فيّ"، وكرهت كلّ ماضيها؛ فكانت عربون الحبّ والكره، وصارت لا تهتمّ إلاّ به. بعدها، طلبت الكنيسة من العالم أجمع أن يقتبل الشّهادة؛ فكان استفانوس أوّل الشّهداء، إذ شهد بحياته، وزجم حتّى الموت؛ وانفتحت أبواب السّموات له، وبعده.

واليوم، أيضًا، نعيّد لشهداء نيقوميذيّة العشرين ألفًا. عشرون ألف شهيد، في نظر الكنيسة، هو عدد رمزيّ يمثّل البشريّة. كلّ البشريّة تموت وتحترق، لأنّها تريد أن تشهد للمسيح. هذا رمز جديد آخر، وكأنّ الكنيسة تريد أن تقول، بالرّوح القدس، إنّ مريم ماتت بالحبّ عن نفسها، وكذلك فعل استفانوس؛ لكي تحذو البشريّة حذوهما. هذا ما نحن مدعوّون إليه، اليوم.

كان حول السّيّد جموع كثيرة، وقد نظر إليهم بحبّ. لكنّه انزعج، وخاف من أن يبقوا معه عميانًا. لذلك، قال لهم: لماذا تتبعونني؟! عمَّ تبحثون؟! إذا أردتم أن تتبعوني، فموتوا عن ماضيكم، عن أهلكم، عن أجسادكم!... موتوا عمّا يعطي هذا الجسد، وعمّا أعطيَ له، وتعالوا إليّ، إلى حياة جديدة، إلى خليقة جديدة، إلى ولادة جديدة هي الصّليب. مَن منّا يكره، في الحقيقة، أهله، وماضيه، وإخوته، وأخواته، وأولاده، وكلّ ما ترك له في هذا الجسد؟! مَن منّا ليس متعلّقًا بشيء من ذاته، أقليلًا كان أم كثيرًا؟! فلنكن صادقين! مَن منّا قادر على أن يقف قدّام الرّبّ ويصرخ: "لن أتزعزع من هنا! فليرجمني الكون بأسره، فأنا لن أتركك؛ بل سأحمل، في ذاتي، وصيّتك إنسانًا جديدًا، لأحارب به إنساني العتيق؛ فأنا لست، بعد، واحدًا، بل اثنان. وها أنا أقدّم وعدًا جديدًا أنّي، منذ اليوم، منذ ولادتك فيّ، سأعلن حربًا على نفسي، بجنود القوّات السّمويّة، ليحاربوا جنود بشريّتي"...

في الحياة الرّهبانيّة، وبعد أن نكون قد استقررنا في هذه المسيرة، وتركنا أهلنا – وأرجو أن نكون قد تركنا تعلّقنا بالعالم وأشيائه – نصل إلى هذه الثّنائيّة المباركة؛ فيصير عندنا أب جديد هو الكبرياء، الّتي علينا أن نحاربها؛ وأمّ جديدة هي الأنانيّة، الّتي علينا أن نقتلها، في كلّ يوم. كذلك، علينا أن نهرب من إخوتنا الّذين يكبّلون أقدامنا بعواطفهم، واحتيالاتهم المتمثّلة بالعناد والغضب، اللّذين يصيران أولادنا؛ فبدلًا من أن نعطي ثمرة صالحة، هي الوداعة، والاتّضاع، والسّلام؛ نعطي عدم التّحمّل، والالتفات إلى "الأنا"،

والكسل، والشّراهة، وعدم المحبّة...

أترون كم أنّ جهادنا صعب، ومبارك، وحقّانيّ؟! أرأيتم، الآن، لماذا النّاس في الكنيسة والعالم أصبحوا ينظرون نظرة تعلو صوب الرّهبنة والرّهابين؟! هذا لأنّهم يعرفون أنّ هؤلاء يتعاملون بعُمْلة لا يملكها أهل هذا العالم، بعملة نادرة إلهيّة، تخوض إلى عمق هذا البحر. وبكلّ ما هو مزروع في هذا العمق، تلتصق بهذه العملة أسماك تريد أن تشاكل الرّهبان، وتكبّلهم؛ لتمنعهم من الاستمرار للخروج روحًا نقيّة، مضيئة، متوجّهة صوب الإله.

حَمْلُ الصّليب، وهو الوصيّة الأخيرة في إنجيل اليوم: "مَن لا يحمل صليبه ويتبعني، فلا يستطيع أن يكون لي تلميذًا" (لو١٤: ٢٦)، هو أن نعرف أنّنا نحمل، لا كيانًا موحّدًا، بل ذاتًا منقسمة بجسدها المريض بالأهواء، والآلام، والأوجاع... وهو، أيضًا، أن نحمل النّفس المهترئة، الّتي تأبى الطّاعة والجهاد، ومن ثمّ تأبى الحبّ؛ وأن نحمل هذا الرّوح الإلهيّ، هذه النّعمة الآتية إلينا من الرّبّ، والّتي تقيمنا، في كلّ يوم، من دفء فراشنا؛ حتّى نقع عند قدميه ساجدين، ثمّ قائمين، ثمّ ساجدين، ثمّ قائمين بتمتمات وأنين: "أعنّا، يا ألله، يا مخلّصنا، يا رجاء جميع أقاصي الأرض"!...

لقد أحبّنا الرّبّ، وأذاقنا طعمه وطيبه؛ فلْنصلِّ لئلاّ نتركه، ولئلاّ نبتعد عن ناره، الّتي تدفعنا إلى الجهاد؛ لكي نشهد له، يومًا فيومًا، وعيدًا فعيدًا؛ وأن نرضى، بكلّ مشيئتنا، بأن نقف ونُرجم، إذ يولد المسيح فينا، مثل الشّهيد استفانوس، ومثل هؤلاء الشّهداء، شهداء نيقوميذيّة، الّذين احترقوا في النّار...

تعالي، يا مريم، يا والدة الإله وأمّ الكون، واحتضنينا، وعلّمينا بك أن نصير مثلك، حاملين هذا الطّفل الإلهيّ. نشكر الله لأنّه اختارنا، لأنّه أتى بنا لنصير من رفقته. نشكر الله لأنّه ارتضى بأن يولد فينا؛ فلْنحمله، إذًا، في أحشائنا، ولْنحافظ عليه، ولْنحفظه لكي يحيا فينا، ويتفعّل، وينمو؛ لنسير معه الدّربَ العظيمة، درب جلجلة هذا العالم التّرابيّ، بهذا الجسد الفاني؛ فتنبوّق لنا الملائكة، وتلتقينا مهلّلة. فمن الميلاد إلى القيامة، نحن له، وإيّاه نعظّم، ونحيا بشفاعة والدة الإله، وجميع قدّيسيه، وشهدائه، آمين.

٢٨ كانون الأوّل ١٩٩٥

سلطان الرّوح

(مر٦: ٧- ١٣)

الرّبّ يسوع المسيح كان، وهو كائن، وسيكون. هو خلق الإنسان، وأعطاه روحه. نفخ فيه ذاته، روحه القدّوس، وبقي معه ليربّيه؛ ويغذّيه، وينمّيه بالكلمة، بالوصيّة، بالحبّ، بالشّفاء، بتكسير الخبز... على هذا النّحو كانت مسيرة الرّبّ يسوع وحكايته مع الشّعب اليهوديّ، إذ أتى ليخلّصه وكلّ الشّعوب الّذين كانوا حينها، والكائنين اليوم، والّذين سيكونون في المستقبل. لقد أتى وسكن بيننا، وأعطانا القوّة لكي نُطلق أنفسنا من عقالات الموت بكلمته وحبّه.

وبعد أن ربّى تلاميذه، سنين طويلة، على حفظ الوصيّة، جرّبهم. ولطالما كان يجرّبهم. اليوم، في قراءة الإنجيل، نلاحظ أنّ الرّبّ يسوع يجرّب تلاميذه بإبعادهم عنه. أراد أن يرسلهم بعيدًا عنه، ليفعلوا مشيئته، ليتمّموا وصيّته، لينفّذوا أوامره. الطّفل، حين يكون طفلًا مع والديه، يسمع ويتعلّم منهما، ويبقى إلى جانبهما. لكنّه، عندما يكبر، يأخذ الكلمة؛ فيطلقه أبوه إلى الحياة ليحقّق وصيّته. يسوع، عندما أطلق تلاميذه، أعطاهم سلطانًا على الأرواح النّجسة (مر٦: ٧). لا يمكن لإنسان، على هذه الأرض، أن يذهب ليبشّر، إلّا إذا كان قويًّا، أقوى من الأرواح النّجسة؛ لأنّ كلّ روح نجس هو في داخل الإنسان، في قلب الإنسان، في عقل الإنسان. الرّوح النّجس لا يعشّش في الهواء. قال السّيّد لتلاميذه، في كتابه: "متى خرج الرّوح النّجس من الإنسان، يجتاز في أماكن ليس فيها ماء، يطلب راحة. وإذ لا يجد، يقول: أرجع إلى بيتي الّذي خرجت منه؛ فيأتي ويجده مكنوسًا مزيّنًا. ثمّ يذهب ويأخذ سبعة أرواح أُخَر أشرّ منه؛ فتدخل وتسكن هناك، وتصير أواخر ذلك الإنسان أشرّ من أوائله." (لو١١: ٢٤- ٢٦). والرّبّ، هنا، يتكلّم على القلب البشريّ، على النّفس البشريّة، على هذا الكيان، على هذا الهيكل الّذي يُفترَض به أن يكون هيكلًا للرّوح القدس. الرّوح النّجس يعشّش في هذه النّفس. خذوا، مثلًا،

أنفسكم: عندما يحاربكم روح نجس، كيف يحارب؟! هل يحاربكم خارج أنفسكم؟! طبعًا، لا! بل يحاربكم في أبدانكم، في حسّكم الدّاخليّ، في أفكاركم، في قلوبكم. الرّوح النّجس روح خبيث، شرّير، محتال. عندما يأتي، يحرّك مَن حوله، يخبط الإنسان، كما قال الرّبّ في الإنجيل عن الإنسان الّذي صرعه الرّوح النّجس، "فصار يزبد ويتمرّغ" (مر٩: ٢٠). وعندما أخرجه الرّبّ يسوع منه، تركه كالميت؛ فأفاقه السّيّد وشفاه (مر٩: ٢٦- ٢٧). عندما يأتي الرّوح، يخبطكم كيانيًّا، ويصرخ في آذانكم، قائلًا عن إخوتكم إنّهم نجسون؛ فتتضايقون منهم، في قلوبكم. ويقول لكم: "انفروا منهم، ولا تصدّقوهم؛ فإنّهم نجسون!". حتّى إنّه يجعلكم تستكبرون، وتعاتبونهم، معتبرين أنّكم تحتملون أكثر منهم بكثير... وآخر خبطة للرّوح النّجس هي في الحسّ الجسديّ.

مشكلة الإنسان الكبيرة أنّه لا يحسّ إلّا بجسده. عندما يحسّ بالرّوح النّجس، يتحرّك عليه جسده؛ فيأتي باكيًا. هكذا، يشكو، ولا يعرف أنّ الرّوح النّجس قد امتلكه، أوّلًا، في عدم المحبّة لأخيه، في الاستكبار، في الانتقاد، في عدم الصّبر، في عدم الانكسار... "ضربه"، أوّلًا، لأنّ روحه قد جفّت، ونفسه قد قست. "ضربه" صار لا يبكي في قانونه، في سجداته، في إرشاده؛ لأنّه لا يفتح قلبه ليستقبل أخاه، بالرّحمة، والصّبر عليه؛ لأنّه صار ديّانًا لأخيه، مغتاظًا منه، منتقدًا إيّاه، ولا يدين نفسه... وعندما يفعل الرّوح النّجس كلّ ذلك، ويرى أنّ نفس الإنسان ما زالت ضعيفة؛ يحرّك الجسد، حتّى يلقيه في نار العشق الجسدانيّ؛ لكي يموت ويفنى.

المشكلة أنّنا لا نعرف أنّ الرّوح النّجس يعشّش في القلب، وهو روح استكبار، روح دينونة، روح تبرير للنّفس، روح غضب، روح عدم صبر، روح عدم اتّضاع... وليس هو روح شهوة فحسب، فالشّهوة تموت مع الدّموع. شهوة الجسد تموت مع السّجدات، مع الافتقار إلى الآخرين، مع الانكسار، مع فقر النّفس، مع شعور الإنسان بحاجته إلى الآخر، ليحيا معه في كنف الله. وفي خضمّ هذه الحاجة، لا يحسّ الإنسان إلّا بوجعه، إلّا بالغربة الّتي يكون ملقًى فيها، في هذا العالم. لقد انشطر عن إلهه بمعصيته، وهو يعود إليه بالصّلاة، بتمتمات الحبّ له في قلّايته، وفي الكنيسة، ومع الإخوة.

هذا هو الحبّ، وهذا هو الفقر. كيف أحبّ إلهي وأفتقر إليه، إن أغضبت أخي،

وإن لم أحبّه وأصبر عليه، وإن لم أفرح به وأقدّمه عليّ، وإن لم أسع ليدخل ويسكن في قلبي ؟! أنتم لا تعرفون أنّ روح الزّنى الجسديّ هو نتيجة للأنانيّة، والكبرياء، والفرديّة، والدّوران حول "الأنا". انظروا إلى ما كنتم عليه، وما أنتم عليه الآن! راجعوا خبراتكم في أنفسكم! لاحظوا جيّدًا، عندما يعبر بكم روح نجس جسديّ، كيف يذهب بأسرع من لمح البصر، إذا اتّضعتم وبكيتم؛ فيما لو تبنّيتموه بعدم الانكسار، وعدم الانسحاق والفقر؛ فإنّه يبقى ليعذّبكم طويلًا. كثيرون يظنّون أنّهم يتحرّرون من روح الزّنى بإضعاف أجسادهم. لكنّهم مخطئون، لأنّهم لا يعرفون الحقيقة. روح الزّنى هو كوجع اليد، أو الرّأس، نتناول دواء، فتنحلّ أربطة الشّهوة. فإذا ما أتاكم روح نجس، فانكسروا، ولا تدينوا، وأحبّوا، واتّضعوا، واهدأوا! تمامًا كالحيوان الصّغير الّذي يتمسّح بأرجل سيّده، لأنّه يحتاج إليه. هذا هو السّلطان الّذي أعطاه السّيّد لتلاميذه، حين قال لهم: "اذهبوا، ولا تقتنوا شيئًا للطّريق غير عصًا" (مر٦: ٨). ماذا كان يعني الرّبّ الإله بذلك؟! كان يقول لهم، بكلّ بساطة: "خذوا معكم ما أنا أعطيكم إيّاه، أي خذوا الكلمة، خذوا قلبي، خذوا روحي، واذهبوا وقاتلوا الأرواح النّجسة بها. قاتلوا الّذين لا يريدونني، ولا يدافعون عنّي. لا تحملوا شيئًا معكم غير روحي فقط"، وهو يقصد بذلك روحه القدّوس، كلمته. قال أحد الآباء، في كنيستنا، إنّ الرّبّ لا يدين الخطيئة لأنّه إله. لكنّه لم يُجرَّب بها كإنسان، لأنّه متّضع. كذلك والدة الإله عفّت عن جسدها، لأنّ روحها كانت تعظّم الرّبّ، في كلّ حين. لم يكن في نفسها ذكر سوى ذكر إلهها. لا تتعلّلوا بأنّكم ورثتم هذا الجسد وهذه الشّهوة عن والديكم، وأجدادكم، وسقطة آدم؛ فنحن ورثنا كلّ شيء: السّقوط والموت، من جهة؛ والحياة، من جهة أخرى. لا تبرّروا أنفسكم بشهواتكم! لا تقبلوا حيل العدوّ! ابتعدوا عن النّجاسة! والنّجاسة ليست في البدن فقط، بل هي، أوّلًا، في المشيئة الّتي ضدّ مشيئة الله، المشيئة الذّاتيّة، "الأنا": أنا في وجه إلهي؛ أنا كائن في وجه الكائن، الّذي هو الله؛ وأنا أناقشه، وأساومه، وأقف في وجهه، ومشيئتي تواجه مشيئته، وينتج منها كلّ الأهواء والخطايا، من احتقارٍ للآخرين، وعدم صبرٍ عليهم، ومعاتبتهم... وفي النّهاية، نصل إلى هوى الجسد.

الفرّيسيّون لاموا السّيّد، لأنّه يأكل مع الزّواني والعشّارين؛ فقال لهم إنّ هؤلاء

سيسبقونهم إلى ملكوت السّموات، لأنّه كان يعرف قلوبهم، وهو قادر على أن يبيّضها، وإن كانت أجسادهم ساكنة في الخطيئة، ربّما بسبب ضعفهم، أو ظروف قهرتهم، وهو قادر على أن ينقلهم، في لحظة، إلى الفردوس. أمّا الفرّيسيّون الأمناء على الشّريعة، على الله، هؤلاء المستكبرون، الكذبة، المنافقون... فقد أسلموا السّيّد، وحكموا عليه، وبصقوا عليه، وضربوه، وجرّحوه، وأسالوا دمه، وأماتوا جسده. هؤلاء القيّمون على شريعة موسى، والمحافظون عليها، هم الّذين قتلوا السّيّد، لا الزّواني والعشّارون. أصحاب الإرادة والمشيئة والتّعظّم هم الّذين يقتلون السّيّد، بينما الفقير لا يقتله. المفتقر إلى الآخرين لا يقتل السّيّد. الغريب في هذه الأرض، والمشتاق إلى العودة إلى ربّه، لا يقتل السّيّد. المنكسر القلب، والمتّضع الفكر لا يقتل السّيّد. وحده الدّيّان هو الّذي يقتل السّيّد. لا تدينوا! "تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب" (متّى ١١: ٢٩)!

ألا أعطانا الرّبّ هذه الوداعة، وهذا التّواضع؛ لكي نحمل روحه، في مسيرتنا؛ ونقوى، بالرّوح القدس، على الأرواح النّجسة المعشّشة فينا.

٢٤ كانون الثّاني ١٩٩٦

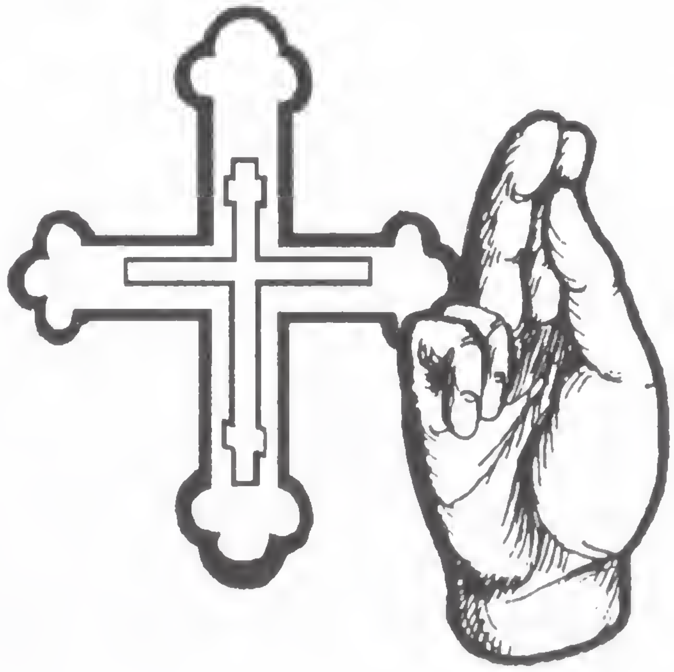

مأساة السّقوط

(مر٦: ٤٥- ٥٣)

في إنجيل اليوم، هناك شيء من حياتنا اليوميّة. كيف نتصرّف في يوميّاتنا الرّهبانيّة، إذا غاب السّيّد عنّا؟! ولماذا يغيب السّيّد عنّا؟! وكيف يغيب عنّا؟! وهل يغيب عنّا، أو يُغيّب نفسه، ليرى ما نحن عليه، وإلى أين وصلنا؟! أو لأنّنا نخطئ باستمرار تجاهه، يغضب منّا، بل يحزن ويتركنا؟!

كلّ الحياة الرّوحيّة، مع الرّبّ، تجارب. الرّبّ يعلّمنا، ثمّ يجرّبنا؛ حتّى يرى إلى أين وصلنا. ثمّ يعود ويكرّر الكلام، مرّات عديدة. وفي إنجيل اليوم، يقول الرّسول مرقس إنّ السّيّد "ألزم تلاميذه أن يدخلوا السّفينة، ويسبقوه إلى العِبر" (مر٦: ٤٥). بكلام آخر، أمرهم بأن يتركوه ويذهبوا، وحدهم، إلى العِبر. لقد أبعدهم عنه، ليمتحنهم. هذا ما يفعله الرّبّ، في حياتنا، في كلّ يوم؛ وأحيانًا، كلّ بضعة أيّام؛ وأحيانًا، كلّ فترة، بحسب قدراتنا، وطاقاتنا، ومسيرتنا، ومحبّة قلوبنا؛ حتّى يعلم إلى أين وصلنا في سعينا، في مسيرتنا، في طريقنا إليه. والمشكلة أنّنا ننسى أنّه هو الّذي يسمح بالتّجربة. لماذا ننسى أنّ الرّبّ هو الّذي يسمح بكلّ تجربة؟! الرّبّ جرّب تلاميذه بأن أرسلهم بعيدًا عنه، إلى عمق البحر. وعندما كدّتهم الرّيح وتعذّبوا، أتى إليهم ماشيًا على الماء؛ فخافوا وصرخوا "لأنّهم رأوه كلّهم واضطربوا" (مر٦: ٥٠). هذا يعني أنّهم ما كانوا على يقين أنّ الرّبّ إله كائن حقيقيّ، وهو معهم في كلّ لحظة. ومن الطّبيعيّ أن يقول لهم، عندما يرسلهم إلى العِبر: "أنا أتبعكم". لكنّهم يسمعون سماعًا ولا يفهمون. هكذا نحن، منذ أيّام الرّسل وحتّى اليوم، الله يتكلّم، لكنّنا لا نسمع، ولا تنفتح قلوبنا، ولا نفهم، وكأنّ الرّبّ غير حاضر. لقد ترك التّلاميذ ليصلّي، قبل أن يأتي إليهم. كان يحتاج إلى أن يختلي بذاته، ويلتقي بربّه، بإلهه وهو الإله، أن يلتقي مع نفسه، مع الرّوح القدس السّاكن فيه، الّذي هو مع الآب. ولأنّهم كانوا بعيدين عنه، كانوا خارج ذاته، أتى ليخلّصهم والعالم، ويخلّصنا. لكنّ مشكلتنا أنّنا نبقى خارجه،

بعيدين عنه؛ فنفقد قوّته الّتي تحرّكنا.

هذه هي مأساة الإنسانيّة، منذ سقوطها من حضن الآب حتّى الآن. مشكلتنا، نحن كلّنا الموجودين في هذه الكنيسة، اليوم، أنّنا لا نريد أن ندين أنفسنا، أو ننظر إلى قلوبنا، أو ندخل إلى أنفسنا... بل نريد أن ندين الآخرين. الرّبّ بقي مع تلاميذه، على الأرض، قبل صلبه، وفي أثناء بشارته، ثلاث سنوات... ونحن مرّ على وجودنا معه، هنا، خمس سنوات، أو أكثر. لقد استفاق الرّبّ يسوع فينا ليسائلنا، اليوم: أين نحن من إلهنا؟! كلّ واحد منّا، نحن السّاكنين هنا، في عائلة الثّالوث القدّوس، أين هو من الرّبّ، وأين الرّبّ منه؟! أين نحن من الآب؟! أين نحن من الابن؟! أين نحن من الرّوح القدس؟! أين نحن من الكلمة الإلهيّة؟! أين نحن من الحبّ؟! أين نحن من خلاص الله بتجسّده؟! نحن نعرف أنّ الرّبّ تجسّد، وحمل ضعف الجسد، ليخلّصنا. ونكون كَذَبَة محتالين، إذا قلنا إنّنا لا نعرف. فأين نحن من خلاص الله لنا؟! كيف أسلمناه أنفسنا حبًّا؟! مَن منّا ينوح على السّيّد؟! مَن منّا ينوح على آلامه لأجلنا؟! مَن منّا يحبّ الرّبّ يسوع المسيح؟! نحن كَذَبَة، لأنّنا ما زلنا نخطئ، في كلّ يوم، وكلّ ساعة، في محبّته، وفي الجهاد لأجل اسمه، وفي حفظ كلمته، وفي كتابة وصاياه على قلوبنا، وأفكارنا، وأبداننا، وفي محبّة الإخوة...

"كِذبة الإنسانيّة هي الادّعاء أنّنا نحتاج إلى زمن طويل، حتّى نتغيّر". هذه هي كذبة السّقوط! لماذا كان يوحنّا، من بين الرّسل كلّهم، يحبّ الرّبّ بلا سؤال؟! لقد أتى والتصق بالرّبّ، ووضع رأسه على صدره، وكأنّه يقول له: "أريد أن أعود إليك، أن ألتصق بك، أن أكون وإيّاك! روحُكَ الّتي خرجت منك تريد أن تعود إليك. لا أريد أن أكون شيئًا بذاتي، فوحّدني بك". لم يعد هناك من إنسان اسمه يوحنّا. يوحنّا مات، وبقي حنان الله الّذي كان فيه لكلّ البشريّة الطّالبته! لذلك، أعطاه الله كلّ تلك النّعمة المتجسّدة في حياته، وفي إنجيله، ورسائله، وسفر الرّؤيا الّذي كتبه.

مشكلة البشريّة، ومشكلة التّلاميذ، ومشكلة الإنسان، ومشكلة كلّ واحد منّا أنّنا لا نحب الرّبّ!... نحن لا نحبّ السّيّد؛ ومن ثمّ لا نحبّ إخوتنا؛ لذلك، نحن نخطئ بالتّعامل معهم، وبالكلام الّذي نوجّهه إليهم، ولا نحتملهم، ولا نمسح دموعهم، ولا نضمّد جراحاتهم، ولا نغسل أرجلهم، ولا نطعمهم من أرواحنا، ولا نبكي لأجلهم دمًا، ولا نفرش

أجسادنا حتّى يسيروا عليها؛ فلا يصدموا بحجر أرجلهم، ويقعوا... نحن فرّيسيّون، ندين إخوتنا، ونعاملهم بحسب القانون! إنّنا كذَبة، خاطفون؛ لذلك، حتّى الآن، لم نتغيّر، بعد.

لو أحبّ أحدنا الرّبّ، لَأَحَبَّ إخوته. لو أحبّ أحدنا يسوع المصلوب، لكان وضع رأسه عند قدمي كلّ أخ؛ ليقبّلهما، ويقول له: "أنت خلاصي". أنتم لا تعرفون معنى الحبّ الإلهيّ! الحبّ يأتي، أوّلًا، من الله. نحن لا نستطيع أن نحبّ بما فينا، بأنفسنا. نحن، كبشر، تركنا الله، يوم فضّلنا المعرفة عليه. ومنذ ذلك اليوم، صرنا عُشَراء الشّيطان المتجسّد في المعرفة، والكتب، والشّهادات، وفي تجميع اللّغات، والأموال، والمعارف الأرضيّة، ناسين الله! لذلك، يقول الآباء إنّ كلّ أهواء الإنسان هي من الشّيطان. مَن هو الشّيطان؟! هو المعرفة الّتي هي ضدّ الحبّ! هو المعرفة الواقفة في وجه المحبّة، الواقفة في وجه الرّحمة! وكلّ مَن يبحث منكم عن المعارف الأرضيّة، فإنّه يبحث عن التّصادق مع الشّيطان؛ لأنّ تلك المعارف ليس فيها حبّ، بل شخصانيّة، وفرديّة بشريّة، وأنانيّة، وإلغاء للكائن، وإلغاء للأقنوم الحيّ الّذي يأتي فقط من الله. نحن نصبح أقنومًا، نصبح شخصًا في المسيح يسوع، نصبح أحد الثّالوث؛ إن أَحببنا. لكنّنا لا نحبّ! إذًا، ماذا نفعل لكي نحب؟! هذا هو المطلوب، اليوم. كيف يحبّ الإنسان وهو شريك الشّيطان والسّقوط؟! حين يأتي الإنسان بطاقة الحياة، الّتي أعطاه إيّاها الرّبّ، إلى الرّبّ، ويقول له: "أنا آتي إليك بالّذي أعطيتنيه، فاجعل منّي إنسانًا جديدًا! أنا آتي إليك بالطّاقة الّتي أعطيتني إيّاها يوم خلقت"؛ إذ ذاك، يسكب الرّبّ روحه القدّوس فيه.

أتريدون أن تقبضوا على الرّبّ؟! مَن منكم يريد السّيّد سيّدًا على حياته؟! مَن منكم يريد أن يضمّ الرّبّ بين يديه؟ فليأتِ إلى الرّبّ، ماشيًا بتؤدة على مياه وحل هذا العمر، عارفًا لاشيئيّته، وقائلًا له: "أرجوك كوّني! أرجوك هيّئني إنسانًا جديدًا! أرجوك، أنا "لا شيء"، وقد تعبت من لاشيئيّتي، من هشاشتي، من ضعفي، من خنزيريّتي؛ فإنّي أعود وأتمرّغ في الوحل، في الفسق، في الشّهوة، في الأنانيّة، في الكبرياء، في الغضب، في احتقار الآخرين، في كلّ الأهواء الّتي تجرّني إلى الخطيئة. ربّي، خلّصني، لقد تعبت من نفسي، هلكت روحي، أصرخ إليك النّهار واللّيل، أنا لا أريد نفسي! محتَقَر أنا، ودنيء، وأريد أن أتغيّر! الآن، في هذه اللّحظة، أريد أن أسكن فيك، وألّا يكون لي اسم، ولا

هيئة، ولا شكل. قاربت الموت واليأس، فتعال، يا ربّ، تعال وانتشلني! أخرجني من سجن شيطان نفسي، لكي آتي إليك! أريد بإرادتك خلاصي. أنا لا أطلب إليك جديدًا، أنا لا أطلب إليك ما لا تريده أنت. أنا آتي إليك بروحك الّتي أنت سكبتها فيّ، وأريدك، اليوم، أن تنتشلني، أن تقيمني إليك. هذه إرادتي الوحيدة. لا إرادة لي إلّا خلاصي، وهذه هي إرادتك. لذلك، بإرادة خلاصي، صرتُ جزءًا منك، إرادة من إرادتك، مشيئة من مشيئتك! إنّي أقف قدّامك وتراني، فخلّصني!".

كَذَبَة ومراؤون هم الّذين يقولون إنّهم لا يستطيعون أن يتغيّروا! هؤلاء يحبّون أن يعطوا أنفسهم مدًى في الخطيئة، ويستلذّونها! هؤلاء هم الشّعب الّذي لم يصدّق أنّ المسيح أتى ليخلّصه، وأنّه هو شعب الإله. لذلك، سأل الرّبّ المخلّع على بركة حِسدا: "أتريد أن تشفى؟!" (يو٥: ٦). الرّبّ يعرف أنّنا كذّابون، ولا نريد أن نشفى. نحن ما زلنا نستحلي الخطيئة، لذلك نخطئ؛ نستحلي الكذب، لذلك نكذب؛ نستحلي الصّراخ، لذلك نصرخ؛ نستحلي عدم المحبّة، لذلك لا نحبّ... لو أردنا أن نخلص، لَخلصنا. هكذا، خلّص الرّبّ اللّصّ الّذي كان عن يمينه. قال اللّصّ كلمة واحدة، فقال له الرّبّ: "في هذا اليوم، تكون معي في الفردوس" (لو٢٣: ٤٣).

ما من أزمنة مع الرّبّ، وما من أعمار. هناك "هذه اللّحظة"! فإذا كسرنا غلاظة قلوبنا، وأتينا إليه بالحبّ، وطلبنا إليه الخلاص؛ فإنّه يخلّصنا؛ فنحيا، كلّ أيّام حياتنا، بفرح الملائكة؛ ونصير له شموعًا مضاءة، على هذه الأرض، علامةً على أنّ الرّبّ هنا، وهو مقيم في هذا الكون. هكذا، تنير كلّ شمعة ما ومَن حولها. وعندما تنهي بشارتها، تذهب إليه لتضيء بعدها شموعًا أخرى، حتّى يبقى هذا الكون مستضيئًا بشموع، بأنجم تهيّئ طريق الخلاص، تهيّئ مجيء الرّبّ الثّاني.

هل نريد أن نكون هذه الشّموع المضاءة للرّبّ؟! فلْنقف ونقل له: ها نحن في الحبّ الّذي أنت سكبته فينا. نحن نحبّك، فعلّمنا أن نحبّ الآخرين. هكذا، نضيء شمعة جديدة... هكذا، نصبح شمعة مضاءة لا تنطفئ.

٢٦ كانون الثّاني ١٩٩٦

الدّخول في الآلام

(لو١٠: ١٩- ٢١)

(رو٨: ٢٨- ٣٩)

في تقدمة دخول السّيّد إلى الهيكل، يعطينا الرّبّ آية، يعطينا كلمة، يعطينا وعدًا للمستقبل ذا شقّين، الأوّل منهما يكمّل الآخر.

في رسالة اليوم، ذكر بولس الرّسول أنّ الآب لم يُشفق على ابنه، بل أرسله للموت عن كلّ واحد منّا؛ ليخلّصنا (رو٨: ٣٢). وفي الإنجيل، أورد لوقا البشير القول: "ها أنا أعطيكم سلطانًا أن تدوسوا الحيّات والعقارب وكلّ قوّة العدوّ، ولا يضرّكم شيء. ولكن، لا تفرحوا بهذا أنّ الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحريّ بأنّ أسماءكم كُتبت في السّموات" (لو١٠: ١٩- ٢٠). هكذا، تكتمل مسرّة الآب بالابن، وبكلّ واحد منّا. الآب يُدخل الابن إلى الهيكل ذبيحةً. وهو لا يُدخله إلى السّلطان، إنّما يعطيه السّلطان. ولكن، أيّ سلطان يعطيه؟! يعطيه سلطانًا أن يطرد الأرواح النّجسة، أن يقيم الموتى، أن يشفي المرضى، والبرص، والصّمّ، والعمي... وأن يشفي كلّ هؤلاء، ليعودوا ويشكروا الله، ويسبّحوه، ويحيوا حياة كاملة، حياة التّسبيح والتّهليل والشّكر، حياة رؤية الرّبّ يسوع المسيح وسماعه، والقول له: "كنت أعمى لا أبصرك؛ أمّا اليوم، فعدت أبصرك. كنت أصمّ لا أسمع كلامك؛ أمّا اليوم، فعدت أسمعك. كنت أبرص بالخطيئة، بعيدًا عنك؛ والآن، شفيتني لأعود إلى جماعتك الّتي تسبّحك"... لكنّ نهاية كلّ هذا أنّ الرّبّ يسلم كلّ مَن يحبّه إلى الصّليب. وقبل الصّليب، نمرّ بما قاله الإنجيل؛ وبحقيقة سمعان الشّيخ في الهيكل، الّذي انتظر مجيء الرّبّ تسعين سنة؛ والنّبيّة حنّة، الّتي لا تُذكر هنا، لكنّها تظهر في الأيقونة منتظرةً مجيئه، وقد استغرق انتظارها ثمانين سنة. سمعان الشّيخ وحنّة النّبيّة ثبتا في الانتظار!

هذه هي أهمّيّة حياة الرّاهب: الثّبات في الانتظار، حتّى يأتي الرّبّ؛ فيتلقّفه على ذراعيه، بكلّ قلبه وكيانه، ليقول له: "الآن أطلق عبدك..." (لو٢: ٢٩). وفي هذا الانتظار، ليس هناك تهليل فقط، بل أيضًا تجارب كثيرة، ومِحَن، وضيقات، وحروب، وشدائد، وتخلٍّ

إلهيّ، وظلمة داخليّة وخارجيّة...

أهمّيّة هذا العيد لا تكمن في أنّ الرّبّ دخل الهيكل. فمن المعروف أنّ كلّ طفل، في أربعينه، يدخل الهيكل وأمّه؛ ليصبحَ أحد خدّام الهيكل، ويُقبَلَ في الجماعة المؤمنة. هذا ما تفرضه الشّريعة، بالنّسبة إلى كلّ مولود جديد، عند اليهود. فلماذا نفرح، إذًا، بدخول السّيّد الهيكلَ؟! السّيّد، هنا، يدخل الهيكلَ ليُسجَّل في الشّريعة، في النّاموس، أنّه صار أحدَ الجماعة، ككلّ طفل. المهمّ في هذا العيد أنّ السّيّد يدخل الهيكلَ ليُدخلنا معه في آلامه. مدخل العيد هو مدخل الألم، هو مدخل مبدأ معرفة المسيح. في البداية تُعلَن النّهاية. في البدء يكون الانتهاء. الحرفان اللّاتينيّان الألفا (α) والأوميغا (ω) هما البداية والنّهاية. أهمّيّة هذا العيد أنّنا ندخل مع الرّبّ، لنقدَّم إلى الشّريعة، ونخرج منها إلى التّجربة. لهذا، يعدنا الرّبّ بأنّه سيعطينا قوّة وسلطانًا أن ندوس العقارب والحيّات. إذًا، هذه القوّة وهذا السّلطان نستمدّهما منه هو، لا من ذواتنا...

لقد جُرِّب بعضكم، هنا، ومرّوا بخبرة الجحيم. وخبرة الجحيم مهلكة، لا نطلبها، ولا نشتهيها، ولا نتمنّاها. نجاورها مجاورة، ونحن عارفون أنّها جزء من حياتنا... هي خبرة الظّلمة الدّاخليّة الّتي تبعدنا، بالكلّيّة، عن الصّلاة؛ فنفقد قوانا والقدرة على الصّراخ ولو اسم الرّبّ يسوع. خبرة الجحيم تؤطّرنا بنار سوداء تأكل فينا حتّى اسم الرّبّ يسوع! تأكل فينا الرّحمة، والدّمعة المخلّعة، والسّلام، والفرح!... تُغضبنا، تُعثرنا، تكشف لنا جحيم أنفسنا، لنرى تفاهتنا، وضعفنا، وعدم اقتدارنا على الوقوف؛ فنكره الآخر، ونحاجّه... خبرة الجحيم هي موت وإماتة للرّوح المحيي. لكنّ الله يقول، في إنجيله، اليوم، إنّه يعطينا الاقتدار على الحياة، وعلى العدوّ. يعطينا تلك السّلطة أن نثبت. أنتم تعرفون أنّ الدّعاء للرّاهب، طول أيّامه، هو دعاء للثبات عند الرّبّ وفي الرّبّ. عندها، كلّ حيل العدوّ تنصبّ في مكان واحد: تحت قدمي السّيّد، تحت أقدامنا، حيث يحفر بؤرًا ليقتلع جذورنا. فهو يأتينا بحيل عديدة، منها أنّه يرطّب الجذور بالماء المنتن، ماء الشّهوة؛ ليجعلنا لا نطيق أيّامنا في الدّير؛ فنذهب تائهين على وجوهنا، لنعود إلى أرض الخطيئة، نتوحّل بأوساخ أجسادنا، بلذائذ بطوننا، بشهوات ماضينا، أو العمر الّذي تقنا إلى أن نحياه، ولم نحيه، في نتانة الشّهوة واحتراقها...

كذلك، من حيله أنّه يُضرم فينا نار عدم المحبّة. العدوّ "يضربنا" بفكرة واحدة هي أنّنا غير محبوبين، ولا مقبولين، ولن نتمكّن من الاستمرار بالعيش مع الجماعة الّتي نحيا فيها"...

هكذا، إمّا يأتينا برطب الشّهوة، أو بالتّقوقع على الذّات، والانفراد والتّفرّد؛ حتّى لا نكمل الدّرب. وهو "سيضربنا"، لا محالة، بالحركة الأولى، أو الحركة الثّانية.

ثمّ يأتينا بيأس مرّ يتضمّن الاستكبار؛ فتعجز النّفس، إذ ذاك، عن أن تطيق كلمة واحدة من الآخر، الّذي يجعله شوكة تُغرَز فينا. إن قال كلامًا محبًّا، نؤوّله؛ وإن صمت، نفسّر الصّمت سلبيًّا؛ وإن أعرض تاركًا إيّانا في الهدأة مصلّيًا لنا، فلا نفهمه... بكلمة، الشّيطان يجعل حياتنا مع الجماعة جحيمًا...

هذه هي الدّرجات الثّلاث الكبيرة الّتي يسعى الشّيطان لأن يطالنا بها، كما ذكر الإنجيل، اليوم، من خلال الحيّات المحتالة الّتي تغيّر الواقع، أو العقارب الّتي تلسعنا، أو قوّة العدوّ الّتي تحاول أن توقع بنا. يحاول الشّيطان، بكلّ طريقة ممكنة، أن يخرجنا من هيكل الرّبّ؛ ليخرجنا من فعل الانتظار، الّذي دُعينا إليه، كما سمعان وحنّة.

في هذا العيد، هناك أمران مطلوبان: أن نعرف أنّنا مقيمون في هيكل الرّبّ، وسنبقى مقيمين فيه، طول أيّام حياتنا. ونحن نعلم، مسبقًا، أنّ العدوّ والعقارب والحيّات ستطاردنا، في كلّ يوم. لكنّنا نعرف، أيضًا، أنّ الرّبّ أعطانا اقتدارًا وقوّة عليها؛ فلا تخافوا، ولا تضطرب نفوسكم، لأنّ يسوع قال لنا: "هاأنذا معكم من الآن وإلى منتهى الدّهر" (متّى٢٨: ٢٠). فلنثبت في كلمة الرّبّ، وفي وعده؛ لأنّه أتى ورسم الطّريق لنا، بكلّ تفاصيلها؛ فلا نستطيع، بعد، أن نقول إنّنا لا نعرف. نحن نعرف! لكنّ المهمّ أن نعرف بأجسادنا وكياننا، أن نعرف بأرواحنا، بعقولنا، أن نُدمى، أن نُصبغ بختم الرّبّ!... هذا هو الوعد الّذي يطلبه الرّبّ، اليوم، في تقدمة عيده، وفي عيده غدًا: أن نقول له: "نعم، نحن نريد أن ندخل معك الهيكلَ، لنُقدَّم معك ذبيحة، لنصبح مثلك قربانًا". لن يُقدَّم عنّا، بعد اليوم، زوجا حمام وفرخا يمام، كما قدّموا عن السّيّد، لأنّهم لم يعرفوا أنّه هو التّقدمة، هو القربان، هو الحمل المذبوح النّازل من السّماء إلى الأرض، والباقي في السّماء حملًا مذبوحًا من الأزل وإلى الأبد.

هذا وعدنا بكلّ بساطة، بكلّ هناء، بكلّ خفر؛ ولكن، بكلّ وجع جرح. افرحي، أيّتها الأحشاء الّتي لم تلد؛ فلا عقر، بعد اليوم. لكنّ الولادة هي ولادة للذّبح، حتّى نصل إلى الحياة الجديدة. لا يمكننا أن نصير آدم الجديد، حوّاء الجديدة، إلّا بالموت، إلّا بأن نقبل أن نضع أعناقنا، مثل إسحق بن إبراهيم، لكي نُذبح. فلْنتهيّأ، اليوم، وفي كلّ يوم، لندخل مع السّيّد الهيكلَ؛ لكي نقدّم معه إلى المنتظرنا في الهيكل، ونثبت في الهيكل، ونخرج منه وندخل فيه بحسب وعده. ولكن، في خروجنا وفي عودتنا، نحن منه، وإليه نسير طريقَ الجلجلة؛ لنبكي، دمًا، سقوطَنا وسقطةَ آدم في الجتْسمانيّة؛ لكي نخلص، ونخلِّص معنا البشريّة بأسرها، رافعينها على الصّليب. هذا ما نقدّمه إلى الرّبّ: أنفسنا ومَن نصلّي لأجلهم.

العالم لا يريد أن يخلص. ولكن، نحن، باقتبالنا الرّبّ، وبالدّالّة الّتي يعطينا إيّاها، نأتي بالعالم إليه، نضمّ العالم في أنفسنا دموعًا، توبةً، صلاة. هذه هي تقدمتنا، وهذا هو دخولنا. فلنفرح بأنّنا سنُهَيَّأ للذّبح، كسيّدنا؛ فنحيا معه، ونُمجَّد معه، إن هو ارتضى ذلك بالنّعمة لنا.

ألا أعطانا الرّبّ هذا الكلّ، وأن نشدّد بعضنا بعضًا؛ حتّى نكمل الدّرب إلى النّهاية. هذا هو قرباننا: أن نشدّد بعضنا بعضًا، أن نصبح وحدة ملتهبة لا تَجَزُّؤَ فيها، ولا يجرؤ الشّيطان عليها. كلّ واحد منّا مسؤول عن خلاص الآخر، ويحمل الآخر؛ لكي يحمله الآخرُ هو والكون كلّه، في قلبه، إلى الفداء، إلى الخلاص.

١ شباط ١٩٩٦

سرّ صليب الحبّ في الابن الشّاطر

(مر١٥: ٢٠، ٢٢، ٣٣- ٤١)

فيما نحن لا نزال في أسبوع الابن الشّاطر، نلاحظ من قراءة إنجيل اليوم، الّذي يتمحور حول صلب المسيح، أنّ الكنيسة تُدخلنا في سرّ الصّلب، في سرّ التّخلّي، منذ الآن. وهي إذ رتّبت أن يُقرأ هذا الإنجيل في هذا الأسبوع تحديدًا، إنّما فعلت ذلك؛ لأنّها تريد أن تشير، بإصبعها، إلى الأسباب الّتي أدّت إلى الصّلب من خلال الابن الشّاطر، أو بالحريّ، من خلال الابنين الشّاطرين. هذا ما سنتكلّم عليه اليوم، لأنّ معظم النّاس يتكلّمون على الابن الشّاطر الأصغر، ويفسّرون موقفه. بينما قلّة منهم تقول كلمة عن الابن الشّاطر الأكبر.

قصّة الابن الشّاطر هي قصّة الله مع البشريّة، الّتي وُلدت منه هو خالقها. قسم من النّاس يمثّله الابنُ الشّاطر الصّغير، الّذي بعد أن تعب من مجد أبيه، من الرّفاهية، من النّعمة، من السّلام؛ أراد أن يذهب ويبني حياته وحده، من دون أبيه، من دون حمايته، من دون سلطته. أراد أن يكون حرًّا من أبيه، ومن بيت أبيه وفردوسه... هذه هي حركة السّقوط الأولى: الابتعاد عن مصدر الحياة. وعندما نبتعد عن مصدر الحياة، فإنّنا نبتعد عن الحياة؛ إذًا، نموت! هذا ما حصل للابن الشّاطر الأصغر، إذ شطر نفسه عن أبيه، عن الحياة، عن حياته هو في النّعمة، في الفرح، في البحبوحة، في الحبّ... وذهب إلى أرض بعيدة. والأرض البعيدة، هنا، تعني أرض التّخلّي، الأرض الّتي ابتعدت عن الله، عن مصدر النّور؛ فغرقت في الظّلمة. ويدقّق الإنجيليّ قائلًا: "وعاش في الخلاعة" (لو١٥: ١٣). إذًا، ذهب هذا الإنسان من فردوس البراءة الأولى إلى جحيم الخطيئة، وتمرّغ في الحمأة، في الظّلمة وظلال الموت، وجاع إلى أكل الحياة؛ فأُعطي، بدل الإله، العالَمَ. أُعطي، بدل غذاء الحياة، غذاءَ الخنازير (لو١٥: ١٦)...

لقد أراد الإنجيليّ أن يُظهر لنا المفارقة الكبيرة بين ما خُلقنا لأجله، وما نحن

مدعوّون إلى أن نحياه، وما أُعطيناه، مجّانًا، من جهة؛ ومن جهة أخرى، ما اختارته البشريّة بالابن الشّاطر، وما يختاره كلّ واحد منّا، في حياته على الأرض. كلّ واحد منّا ترك بيت أبيه، بيت النّعمة، بيت الحقّ، بيت الحياة الأبديّة الّتي لا موت فيها؛ وذهب مختارًا الشّقاءَ، مختارًا الموتَ، مختارًا الذّلَّ، مختارًا الجوعَ، مختارًا الحمأةَ... كلّ البشريّة تعيش بحسب مثال الابن الشّاطر الصّغير. لن أطيل الكلام، هنا، لأنّ هذه الشّخصيّة قد قيل فيها الكثير. كما لن أدخل في حركة الإرادة المريضة الّتي يختارها كلّ إنسان ليبتعد عن الله، لأنّ إرادته بطلت عن أن تكون إرادة إلهيّة، عندما حوّل نظره عن وجه أبيه...

أمّا الابن الأكبر، فهو الابن الشّاطر أيضًا. هذا هو الشّقّ الآخر من البشريّة، الّذي انشطر عن أبيه وهو في حضنه. هذه هي المصيبة الكبرى. هذا هو الصّليب الحقيقيّ. الّذين صلبوا المسيح هم الّذين تركوه وجحدوه. نعم، هم صلبوه لأنّهم صلبوا حبّه، رافضين خلاصه. لكنّ الصّلب الحقيقيّ تمّ على أيدي الّذين بقوا معه، والّذين حملوا اسمه. رؤساء الكهنة، وخدّام الهيكل، والقيّمون على الشّريعة، هؤلاء صلبوا المسيح. وهذا ما نراه، بالضّبط، في حركة الابن الشّاطر الأكبر، الّذي رفض حكم الأب، وهو معه، أي رفض سلطة الحبّ. كان يأكل طعام أبيه، ويتنعّم بغناه. لكنّه كان جاحدًا لوصيّته. الأب حبّ هو! لذلك، أعطى الحياة لولديه. الابن الأصغر قال له: "أنا ذاهب عنك، لأكتشف حياتي، لأصنع حياتي وحدي". لكنّه، بعد أن تعذّب، وتمرمر، وأُذلّ، ووطئته الخطيئة بقدميها، وجاع إلى الخبز الأرضيّ والسماويّ، إلى الخبز المادّيّ والرّوحيّ، إلى حنان أبيه، وحبّه، وملكه، وطعامه؛ عاد تائبًا! عاد بروح أبيه، السّاكن فيه، إلى أبيه. لكن، ماذا عن الابن الأكبر؟! الابن الأكبر أبطل بنوّته للأب، لأنّه كره أخاه. وبكرهه لأخيه، لام أباه: "علامَ تكافئه؟! أعلى خطيئته؟!". لقد حكم على أبيه بحكم أهل العالم.

هذا هو الانشطار الكبير عن الآب: دينونة الآخرين بمنظار معطوبيّتنا، بمنظار صغرنا، بمنظار عقولنا المريضة، بمنظار أنفسنا الصّغيرة الدّنيئة: "كيف تعطيه الحلّة الأولى، وتلبسه الحذاء، وتذبح له العجل المثمّن، وتضمّه إلى صدرك... وأنا إلى جانبك لا آخذ شيئًا؟!"... البشريّة، الممتلئة بالابن الأكبر، تكذب، وهي في هيكل الله، وهي قد نسيت أنّ كلّ شيء لها. الابن الأكبر كان يملك كلّ شيء، ويحكم في كلّ شيء، لكنّه لم يحكم بالقلب؛

لذلك، أشاح نظره عن أبيه! لم يفهم لغة أبيه! لم يفهم قلب أبيه! لم يستق من نور أبيه! لم يفهم شيئًا! كان تافهًا، حقيرًا، حسودًا، مريضًا، عاشقًا نفسه!... لذلك، مات وهو بقرب الأب؛ لأنّه مات عن أبيه، عن حكم أبيه، عن روح أبيه، عن فهم أبيه... لم ينظر، يومًا، إلى أخيه الأصغر، لم يتساءل ولم يسأل عمّا آلت إليه حال أخيه، ولم يَرِدِ أن يعرف شيئًا عنه. ارتاح إلى معرفته التّافهة، إلى ظنونه هو، إلى آرائه هو. ماتت نفسه! ماتت حركة خروجه من نفسه! دخلت تلك الحركة إلى الدّاخل، وتقوقعت حول الذّات، وماتت في الدّاخل، وطيّنت نفسها كما البزّاقة!... كما أنّه مات، أيضًا، عن حركة العطاء، حركة الحياة، وبذل الذّات، وخدمة الآخرين، وحبّهم... الآب أعطانا طاقة واحدة ووحيدة، هي روح الله، وحبّ الله. هذا ما أعطانا إيّاه، ولم يعطنا شيئًا آخر. وبهذا العطاء، أخذنا كلّ شيء، لأنّ الله حبّ؛ ومَن أعطانا روحه، أعطانا كلّ شيء.

لقد مات هذا الابن الأكبر؛ حتّى إنّه، عندما رأى أخاه عائدًا، لم يركض إليه، مثل أبيه، ليعانقه فرحًا به لأنّه عاد! صار لا يملك شيئًا، بل غرق في الموت، في اللّاحياة، في اللّاحركة، في اللّاحبّ. هذا هو الانشطار الأكبر، والأكثر إيلامًا، والأظلم، الّذي لا يتكلّم عليه النّاس؛ لأنّهم كلّهم على شاكلته. هذا هو الانشطار القائم في عمق أعماق خلايانا. هذا هو الانشطار الّذي صلب المسيح. هؤلاء هم النّاس الّذين صلبوا المسيح! الابن البكر السّاكن معه، والّذي بقي معه، هو الّذي صلبه! لهذا، لا يزال السّيّد الرّبّ مصلوبًا حتّى الآن. ولهذا، لم يغدُ في مجيئه الثّاني، بعد؛ لأنّ رؤساء الكهنة ما زالوا يصلبون المسيح، والهيكل ما زال يصلب المسيح، في كلّ يوم. لذلك، قال الرّبّ: "هؤلاء الزّواني والعشّارون سيسبقونكم إلى ملكوت السّموات" (متّى٢١: ٣١). من هم كالابن الأصغر، عادوا وتابوا. أمّا رؤساء الكهنة، فما زالوا في ظلماتهم. والكتبة والّذين يحتكمون بالشّريعة ما زالوا، بحسدهم واستعلائهم وموتهم، يصلبون المسيح. كلّنا، في الحقيقة، ما زلنا نصلب المسيح، يوميًّا. المسيح ما زال معلّقًا على صليبه يصرخ: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟!" (مر١٥: ٣٤)، ومن على صليبه ما زال يحبّنا. في صرخة الموت يحبّنا، ويقول للآب: "اغفر لهم، يا أبتاه، لأنّهم لا يدرون ماذا يفعلون" (لو٢٣: ٣٤). هذه هي صرخة الحبّ الكبرى: "لا يدرون ماذا يفعلون"...

سيّدي، كلّ واحد منّا، نحن الرّاكعين، هنا، عند قدميك، يريد أن يكون كالابن الشّاطر الأصغر؛ لأنّنا تركناك، لكنّك أطلقتنا بإرادتنا إلى موتنا في حياتنا، وانتظرت تبكي وتصلّي حتّى نعود. وها قد عدنا إليك، راجين أن تسامحنا، وتغضي عن خطايانا، وتبرئ جراحنا الّتي جرّحنا بها الشّيطان، إذ ابتعدنا عنك. لقد عُدنا إليك، لكي تصوننا، وتسيّجنا، وتحمينا؛ فاسترنا، يا ربّ، بستر جناحيك، وأَبْعِد عنّا كلّ عدوّ محارب! نحن نصلّي لك، لأنّ نفوسنا تاقت إلى حنانك، وحبّك، وسلامك. لقد تُقنا إلى نورك؛ فاحملنا لكي نرجع إليك، حتّى لا نكون ابنًا أكبر، في هيكلك، بل ابنًا يعود دائمًا إلى منبعه، إلى الحياة، إلى حضنك، إلى قلبك، إلى خلاصك؛ فضمّنا إليك، ولا تتركنا، نحن أولادك الخطأة؛ لأنّنا نحبّك من الحبّ الّذي أحببتنا به؛ فارحمنا، يا ربّ، ارحمنا...

١٦ شباط ١٩٩٦

إكليل الآلام

(يو٦: ٥٦- ٦٩)

قال الرّبّ، في إنجيل اليوم: "الرّوح هو الّذي يحيي. أمّا الجسد، فلا يفيد شيئًا" (يو٦: ٦٣). ولكن، "هذا الكلام صعب. مَن يستطيع سماعه؟!" (يو٦: ٦٠). هذا ما قاله التّلاميذ، وكلّ مَن سمع الرّبّ يسوع وهو يعلّم، في كفرناحوم.

"الرّوح هو الّذي يحيي. أمّا الجسد، فلا يفيد شيئًا". لكنّ الرّبّ أتى متجسّدًا في هذا الجسد. وهو، بعد قيامته من بين الأموات، سمح لتوما بأن يلمس جسده المطعون بالحربة، الّذي خرج منه دم وماء، علامة الحياة الأبديّة. وحاملات الطّيب ذهبن ليطيّبن جسد الرّبّ، فوجدن أنّه قام. والبارحة، بدأنا، مع "أحد" المخلّع، حكاية جديدة مع المخلّع الّذي أقامه الرّبّ بالجسد، وقال له: "اذهب، ولا تخطئ بعد" (يو٥: ١٤)، وهو الّذي مضى على تخلّعه ثمانٍ وثلاثون سنة. واليوم، تلت الكنيسة هذا المقطع من إنجيل يوحنّا، الّذي ما زلنا نقرأه، منذ القيامة، وفيه يقول الرّبّ: "الرّوح هو الّذي يحيي. أمّا الجسد، فلا يفيد شيئًا" (يو٦: ٦٣).

المفارقة، هنا، هي أنّ الجسد حيّ، لكنّه لا يفيد شيئًا. وعوض الجسد، قال الرّبّ إنّ الرّوح هو الّذي يحيي. مشكلة الإنسانيّة، قبل المسيح، كانت أنّها عرفت ذاتها جسدانيًّا، عرفت ذاتها ماديًّا، عرفت الإله في ذاتها، بوساطة هذا الكيان المهترئ، المنحدر إلى الموت، المتفتّت عظمًا ولحمًا، أعصابًا وخلايا... لذلك، نرى، في العهد القديم، أنّ السّنين، بالنّسبة إلى النّاس، كانت طويلة. وهذا علامة رضى الله عليهم. واليوم، نعيّد لأيّوب الصّدّيق، وكأنّ هذه المناسبة المباركة تأتي لتقول لنا إنّ أيّوب "ضُرب" جسديًّا ومادّيًّا، بسماح من الرّبّ؛ لكي يعطينا كلمة، إشارة؛ ليحمل لنا خبرًا مفاده أنّ أيّوب، لأنّه كان صدّيقًا، ويحبّ الرّبّ كثيرًا؛ أدّبه الرّبّ. الرّبّ أعطاه، علامةَ حبّه له، خيراتٍ كثيرة: زوجةً، أولادًا، جمالًا، غنمًا، ضياعًا، عبيدًا... أعطاه الكثير الكثير ممّا في هذه الأرض.

لكنّ الرّبّ، في أيّوب، أراد أن يترجم لنا مقولة اليوم. فعندما أتى الشّرّير، وقال للرّبّ إنّ أيّوب لا يحبّه إلّا لأجل ما منحه إيّاه، وإنّه سيجحده إن حرمه من هذه البركات؛ جرّب الله صفيَّه! جرّب الله حبيبه! جرّب الله أيّوب! وكانت هذه تجربةَ الآب للابن. وهي تجربة الرّبّ يسوع لكلّ مَن يحبّه: الألم في الجسد، المرض في الجسد، الإقعاد في الجسد. والابن لم يتذمّر على الآب، بل قال له: "إن شئت أن تجيز عنّي هذه الكأس! ولكن، لتكن لا إرادتي بل إرادتك" (لو٢٢: ٤٢). وأيّوب دحض قول امرأته، قائلًا لها: "اذهبي عنّي! لماذا تهاجمينني؟!" (أي٢: ١٠). كذلك فعل مع أصدقائه.

النّاس يعتبرون أنّ مرض الجسد هو تأديب وقصاص. هكذا ينظر البشر إلى الآلام الجسديّة، وهم لا يعرفون، بالرّوح، أنّ الآلام الجسديّة، المعطاة للمؤمنين، ليست سوى أتّون خلاص! هي العلّيقة المحترقة، الّتي إذ تشتعل، تنظّف من حولها خلايا الرّوح؛ حتّى تهفّ بنور من نور الرّبّ، وبقيامة من قيامته، وضياء من ضيائه. لكنّ "هذا الكلام صعب، مَن [يفهمه]؟!" (يو٦: ٦٠).

نحن نعيش في الجسد، وهذا علامة رضى الله علينا. لذلك، كلّ النّاس يحبّون الجمال، ويظنّون أنّ الإنسان الجميل، خارجيًّا، يدلّ على حضور الله فيه. "باطل الأباطيل، الكلّ باطل وقبض الرّيح" (جا٣:١، ١٤). هذا غير صحيح. ونحن لا نعرف كيف كان وجه المسيح. بالنّسبة إلينا، كبشر، نعرف أنّ المسيح "لا هيئة له، ولا منظر، فنشتهيه" (إش٥٣: ٢)، قصبة مرضوضة هو... وقد قال عنه إشعياء إنّه كمل بالآلام، وهذا هو مخلّصنا...

ضيفنا هذا الأسبوع طريحٌ على حافّة بيت حسدا، أي بيت الرّحمة، لم يُقمه أحد، منذ ثمانٍ وثلاثين سنة. وهو لم يعرف أنّ الّذي يقيمه هو الإله فقط. هذا هو مرض الجسد، وهذا هو شفاء الجسد. الرّبّ لا يكلّل بالآلام الّذين لا يعرفونه؛ لأنّ الألم أقوى من الطّبيعة والتّحمّل. الألم هو الصّليب، وكثيرون لا يقبلونه، ولا يحتملونه، ولا يريدون أن يُسمَّروا على الصّليب. أكثرنا يريد الرّفاهية، أن يحيا بلا ألم. هكذا نعرف الله، ونحسّ به. وهذه كانت مشكلة البشريّة، قبل المسيح، إذ لم تعرف الصّليب. علامة رضى الله، بالنّسبة إلى الكثيرين، هي في الصّحّة، في الإرادة، في الشّخصيّة، في الجمال، في التّحكّم

في الآخرين والتّسلّط عليهم، في الغنى، في الملكيّة... هذا ما صار إلهًا للنّاس عوض الإله الحقيقيّ...

هناك نوعان من الألم، من المرض الجسديّ الّذي يراه الرّبّ، ويسمح بأن يصيبنا. النّوع الأوّل هو الألم والمرض اللّذان هما ثمرة الخطيئة والابتعاد عنه. والنّوع الثّاني هو الموت الّذي "ضرب" أجسادنا وأرواحنا؛ فتفتّتت البشريّة، جيلًا بعد جيل، ولم تعرف القيامة إلى الإله الحقيقيّ. من هذا المرض يشفينا الله، حتّى لا نيأس، وحتّى يُظهر لنا أنّه موجود وحاضر، وهو وحده قادر على أن يشفينا. "هو" الشّفاء من المرض. هذه هي أوّل خطوة، بالنّسبة إلى الّذين لا يعرفون الله؛ حتّى يأتوا إليه، ويسيروا في دربه الطّويل، ويصلوا إلى الصّليب، ولا يُعدّوا الموت الثّاني موتًا؛ لأنّ به وفيه القيامة. هذه قصّة الله مع لعازر الصّدّيق: أوّلًا، أماته موتًا، ومن ثمّ أقامه منه؛ حتّى يعرف الجميع أنّه هو الإله الوحيد، الّذي يقيم الموتى. وكذلك قصّة الله مع أيّوب، الّذي كان يعرف الله؛ فبعد أن "ضربه" بالقروح والدّود، شفاه، على الرّغم من أنّ أيّوب لم يكن يحتاج إلى الشّفاء، إنّما الشّيطان وامرأته وكلّ النّاس هم الّذين كانوا يحتاجون إلى ذلك؛ لكي يعرفوا أنّ إيمان أيّوب لا يتزعزع، لا بامرأته، ولا بماله؛ لأنّه بإيمانه انتقل إلى الحياة الأبديّة. وكذلك الأمر بالنّسبة إلى المخلّع، وكلّ مَن شفاهم. من هنا، الرّبّ كان يطلب من الّذين يشفيهم أن يخبروا أنّه هو الإله الحيّ الشّافي وحده.

لذلك، بعد أن نعرف الله، يصير شفاء الجسد أمرًا ثانويًّا، بل غير مهمّ، بالنّسبة إلينا. أكثر من ذلك، أقول لكم إنّ المرض، بعد أن نعرف الله، يصبح، بالنّسبة إلينا، تطهيرَ أتّون يتجلّى فيه الفتية بالتّسبيح، والتّرتيل، والتّهليل.

المرض، بالنّسبة إلى الإنسان الّذي يعرف الله، هو تنقية من كلّ شبه خطيئة فيه. هو مجاورة للإله، واتّحادٌ للإنسان بالله، يمنحه إيّاه الله نفسه. صليبه هو علامة حبّه.

الرّبّ يسوع يقول لكلّ واحد منّا، اليوم: "أحببتك، يا بنيّ؛ لذلك، ها إنّي أعطيك ما أعطانيه الآب. أعطيك ألمًا، حتّى تعرف أنّك مارّ في هذه الأرض، وليس لك خلاص إلّا بالقيامة"... ألم المرض والصّليب، بالنّسبة إلى المؤمن، هو اقتلاع له من جذور

هذا الجسد، وهذا العالم، وممّا يبقى فينا متعلّقًا بهذه الدّنيا، وبهذا الكيان؛ حتّى نقول له: "المسيح قام؛ إذًا، نحن سنقوم". إذًا، الرّوح هو الّذي يحيي. الرّبّ يزيل الجسد بالألم، حتّى يدعو الرّوح إليه؛ فطوبى للّذين يعرفون أنّ هذا المرض هو علامة حبّ الله، وهذا الألم هو ختم معموديّته؛ إذ ذاك، بدل أن يفيض ماءٌ من أجنابنا، تفيض دموعٌ من مآقينا، تغسل خطايانا، وخطايا أهل الأرض، والّذين لا يعرفون الله، والّذين جحدوه وأنكروه... وتغسل حتّى الشّيطان... وتمنحنا غفرانًا لكلّ خطيئة هذا الكون.

٦ أيّار ١٩٩٦

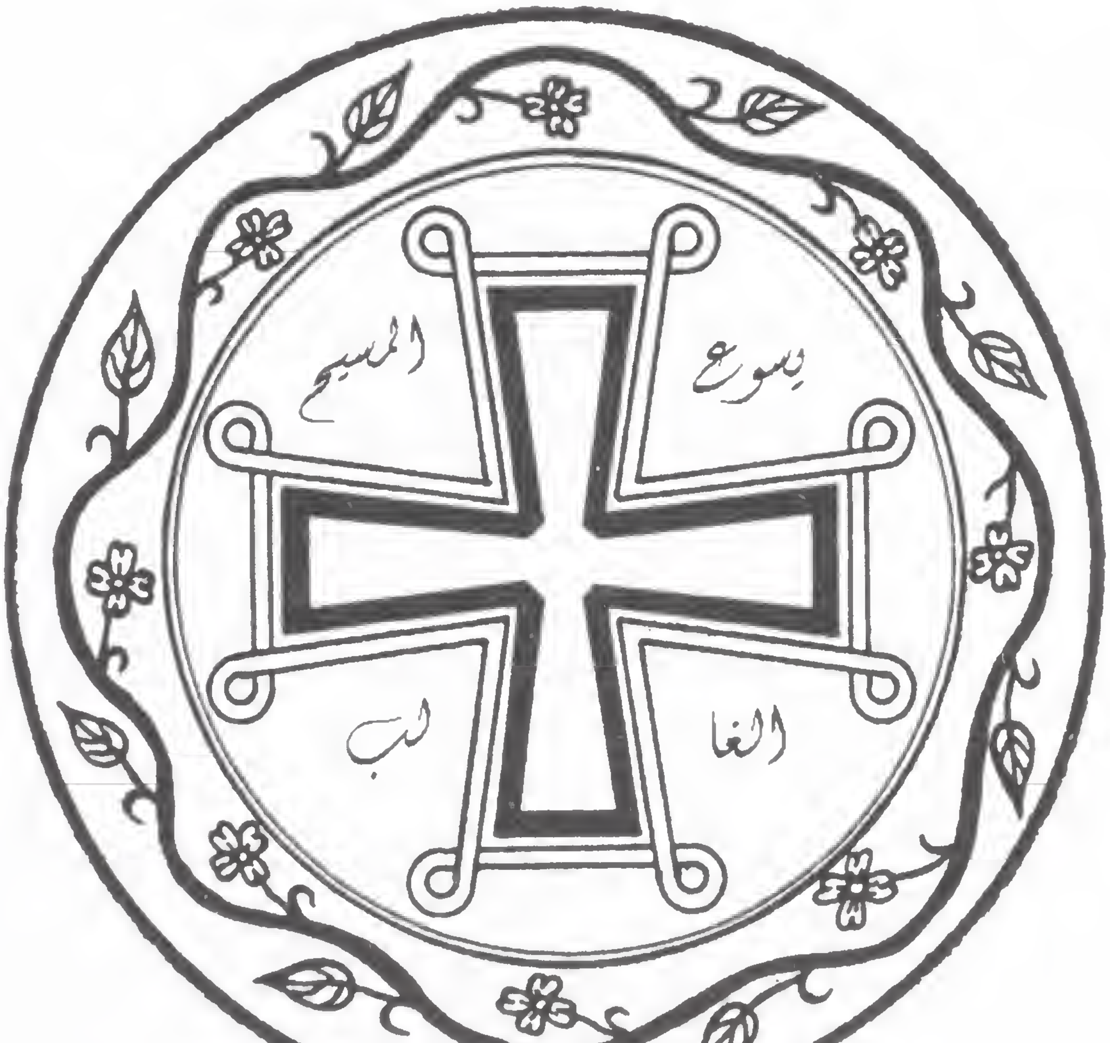

الارتقاء إلى السّموات

(يو١٧: ١٨- ٣٦)

أجرة العالم الخطيئة والموت، وأجرة الّذين يعرفون الله الحياة الأبديّة معه، والاتّحاد به؛ ليصير وإيّاهم واحدًا، كما أنّه هو والآب واحد. إذًا، الّذين يعرفون الله ليسوا هم، بعد، من هذا العالم؛ وليسوا، بعد، للخطيئة؛ ولا هم، بعد، للموت.

اليوم، في وداع عيد الصّعود، يحملنا الله معه إلى أعلى أعالي السّموات؛ ليجلسنا عن يمين الآب... اليوم، الملائكة يتعجّبون، والقوّات تنذهل، والشّيروبيم والسّيرافيم يرتعدون لمرأى المسيح المتجسّد عائدًا صُعُدًا إلى السّموات. وعجبهم، كما قرأنا طول هذا الأسبوع وحتّى هذا اليوم، عائد إلى أنّ المسيح، بعد أن تجسّد، عاد إلى السّموات، لا كما عرفوه نازلًا منها، بل بجسد الكون. عاد إلى السّموات بجسد المخلوق. عاد إلى أعلى أعالي السّموات بالجسد التّرابيّ، الّذي هو أبدعه، ونفخ فيه روحه... والعَجَب المستغرَب أنّ السّموات لا يدخلها إلّا السّماويّ؛ فكيف يعود السّيّد بالأرض إلى السّموات؟! وهذا العَجَب يعود إلى أنّ الرّبّ جعل الكونَين يتّحدان في ذاته: جعل الكون الطّبيعيّ، المادّيّ، المخلوق، التّرابيّ، الفاني، يتّحد بالألوهة؛ مرتقيًا به، ليقدّمه إلى الآب، ذبيحةً، وقربانًا، وهديّةً.

في عيد الصّعود، لا يبقى أيّ فاصل ما بين الأرض والسّماء. هذا هو العَجَب المستغرَب الّذي علينا، نحن الأرضيّين، أن نقف مذهولين بإزائه، كما وقف الملائكة مذهولين بإزاء رجوع السّيّد إلى السّماء حاملًا ترابيّتنا، ودمنا، وشكلنا، وهيئتنا. نقف مذهولين، كما مريم الّتي قالت، عندما أتاها الملاك ببشرى الحبل بالإله: "كيف لي هذا؟!" (لو١: ٣٤). نحن، اليوم، نقف، مثل مريم، مدهوشين مذهولين: كيف لنا هذا؟! مَن نحن، حتّى نُحمَل إلى السّموات؟! مَن نحن، حتّى نُعطى هذه الكرامة؟! مَن نحن، حتّى نرتفع إلى الآب؟! مَن نحن، حتّى يجعلنا الرّبّ نتّحد بذاته؟! مَن نحن، حتّى لا نذوق

الجحيم والموت، بعد؟! مَن نحن، حتّى نُرفَع هكذا إلى رتبة الملائكة والقدّيسين، وإلى ما أعلى من رتبة الملائكة والقدّيسين؟! مَن نحن، حتّى نُرفَع إلى هيئة الإله، ونصير مسحاء فيه ومعه؛ فنجلس عن يمين الآب، لأنّه هو ارتضى هذا؟!...

يا سيّد، نحن لسنا سوى تراب ورماد. في أجسادنا تندرج طبيعة السّقوط، لأنّنا سقطنا عنك، وما أحببناك، وما أطعناك... في طبيعتنا تندرج الهشاشة، يندرج الحسد، والظّلمة، وعدم المحبّة. في طبيعتنا ومنها تتفتّق أهواء تدنّس ما أنت تحملنا إليه. يا سيّد، اليوم، يندرج الخوف في أحشائنا؛ لأنّك دعوتنا، فسقطنا السّقوط الأوّل مع آدم. كلّ الكون سقط؛ فصار السّقوط عنوان الخليقة، جيلًا بعد جيل. لكنّك، بالحبّ المطلق، الّذي لا نعرفه ولا نفهمه، نزلتَ من أعالي السّموات؛ لتصيّر الأرضَ سماء، والإنسانَ إلهًا. هكذا، صار الكون الطّبيعيّ، المادّيّ، المخلوق، جسدَك. كلّ هذا الكون الأرضيّ، التّرابيّ، المخلوق، صار جسدَ الإله؛ لأنّك هكذا ارتضيت، إذ جعلت ذاتك تتّحد به، لتصير واحدًا وإيّاه، وحملته في ذاتك، وذبحتَ الحبّ الإلهيّ على مذبح هذا العالم، وقدّمت حبّك للآب، وحبّ الآب لك، وشركةَ الروح القدس معكما، هديّةً. ولكن، إلى مَن؟! إنّها هديّة للتّرابيّين الّذين خلقتهم، فابتعدوا عنك؛ ناديتهم، فلم يسمعوك؛ اقتربت منهم، فأقصوك... بتجسّدك وصلبك، صرت أنت الكونَ الجديد، والإنسانَ الجديد، والحبَّ الجديد؛ فلا كون عتيق بعد، ولا إنسان عتيق، ولا ظلمة، ولا موت، ولا خطيئة... كلّ هذا حملته فيك، بالحبّ الّذي أحبّك به الآب، وأرجعت الكون السّاقط، وارتفعت به، لتُجلسه عن يمين العزّة الإلهيّة، وقلت للآب: "يا أبي، كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا أيضًا إلى العالم، ولأجلهم أقدّس ذاتي، ليكونوا هم أيضًا مقدَّسين بالحقّ" (يو١٧: ١٨- ١٩).

في عيد الصّعود هذا، عيد صعود الرّبّ إلى السّماء، وبعد أن اتّحد الرّبّ بالكون وبالإنسان، وحمل كلّ شيء معه إلى فوق؛ لسنا، بعد، ههنا. لسنا، بعد، أرضيّين. هذا هو ختم الألوهة علينا، وهذا هو ختم القداسة على كلّ جبين، بالحبّ الّذي اشترانا به الرّبّ الإله. قايين حمل ندبة قتل أخيه، ونحن نحمل ختم قتلنا للسيّد حبًّا... أتعرفون أنّ الرّبّ يسوع لم يجازنا على خطيئتنا، ولم يقاصص البشريّة لأنّها صلبته؟! القصاص الأكثر إيلامًا، الّذي قاصصها به، هو قوله للآب: "اغفر لهم، يا أبتاه" (لو٢٣: ٣٤)!

هذا هو قصاص الإنسان الجديد: "الحبّ"! كلّما شمختَ، يا إنسان، أكون قدّامك منكسرًا! كلّما عَنُفْتَ، أكون متذلّلًا! كلّما استكبرتَ، أكون متواضعًا! كلّما ارتفعت، أكون عند قدميك ساجدًا! كلّما ضربتني بيدك، أكون منحنيًا، أقبّل قدميك! كلّما تضايقتَ منّي، أكون واقفًا عند بابك أقرع! كلّما حَنقْتَ عليّ، أكون راضيًا! كلّما امتنعتَ عن طاعتي، أكون صابرًا، وباذلًا نفسي لأجلك، وميتًا أمامك؛ حتّى تأتي وتدوس جسدي، مارًّا، عابرًا؛ فألتقطك، وأُدخلك إلى جسدي الميت، وأحملك، وأصير أنا لك نعشًا؛ لأرفعك إلى السّموات!... هذا ما يقوله الربّ الإله. هذا ما يقوله المسيح، يوميًّا. هكذا يبكي الملائكة، والشّيروبيم، والسّيرافيم. هذا هو العَجَب الجديد المستغرَب، بعد صعود السّيّد إلى السّموات، حاملًا معه الإنسان والكون... صار للملائكة عمل جديد، إضافةً إلى تسبيحهم الدّائم: "قدّوس، قدّوس، قدّوس...". صاروا، أيضًا، يبكون ألم السّيّد، وجراحه، وهو في السّماء؛ لأنّنا ما زلنا نخطئ، وما زلنا نقسو على الآخرين، وما زلنا ندين الآخرين، وما زلنا نتكبّر، وما زلنا غرباء عن الحبّ، وما زلنا ننتقد إخوتنا، وما زلنا عصاة لا نطيع، لأنّنا لا نحبّ...

هذه هي هيئة الألوهة الجديدة الّتي أودّكم أن تروها، في السّموات. قلب السيّد الرّبّ يسوع المسيح منشطر إلى شطرين، لكنّه غير منقسم. في قلبه يحمل حبّ الآب، ويقول: "... كما أنّك، أيّها الآب، فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا" (يو١٧: ٢١). هذه هي مقولة الابن للآب، في كلّ لحظة، وهو، في السّماء، جالس عن يمين أبيه. إنّه يتوسّل إلى الآب، حتّى نصير نحن واحدًا فيه. إنّه متّكل على حبّ الآب، وهو يعرف أنّه واحد معه؛ غير أنّه، بعد أن أخذنا بالحبّ وحمل ضعفنا، يرتضي بهذا الضّعف، ويتوسّل إلى الآب أن يقبل إدخالَ الطّبيعة البشريّة في حبّ الثّالوث القدّوس، إلى الفردوس.

هذا هو شأن الصّعود. إنّ الربّ يسوع المسيح، الّذي تجسّد لخلاصنا، وأخذ عليه جسديّتنا، وترابيّتنا، وصَلَبْنا له، يقدّم إلينا حبّه شكرًا. لقد أطعَمَنا الحياة، فذبحناه! وهذا ما نفعله، في كلّ يوم، لا به فقط، بل بعضنا ببعضنا الآخر... بغضبنا، بكرهنا، بعدم اتّساعنا، بحقدنا، بحسدنا، بنميمتنا، بكبريائنا، بتقوقعنا على ذواتنا، ببقائنا في إنساننا العتيق... في كلّ يوم، فيما نحن نرفض أن نخرج إليه، يرتضي هو بضعفنا، ويحملنا؛ لأنّه

يحبّنا، ويبكي شقاءنا، ويصبر علينا! نعم، الربّ يبكي، ويرجونا، يومًا بعد يوم، وعيدًا بعد عيد، وذكرى بعد ذكرى، لكي نعود إليه. إنّه يقدّم ذاته ذبيحةً، ويطعمنا جسدَه، ويسقينا دمه، ويرجو، ويقول: "تعالوا! تعالوا إليّ لكي أحملكم معي، وأصعد بكم، وأجلسكم عن يمين الآب!"...

سؤالي، اليوم، لا بل سؤال الرّبّ لنا، في وداع صعوده: أين نحن، وماذا نريد؟!...

رجائي، بل توسّلي إليكم أن تسمعوا، بقلوبكم، صوت الآب والابن، في الرّوح القدس، يناديكم! إنّه ينادي كلّ واحد منّا؛ لنعود إليه، نحن رسله، هنا؛ لنقدّس الكونَ الّذي هو فيه، ونحمله معنا إليه. هذه رسالتنا: أن نسير كلّنا واحدًا بحبّه، ووصيّته، وتجسّده، وقيامته، وصعوده.

٣١ أيّار ١٩٩٦

محاكمة الرّبّ

(متى٤: ١٨- ٢٣)

مع الرّبّ يسوع المسيح ليس هناك من وجع، بل فرح. أمّا الوجع، فهو من إنساننا العتيق، من عنادنا، من طلبنا فعلَ مشيئتنا، من عدم امتدادنا نحو الآخرين، من عدم محبّتنا واحتضاننا لهم، من عدم انكسارنا... كلّ هذا يجعلنا نصطدم وإيّاهم: لماذا يفعل أخي ذلك؟! لماذا يتصرّف على هذا النّحو؟!... هذا هو وجع إنساننا العتيق النّاتج من عدم محبّتنا، من عدم صبرنا، من أهوائنا، من أفكارنا، من أنانيّتنا... إذا حاولتم أن تعرفوا لماذا تتوجّعون، تجدون أنّ ذلك يعود إلى كون الآخر لا يفعل ما أنتم تريدونه، بل ما هو ضدّ سعيكم وتفكيركم... نحن لا نحتضن الآخر، ولا نصبر عليه، ولا نفرح به؛ حتّى نقبل بما يريده هو. الشِّباك الّتي تكلّم عليها السّيّد، اليوم، في الإنجيل، حين دعا الصّيّادين إلى أن يتركوها ويتبعوه، واعدًا إيّاهم بأن يجعلهم صيّادي النّاس (متى٤: ١٩- ٢٠)، إنّما تمثّل هذا الانتقال من الأرضيّات إلى السّمويّات. وهذه هي عطيّة الرّبّ، وهديّته لنا في العنصرة.

يوم الأحد الماضي كان "أحد" جميع القدّيسين. واليوم هو بداية دورة جديدة. لقد أتتنا الهديّة من الرّبّ يسوع: رأى الصّيادين يصطادون، فقال لهم: "اتركوا الشِّباك واتبعوني. تعالوا...". الشِّباك هي ما يربطنا، أو ما يكبّلنا، كما يكبّل العنكبوت الحشرات بشِباكه، ويأكلها. وحتّى يخرج المرء من الشّباك، عليه أن يمزّقها. هديّة الرّبّ لنا هي قوله: "اتركوا ما أنتم مكبّلون ومربوطون به، وتعالوا إليّ؛ حتّى أعطيكم أن تصطادوا البشر". كيف ذلك؟! بالحبّ! ما من طريقة أخرى. الفرق بين صيد السّمك وصيد البشر هو أنّنا نصطاد السّمك حتّى نأكله، حتّى نبيعه ونربح. أمّا في صيد البشر، فلا نستطيع أن نأخذ من البشر إلّا ما نعطيه. علينا أن نبذل أنفسنا، حتّى نأخذ أجرة. علينا أن نعطي، حتّى نأخذ. علينا أن نمتدّ صوب الآخر... هذه هي الحياة في المسيح، وعطيّته، وهديّته لنا.

الفرح الّذي تسألون عنه، أي الفرح الرّوحيّ، لا يُحكى عنه، ولا يُلمس، ولا

يُحَسّ. إنّه حالة من السّكينة، والهدوء، والسّلام. في العالم، نعبّر عن فرحنا بالرّقص، والغناء، وشرب الخمر، والثّرثرة، واللّهو... هذا هو نمط الفرح البشريّ. أمّا الفرح الإلهيّ، فهو أن ينتاب هذه النّفسَ هدأةٌ، تجعلها لا تطلب شيئًا سوى أن تجلس قدّام الرّبّ، وتقول له: "وجهك، يا ربّ، أنا ألتمس" (مز٢٧: ٨). تجلس مع الإخوة، وفي قلّايتها، بسلام، ولا تطلب مجدها، أو تُظهر ذاتها، أو تقدّم كلمتها. فقط، تطلب السّلام. هذا هو فرح الملكوت، الّذي يمنحنا إيّاه الرّبّ يسوع، ولا أحد يستطيع أن ينزعه منّا؛ لأنّنا صعدنا من الشّباك، من فرحنا الأرضيّ، وصرنا أحرارًا، لا نطلب شيئًا، ولا نقاتل، ولا نقف عند آرائنا... فقط، هناك صلاة، وصمت، وبذل، وهدأة. هذا هو السّلام، وهذا هو الفرح الجديد: لقد عرفتُ الرّبّ، وهو عرفني، واختارني؛ فقلت له: "هأنذا"، وأنا فَرِحٌ بأنّني عنده، وكلّ شيء أفعله بفرح ورضًى. الإسكيم يأخذه الرّاهب من البداية، منذ أوّل خطوة يدخل بها إلى الدير. أمّا النّذور المتتالية، فليست سوى ترتيبات.

لذلك، نحن، في الدّير، لا نقبل أحدًا على أساس التّجربة. التّجربة تكون فقط متى كان الشّخص خارج الدّير. لكن، متى دخل الدّير وقُبِل؛ فلا رجوع إلى الوراء. مَن أراد أن يتزوّج، فلا يجرّب، أوّلًا، الزّواج ما إذا كان حسنًا أو لا، بل يتزوّج ويقبل... يدخل في السّرّ. في الحياة الرّهبانيّة، الشّخص يأتي، أوّلًا، كطالب. ولكن، لا ليجرّب، بل ليصبح مبتدئًا... وهكذا حتّى النّهاية. تلميذ المدرسة لا يدخل المدرسة حتّى يجرّبها، بل ليكمل حتّى الأخير، إلّا إذا طُرد. ونحن لا نطرد أحدًا، إلّا إذا طرد هو نفسَه. لذلك، نحن لا نقبل أحدًا قبل أن نتبنّاه. ومتى تبنّيناه، فلا نتخلّى عنه، حتّى ولو كانت عنده صعوبات كثيرة. من هنا، التّجربة هي قبل دخول الدّير؛ لأنّ جهاد الشّخص، بمجرّد أن يفكّر في أنّه يريد أن يجرّب بدخوله الدّير، يصبح غير مكتمل. وهذا يجعله ينظر إلى الوراء، إلى خارج الخدر السّماويّ. لذا، الّذي دخل الدّير ليست له عودة إلى الوراء... ومع الإسكيم تصبح المسؤوليّة أكبر... هذه هي البركة حتّى نصبح أولادًا للرّبّ؛ فنتعلّم منه الجهاد، والحبّ، والطّاعة؛ لنصل إلى الصّليب والقيامة.

سألت الأب صفروني، مرّة، عن علاقة الرّبّ بنا من خلال الإسكيم؛ فأجاب: "آه! إنّه يحاسبنا على صعيد أدقّ التّفاصيل، بعد أن نلبس الإسكيم"... وأنا بدأت

أحاسبكم، منذ أوّل دخولكم الدّير. هذه الطّريقة أكثر إيلامًا، لكنّها أسرع. لا يمكن أن نعتبر الرّبَّ تحصيلًا حاصلًا. ترون في أيّة حالة من التّرتيب والنّظام خلق الرّبّ هذه الطّبيعة. مَن يريد أن يعيش على صورة الله ومثاله، فعليه أن يعرف أنّه سيحاسَب على صعيد أدقّ التّفاصيل. ألا أعطانا الله أن نرى، ونسمع، ونحسّ، ونحاسب أنفسنا، قبل أن نقع في الدّينونة، قدّام محكمة الرّبّ.

١٦ حزيران ١٩٩٦

الإناء الفارغ مسكن الشيطان

(متى١٢: ٣٨- ٤٥)
(رو١٥: ٧- ١٦)

في إنجيل اليوم، وأيضًا في رسالة القدّيس بولس إلى أهل رومية، هناك خبر واحد ودعوة واحدة. لذلك، وضعت الكنيسة، اليوم، هاتين القراءتين لتكمّل إحداهما الأخرى.

يظهر الرّسول بولس، في الرّسالة، كأنّه يتوسّل، إذ يقول: "يا إخوة، ليتّخذ بعضكم بعضًا كما اتّخذكم المسيح لمجد الله" (رو١٥: ٧). وفي الفصل الإنجيليّ، يطلب الكتبة والفرّيسيّون آية، يريدون إشارة، علامة (متى١٢: ٣٨). إشارة إلامَ؟! ماذا يطلب النّاس؟! ماذا نطلب نحن؟! لقد قلنا مرارًا، ونكرّر قائلين إنّنا ما زلنا نشبه الكتبة والفرّيسيّين؛ لأنّنا ما زلنا نطلب آية، وعلامة، وإشارة، في نفوسنا، ومن حولنا، وفي أيّامنا، وفي الآخرين، وفي الإله. ما زلنا نقايض الله: لماذا لا تعطيني سلامًا؟! لماذا تنغّص عليّ فرحي؟! لماذا لا أقوم بنشاط إلى قانوني؟! لماذا تملأني الأفكار النّجسة؟! لماذا أتضايق من إخوتي؟! لماذا لا أحبّ كفاية؟! لماذا أعاند؟! لماذا أنفر من أخي، إذا وجّه إليّ ملاحظة؟! لماذا لا أتحلى بالصّبر؟! لماذا لا حبّ في قلبي، ولا رحمة؟! لماذا لا سلام في نفسي؟! لماذا أنا مريض؟!...

هذا نحن، وهذه هي أسئلتنا اليوميّة. الكتبة والفرّيسيّون طلبوا آية. كان يسوع معهم، مدّة طويلة، ولم يعرفوه. تكلّم، ولم يسمعوه. صنع عجائب، ولم يصدّقوه. لم يكتفوا بما رأوه، وسمعوه، وأحسّوا به. كانوا كالحيوانات العجم، يطلبون أكثر وأكثر... مَن يكتفي؟! الممتلئ! ذاك لا يطلب شيئًا، لأنّه كالوعاء الممتلئ من الماء، الّذي لا تقدر أن تزيد عليه نقطة واحدة؛ لأنّه، إذ ذاك، يفيض.

الكتبة والفرّيسيّون كانوا يطلبون، في كلّ يوم، آية؛ لأنّهم كانوا فارغين من نعمة الله الّتي

شاهدوها، فترة طويلة، إذ إنّهم لم يسمحوا للرّوح القدس بأن يملأهم. كذلك نحن، حتّى الآن، لم يملأنا الرّوح القدس، بعد؛ لأنّه لو ملأنا، لَكنّا هادئين، محبّين، سلاميّين، فرحين، صابرين، مصلّين، دامعين على خطايانا، باكين، في كلّ لحظة، على إخوتنا والعالم... ولَما كنّا نطلب شيئًا. كيف يطلب أفعالَ المسيح مَن له الملء؟! كيف يطلب آياتِ المسيح مَن له المسيح بالكلّيّة؟! كيف يطلب إشارة مَن له المُشير؟! كيف يطلب عجيبة مَن أحسّ بحقّ أنّه، بعد أن امتلأ من جسد الرّبّ ودمه، صار هو العجيبة؟! نعم، يصير هو العجيبة، إذا تغيّر، إذا تبدّل، إذا عرف خطيئته، إذا عرف أنّه "لا شيء" – والمعرفة، هنا، ليست عقليّة، بل كيانيّة – إذا أحسّ، بكلّ كيانه، أنّه إذ تغادره النّعمة، يصبح أكثر خنزيريّةً من الخنزير، وأكثر دونيّةً من الدّودة، ويمكن أن يصبح شيطانًا رجيمًا!...

الكتبة والفرّيسيّون طلبوا آية، فأجابهم الرّبّ قائلًا: "جيل شرّير فاسق" (متّى١٢: ٣٩)، وأعطاهم مثل يونان النّبيّ الّذي خلُص، بعد أن بقي، ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ، في بطن الحوت، الّذي كان يمكن أن يُطحن فيه، لكنّه خرج منه سالمًا (متّى١٢: ٣٩- ٤٠). كما أعطاهم مثل الملكة الّتي أتت من التّيمن تطلب حكمة سليمان، فأعطاها حكمته هو (متّى١٢: ٤٢). ومباشرة بعد المثلين، يعطينا الجواب عن السّؤال طلبًا للآية، بقوله لنا: "إذا خرج الرّوح النّجس من الإنسان، يجتاز في أماكن ليس فيها ماء، يطلب راحة ولا يجد. ثمّ يقول: أرجع إلى بيتي الّذي خرجت منه؛ فيأتي ويجده فارغًا مكنوسًا مزيّنًا. ثمّ يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أُخَر أشرّ منه، فتدخل وتسكن هناك؛ فتصير أواخر ذلك الإنسان أشرّ من أوائله" (متّى١٢: ٤٣- ٤٥).

بعد التّجسّد والصّلب والقيامة، لا يطلب آية، إلّا الرّوح الشّرّير. لقد أخذنا كلّ شيء، فلماذا نطلب؟! وماذا نطلب؟! لقد اغترفنا الدّمَ المحيي، والماءَ للغسل، ورأينا القيامة، وعشنا المطلق، المنتهى، آخر الحبّ الّذي يمكن أن يُعطى لبشريّ، وما زلنا نطلب! ماذا نطلب؟! إذًا، الرّوح المعاند يسكن فينا! لهذا، مباشرة، بعد المثلين، قال الرّبّ ما قاله عن الرّوح النّجس... بعد القيامة، لا يطلب تحقيقًا، إلّا الشّيطان؛ لأنّه لم يكتفِ بالإله، ولم يقرّ به، ولا آمن، بعد، بأنّ هذا هو ربّ الكون، الّذي تجسّد طفلًا، وعاش، وشفى المرضى، وأطعم الجياع، وأحبّ حتّى الموتِ، موتِ الصّليب، مفتديًا

البشريّة كلّها. وبعد أن قام، اجتذب الكلّ معه إلى السّماء، وأجلسهم عن يمين الله الآب... ماذا نطلب، بعد أن صرنا معه فوق؟! لا يطلب آية، إلّا المعاند الّذي لم يؤمن بأنّ خلاصه قد تمّ... لماذا لم تفهم البشريّة ما جرى من خلال التّجسّد، والحياة، والصّلب، والموت، والقيامة؟! الجواب واحد: لأنّها لم تحبّ! المحبّ يمتلئ من حبّ الله، يومًا بعد يوم؛ إذًا، يمتلئ من الإله؛ فيصبح الوعاء، عند امتلائه، إلهًا بذاته.

وصيّة الرّسول بولس لنا، اليوم، أن نتّخذ بعضنا بعضًا، كما اتّخذنا المسيح لمجد الله (رو١٥: ٧). هذه هي الوصيّة الأولى لنا، اليوم؛ وهذه هي الوصيّة الّتي أتى الرّبّ ليوصينا بها: أن نتّخذ بعضنا بعضًا. أتعرفون ما معنى الاتّخاذ؟! هو أن نقبض على ما نأخذه، حتّى لا يقع من أيدينا. لذلك، قال الإنجيليّ يوحنّا: "وأخذها إلى خاصّته" (يو١٩: ٢٧). عندما أسلم الرّبّ والدته، وهو على الصّليب، إلى يوحنّا، وقال لها: "هذا ابنك"؛ ضمّها يوحنّا إلى جماعته، اتّخذها، وأسكنها عنده. ما معنى أن نتّخذ بعضنا بعضًا؟! هذا يعني أن أقول لأخي، يوميًّا، في صلاتي، في قانوني: "أنت حبيب المسيح؛ إذًا، أنت حبيبي. أنت أخ المسيح؛ إذًا، أنت أخي"... على هذا النّحو خاطَبنا المسيح، على الشّاطئ، قائلًا: "يا غلمان، يا إخوة، يا أحبّة"... مَن منّا اتّخذ الآخر حبيبًا له في أحشائه؟! فلننتبه جيّدًا، لأنّنا إن لم نتّخذ الآخرين في أحشائنا؛ فإنّنا نكون فارغين من نعمة الله، من الرّوح القدس؛ فيخرج الرّوح النّجس ويعود بسبعة أضعاف. ليس من وعاء فارغ، بعد التّجسّد. إمّا أن يمتلئ من الرّوح القدس، الّذي أرسله الله بعد الصّعود؛ أو من الشّيطان، من روح المناصرة، والعناد، والفسق، والنّجاسة، والغضب، والبلادة، والكبرياء، و"الأنا"... لا يقولنّ أحد: "هذا أنا"! أنا أعرف جرح الطّبيعة البشريّة في نفسي، أوّلًا؛ فلا تخبروني عنه! أخبروني ماذا تفعلون حتّى "تكسروا" أنفسكم، لتخرجوا ممّا أنتم فيه! أخبروني كيف تتقيّأون ما أنتم عليه، وكيف تكنسون بيوتكم بالدّموع، يوميًّا، حتّى يأتي الرّبّ ويملأه، لا الشّيطان!...

من المستحيل أن يقدر الشّيطان على الدّخول فينا، إذا كنّا نحبّ، إذا كنّا ممتلئين من حبّ الرّبّ يسوع، ومن محبّة الآخرين. وهذا لا يتمّ إلّا بإتمام الوصايا، يومًا بعد يوم؛ وبعيش الإنجيل، يومًا بعد يوم. كيف ترفضون الآخر، وقد سجدتم وصلّيتم، منذ

قليل؟! كيف تصرخون إلى الرّبّ يسوع؟! هناك أمور لا أفهمها! إنّ روح الرّبّ والرّوح النّجس لا يتعايشان، ولا يتساكنان. متى طردتم المعاند، وكنستم بيوتكم، واستصرختم روح الرّبّ؛ فإنّه يأتي سريعًا، ليسكن فيكم. وإذا سكن فيكم، وأذاقكم حلو طعمه؛ تثبتون في الأعمال الصّالحة، في كلّ يوم، وكلّ مساء، وكلّ ساعة، وكلّ لحظة؛ وتسكنون في سلام قلوبكم. حينئذٍ، لا تطلبون آية، بعد، ولا عجيبة؛ لأنّكم تصيرون مأخوذين، مندهشين بالرّوح القدس، مهووسين، مشدودين إليه...

ألا أعطانا الرّبّ أن نكنس بيوت قلوبنا وعقولنا، وهذا المكان، ديرنا؛ لنطرد منه الرّوح الممالق والمعاند، روح الاستكبار، روح النّجاسة، وننظّف بالدّمع ما أعطانا إيّاه الرّبّ وديعًا، ونملأه بزيت البهجة. حينئذٍ، ينزل الرّوح القدس علينا؛ فينير تلك الفتيلة، حتّى ولو كانت مدخّنة، خفيفة. المهمّ أن يأتي ويسكن فينا، ويلتمع في نفوسنا؛ فنحيا به، طول أيّام حياتنا، حتّى نلقى وجهه.

٣ تمّوز ١٩٩٦

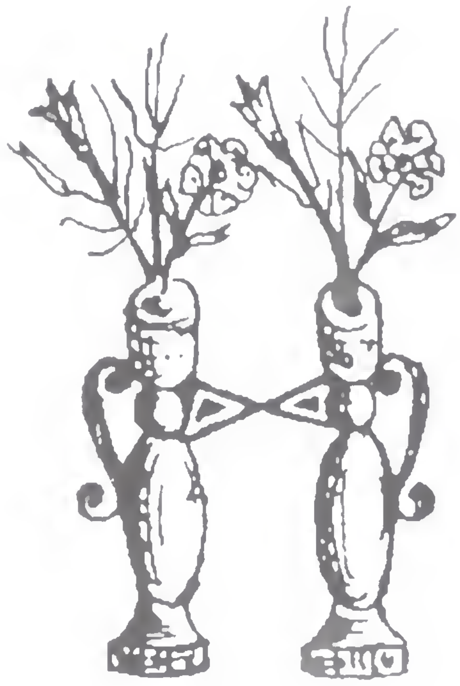

الدّم المحيي

(مر٥: ٢٤- ٣٤)

"يا ابنة، إيمانك أبرأك؛ فاذهبي بسلام" (مر٥: ٣٤). الرّبّ يسوع واقف في الوسط، والجموع تزحمه، وامرأة بها نزف دم، منذ زمان طويل، تأتي وتلمس هدب ثوبه، فتشفى. لكنّ الرّبّ أراد أن يعرف مَن هي تلك المرأة، وهو عارفها، إلّا أنّه أراد أن يعلّم الجموع أنّنا، فقط، بالإيمان، بعد الوجع، نُشفى.

مَن هي تلك المرأة؟! إنّها امرأة لا اسم لها، ولا هيئة. قصّتها حادثة رمزيّة تشير إلى البشريّة، إلى كلّ المسكونة، إلى النّفس البشريّة، نفس الرّجل والمرأة، نفس الكون برمّته. هذه المرأة مجرّحة، لأنّها تركت أباها. واليوم، إذ تستعيد البنوّة، وتعرف أنّ لها أبًا يخلّصها؛ تشفى من جراحها، من نزفها، من علامة الموت، أي من الدّم، الّذي هو علامة الحياة. هذا الموت عمره اثنتا عشرة سنة. لماذا حدّد الرّبّ الفترة؟! لقد سأل: "مَن مسّ ثيابي" على الرّغم من أنّه كان يعرف. والرّسل كانوا يتسقّطون كلمة الرّبّ، ليسجّلوها في قلوبهم، وفي مصحف الحياة؛ لتصل إلينا منها الحياةُ الأبديّة. وقد فعل الرّبّ ذلك، لكي يُظهر تلك المرأة للجمع الّذي كان من حوله؛ حتّى يعرف الجميع أنّها تنزف دمًا، أنّها تخسر عنوان الحياة منها، وما من شاف إلّاه.

أليس كلّ واحد منّا هو تلك المرأة؟! ألا نحسّ، يومًا بعد يوم، بأنّ الخطيئة قد امتلكتنا، وأنّها تعصر قلوبنا، وعقولنا، ونفوسنا، وتؤثّر في هذا الجسد؛ فنمرض؟! مرض الجسد، في الحقيقة، هو آخر الأمراض الّتي تصيب الكيان البشريّ. إنّما مرض الخطيئة يصيب الرّوح، بدءًا. وإذ لا تبقى الرّوح خفيفة، لتهفّ إلى اسم الرّبّ يسوع، تنزل عليها غمامة تحجبها، وتحجب اسم الرّبّ عنها؛ فتدخلها الظّلمة، وتهيمن عليها؛ فيتغلّف القلبُ بمساء لا يعروه فجر؛ فتحزن النّفس. وفي الحزن الشّديد، يمرض الجسد. هكذا، تتدرّج الخطيئة، لتقبض علينا. هذا الجسد لا ينفع شيئًا. "أمّا الرّوح، فهو الّذي يحيي" (٢كور٣: ٦).

هذا ما قاله الرّسول بولس. الرّوح هو الّذي يحيي؛ فإن شُفيت الرّوح، يشفى الجسد. حتّى ولو مرض الجسد، أو تعذّب؛ فإنّه يتوقّف عن المعاناة، لا بل يتهلّل. هذه هي المفارقة العجيبة: أنّنا نموت ونحن أحياء، ونحيا ونحن أموات!...

القدّيسة مارينا، الّتي نعيّد لها، اليوم، عرفت المسيحَ طفلةً. لقد رمى بنفسه أمامها بوساطة امرأة عرّفتها بالمسيح، فآمنت به مخلِّصًا، وآمنت بكلمته وتعاليمه. وعندما سُئلت، قالت: "أنا مارينا، من بيثينيا. أؤمن بالرّبّ يسوع إلهي ومخلّصي"؛ فوُضعت في قبر، في سجن، سنوات طويلة، وعُذّبت، وجُلدت. لكنّها بقيت تصرخ اسم سيّدها وحبيبها. وإذ نزف دمها، انفصلت روحها، وصعدت إلى السّماء. كذلك، هذه المرأة، في هذا الإنجيل، كان دمها ينزف؛ فشفاها الرّبّ، وأطلقها من مرضها لتسبّح اسمه.

ما هي هذه المفارقة؟! كيف نموت ونحن أحياء، ونحيا ونحن أموات؟! الدّم الوحيد المحيي هو دم الرّبّ يسوع! كلّ دم، في أوصالنا، هو دم الخطيئة، دم الموت الّذي لا يحيي. هو يقيت هذا الجسد، لكنّ النّفس تبقى متردّية الموتَ في دم خطيئتها. إذًا، دمنا كلّه لا ينفع شيئًا، إن كانت الخطيئة ما زالت تميتنا؛ فجسدنا كلّه عائق لنا، إن لم تحيَ الرّوح بدم الرّبّ يسوع وجسده وكلمته، وتتقدّس. كلّ هذا الكيان موات، بل يجرّنا إلى الموت، إن لم يسرِ فيه دم الرّبّ يسوع بالمناولة المقدّسة. ولكن، كيف نتناول جسد الرّبّ، ولم نُشفَ، بعد، يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، فيما تلك المرأة شُفيت بكلمة واحدة، لأنّها طلبت أن تُشفى ولو بلمسها هدب ثوب السّيّد؟! نحن أخذنا، وما زلنا نأخذ الكثير، ولكنّنا لم نُشفَ بعد! نأخذ جسد الرّبّ ونأكله، فيصير وجسدنا واحدًا، ونشرب الدّم المهراق عنّا لكي نخلص من خطيئتنا، وما زلنا في نتانتنا، وفي هشاشتنا! ونسأل: لماذا جرح السّقوط كبير إلى هذا الحدّ، في البشريّة؟! هذا لأنّنا كلّنا ما زلنا متشامخين. هذا هو الجواب، ولا جواب إلّاه. ما زلنا متكبّرين، ومتمسّكين بإرادتنا ومشيئتنا الذّاتيّة. ما زلنا نصرخ: "أنا، أنا، أنا..."، ولم نطأطئ الرأس عند قدمي السّيّد، لنقول له: "أنت، أنت، أنت..."!

الشّهادة هي شهادة الدّم، الشّهادة في موت "الأنا"، في الاكتفاء بأن نكون ذرّة تراب عند قدمي الخالق، في الحبّ... مسكينة النّفس الّتي لا تعرف كيف تحبّ! مسكينة النّفس الّتي لا تعرف كيف تترجّى! مسكينة النّفس الّتي تصرخ، وتعنف، وتتقوقع في داخلها!

الحبّ الإلهيّ هو أن أصير في حبيبي، أن أصير حبيبي: أنا حبيبي، وحبيبي أنا. وعندما أصير أنا حبيبي، لا أكون موجودًا، من بعد. هذا هو الجواب. لا شيء ينفع. يمكننا أن نملأ الكتب والدّفاتر بملايين الكلمات، ويمكننا أن نحتمل آلاف القصاصات، والتّعبيرات، والتّنبيهات... ولكن، إن لم ننكسر من الدّاخل، إن لم ننشطر ويمّحي كياننا عند قدمي الرّبّ، كمريم الّتي كانت تسمع كلامه؛ فلن ننجو. والسّماع مع الفعل هو الحبّ. مريم رأت، شهدت، أحسّت؛ فهرعت إليه، وجلست هناك بلا حراك، وصارت وإيّاه واحدًا. نادتها أختها، فلم تسمعها، ولم تقم إليها. الأخت، هنا، هي "أناي" العتيقة، هي كلّ واحد منّا، هي العمل، هي الحركة خارج المسيح لأجل المسيح، لكنّها ليست في المسيح عند قدميه. هذه المرأة أتت ولمست هدب ثوبه. لم تطلب كثيرًا. والحبّ يصبح فقيرًا، ومجروحًا، ومكسورًا، يعرف تهشّم نفسه؛ فيتمتم: "أعطني ولو دمعة واحدة على حبّك لي! أعطني نظرة حنان على حبّك لي". الحبّ يسامح الّذين من حوله، يسامح إخوته وكلّ النّاس؛ لأنّ المسيح يكون قد دخل في خلايا المحبّ؛ إذ ذاك، يتوقّف عن أن يشكو أيّ أحد؛ بل إن شكا، يشكو ذاته؛ لأنّها تبعده عن الامتلاء بالرّبّ؛ لأنّها تحجبه عن الامتلاء بالنّعمة؛ لأنّها تؤخّره عن رفع يديه، في الصّلاة، إلى ربّه؛ لكي يأتي إليه، ويجعل ذاته متّحدة به؛ فيتّحد هو نفسه، من خلال ذاك الاتّحاد، بمَن حوله. إن لم نعامل الآخرين بالحبّ، فالله ليس معنا! إن لم نغفر خطايا إخوتنا، فالله ليس معنا! إن لم نقبل الإهانة، فالله ليس معنا! إن لم نبذل أنفسنا عن إخوتنا، فالله ليس معنا!... هذه هي علامات الحضور الإلهيّ. عندما نصبح واحدًا والسّيّد، لا نستطيع إلّا أن نسامح. عندما نجلس عند قدميه، ونسمع كلامه؛ نشفى من أدوائنا، بلمسنا هدب ثوبه؛ إن لم نأخذ ذلك البرء، فلن نبرئ الآخرين بالدّموع والصّلاة! إن لم تشفِ صلاتنا الآخرين، فلسنا، بعد، في قلب الله! إن لم تغسل دموعنا كلّ خطايا البشريّة وخطايانا، فلسنا، بعد، في المسيح!

إنّ حياتنا تتمحور في ما بين الشّهيدة مارينا، والمرأة النّازفة الدّم، ومريم الجالسة عند قدمي السّيّد. كلّ البشريّة تسكن هنا، تقيم هنا. إنّها خاطئة، تنزف بسبب خطيئتها موتًا بطيئًا، وتأتي إلى الرّبّ لتُشفى؛ فيشفيها لتذهب إمّا إلى الشّهادة له كمارينا، وإمّا إلى الشّهادة له كمريم السّاكنة عند قدميه. هذه هي خطوط البشريّة. ما من حركة أخرى،

أو من حلّ آخر. البشريّة تنزف، بسبب خطيئتها، موتًا، وما من شافٍ لها، إلّا الرّبّ يسوع المسيح. كلّ الأطبّاء فشلوا في شفاء مرضها؛ فالتجأت إلى الرّبّ.

تعالوا، إذًا، إلى "الواحد"، إليه هو، إلى الخالق، إلى السّيّد، إلى الحبيب، إلى الختن! تعالوا ندفن خطايانا عند قدميه! تعالوا لنغتسل بالماء النّابع من جنبه؛ لنحيا، في الحبّ، والرّقّة، والحنان، والشّفافيّة، والاستشهاد، يوميًّا، عن الآخرين الّذين من حولنا، وعن البشريّة! عندئذٍ، يقول لنا الرّبّ: "تعالوا، يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم" (متّى ٢٥: ٣٤)، ويُجلسنا معه في ملكه، منذ الآن، وحتّى نلقى وجهه في الفردوس.

١٧ تمّوز ١٩٩٦

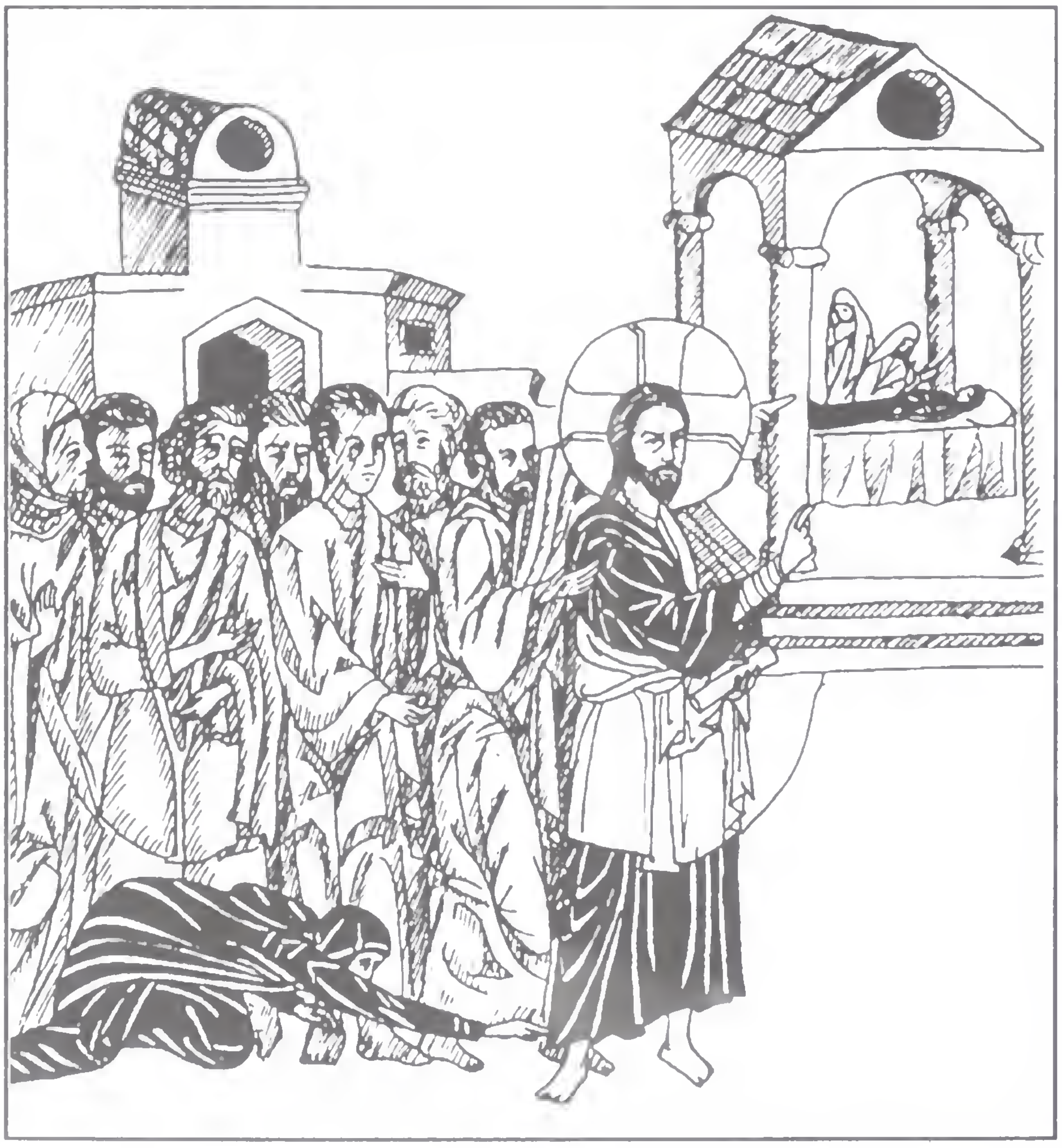

نور التّجلّي الإلهيّ

(مر٩: ٢- ٩)

"هذا هو ابني الحبيب، فله اسمعوا" (مر٩: ٧). تجلّى الرّبّ، لكي نسمع أنّ هذا هو ابن الله الحبيب. يوم معموديّته، أيضًا، انفتحت السّماء، ونزل عليه الرّوح القدس بشكل حمامة، وسمعنا صوت الآب يقول: "هذا هو ابني الحبيب" (متّى٣: ١٦- ١٧). وسار الرّبّ في الأرض، وعلّم، وبشّر بالآب، وشفى المرضى، وأطعم الجياع، وسقى العطاش، وكسا العراة، وبارك، وكثّر، غافرًا الخطايا... والنّاس لم يعرفوا أنّه هو الابن الحبيب... نسوا يوم المعموديّة، نسوا الرّوح القدس الحالّ عليهم، نسوا ما سمعوه، أي الإنباء بصوت الرّبّ! حتّى التّلاميذ الّذين لاصقوا السّيّد، وآكلوه، وجالسوه، ونظروه، ولمسوه، وسمعوه، غفلوا عن ذلك، أيضًا! وبقيت قلوبهم مغلقة، ولم يسمعوا إلّا ما في أحشائهم، إلّا ذواتهم! بين الفَيْنَة والأخرى، كان إصبع الرّبّ يلمس قلوبهم، عندما يسألهم: "مَن تقولون إنّي أنا هو؟"؛ فيجيبون بلسان بطرس: "أنت المسيح ابن الله الحيّ" (مر٨: ٢٩). لكنّ بطرس لم يعرف من ذاته أنّه هو المسيح، بل الرّوح القدس هو الّذي جعله ينطق بأنّ هذا هو المسيح. فهو، بعد فترة وجيزة، تحدّى الله، قائلًا له: "يا سيّد، إن كنتَ أنتَ هو، فمُرني أن آتي إليك على الماء"، وكأنّه يعني: "إن كنت أنت المسيح ابن الله، فاجعلني أمشي مثلك على الماء". لهذا السّبب، سقط بطرس (متّى١٤: ٢٨- ٣٠). الآباء يقولون إنّه سقط لأنّه شكّ في أنّ المسيح هو ابن الله، ولم يثبّت نظره على ابن الآب، على مسرّة الآب، على النّور. هذا شيء من الحقيقة. لكنّ الحقيقة الكاملة أنّه سقط، لأنّه تحدّى الله، وشكّ في أنّه يستطيع أن يصير إلهًا ماشيًا على الماء، باقتدار الآب. "إن لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السّموات" (متّى١٨: ٣)... نور التّجلّي هو للأطفال؛ هو للّذين لا مشيئة لهم؛ هو للّذين ليست في عقولهم فلسفة، أو علم دنيويّ، أو فكر؛ هو لذوي القلوب المُحِبّة فقط!... لقد اصطحب الله بطرس ويعقوب ويوحنّا (متّى١٧: ١)، ليروا نور التّجلّي؛ فانبهروا، وصعقوا، وسقطوا على الأرض

(متّى١٧: ٦)؛ لأنّهم ما كانوا يعرفون أنّ هناك نورًا سيسطع بهذا اللّمعان!

مشكلة الإنسان أنّه يتعاطى مع الله بشريًّا، لا بحسب نوره، ولا بحسب ألوهته، وحقيقته، وحبّه، وقيامته. لكنّ الرّبّ، بحكم وداعته، يعود ويظهر مجدّدًا، ويقول: "أنا هو لا تخافوا!" (متّى١٤: ٢٧). في العهد القديم قال: "أنا هو"، وكان المسيح هو المتكلّم؛ لأنّ الله أفرغ ذاته في ابنه الوحيد. وفي المعموديّة، كان المسيح متجسّدًا. وعلى جبل التّجلّي، قال الله: "هذا هو ابني الحبيب" (متّى٣: ١٦- ١٧). لقد قال السّيّد حقيقة ذاته، نطق بحقيقته، إذ قال: "أنا هو نور العالم" (يو٩: ٥)، فلماذا ما زلنا في الظّلمة؟! ما هو النّور؟! كُثر من الآباء عاينوا النّور الإلهيّ. نعم، هناك نور إلهيّ، يُرى بهذه العين البشريّة، نور متجسّد، محسوس، ملموس بالرّوح، يُرى، ويُعطى، وهو سحابة، وهو حسّ، وهو غمامة، يحمل النّفس والجسد والكيان كلّه إلى حياة أرقى، إلى حياة وكأنّها ليست من المادّة المخلوقة. عندما يأتي ذاك النّور، يصير الإنسان بلا مطلب، ويتعاطى الحياة ببساطة: يأكل، ويشرب، وينام، ويعمل، ويتخلّى عن أيّة مشيئة ذاتيّة. هذا هو ختم النّور. النّور لا يأتي إلى ذوي المشيئة الذّاتيّة. صدّقوني، هذا هو السّرّ، هذه هي الحقيقة: النّور لا يحمل فيه مَن يتمسّك بأدنى مشيئة ذاتيّة.

هناك نوعان من النّور، أو حقيقتان له: نور يرينا إيّاه الله لكي يعزّينا؛ فننظره عن بعد، لكي نتقوّى، لكي نعرف، لكي يكون باستطاعتنا أن نبدأ، ونكمل حياتنا مع الله!! ونور آخر هو نور التّجلّي السّاطع أمامنا، الّذي تكلّم عليه الإنجيليّ، والحاملنا إليه لكي نسكن فيه. هذا النّور يُحيينا فيه بلا إرادة، إذ تمّحي الإرادة البشريّة كلّيًّا. في ذلك النّور نفقد إرادتنا البشريّة، ونصبح كالأطفال، لا مشيئة لنا، نتمّم أعمالنا اليوميّة من دون أن نفكّر فيها، من دون أن نتوقّف عندها، من دون أن نتكلّم عليها، من دون أن نتخلّص منها؛ لأنّنا نكون مغلّفين بما هو أكثر من مشيئتنا، أي بالمشيئة الإلهيّة، بالنّور الإلهيّ؛ فنتوقّف عن طلب أيّ شيء، وعن رفض أيّ شيء، وعن اشتهاء أيّ شيء، ونكون في تلك المشيئة الإلهيّة، المكمّلة لحياتنا الأرضيّة اليوميّة البسيطة. نكون ساكنين فيها، وفي ما هو أعلى منها، أي في النّور الإلهيّ. هذه حقيقة نور التّجلّي: أن نكون ونحن لسنا كائنين: أنا هنا، لكنّني لست هنا؛ أنام وقلبي مستيقظ؛ أرتّل وأنا محمول بالكلمة الإلهيّة للتّسبيح الإلهيّ؛

آكُل، حتّى يتابع جسدي خدمته؛ ألبس، حتّى أستتر من الظّلمة من حولي؛ أفعل ما أفعله من دون التّوقّف عنده، لأنّي مشغوف بإلهي، ولا وقت عندي لأتوقّف، أو أرفض إنسانًا آخر، أو مشيئةَ آخر؛ أنظر إلى الآخرين وأحبّهم، لأنّي أنا في النّور. والنّور هو حبّ، هو ألّا أشكّ في أحد، ولا أنتقد أحدًا، ولا أتكبّر على أحد، ولا أتضايق من أحد... فقط، أنظر إلى الآخرين بعين الحبّ، كأنّني أقول لهم: "تعالوا جميعًا، حتّى نُحمَل على سحابة النّور".

مَن عرف الحبّ، فهو يسكن في النّور! مَن يحبّ الله من كلّ قلبه، وفكره، وكيانه؛ فالله يعطيه ذاته، وهي ذات الحبّ؛ فتُترجَم نورًا على الأرض. هذه هي الحقيقة. لذلك، أعطانا الرّبّ الوصيّة الأولى: "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ فكرك، ومن كلّ ذهنك، ومن كلّ كيانك" (متّ٢٢: ٣٧)؛ لندخل معه في ذاته، في جوهره، جوهر الحبّ الّذي هو النّور. العتمة والظّلمة هما الكره والانزعاج من الآخرين، والاستكبار عليهم، وانتقادهم، والشّكّ فيهم... الله نور، الله حبّ. هذا ما يذكّرنا به الله، في يوم التّجلّي. نحن بإمكاننا أن نسكن في هذا النّور، يوميًّا، إذا أحببنا. القدّيس غريغوريوس بالاماس، الّذي عاش في القرن الرّابع عشر، قال: "بعد التّجلّي، صار الكون كلّه يسبح في النّور الإلهي. لم تبقَ هناك ظلمة في هذا الكون". ولكن، قبل القدّيس غريغوريوس بالاماس، كان الكون يدبّ في الظّلمة، وسيبقى كذلك بعده، إلى أن يتجلّى الرّبّ في مجيئه الثّاني، في النّور الّذي لا يغرب!

نحن في حالة انشطار: من جهة، إنساننا العتيق مجرور، مسحوب، مشدود إلى الظّلمة، إلى الموت، إلى القبر، إلى اليأس، إلى الانتقاد، إلى عدم المحبّة، إلى الشّكّ... ومن جهة أخرى، الرّبّ يشدّنا إليه، إلى النّور. لقد نزل إلى أسفل دركات الأرض، لكي يخرجنا من الظّلمة إلى النّور، من الموت إلى الحياة الأبديّة! هذا لا يُعاش فيما بعد، بل منذ الآن! بطرس بقوله "حسن أن نكون ههنا. فلنصنع ثلاث مظالّ" (متّى١٧: ٤)، كأنّه يقول عن كلّ واحد منّا: "نريد أن نلمس هذا النّور، أن ننصب خيمة لنسكن فيها وإيّاك". ولكن، مَن سنُسكِن فيها؟! مَن فتق الأرضيّات وخرج إلى السّمويّات: نور العالم، وموسى وإيليّا اللّذين تقدّسا وصارا ساكنين في النّور؟! بطرس يريد أن يُرجع إلى الأرضيّات السّمويّات، وأن يمسك ما هو غير محسوس.

في الحقيقة، نحن لا نلمس النّور، بل هو يغلّفنا. لكنّه لا يغلّف مَن ليس من معدنه، من طبيعته! لا يغلّف النّورُ إلّا النّورانيّين. ونحن لا نصير نورًا، إلّا بالحبّ المبذول على الصّليب. والصّليب ليس في آخر الأزمنة، بل يبدأ من هنا، في المسيح السّاكن فينا، المصلوب عنّا، القائل لنا: "اصلبوا أنفسكم في حبّ الآخرين، في كلّ دمعة تذرفونها على الآخرين، في كلّ عمل حبّ تمتدّون به صوب الآخرين، في كلّ فكر تأتون به من عند الله وتعطونه نورًا للآخرين، في كلّ غمرة ضياء تغمرون بها الآخرين، في كلّ لمسة حنان، في كلّ تعزية، في كلّ فرح، في كلّ خدمة، في كلّ صلاة، في كلّ ركعة"... هناك يتجلّى النّور، لأنّ النّور الإلهيّ من جوهر الله، من الحبّ، وبالحبّ نراه ونسكنه.

الرّبّ تجلّى في النّور، ليقول لنا إنّ "هذا هو النّور، وأنا أعطيكم إيّاه مجّانًا لتحيوا به. وأنا لست ضعيفًا بالموت، بل هناك على الصّليب سأقوم، وأقيم الكلّ معي في الحبّ المبذول"؛ فتعالوا لنسكن في نور التّجلّي، وعلى الصّليب، في القيامة، في الحبّ اليوميّ، في الدّمعة المنسكبة على العالم ليعود إلى النّور، إلى السّيّد، إلى معرفته، إلى السّكنى معه في نور التّجلّي، بانتظار مجيئه الثّاني.

٧ آب ١٩٩٦

صحراء العبور

(لو٤: ١- ١٥)

سمعنا هذا الإنجيل، وقرأناه، مرّات ومرّات. ولكن، ماذا يعني لنا، نحن الرّهبان، إذ يقع في يوم الأربعاء بعد عيد رفع الصّليب؟! هذا الإنجيل دعوة إلى الموت الطّوعيّ الفعليّ، ومنه دعوة إلى الصّليب. فإذا أردنا أن نتبع هذا الكلام، نخطو خطوة، ونقول للرّبّ: "هوذا نحن عبيد لك"، وننسى كلّ ما عشناه في الماضي، ننسى ماضينا، وأهلنا، وقرانا، وحتّى ذواتنا... هذا هو معنى الصّليب الحقيقيّ، وهذه هي صورة المسيح، كلّما نظرنا إليه. لذا، أدعوكم إلى أن تنظروا إلى الصّليب؛ لتروا المسيح مصلوبًا عليه، ونفوسَكم مصلوبة، وكيانكم أيضًا، فوق المسيح، ومع المسيح، وتحت المسيح.

هناك ثلاث تجارب يتحدّث عنها الإنجيليّ لوقا، في إنجيله هذا. التّجربة الأولى تحلّ بنا بعد أن ندخل مكانًا ما. يقول الإنجيليّ: "رجع يسوع من الأردنّ، وهو ممتلئ من الرّوح القدس" (لو٤: ١). هناك حركة: نكون في مكان ما، ثمّ نتركه إلى مكان آخر، ممتلئين من الرّوح القدس. أريدكم أن تتذكّروا أوّل خطوة خطوناها، عندما عزمنا على المجيء إلى الدّير، إلى أرض الميعاد. في ذلك اليوم، كنّا ممتلئين من الرّوح القدس؛ فأعطانا الرّبّ بركات عظيمة. كنّا متهلّلين بالفرح، والصّحّة، ناسين أوجاعنا وضيقاتنا... كنّا كالملائكة نرتقص، ونغرّد باسم الرّبّ يسوع. لم نكن ننام، ولا نأكل إلّا البسيط فقط. كنّا فقراء، وكم كنّا فرحين! كانت النّعمة حالّةً على كلّ واحد منّا لتعزيته. هذه بداية التّجربة، وكأنّ الرّبّ، قبل أن يدخلنا البرّيّةَ، أراد أن يعطينا زادًا منه هو، والزّاد هو الرّوح القدس، وكأنّه يقول لنا: "لا تحملوا معكم لا عصًا، ولا مالًا؛ فأنا هو عصاكم ومالكم. فقط انطلقوا، سيروا، تقدّموا"... وإذ نكون ممتلئين من الرّوح القدس، يأتي العدوّ، ويبدأ، بإذن من الله، بفحصنا. لماذا يفحصنا العدوّ؟! لماذا هذا السّماح من الله؟! الرّبّ يريد تنقية مختاريه، ولا يريد مَن لا يحبّه. هو يترك الحرّيّة لنا قائلًا: "لا تأتوا إليّ مرغمين!

اذهبوا، فأنا لا أجبركم على حبّي". لهذا، سمح للشّيطان بأن يمحّص كلّ واحد يأتي إليه. وهو قد مُحّص قبلنا، ليعرف العدوّ هل هذا الإله الإنسان هو له، أو هو للآب في السّموات.

نعم، هناك أرض، وهناك سماء. هناك العالم، وهناك الأبديّة المضيئة بروح الرّبّ. يقول الرّبّ: "أنتم لستم من هذا العالم" (يو١٥: ١٩). إذًا، هناك هذا العالم، والرّبّ لا يريدنا أن نكون منه، بل من عالم آخر. لذلك، يملؤنا الرّوح القدس، حتّى نأتي إليه. ولكي يشدّدنا بالثّبات به، يسمح للشّيطان بأن يغربلنا، ويمحّصنا؛ ليعرف أنّنا لسنا له، إنّما نحن لإلهنا! إيّاه نسبّح، وله نسمع، وإيّاه نعبد. وبعد امتلائنا من الرّوح القدس، يسمح بتجربتنا أربعين يومًا، رمزًا لتجربته هو في الصّحراء، وكأنّه يقول إنّ هذه الأيّام الأربعين هي صحراء العبور. ولكن، من أين وإلى أين؟!

اسمعوا جيّدًا! عبورنا هذا هو ختم الصّليب؛ فنحن نعبر من عالم "اللّاشيء" إلى التّجارب! نعبر من ضياع هذا العالم إلى الألم؛ لكي نحقّق هويّتنا في عالم الله. لننتهي على الصّليب معلّقين، منتظرين إلى القيامة. وكأنّ الرّبّ يريد أن يقول لنا: "أنتم عابرون من السّقوط الّذي ارتضيتموه، من الوجع المؤلم": لأنّنا، يوميًّا، نتحدّى شيطان العناد، والكبرياء، والقبح، والنّميمة، والحسد، والانتقاد، والضّعف، والثّرثرة... ونحاول أن نميت هذه "الأنا". لكنّنا، في الحقيقة، لا نميتها، ولا نستطيع أن نميتها؛ فنحن مخلّعون، متقعدون على ضفاف بركة حسدا، لكي يأتي ملاك الرّبّ، وينقلنا من الموت إلى الحياة، من الخطيئة إلى البرّ. ويقول لنا: "هيّا، فلنصعد إلى أورشليم، إلى الصّليب؛ لكي نسمّر سقوطنا هناك فقط، وللمرّة الأخيرة؛ لكي نسمّر تعلّقنا بهذا العالم، وشهوانيّتنا، وحبّنا للظّهور، واستكبارنا، وعنادنا، ومواتيّتنا، وهشاشتنا...

هناك، على الصّليب، نقول: "لا نريد أن نموت!". هذا ما قاله الرّبّ عنّا كلّنا. ما يدّعي النّاس أنّه ضعف بشريّ هو نُطق للبشريّة. البشريّة لا تريد أن تموت عن نفسها، لا تريد الإله، بل تريد نفسها في الإله. لو كنّا نريد حقًّا الإله، لَكنّا صرنا ملائكة ونحن على الأرض، قدّيسين ونحن في هذا الجسد؛ ولكنّنا بدلًا من أن نموت جسديًّا، نرتقص بالحبّ والفرح الإلهيّين؛ ولَكان هذا العالم صار فردوسًا... لكنّ المشكلة والحقيقة المرّة أنّنا، في عمق

أعماقنا، لا نريد الإله؛ لأنّه موت عن هذا الجسد حتّى نحيا فيه هو. لا خِلطة بين النّور والظّلمة. الإله كلّه نور، ونحن كلّنا ظلمات. لذلك، نحن نأتي إلى هذا الجهاد الكبير، إلى هذه الحياة؛ لأنّه هو يريد أن نخلص، كما أنّه يريد أن يخلص العالم كلّه.

فلنفكّر، للحظة، في أنّنا مختارو الله. إذا فكّرنا في ذلك، فسنُجَنّ؛ لأنّ مَن يعرف أنّه صار مختار الله، وفيه حسّ صغير بمَن هو الإله، يُجَنّ بالكلّيّة، متسائلًا: كيف اختارني إلهي، أنا "اللّاشيء"، لأكون عبدًا (أمة) له، وإضافة إلى ذلك، يقول لنا: "أنتم لستم، بعد، عبيدًا، بل أبناء الله تُدعون" (رو٨: ١٤- ١٥)؟! أنا ابن المسيح، ابن الثّالوث؛ فيا ربّ، ارحمني أنا الخاطئ! هكذا، أنوح وأبكي، طول أيّام حياتي... وفي التّجربة يعطينا الشّيطان ملكًا على الأرض، ومأكلًا، ومشربًا؛ فكثرة الأكل هي من هذا العالم، والشّراهة هي من صنع الشّيطان، هي من هذا العالم. هذه هي أوّل تقدمة من الشّيطان إلى المسيح: الأكل (لو٤: ٣).

والتّجربة الثّانية كانت ممالك المسكونة. "... وقال له إبليس: لك أعطي هذا السّلطان كلّه ومجده، لأنّه إليّ قد دُفع، وأنا أعطيه لمَن أريد" (لو٤: ٦). هذا هو الرّعب الكبير. كلّ غنى هذا العالم هو من الشّيطان. كلّ قنية هذا العالم، كلّ أبنية هذا العالم، كلّ ممتلكات هذا العالم هي من الشّيطان. وهو يعطيها لمَن يشاء، حتّى يبعدهم عن الملك الأبديّ؛ حتّى لا يبنوا بيوتهم وقصورهم في السّموات، بل ليلتهوا ببنائها على هذه الأرض. فحذارِ حذارِ، ونحن نبني أديرتنا، من ألّا نتوب، ولا نصلّي، ولا نتّضع، ولا نحبّ! هذه الأربعة هي سلاحنا. بطرفة عين، يغيّرنا الرّبّ من حال إلى حال؛ فهلمّ لنبنيَ أنفسنا، ونعمّرَها؛ حتّى نمجّد الله فقط! نحن لا نبني لنسكن، أبديًّا، في منازل حجريّة هي ليست لنا. ما لنا هو الله فقط. ألتمس رضاك، حبّك، عينيك، لمسة حنانك... رضاك يا ألله، رضاك! وعندما يرضى الله عنّا، يعطينا ذاته فينا؛ فنصير على مثاله حبًّا، عطاءً، بذلًا، اتّضاعًا، حنانًا، رقّة، ابتسامة، نطقًا بالاسم الوحيد... هذا الانتقال يجرّدنا من ذواتنا؛ فنصبح كالمجانين نهذي: "يسوع ارحمنا"... فلا نحيا نحن، من بعد، بل المسيح يحيا فينا (غلا٢: ٢٠)، ويصبح الكون كلّه موسيقى واحدة، نغمة واحدة، "نوتة" واحدة، وهي اسم يسوع! قال القدّيس غريغوريوس بالاماس: "هذا الكون معمّد بالنّور". وأنا أقول لكم إنّ هذا الكون

معمَّد باسم يسوع، وهو ينطق بيسوع، ويهلّل باسم يسوع، ويغرّد اسم يسوع، ويهفّ هفيفًا إلى يسوع...

وفي التّجربة الأخيرة، يقول الشّيطان للرّبّ: "اطرح نفسك من هنا إلى أسفل، لأنّه مكتوب أنّه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك" (لو٤: ٩- ١٠). ما هذا الكلام، وما معناه بالنّسبة إلى الرّاهب؟! الرّاهب مجرَّب، دائمًا، بأن يحيا حياة جِدّة! يريد القداسة؛ فيسعى للصّوم الشّديد، أو النّسك الكبير، أو السّهر الطّويل، أو العمل المكثّف الثّقيل... ثمّ يذهب إلى الجانب الآخر؛ فيطلب الرّاحة الكثيرة، والنّوم الكثير، والأكل... حتّى يظهر أنّه يعمل وينتج كثيرًا، ثمّ يخفي "الأنا" لأجل الرّبّ.

عجيب هو الله في قدّيسيه! في الحقيقة، الرّبّ يريدنا أن نكون بسطاء كالأطفال: "إن لم تعودوا وتصيروا كالأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السّموات" (متّى١٨: ٣). هذه هي الخطوة الأخيرة، قبل الصّعود إلى الصّليب: أعرف طاقتي، فآكل قليلًا، وأكون قد شبعت من اسم الرّبّ وحبّه. وإذا صحوت في اللّيل، أفرح لأنّ الملاك أيقظني لأسبّح اسم الرّبّ. أنام لحيظات، هنا وهناك، وأكون ممتلئًا من الرّوح القدس؛ فلا أتعب، بل أحتمل، وأعرف ضعفي، وأستريح. هكذا، أخرج من الـ"أنا"!... لا تعود الطّاعة ثقلًا عليّ، ولا المحبّة. "ألاعيبي" وأشيائي تصير الصّلوات، والخدمات، وأعمال الطّاعة. أفرح بها كلّها، وأحمل اسم الرّبّ يسوع، وأتغنّى به، متهلّلًا، وأنتظر أن يأتي ويقيمني إلى الصّليب؛ حتّى يسمّر، بالموت هناك، آخر خطيئة فيّ. بعدها، ينقلني إلى قيامته.

إذا نظرنا إلى الأمر على هذا النّحو، فإنّنا نفرح بالآلام، والضّيقات، والتّجارب؛ ونقوى عليها، لأنّها هي موت لخطايانا، وإماتة لإنسانا العتيق؛ فتعالوا، في كلّ يوم، لنصعد، إراديًّا، إلى صليب المسيح معه، إذ يمدّ لنا يده، ونقول له: "خلّص يا ربّ، شعبك، وبارك كلّ ميراثك".

١٨ أيلول ١٩٩٦

المنّ السّماويّ

(لو٩: ١٢- ١٨)

(في١: ٢٧- ٣٠، ٢: ١- ٤)

إنجيل تكثير الخبز والسّمك معروف جدًّا، ومحكيّ عنه. كثيرون يقولون، عندما يسمعونه في أثناء الخدم الكنسيّة: "نحن نعرف ماذا سيقول الواعظ! سيقول إنّ الرّبّ هو الإله، وهو قادر على أن يكثّر الخبز، وقد أتى ليطعم، ويشفي، ويبارك...". هكذا، نتوقّف عند هذا الإنجيل، ولا ننظر إلى المعنى الأعمق. لماذا أورد الرّبّ هذا الإنجيل؟! أَليحدّثنا عن نفسه؟! أليقول إنّه قادر، ونحن نعرف أنّه هو القدير؟! في الحقيقة، الرّبّ أورد هذا الإنجيل لعدّة أسباب، أو وعود، سنأتي على ذكر ثلاثة منها، اليوم:

الوعد الأوّل هو أنّ الرّبّ يقول لنا، إذ نحن في الصّحراء، في المكان القفر، في هذا العالم، إنّه هو يُطلع لنا المنّ، والمأكل، والخبز، والسّمك... هو يطلع لنا الحياة؛ فلا نخافنّ بعد، لأنّ الرّبّ لا يتركنا في هذا العالم، في هذا القفر، في هذه الصّحراء: "لا تخافوا، ولا تضطرب قلوبكم، أنا معكم؛ وإذا احتجتم إلى شيء، بعد الكلمة، بسبب ضعف أجسادكم، فأنا أعطيكم إيّاه". كان الخمسة آلاف شخص من حوله يسمعون كلمته؛ إذًا، أوّل بشارة هي بشارة الكلمة. أوّل وعد لنا هو وعد الكلمة. نحن من حوله، وهو معنا ليقول كلمة الله الآب، كلمة الخلاص. وذلك يدوم ساعات وساعات، أيّامًا وأيّامًا، سنوات وسنوات. لكن، إبّان هذا الوقت، نحسّ بضعف نفوسنا وأجسادنا، فيُطعمنا هو، يُطعمنا الكلمة، ويطعمنا الرّغيف، ولا يتركنا. هذا هو الوعد الأوّل.

الوعد الثّاني هو أنّه لا يتركنا، لأنّه يحبّ، وهو يحبّنا أكثر من نفسه. هذا ما سمعناه في الرّسالة أيضًا: "لا تنظروا كلّ واحد إلى ما هو لنفسه، بل كلّ واحد إلى ما هو لغيره" (في٢: ٤). هكذا، تكتمل الوصيّة. نحن، بعد أن اجتمعنا للمسيح، لا نعرف أنفسنا، لا نعرف إلاّ الآخر. هذه وصيّته، اليوم، وكلّ يوم. لكنّه، اليوم، ارتضى أن يُسمعنا إيّاها في الرّسالة، وفي الإنجيل. قبل أن نعرفه، لم نكن نعرف إلاّ أنفسنا، وكنّا طمّاعين،

محبّين لأجسادنا، لممتلكاتنا، لأنفسنا... نحن نخاف؛ لذلك، نسارع إلى الاقتناء، إلى الجمع! أمّا الرّبّ يسوع المسيح، فجلس في قفر هذا العالم، وجمعنا حوله، وأسمعنا كلمته. ولمّا جعنا، أطعمنا... إذًا، وصيّته لنا أن نجتمع حوله، لنسمع الكلمة؛ فيصبح بإمكاننا أن نجاهد في هذا العالم. هذا خبزنا الأوّل. وإذا ما سمعنا كلمته، ووصيّته، وهو حاضر معنا في إنجيله؛ فكيف يمكننا أن نعود إلى الخطيئة، بعد؟! كيف لا نحبّ، وهو أوصانا بأن نحبّ بعضنا بعضًا، وأعطانا ذاته خبزًا ودمًا وماء؟! "أخي هو حياتي"! هذا ما قاله القدّيس سلوان، وما يقوله لنا المسيح، اليوم، في إنجيله. هو يقول لكلّ واحد منّا: "تعال، اسمعني، اجلس إليّ؛ فأعطيك كلمة الحياة، لأنّي أحبّك؛ وأعطيك كلمة الجسد، أطعمك، لأنّي أحبّك؛ فلا أجعلك تخور في الطّريق"...

أمّا الوعد الثّالث، فهو أنّنا، على الرّغم من رسوليّتنا أمام الرّبّ وعند قدميه، إلّا أنّنا لا نعرف شيئًا... هكذا، اجتمع هؤلاء الرّسل من حوله، وقالوا له: "من أين نطعم هذا الجمع الغفير؟!". أتعرفون لماذا نسأل "من أين وكيف؟! من أين لي أن أحبّ الآخر؟! من أين لي أن أطعم الآخر لحمي ودمي وروحي؟! من أين لي أن أقاسم الآخرَ حياتي، وليس عندي إلاّ القليل، أو حتّى لا شيء؟!..."؟! هكذا قال التّلاميذ، لأنّهم كانوا عقيمين. والعقيم ليس عنده شيء. إذًا، هو فارغ من النّعم الإلهيّة، لا يحبّ، ولا يرأف بالآخرين، ولا يحمل جراحهم وضعفاتهم، ولا يساندهم في وقت الضّيق، ولا يطعمهم روحه، وجسده، وحنانه... يقول لهم: "اذهبوا إلى القرى المجاورة وكلوا" (لو٩: ١٢)! بينما إذا كان ممتّلأً للفضيلة، يقول: "أنا أذهب وآتي إليهم بالمأكل". أمّا المسيح الإله – الإنسان، فجلس، ونظر إلى السّماء، وصلّى، وكثّر، وأعطى، وأطعم... الّذي أتى به كان من نفسه؛ ولكن، من الله أوّلاً. هو كان يعرف أنّه ابن الله، وأنّه الإله. لذلك، وبتلك الجرأة، قال: "أجلسوهم خمسين خمسين" (لو٩: ١٤)، ونظر إلى السّماء، وبارك البركة الّتي له من لدن الآب، وأعطى، وأطعم. هكذا كانت كلّ حياته. كان يذهب ليصلّي في الجبل، ثمّ يأتي ويعطيهم الكلمة، والحياة، والعجيبة بالخمر، والسّمك، والخبز، والشّفاء... لماذا يعلن الرّبّ عن نفسه على هذا النّحو؟! هو يعلن عن نفسه لا ليتمجّد، فهو الممجَّد منذ أوّل الدّهور، ولا يحتاج إلى أن يُشكَر؛ بل فقط لنعود ونعرفه، إذ تنفتح أعيننا عليه، لنصبح نحن على مثاله...

مَن يأكل الخبز السّماويّ، ويسمع الكلمة النّازلة من فوق، ويحيا الوصيّة الإنجيليّة؛ فلا يمكنه إلاّ أن يحبّ؛ وأن يُطعم جسده، ودمه، وحياته،، وقلبه لأخيه السّاكن معه، وللمحتاجين، ولكلّ العالم، بالصّلاة. يصبح خصيبًا مثل الأرض؛ فيتفتّق حبًّا، ورحمةً، وأزهارًا، وبخورًا، وطيبًا، وحنانًا، ورأفة، وأيضًا خبزًا أرضيًّا! يصبح موسمًا خصيبًا لا يتوقّف! يصبح ضَرعًا* يملأ الجرار حليبًا، ولبنًا، وعسلاً، وخبزًا، وخمرًا، وعنبًا، وتينًا... والرّبّ يُغني أهراءه، لأنّها لا تكون له، من بعد، ولا يحفظ شيئًا لنفسه... "خذوا كلوا، هذا هو جسدي! اشربوا منه كلّكم، هذا هو دمي!" (متّى٢٦: ٢٦- ٢٨). "كلّ ما عندي هو لكم، لا أريد شيئًا لنفسي؛ لأنّ هذا كلّه ليس منّي، بل من لدن أبي الأنوار"... هكذا يحيا المؤمن، هكذا يحيا المحبّ: "أنا لحبيبي، وحبيبي لي" (نش٦: ٣). والرّحمة هي في حبّ الآخرين، وفي العطاء حتّى الموت، موت الصّليب. وحتّى على الصّليب وفي الموت، أعطانا الرّبّ دمه والماء القاطر من جسده. وفي قيامته، رفعنا معه. هذه هي "لعبة" المجد الإلهيّ. إنّها حركة دائريّة تبدأ من فوق، ثمّ تنزل، ثمّ تعود، من جديد، لتغرف من فوق، ومن ثمّ تنزل لتعطي حبًّا يملأ حبًّا، بشريّة تملأ لحط البشريّة بالحبّ...

وأنتم، أنتم البشريّة الجديدة، الّتي تأتي بالحبّ من فوق، من الكلمة المتجسّد، وتعطيه حبًّا لكلّ مَن حولها؛ فيصير هذا الكون مرعًى للحنان والعطاء، يصير سماء أرضيّة، فردوسًا يسكن فيه الإله، مع والدته، وجميع قدّيسيه، وملائكته. هكذا، نعرف السّرّ، هنا. وفي أوان موافق، يأخذنا إليه، نلقاه في الملء، هناك! في فردوس نعيمه! ويجلسنا، نحن الخطأة، إليه، معه.

ألا أعطانا الله هذه البركة، وأعطاكم حبّه، وحنانه، والقدرة على إطعام الآخرين من القلب، من قلب الله المزروع فينا.

١١ تشرين الأوّل ١٩٩٦

* * *

* الضَّرع: ج. ضروع: مدرُّ اللّبن...

تأديب الرّبّ الخلاصيّ

(لو١٢: ٤٢- ٤٨)
(كول٢: ٢٠- ٢٣، ٣: ١- ٣)

قال الرّبّ، في إنجيل اليوم: "ذلك العبد الّذي يَعْلَمُ إرادة سيّده، ولا يستعدّ، ولا يفعل بحسب إرادته، يُضرب كثيرًا. ولكنّ الّذي لا يعلم، ويفعل ما يستحقّ ضرباتٍ، يُضرَب قليلًا. فكلّ مَن أعطي كثيرًا يُطلَب منه كثير، ومَن يودعونه كثيرًا يطالبونه بأكثر" (لو١٢: ٤٧- ٤٨).

هذا الإنجيل يدعونا إلى التّساؤل: لماذا نتألّم؟! لماذا يجازينا الرّبّ؟! لماذا نتعذّب؟! لماذا يتركنا؟! لماذا يقاصصنا؟!... إنّنا نسأل ونسأل، ولا نجد الجواب؛ لأنّنا لا ننظر إلى أنفسنا، لنرى ما إذا كنّا أمناء على الوزنة الّتي أعطانا إيّاها السّيّد! وإذ لا نحاسب أنفسنا، نبقى في حالة التّسآل، ولا نجد راحة، لا في قيامنا ولا في قعودنا، لا في ذهابنا ولا في إيابنا، ولا في عملنا، ولا في نومنا... لا نجد راحة في أيّ مكان، بل نبقى قلقين، مضطربين، مشوَّشين؛ فنصرخ، في النّهاية، قائلين: "لماذا تعذّبنا، يا ألله؟! إنّك إله قاس!".

"تعالَوا إليّ، يا جميع المتعبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم... تعلّموا منّي، لأنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم!" (متّى١١: ٢٨- ٢٩). هذا هو الجواب عن تساؤلنا حول إنجيل هذا اليوم ورسالته. هناك ثلاثة مواقف علينا أن نلتزمها، لكي نصل إلى السّلام والرّاحة. "تعالَوا إليّ، يا جميع المتعبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم". المشكلة أنّنا، عندما نذهب إلى الله، نذهب، عمليًّا، إلى أنفسنا، لا إليه! نذهب إلى مواقفنا، إلى ما نظنّه عن الله وعن النّاس من حولنا، وننسى الإنجيل. نأخذ جزءًا من القول الإلهيّ، ونترك الجزء الآخر. "تعالَوا إليّ، يا جميع المتعبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم": هذا هو الجواب، وليس من جواب آخر. إنّي أشكر الرّبّ كثيرًا، اليوم، على هذا الإنجيل الّذي يصادف في ذكرى سنتنا السّابعة لدخولنا الدّير ولقائنا الحبيب.

في الحقيقة، الرّبّ يأتينا يوميًا. لكن، في هذا اليوم تحديدًا، يأتي ليقول لنا: "تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب". الوداعة وتواضع القلب هما الجواب. أنا لم أرَ صِدّيقًا يرى فسادًا، لا هو، ولا ذرّيّته، ولا أهل بيته. لم أرَ، يومًا، وديعًا ومتواضعَ القلب يُعذَّب، أو يعذِّب مَن حوله. مشكلتنا أنّنا سقطنا. كلّ واحد منّا سقط. والّذي لا يزال يتعذّب، حتّى الآن، هو الّذي لا يزال في حالة السّقوط. كلّ منّا سقط عن المسيح، وعليه أن يدفع ثمن سقوطه. السّؤال الأساسيّ هو: ما هي الخطيئة؟! إنّها الابتعاد عن الرّبّ يسوع المسيح. وكلّنا قد ابتعدنا عنه، وعبدنا آخرين، وأحببنا آخرين، أحببنا أنفسنا، بدءًا، أو أناسًا، أو أشياء، أو ممتلكات، أو علمًا، أو أفكارًا، أو عملًا، أو إنجازات... أحببنا ما ليس لله... كلّ ذلك دخل في هذا الإناء الّذي قدّمه الله هديّة لنا، ليسكن هو فيه؛ فدخلت معه الأوساخ، والعواصف، والتّجارب، والأفاعي، والنّجاسات... صرنا ممتلئين من كلّ هذا! لذا، عندما أنزل الله السّماط ليأكل الرّسول بطرس، كان مملوءًا لحومًا وحيوانات وحيّات (أع١٠: ٩...)... أمّا نحن، فلأنّنا امتلأنا من هذا، وحتّى لا ندين أحدًا، أرانا في هذا الإناء كلّ الحيوانات والوحوش... ليقول لنا إنّنا لسنا أفضل من الآخرين، ولا نستطيع أن نعفّ*. وقد ورد في الرّسالة، اليوم، ألّا نتمسّك بأشياء، كالصّوم، مثلًا. فإن سجدنا عددًا من السّجدات، أو صمنا، أو لم نأكل زيتًا... فكلّ هذا لا معنى له، إن لم نرجع ونَصِر كالأطفال. الطّفل وحده لا يدين، لا يحاسب، لا يطلب كرامة له، لا يقسو، لا يعطي رأيًا، لا يستبدّ، لا يتعالى، إنّما يجلس، أو ينام بوداعة، مثل الحمام. يجلس مكانه منتظرًا أن تأتيه النّعم، أن يأتيه مأكله، ومشربه، ولباسه... وعندما يُعطى، يَشكر.

نحن قد فسدنا لأنّنا لا نشكر، حتّى لو أكلنا، وشربنا، وأُعطينا الأسرّة، والدّفء... الله أعطانا كلّ هذا المجد العظيم، ونحن ما زلنا عديمي الشّكر! لو كنّا نحبّ ونشكر، لَكنّا أمضينا أيّامنا في الدّموع المنهمرة، شكرًا للرّبّ على كلّ شيء. بعضنا ما زال يُحارَب، وبعضنا الآخر سكن في الرّاحة، في السّلام، في الهناءة في قلوبنا ومع الآخرين؛ لأنّه هو عاد وصار طفلًا. أمّا الآخرون، فما زالوا يتعذّبون، لا لأنّهم لم يتّضعوا، بل لأنّهم لم يتعلّموا الاتّضاع ، إذ قال السّيّد: "تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب"، ولم يقل:

---

* عفّ: كفّ وامتنع عمّا يحلّ.

"اتّضعوا". نحن لا نستطيع أن نتّضع، لأنّنا أشقياء في إداننا للآخرين، وفي دوراننا حول أنفسنا، وفي تبخيرنا للـ"أنا"، وسجودنا لها: ماذا أفعل **أنا**؟ كيف أفكّر **أنا**؟ ما هي أحاسيسي **أنا**؟... لذلك، يسمح الرّبّ، بحنانه، أن نلمَس بالتّجارب، والآلام، والأوجاع، والحروب؛ لأنّه فقط يريدنا أن نعود أطفالًا، بهناء الطّفل، وفرحه. هذا هو السّرّ، وهذه هي الحقيقة: أن نقبل ونتعلّم مثل الأطفال، أن ندخل مدرسة المسيح من جديد، وفي السّنة الجديدة، نتعلّم كيف ننظر إلى العالم بفرح، كما ينظر الطّفل إلى أبيه، أو التّلميذ إلى معلّمه لكي يعينه، بهذه البساطة، وبهذا الرّضى، بلا تأفّف، أو تذمّر، بل بجهاد كثير، لكي نتعلّم المحبّة المَرْضِيَّة لله.

يقول السّيّد، في إنجيله، اليوم، إنّه يعطينا أمانة، ويبتعد، ثمّ يعود ليرى ماذا فعلنا بها. الأمانة هي أن نسكن في قلب الله، أن نقوم إليه، في كلّ لحظة، وهو يعطينا كلّ شيء. علينا أن نأخذ العلم والحياة منه، ببساطة وهناء، وأن نقاتل أنفسنا، في كلّ لحظة، ونصلّي صلاة واحدة: "يا ربّ، أعطنا قلبك". وإذا أعطانا قلبه، نقوم إلى الصّلاة جاهدين، وإلى العمل جاهدين، وإلى احتضان الإخوة والأخوات كأنفسنا فرحين، وإلى الاتّضاع جاهدين... لأنّه قد أسلمنا قلبه، ونحن حافظنا عليه، بنعمته، بشيء من الأصوام، والصّلوات، والقوانين؛ ولكن، بالكثير الكثير من الاتّضاع، والوداعة، والحبّ.

٢٩ تشرين الأوّل ١٩٩٦

الرّفيع عند النّاس رِجسٌ قدّام الله*

(لو١٦: ١٥- ١٨، ١٧: ١- ٥)

"لماذا، يا ربّ، كلّما أتى إليك اليهود توبّخهم؟!". هذا السّؤال طرحه أحد القدّيسين، في إحدى اللّيالي، فيما كان يصلّي إلى الرّبّ. كان يعرف أنّ إلهه رحيم ورؤوف، لكنّه كان يشعر باضطراب في قلبه، كلّما قرأ الإنجيل؛ وتحاربه الأفكار: "الرّبّ يوبّخ، الرّبّ يؤنّب، الرّبّ يقاصص..."، وفي آخر تأمّله، يأتيه فكر قائل: "الرّبّ قاسٍ"!

السّؤال، عادة، تطرحه طبيعتنا البشريّة، عندما لا نفهم. وبسرعة، يأتي الحكم، بعد السّؤال، أيضًا من طبيعتنا البشريّة. هذا ما كان عليه اليهود، وما كانوا يفعلونه حين يأتون إلى الرّبّ، ويطرحون عليه الأسئلة برياء. كانوا يأتون إليه، وفي أذهانهم وقلوبهم حكم عليه، وموقف منه؛ إذ كانوا يرفضونه! لم يصدّقوا أنّه هو الرّبّ، أنّه المعلّم، أنّه والآب واحد، أنّه الكلمة المتجسّد! عاملوه كأيّ مشرِّع، كأيّ إنسان عاديّ من بينهم، وصاروا يحاورونه، ويجادلونه، ويتعاطون معه من ذواتهم، لا ليأخذوا الشّريعة من فمه. لم يعرفوا أنّه ربّ الشّريعة. كانوا يتظاهرون بأنّهم يطلبون الجواب، فيما كان الجواب في داخلهم. لكنّهم ظنّوا أنّ السّيّد، بذلك، يرضى عنهم، أو تصبح لهم دالّة عنده. والأهمّ من ذلك أنّهم كانوا يضمرون امتحانه: هل هذا عارف بالشّريعة؟!

المشكلة أنّنا نأتي إلى الرّبّ حاملين له ذواتنا، ونريد أن نعلّمه، وأن نفرض عليه مواقفنا، وأفكارنا، وما في قلوبنا. هذا الإخلاء الكامل للذّات لم يكن موجودًا، إذ كان اليهود يأتون بموقف، ويضعونه قدّام الرّبّ، كأنّهم يقولون له سرًّا: "قل لنا ما نحن نريد أن نسمعه"! في حياتنا على الأرض، هذا هو موقفنا، دائمًا، تجاه السّيّد المسيح الرّبّ، إذ نأتي إليه، ونريده أن يقول لنا ما نحن نريده. نُبطل عنه الألوهيّة، نُبطل عنه المعرفة والشّريعة، نُبطل كونه سيّدَ الكون، والأهمّ كونَه سيّدَ هذه النّفس، كونَه إلهَنا نحن، وسيّدَنا نحن... لذلك، نأتي إلى الرّبّ، ولا نسمع ما يريده، بل نسمع أنفسنا. لهذا، صرخ النّبيّ، في العهد القديم:

---

* لو١٦: ١٥.

"تكلّم، يا ربّ، فإنّ عبدك يسمع" (١صم٣: ٩). موقفنا هذا الممتلئ حبًّا للذّات يصل بنا إلى نتيجة حتميّة، هي الرّغبة في فرض آرائنا، ومواقفنا، وأفكارنا. إنسان كهذا يزكّي نفسه دائمًا بالقول: "أريد أن أفعل ذلك لأحصل على جواب، أو على نتيجة أفضل"، "أنا دائمًا على حقّ"، "أنا دائمًا غير مخطئ، وأخي هو المخطئ، الآخر هو الّذي يخطئ"... هكذا، تكبر "الأنا" فينا، يوميًّا.

ربّما تتساءلون: ما علاقتنا بهذا الإنجيل؟! فنحن لا نزكّي أنفسنا، ولسنا يهودًا، ولا نذهب إلى السّيّد لنقول له ذلك!... لكنّنا، في الحقيقة، نفعل ذلك، في الدّير، يوميًّا، قدّام الإخوة، في الشّركة! حتّى قدّام الرّئيس، نحاول أن نفعل ما نحن نرى أنّه حقّ. ولكن، حذارِ! "لأنّ الرّفيعَ عند النّاس رَجِسٌ قدّام الله" (لو١٦: ١٥). إذا فضّلت مشيئتك، أو فرضت رأيك، مرّة، قدّام أخيك؛ فأنت رَجِسٌ قدّام الله. هذا هو عنوان إنجيلنا، اليوم. والدّعوة لنا أن نصمت، ونسمع كلمة الله، ألاّ نفعل مشيئتنا، أن نقطع هوى هذه النّفس، أن نغصب أنفسنا على فعل مشيئته هو، على إتمام كلمته هو في الآخرين. هكذا، نسمع كلمة الله في الآخرين الّذين يحيطون بنا. هؤلاء هم المسيح المتجسّد في حياتنا. لذلك، يقول الرّبّ عمَّن تقع الشّكوك عن يده: "خير له لو طُوِّق عنقه بحجر الرّحى، وطُرح في البحر، من أن يشكّك أحد هؤلاء الصّغار" (لو١٧: ٢). والصّغار هم الّذين يأتون إلى الرّبّ، مثل الأولاد، قائلين له: "أنت إلهنا، أنت ربّنا وسيّدنا، وليس عندنا لا تزكية لأنفسنا، ولا حسّ في داخلنا. لذلك، هذا الّذي أتينا به إليك، من ماضينا، ومن إنساننا العتيق، فتّته بحنانك، وحبّك، وكلمتك".

هكذا، إذا أتينا إلى كلّ فرد من أفراد بيتنا الأرضيّ، أي ديرنا، نكون قد أسلمنا أنفسنا إلى الرّبّ، وصار هو سيّدَ هذه النّفس، والحياة، والفكر. صدّقوني، عندما نأتي إلى أخينا، معتبرين أنّه هو صاحب الحقّ، وبه "نقطع" مشيئتنا؛ عندها، ينزل الرّبّ، ويحكي، في الآخر، مشيئتَه، ويصبح الآخر هو يسوعَ، وأصبح أنا مثل الطّفل، أقف قدّامه لأتلقّف روحه القدّوس.

ألا أعطانا الرّبّ أن نسلك على هذا النّحو، من الآن وإلى الأبد.

١٥ تشرين الثّاني ١٩٩٦

العاقر تلد حياة

(لو٨: ١٦- ٢١)

"للرّبّ الأرض بكاملها، المسكونة وكلّ السّاكنين فيها" (مز٢٤: ١). هذا عنوان إنجيل اليوم، وهذا هو عنوان حياتنا مع الله. نحن لا نملك شيئًا، على هذه الأرض! كلّ شيء أعطانا إيّاه الله؛ ليعود إليه، هو مالك الجميع، ربّ الصّبأوت، القدير، الّذي يأتي ليقول لنا: "ليس لكم أب، ولا أمّ، ولا إخوة... كلّكم لي". لهذا، كان النّاس، قبل مجيء المسيح، يقدّمون الذّبائح، حتّى البشريّةَ منها؛ ليرضوا الله، ظانّين أنّه الإله القاسي، والمتملّك، والظّالم. وقد تركهم على جهلهم؛ ليأتي، فيما بعد، متجسّدًا، ويقول لنا: "أنا هو ربّ الصّبأوت، لي الأرض بكمالها، والمسكونة وكلّ السّاكنين فيها. ولكن، أنتم أيضًا لكم الإله. أنتم أيضًا لكم خالق السّماء والأرض، وقد قدّم خالقكم نفسه ذبيحة". لقد التحفت السّماء بالأرض؛ فصارت الأرضُ سماء. وكانت صلةُ الوصل الحلقةَ الحاملة الصّليب، زهرةَ البتوليّة، زهرةَ الحبّ الإلهيّ، مريمَ العذراء.

اليوم، نعيّد لحبل حنّة بوالدة الإله؛ ومن ثمّ نعيّد للجنس البشريّ في حوّاء، نعيّد لحوّاء – باكورة الجنس البشريّ الجديد، نعيّد للأنثى القديمة، الّتي أسكنت الحيّة في أحشائها غوايةً؛ لكنّها، اليوم، تولَد بكلمة الله. نعم، كلمةُ الله وَلَدَتْ "مريم"! حنّةُ العاقر وَلَدَتْ مريم، بعد ما مرّت عليها أزمنةُ الطّبيعة، وجفّت أحشاؤها، لكنّها بقيت أمينة في الصّلاة، والتّضرّع، والتّرجّي ليمنّ اللهُ عليها بوليد!... كانت تريد طفلة، أو طفلًا؛ حتّى لا تكون قد صارت هي صورة الموت، بل الحياة الّتي تلد. والولادة هي الاستمراريّة. لكنّ الرّبّ لم يستجب لطلبها في أوان خصب جسدها. كان بإمكانه أن يعطيها "مريم" قبل خمسين سنة، أو عشرين. لكنّه "أعقرها"؛ ليعود فيحرّرها من عقرها، ويجعلها تلد؛ لكي يقول لنا إنّ البشريّة عقرت وماتت، ولم تبقَ فيها أيّة نسمة حياة! كادت تنحدر إلى الهاوية لتنقرض! لكنّ الإله الرّحيم لا يستطيع أن يرى الموت، ولا أن يسمح به، ولا يقبل الظّلمة؛ لأنّه هو النّور والحياة. لذلك، تجسّد الرّبّ من بطن عاقر! حنّة، جدّة المسيح

بالجسد، كانت عاقرًا! في الحقيقة، كلّ البشريّة وصلت إلى العقم! هذا هو واقع كلّ إنسان منّا: في حقيقة هدأته، في لحظة حلول النّعمة عليه، يعرف أنّه ميت، وأنّ كلّ ما يفرزه موات وليس فيه خير. عندئذٍ، إمّا أن يستمرّ بحركة الموت تلك، ويبحث عن موات يحيا به، كما العالم، الّذي قال لنا الرّبّ يسوع عنه: "لا تقربوا العالم الّذي هو ظلمة وموت"؛ أو يدخل في دائرة ذاته، ويحيا مواتًا ليس له، ويصرخ إلى الله: "حرّرني من عقري"؛ فتخرج من الحشا الحياة الجديدة.

حنّة هي ركيزتا السّلّم، ومريم هي الدّرجات الّتي نصعد عليها إلى الله، الّذي ينتظرنا أعلاه، ليدخلنا الملكوتَ. لماذا نعظّم مريم؟! لماذا نكرّمها؟! لماذا نصرخ إليها بتعظيمات، وتكريمات، وأناشيد؟! لأنّها أعظم مخلوقات الأرض، بل هي الأرض كلّها، هي البشريّة! ما من بشريّة إلّا بمريم. ميرم هي الأرض الّتي اقتبلت الكلمة؛ فصارت الحشا الّذي وُلدت منه بذرة الإله، الّتي تسقيها نعمة الله؛ فأفرعت أشجارًا، ونباتًا، وأزهارًا، وطيوبًا؛ لتمجّد الرّبّ، وتسبّحه. لم يكن لمريم أيّ عمل آخر، سوى أنّها صارت الأرضَ الجديدة، الّتي اقتبلت السّماء؛ وصارت، بالسّماء والسّماء فيها، آدمَ الجديد. مريم وُلدت من العقر بمشيئة الله وكلمته، وعاشت حياتها بلا خطيئة، لأنّ الخطيئة لم تسكن فيها؛ أو بالأحرى، كانت ساكنة فيها، لكنّها لم تفعّلها! مريم لم تخطئ، لأنّها بكلّيّتها اقتبلت المسيح؛ فملأ كلّ الخلايا، والحشا، والدّم، والفكر، والقلب، والمشيئة؛ فلم يبقَ فيها موت، لأنّها اقتبلت ملء الحياة! لقد أفرغت ذاتها بالكلّيّة، وقالت للرّبّ: "نعم، تعال واسكن فيّ". ومَن سكن فيه الإله، يتوقّف عن معرفة الخطيئة، الّتي تصير وراءه، ويمتدّ إلى الأمام، إلى ملكوت الحبّ الإلهيّ.

مريم وُلدت من الحشا المائت، بوساطة كلمة الله. وإذ اقتبلت الكلمة، صارت أَمَةً لله، وقالت له: "أنا أمة لك". كلّ مَن يُخطئ، بعد معرفته كلمة الله، يكون كاذبًا، لا يعرف كلمة الله. كلّ مَن يُقال له: "خذ، كُلْ، هذا هو جسدي؛ واشرب، هذا هو دمي"، ويقتبل النّعمة والجسد والدّم، ويتّحد بالله، ويعود إلى الخطيئة؛ يكون شيطانًا رجيمًا. بعد الاتّحاد بالمسيح، لا تبقى لنا إرادة من إنساننا العتيق، ولا إرادة في الموت والنّكران، ولا إرادة في عدم المحبّة، ولا في خطايانا التّافهة السّفيهة الماضية... عندما يسكن الإله فينا، تصبح لنا إرادة جديدة، يصبح الأب والأمّ والأخ وخدمتهم الإرادةَ الجديدة.

في الإنجيل، لم يُرِدِ السّيّد أن ينكر أمّه، بل أطاعها حتّى الموت. لكنّه، هنا، في هذا المقطع الإنجيليّ، أراد أن يقصي عنه أمومة الخطيئة والجسد والماضي، وأخوّة العواطف الّتي تجرّنا إلى الموت. وحده الحبّ ينجّي؛ أمّا العاطفة، فتجرّنا إلى الموت؛ لأنّها تولّد الدّالّة الّتي، إذا لم يتحقّق لها ما تريده، تغضب وتثور. كيف أغضب، إذا كنت لا أملك شيئًا، ولا أطلب شيئًا، وليس لي شيء؟! إذا كنت حملًا مذبوحًا على مذبح الرّبّ، فكيف تكون لي أيّة حركة غير المذبوحيّة؟! كيف أخطئ، إن اقتبلت روح الرّبّ بالحقيقة؟! طبعًا، لا أرى أنّ كلّ البشريّة كاذبة! لهذا، يصلّي الآباء لأجل العالم، لكي يخلص. لهذا، وحدها الصّلاة هي المنجّية. لهذا، وحده الحبّ هو المخلّص. لهذا، الصّليب هو قبلة حياتنا. كلّما غضبنا وأخطأنا، نطلب ذواتنا. وكلّما اقترفنا أيّة هفوة أو خطيئة، بالقول أو بالفعل أو بالفكر، بمعرفة أو بغير معرفة، طوعيّة أو كرهيّة؛ فإنّنا، بذلك، نطلب "أنانا". الرّبّ لا يخطئ، فكيف نخطئ نحن؟! الرّبّ هو المنزّه عن الخطيئة، فكيف نقتبله، يومًا بعد يوم، ونستمرّ بارتكاب الخطيئة؟!...

أتعرفون ما معنى أن نتناول جسد الرّبّ ودمه؟! معناه أنّنا، شيئًا فشيئًا، نصبح من طبيعة الّذي نأكله! الرّبّ يمتدّ إلينا، ينبثّ فينا، في أفكارنا، في خلايانا، في عروقنا، بجسده ودمه الكريمين. هكذا، شيئًا فشيئًا، نصبح آلهة بالنّعمة. لهذا، يحرز بعض الأشخاص تقدّمًا؛ لأنّهم يكونون قد أفرغوا ذواتهم من مواتيّتهم. أمّا بعضهم الآخر، فيبقى ممتلئًا من ذاته.

حنّة صلّت لتلد؛ ليُزال عنها عار العقر؛ فولدت مريم المصلوبة على الحبّ الإلهيّ. ونحن، إذا أردنا أن نخرج من عقرنا، فعلينا أن نصير صلبانًا للمسيح. السّيّد تجسّد مصلوبًا؛ إذًا، الحياة لكم تكون في المصلوبيّة، وفي الموت المريع، وفي الطّبيعة الجديدة، وفي كلمة الإنجيل، وفي الوصيّة، وفي تطبيقها، وفي التّوبة البكر!

"تعالَوا، يا مباركي أبي، رثوا المُلك المُعدَّ لكم" (متّى٢٥: ٣٤). ألا أعطانا الرّبّ، اليوم، أن نحبل بمريم من حشا حنّة، ونصلّي لكي يفتح الرّبّ أحشاءنا، وأرحامنا، وقلوبنا، وعقولنا؛ حتّى نقتبل كلمته؛ فيسكن فينا، ونطيعه حتّى الموتِ، موتِ الصّليب؛ ليقيمنا بشرًا جددًا على صليب حبّه وخلاصه.

٩ كانون الأوّل ١٩٩٦

اِقطعوا الخطيئة الّتي فيكم!

(مر٩: ٤٢- ٥٠، ١٠: ١)

لم أكن أريد الكلام، اليوم، لكنّ كلمات الإنجيل دعتني إلى ذلك؛ لأنّها كلمات قاضية، قادرة، عنيفة، تطلب أن نصير جلّادين لأنفسنا. هذا ما يطلبه الرّبّ: أن نقطع أيدينا وأرجلنا، وأن نفقأ أعيننا، من أجل الآخرين: "مَن شكّك أحد هؤلاء الصّغار المؤمنين بي، فخير له لو طُوّق عنقه بحجر رحى، وطُرح في البحر" (مر٩: ٤٢). إله الحياة يقضي بنا، اليوم، إلى الموت. إنّه لَتناقض عجيب! إله الرّحمة، الّذي تجسّد لخلاصنا، وصُلب لأجلنا، كيف يجرّنا إلى عمق البحر، ويقول: "مَن شكّكته يده فليقطعها، ومَن شكّكته رجله فليقطعها، ومَن شكّكته عينه فليقلعها"؟! مَن يحفظ هذا الكلام؟! ومَن يطبّقه؟!

البارحة، سمعتم عن خصام أهل الكنيسة. وفي كلّ يوم، نسمع عن شدائد يواجهها الصّغار بسبب جريمة الكبار. في العالم، وفي السّياسة، وفي المجتمع... أصحاب النّفوذ "يقطعون" الأرزاق، ويجوّعون البشر، ويهدمون بيوتهم على رؤوسهم، ويشرّدون الأطفال، ويشنّون الحروب... ثمّ يجلسون إلى طاولة السّياسة، يقرّرون أرجاء هذا البلد أو ذاك، ويفكّكون العائلات، و"يضربون" الأرزاق، ويميتون الشّباب بقنابلهم، ويحرقون أرض الله الواسعة... هذا هو العالم الّذي نحيا فيه! إلى أين يتوجّه البشر؟! ونحن "إلى مَن نذهب، وكلام الحياة الأبديّة عندك؟!" (يو٦: ٦٨).

نحن قد أتينا إلى الدّير، ذهبنا إليه، والرّبّ، في الحقيقة، موجود في العالم، كفي كنيسته. لكنّه موجود أكثر في أدياره. يوجعني أن أقول هذا، لكنّكم تعرفون تاريخ الكنيسة، وتعرفون أنّ هناك قلّة قليلة عزيزة تسعى للحفاظ، يومًا بعد يوم، على وجه المسيح غيرَ مجرَّح، ولا مطعون، ولا مضروب! هؤلاء هم الرّهبان الّذين ابتعدوا عن العالم، "طلّقوا" العالم، ماتوا عن العالم. ما هو العالم؟! أو مَن هو العالم؟! إنّه حبّ الظّهور، والكبرياء، والاستعلاء، وقمع الآخرين... هذا ما يجرّ كلّ النّاس، السّاكنين في العالم، إلى

فعل كلّ ما ذكرته سابقًا. لذلك، في الأزمنة الغابرة، كان رؤساء الكهنة يؤخذون من الأديار، من الرّهبان؛ لأنّ الرّاهب، في الدّير، يموت عند قدمي المسيح. أمّا في العالم، فنتكلّم على المسيح، لكنّنا نميته عند أقدامنا. العالم "مضروب" بالسّياسة، والكنيسة "مضروبة" بالسّياسة، والرّعايا "مضروبة" بالتّمييع، والكذب، والمراءات... يدخلون الكنيسة، ويُدخلون معهم كلّ الرّذائل الموجودة في النّفس البشريّة. وإذا قلتَ لهم: "توبوا"، يصرخون في وجهك: "مَن أنت حتّى تقول لنا هذا؟! تُب أنت أوّلًا"! يلقون الحجارة عليك، لأنّهم لا يريدون الحقيقة الكامنة في الاتّضاع، والانكسار، واللّاشيئيّة. في الرّعية، يضحكون منك إن كنت متواضعًا! وحتّى في الكنيسة، يفرزونك، إن قلت كلمة الحقّ! هذا ما فعلوه بالمسيح، وبكلّ الأنبياء والقدّيسين، وكنيستنا مضمّخة بدماء الشّهداء.

ما من رحمة حقيقيّة، إلّا في التّوبة الحقيقيّة. وأخاف أن أقول إنّ التّوبة الحقيقيّة لا نجدها إلّا عند أقدام أولئك الّذين ماتوا عن أنفسهم، وأتوا إلى أديار الله؛ لكي يسبّحوه، في كلّ لحظة. في الدّير، تتكشّف خطايانا. مَن يقبل، في العالم، أن يُقال له إنّه خاطئ؟! مَن يعرف خطيئته؟! العالم كلّه ليس مُلقى في جهنّم وحسب، بل هو جهنّم نفسه! العالم كلّه صار جهنّم! أمّا واحة الدّموع، واحة النّور، واحة الخلاص، فهي عند تلك الحفنة الصّغيرة الّتي تبكي لخلاص العالم، الّتي تبكي خطيئتها وخطيئة العالم؛ وبتوبتها، تتوب عن العالم. نحن نقترب من الميلاد، فأين سيولد المسيح؟! في أيّة كنيسة؟! أفي كنيسة القيح، والاستكبار، وعدم المحبّة، والثّرثرة؟! أفي كنيسة النّظريّات ولاهوت الكلام؟!...

اهربوا من حبّ العالم! اهربوا من العيش في العالم! لا تأتوا بالعالم إلى المسيح؛ فهو قال لكم: "أنتم لستم من هذا العالم" (يو١٥: ١٩)! اتركوا العالم وراءكم، وابكوا لأجله! نحن لا نلعن، بل نريد الخلاص. لكن، طهّروا أنفسكم، أوّلًا، بالقطع. هذا هو قول الإنجيل، اليوم: اقطعوا أيديكم، إن كانت ستمتدّ إلى فعل الخطيئة! واقطعوا أرجلكم، إذا كانت ستعود إلى العالم، عالم الخطيئة! واقلعوا أعينكم، إن كانت ستنظر وتستحلي مجد هذا العالم! وتعالوا، تعالوا وارموا بأنفسكم في النّار الإلهيّة؛ لتحرق كلَّ شبه خطيئة فيكم، بالدّموع، والتّوبة، والانكسار، والتّذلّل، وكشف النّفس... وعندما نصبح ذبيحة مشويّة في النّار، يملّحنا الرّبّ بملحه؛ فنصير لا عفن فينا، إلى سنين طويلة، ويموت ظاهرنا، يفنى خارجنا،

ويبقى الرّوح! يصير الكيان كلّه كتلةً ملتهبة باسم الرّبّ يسوع، مملّحةً بالفضائل الإنجيليّة، نائحةً، باكيةً، مُحِبّةً، راصدةً، في كلّ لحظة، ما لا يرضي السّيّد حتّى يقطعه!

اليوم، يطلب السّيّد أن نصبح جلّادين لأنفسنا! لا فقط علينا أن نقطع اليد والرّجل، ونقلع العين، بل علينا أيضًا أن نصرخ إلى السّيّد قائلين له: "بيمينك العزيزة، اذبح هذا الكيان؛ حتّى يخرج منه فساد سقطة آدم. وغذْ واجبله روحًا صغيرة، طفلًا يولد معك في ميلادك، ويكبر معك، ويسير معك إلى الجلجلة"...

إنّ الإرادة السّمويّة هي عنوان يومنا هذا. إرادة الرّبّ فينا هي خلاصنا؛ فتعالوا إلى هذا الخلاص الموجع، إنّما المثمر، في آن! تعالوا، لأنّ العذراء، في المغارة، تنتظر أن يولد من أحشائها ابنها، سيّد هذا الكون! تعالوا لنذهب إلى هناك، لنولد معه!...

١٦ كانون الأوّل ١٩٩٦

سرّ السّقوط العناد

(مر١٠: ٤٦- ٥٢)

هذه هي آخر صورة نراها ونحن جالسون على حافّة الطّريق، مثل هذا الأعمى، مثل برتيماوس. غدًا، يمرّ المسيح مولودًا في مغارة، فإمّا أن نخلع عنّا الرّداء وننهض إليه؛ وإمّا أن نبقى على قارعة الطّريق نستعطي، منتظرين خلاصنا. لكن، من أين؟!

وقفة العيد هذه مهمّة جدًّا، بالنّسبة إلى كلّ واحد منّا. أمثلة كثيرة وردت في الإنجيل المقدّس فيها حركة حياة، حركة صراخ إلى المعلّم، إلى الطّبيب الشّافي! فيها سعي... لماذا يجلس الإنسان على حافّة الطّريق يستعطي؟! لأن ليس له صحب يأخذونه إلى حيث يجب أن يذهب. برتيماوس الأعمى حُدِّد مَن هو أبوه، وقد كان أعمًى هو أيضًا. وهذا للدّلالة، هنا، على السّلالة: برتيماوس هو أعمى ابن أعمى، وإلّا لماذا ورد اسم أبيه في الإنجيل؟! الرّسول مرقس أراد أن يؤكّد أنّ العمى إرثٌ ورثه برتيماوس عن أبيه تيماوس. البارحة، كنّا في أحد النّسبة، واليوم، ها نحن أيضًا في النّسبة. البارحة، كنّا نتحدّث عن أجداد المسيح بحسب الجسد. هو الآتي ليكوّن الجسد، ويخرجه من ترابيّته إلى الألوهة؛ صار وارثًا، بالجسد، لذلك الجسد المائت، المريض، المملوء بالخطايا. وقد أتى بالجسد في أقصى تواضعه. مَن يتكلّم على الاتّضاع؟! ليس لنا هذا! نحن خطأة ونستكبر؛ وهو، المنزّه عن الخطيئة، ينزل ليأخذ خطيئتنا على عاتقه! صار ابن سلالة الزّواني والعشّارين بالجسد، وهو الإله!

قلنا إنّ الجالس على الطّريق ليس له مَن يأخذه، مَن يدلّه، وهو أيضًا فقد إرادته: ماتت إرادته، أو هو أماتها، أو المجتمع الّذي كان يحيا فيه أماته؛ فسقط في ذاته المريضة، صار مريضًا في كلّ لحظة: في صباحه، وظهره، ونهاره، ومسائه، وليله... ونحن نصبح معاندين، وكأنّنا نريد أن نبقى مرضى في خطيئتنا، نريد أن نبقى عميانًا. هذا هو سرّ السّقوط: العناد، والتّقوقع، وعدم الحركة! لا نريد أن نقوم، ونتحرّك، ونخرج من أنفسنا! لا

نريد حتّى أن نسمع، أو أن نصرخ! الخطيئة تجعلنا نختفي، نتقوقع، نجلس على حافّة الكلمة والنّعمة الإلهيّة، في العالم؛ فيمرّ السّيّد وصحبه، والشّفاء، والخلاص، ونبقى حيث نحن، لا نريد أن نُشفى من العناد، ولا أن نسمع ونتمّم ما يُقال لنا... مشيئة الله والآخر نميتها بخطيئتنا.

كلّ ما يأتي علينا، في الحقيقة، هو نتيجة عنادنا. لذلك، خلاصنا كان بالعذراء، يوم قالت: "هوذا أنا أمة للرّبّ" (لو١: ٣٨). لقد وضعت نفسها بالطّاعة كأمة، ولم يبقَ في نفسها معاند، وكانت هي صورة البشارة الآتية إلينا بالمسيح؛ لأنّه هو أتى أيضًا من حضن الآب. لم يقل "لا" إلّا للخطيئة. لم يقل "لا" لشاتميه، لضاربيه، للّذين طلبوا إليه الشّفاء، لأيّ إنسان تحرّك صوبه...

وإنجيل اليوم مملوء حركةً. انظروا الصّورة، أيضًا وأيضًا: إنسان أعمى، جالس على قارعة الطّريق، ويسوع خارج من أريحا مع تلاميذه، وجمع غفير تحرّك معهم. هناك قافلة سائرة وراء الرّبّ، والأعمى ابن الأعمى جالس يستعطي. لكنّ هذا الأعمى سمع بيسوع، وجلوسه هناك كان انتظارًا للسّيّد. هذه هي ميزة الأعمى. كانت حركة الشّفاء موجودة، ولو يسيرًا، في أعماقه. إذًا، الأعمى سمع بالرّبّ يسوع أنّه آتٍ. لكنّ السّيّد لا يفرض نفسه عل أحد منّا. هو فقط يسير كسائح على الطّرقات، ليلتقطنا بمروره، ونلتقطه بمشيئة الآب المغروسة فينا. في أعماق كلٍّ منّا هناك مشيئة للخلاص، مشيئة للقيامة، لنتبع السّيّد. ولكن، هذه المشيئة لا تكتمل إلّا بالألم. صدّقوني، لم ولن يأتي أحد منّا من البشريّة إلى المسيح، إلّا إذا سقط في الألم، أو مرّت الخطيئة عليه، وسحقته، وتركت فيه ولو نسمة صغيرة تصرخ إلى السّيّد. وفي حركة مجيء المسيح، صرخ الأعمى: "يا يسوع، يا ابن داود، ارحمني!" (مر١٠: ٤٧)...

حركة الصّراخ هذه هي الخروج من عناد الموت، ومن الجلوسِ على حافّة الطّريق، والبقاءِ في عمانا. هذا الصّراخ، أو هذا الإقبال إلى الرّبّ هو خلاصنا. فلنكن، اليوم، في وقفة ما قبل العيد، مثل المرأة الّتي فقدت فلسها؛ فنظّفت كلّ البيت حتّى تجده. اليوم وغدًا وحتّى يولد الرّبّ، فلْندخل بيوتَنا، ونكنسها بحركة لا تتوقّف؛ لنجد الفلس الضّائع، الّذي هو إرادةُ الشّفاء، والخروج من العمى. إن انشغلنا، فلا يبقى من صمت، وموت، وعناد، وجلوس لنا. فلْنخرج من أمراضنا. ما من مرض لا يشفيه الرّبّ يسوع.

صدّقوني! إنّ الجسد، والنّفس، والعقل، والرّوح... كلّ الكيان يشفيه الرّبّ، إن أنت تقتَ إليه، إن انشددتَ نحوه، إن صرختَ له: "ربّي، يا ابن داود، يا ابن سلالة الحياة، خلّصني"! لو كان الله إلهًا فقط، لَكنّا خفنا أن نطلب إليه الشّفاء، ولَكان بقي بعيدًا. لكنّه تجسّد، ليقول لنا: "أنا معكم، مثلكم؛ فتعالَوا إليّ كلّكم! اطلبوني، فأنا طلبتكم مثل الفلس الضّائع".

تعالَوا، إذًا، لندخل في حركة البحث، في زوايا هذه النّفس والقلب والكيان، عن أيّ شبه عناد؛ فنطرحه عند قدمي السّيّد، ونصير مثل صحبه، هؤلاء الّذين كانوا حول مذوده، رعاةً نستدفئ بحضرته، ويستدفئ هو بحضرتنا. هذا هو سرّ الحبّ، وهذا هو سرّ الولادة. هو يولد لأجل خلاصنا؛ فلْنولد نحن له، حتّى لا يكون مجيئه عبثًا. نحن إليه وهو إلينا.

٢٣ كانون الأوّل ١٩٩٦

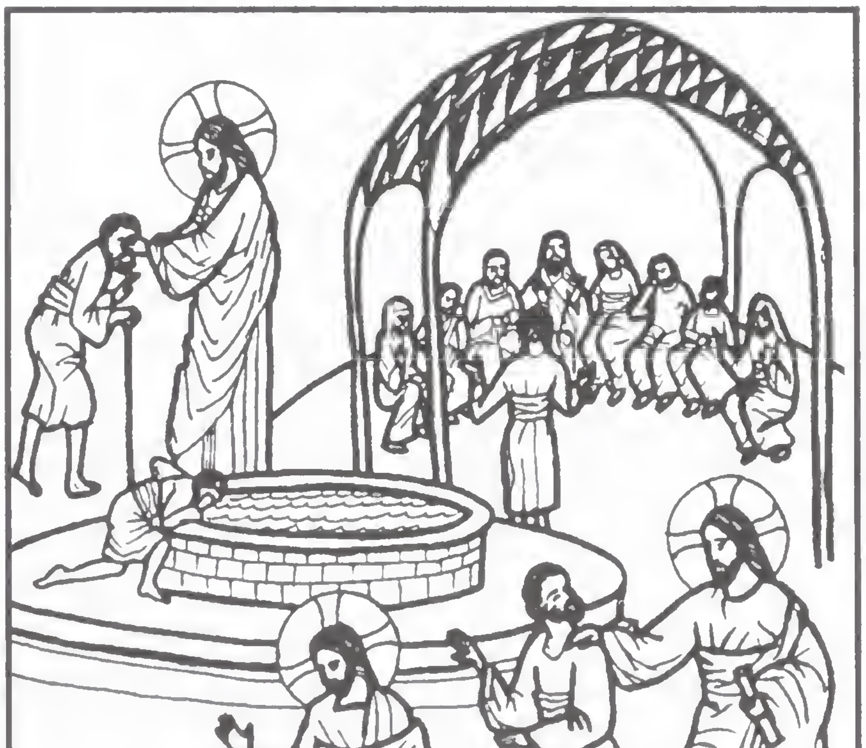

أنت ابني الحبيب

(لو٣: ١٩- ٢٢)

الفسق هو زنى. والجسدانيّة هي من الشّرور الّتي يستخبثها الله، ويبكّت عليها؛ لأنّها تدنّس هيكل الله، الّذي ارتضاه أن يكون مسكنًا له. في إنجيل اليوم، قال الرّبّ إنّ يوحنّا كان "يبكّت هيرودس، رئيس الرّبع، من أجل هيروديّا امرأة أخيه، ومن أجل جميع الشّرور..." (لو٣: ١٩).

إذًا، شرّ واحد يجرّ إلى جميع الشّرور. لذلك، نحن نترك العالم وشروره؛ لنأتي إلى بيت الله، مُعتِقين أنفسنا من الشّرور. الإنسان السّاقط، إذا سكن في المجتمع؛ فإنّه يُغلَّف بالسّقوط، ويحيا السّقوط. من الممكن أن يحمي نفسه من شرّ ما، إذا تعلّم شيئًا من الأخلاق. لكنّه يبقى ساقطًا بجملته. والسّقوط يجرّ السّقوط. والسّقوط الأساسيّ هو الابتعاد عن كلمة الله، لأنّها هي الّتي تحمي الإنسان، وتسيّجه، وتعطيه ألّا يحيا كما يحيا العالم في الخطيئة.

مَن من الّذين نعرف من أهلنا، أو من رفقتنا، يحيا، في الحقيقة، بحسب الإنجيل؟! هذا لا يعني أنّنا نمجّد أنفسنا، لأنّنا نحيا بحسب الإنجيل. لكنّنا أتينا إلى الدّير، لنحاول أن نحيا الإنجيل، لنلتزم الوصيّة، لنجلد أنفسَنا، لنجلد جسديّتَنا، وحبَّنا للنّميمة، وعدمَ محبّتنا للآخرين، وعنادَنا... أتينا إلى هنا، وبعد فترة، بدأنا بجلد أنفسنا؛ لأنّنا نعرف أنّ الكلمة الإلهيّة تجعلنا نجلد أنفسنا، حتّى لا نصبحَ هيرودسَ الّذي يعني العالمَ الزّاني، الشّهوانيّ، الّذي يعيش جسدانيّته... وإن لم يزن ويشته، فإنّه يغرق في الأكل، والشّرب، والملذّات الجسديّة، وفي النّميمة، والكره، والثّرثرة على الآخرين، وتجميع المال، وفي كلّ اللّذائذ... ويبدأ الإنسان بصنع مملكةٍ له، على الأرض، فارغةٍ من كلمة يسوع. فلنصمت قليلًا، ولننظر في كلّ ما كنّا نحياه في المجتمع، ولنعد ونتذكّر كيف يحيا أهلنا، وما يخبروننا به، حين يأتون إلينا، أو حين نذهب إليهم!

إنّ هيرودس ملوّن بمليون لون، وشكل، وهيئة! والّذي يرتكب الشّرور يقتل الله وأحبّته. هذه هي المفارقة بين العالم والمجتمع، من جهة؛ والحياة مع الله، من جهة أخرى. عندما تفرغ جُعَبُ النّاس من الأهواء ومن تَمَلُّكِها عليهم، يبدأون برشق الله بالحجارة؛ لأنّه يبكّتهم على ما يفعلون! يرفضون الله، وكلمته، وأحبّته؛ فيحاول الله أن يأتي بهم إليه بالطّريقة الّتي يفهمون من خلالها. هم لا يفهمون الكلامَ الرّوحيّ؛ لذلك، يكلّمهم الله بالآلام والأوجاع، والفقر، والمصائب، وانحباس المطر، والحرّ، والحوادث... النّاس لا يفهمون إلّا بهذه الطّريقة! لذلك، ترونهم غارقين في المصائب والآلام... لكنّ هذا هو علامة حبّ الله، لأنّه يريد أن يكلّم النّاس، ويُرجعهم إليه، وهم لا يفهمون، ولا يرعَوون. لذلك، يسمح بأن يُصابوا بالضّيقات والمصائب. لكنّهم، أيضًا وأيضًا، لا يفهمون؛ بل يثورون عليه، ويشتمونه وأحبّاءه. هذا ما فعلوه مع يوحنّا، وما يفعلونه مع كلّ واحد منّا. لكن، لا تخافوا، لأنّ المعوديّة فوق رؤوسنا! لأنّ كلمة الله في أحشائنا! لأنّ الرّبّ في ضيقنا يُنزل علينا روحه القدّوس، ويغمرنا بفرحه، ويُنسينا وجع أجسادنا، ووجع قلوبنا، وكره هذا العالم، وصلفه!... هكذا، يتفاعل الله معنا، ويُخرجنا من دائرة الضّيق، والهمّ، والوجع، والثّرثرة، والنّميمة، واهتمامات الدّائرة اليوميّة... ويُطلقنا، بروحه القدّوس، سهمًا حرًّا من كلّ ثقل، وينزل علينا بروحه القدّوس، ويشدّنا لنصعد بالرّوح. على هذا النّحو يجب أن يتعامل كلّ واحد منّا مع أخيه، على الأرض؛ ليُصعد روحه إلى السّماء.

الرّبّ يريد أن يقول لكلّ واحد منّا: "أنت ابني الحبيب". الرّبّ تجسّد، وصار إنسانًا؛ ليجاورنا، ليمتزج بنا، ليدخل إلينا ويسكن فينا، ليصير هو نحن ونصير نحن هو؛ حتّى تتقدّس المسكونة بأسرها بحضوره، بكلمته، بأنبيائه. العالم يتمزّق، ويفنى، شيئًا فشيئًا، ويتفكّك، وهيئة العالم تندثر. الجنون يقتل، في هذا العالم، والخطيئة تكثر، والأمراض تنتشر، والموت يزداد، والزّلازل تتفاعل، والأمطار تُغرق الأرض، والحرّ يأكل الأعشاب ويفنيها!... العالم أصبح في الهاوية. هذه هي هيئة العالم! والآباء يقولون إنّ العالم ليس له بعد سوى بضع سنوات، سوى القليل القليل؛ لأنّ هيئة العالم لم تأخذ هيئة المسيح، ووجهه لم يصر وجه المسيح. إنّني أقول هذا تنبيهًا لنا كلّنا. ليس من خلاص، إلّا بالحبّ الّذي يُسبغه الرّبّ من العلى، إذا رضي علينا. ونحن ليس باستطاعتنا أن نفعل

شيئًا، سوى أن نرضيه، ونفتح هذا الكيان، ونقول: "تعال واسكن فينا"! وإذ يسكن فينا، لا يعود للخطايا من وجود في هذه الأحشاء. هذا هو المطلوب منّا نحن، اليوم، وغدًا، وبعد غد. تقديس هذه الأرض لا يكون بنا، بل به؛ إذ يأتي ويسكن فينا، وهو يجازينا بأن نصير أحبّته.

في موسم الظّهور الإلهيّ هذا، أرجوا أن تصبحوا آنية له، وأن تمتزجوا بخلاياه؛ فيصير هذا الجسد دمًا من دمه، ولحمًا من لحمه، وعظمًا من عظامه، وفكرًا من فكره، وعقلًا من عقله، وقلبًا من قلبه. أنتم الشّموع المضاءة لخلاص هذا الكون؛ فصلّوا لكي تكثر الشّموع، وتنير ظلمةَ هذا العالم، وفراغَه، وموتَه. صلّوا لكي يفتقدنا الرّبّ، ويغفر آثامنا، وينقلنا، منذ الآن، إلى ملكوته، علّنا ننقذ حياة هذا العالم؛ ليتوب النّاس، ويخلصوا، ويطهَّروا بناره، وتنتفي الأهواء والخطايا، وتصير كلّها، إن ظهرت، كمثل هباء الرّيح، كمثل التّراب، تظهر لحظة ثمّ ترحل، نطردها باسم يسوع، وروح يسوع، وحبّ يسوع!...

تعالوا لنسكن ديار الرّبّ، ونصبح كلّنا كتلة واحدة مجتمعة، جسدًا واحدًا؛ فيحلّ علينا الرّوح القدس، ويقول لهذه الكتلة، لهذه الجماعة: "أنت ابني الحبيب، الّذي به سررت". حينئذ، نكون قد صرنا واحدًا بالرّوح والحقّ؛ فيخلص العالم بنا، نحن الخطأة، الّذين ارتضينا أن نخرج من خطيئتنا وفقرنا إلى فقر المسيح، الّذي هو غنى لنا ولهذا العالم.

ألا سكب الرّبّ علينا روحه، وعمّدنا بنوره، وقال لنا في قلوبنا: "هذا هو ابني الحبيب، الّذي به سررت؛ فله اسمعوا" (مر ٩: ٧)!...

١٠ كانون الثّاني ١٩٩٧

جوهرة الحبّ الإلهيّ

(لو٦: ١٧- ٢١)

إنجيل اليوم، من بشارة الرّسول لوقا، الطّويل والمُفسَّر، يُختصر بإنجيل السّحر، الّذي من بشارة متّى (متّى١١: ٢٧- ٣٠). في إنجيل السّحر، يكشف لنا الرّبّ يسوع المسيح سرَّ الأسرار. يكشف لنا سرّ وجوده. يكشف لنا سرّ حبّ الآب له، وما يتفرّع منه من حبّ للّذين يؤمنون به. وهذا ما كان عليه إنجيل لوقا أيضًا.

إذا عرفنا السّرّ بين الآب والابن، فإمّا أن تشتاق نفوسنا إلى الدّخول فيه ومعرفته، وإمّا أن نتجاهله ونرحل؛ لأنّنا لا نفهم، ولا نريد أن نفهم! هكذا، منذ أوّل الخليقة وحتّى اليوم، يتصرّف بنو البشر تجاه ربّهم. الرّبّ المتجسّد واقف يقول كلمةً للمتحلّقين حوله. لقد أراهم ذاته بالجسد إلهًا شافيًا، معلّمًا، مؤدّبًا، أخًا، ابنًا، متواضعًا، منكسرًا، مذلولًا... ولم يفهموا، لأنّ السّرّ ليس فيهم.

أساس الحياة المسيحيّة أن نكون إناء للسّرّ، إناء يضع اللهُ فيه روحَه، نفَسَه؛ فتسكن في ذلك الإناء جوهرةٌ تشعّ، على الأرض، نورَ الإله، مُخبِرةً عنه؛ أو يتراكم عليها رمادُ الأيّام والعالم والأهواء، فيخنقها. وإذ يطلب الرّبّ وديعتَه، تخرج تلك الرّوح، أو الجوهرة، وتعود إلى خالقها غيرَ مُشعّة، وغير معروفة. والمعروف عن الجوهرة، عادة، هو شعاعها، والشّعاع هو من الله، وليس منها؛ لأنّها تعكس الطّاقة الّتي بثّها هو فيها. والطّاقة هي المسيح، وهي الآب، وهي الرّوح القدس. الله يضع في الإناء المُفرَغ كلّ شيء.

لقد تعجّبت، اليوم، إذ سمعت كلّ تلك القراءات، الّتي قيلت في القدّيس أفتيميوس، حامل اللّاهوت! سمعت بعقلي، وسمعت بقلبي، وقلت: "أهكذا يمجّد الله قدّيسيه؟!" أنتم تعرفون أنّنا "لا شيء"، أنّنا حفنة لذائذ، حفنة استكبارات... التماعات الإنسان هي في حبّ الظّهور، وفي إثبات الذّات بالكلام، والحركة، والصّمت. كلّ ما يخرج منّا هباء هو وقبض الرّيح. هذه "أنانا"، وهذا ما نتوصّل إلى معرفته واختباره، يومًا بعد

يوم. ويأتينا الآب، اليوم، وفي كلّ يوم، بالرّوح القدس، ويضع في ذلك القدّيس كلّ مجده، ويسمّيه حامل اللّاهوت، أي حامله هو الإله! يسمّيه زارع القفر! يقول عنه إنّه حُبل به من البطن، من العقر، كيوحنّا، ويُضفي عليه البركات والأوصاف الإلهيّة، ويمجّده، ويرفعه حتّى الوجع! لقد أوجعنا الرّبّ، اليوم، من رحمته وحنانه! أهكذا يُكرم الله مَن يحبّه؟! عجيب هو الله في قدّيسيه!

هذا هو السّرّ! لقد أراد الرّبّ أن يقول كلّ ذلك لتلاميذه، أن يعرّفهم السّرّ: "كلّ شيء قد دُفع إليّ من أبي" (متّى ١١: ٢٧). ما يحمله الرّبّ الابنُ هو من الآب. هذه هي السّلالة: الآب يعطي الابن كلّ شيء؛ إذًا، يعطيه ذاته، ولا يترك شيئًا لنفسه. والابن يُفرغ ذاته في قدّيسيه، في أبنائه. وفي هذا الإفراغ معرفةٌ: "ليس أحد يعرف الابن إلّا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلّا الابن، ومَن أراد الابن أن يكشف له" (متّى ١١: ٢٧). ماذا يريد أن يقول الرّبّ، هنا، بكلمات الإنجيليّ متّى؟! هنا، الرّبّ يعطي ويأخذ، يكشف ويحجب: "ليس أحد يعرف الابن إلّا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلّا الابن"! إخلاءُ الآب العظيم، هنا، هو أنّه معروف لا بذاته، بل بابنه، ولا يريد أن يُعرَف إلّا بالابن. هذا هو السّرّ العظيم، هذا هو الإخلاء الأكبر الّذي بدأه الآب، وأكمله الابن على الصّليب، وأعاد به المجدَ إلى الآب: "من رآني فقد رأى الآب" (يو١٤: ٩)! نحن، البشر المخلوقين، محكوم علينا بالموت، والفناء، والاندثار. لكنّ الرّبّ يأتي ويرفعنا إلى مستوى الألوهة، إلى مستوى السّرّ بين الآب والابن؛ لنحمل في ذواتنا كلّ الإفراغ، كلّ ذلك المجد الإلهيّ الّذي أعطاه الآب للابن، ولنا نحن بالرّوح القدس.

هذا كلام مخيف، بالنّسبة إلى الّذين يعرفون كم هم أشقياء، وضعفاء النّفوس، والقلوب، والإيمان. لا أحد يستكبر، إلّا الجاهل. أمّا العارف، فإنّه يحني نفسه بالكلّيّة، ليحمل في أحشائه ذلك السّرّ، تلك الجوهرة. أترون، الآن، لماذا لا يتكلّم الآباءُ الكبار، والأمّهاتُ الكبيرات، في النّعمة والقامة، على أنفسهم، ولا يتبجّحون بخبراتهم، ولا يستكبرون بما فيهم؟! إنّهم يصرخون، فقط، إذا ما مُسّ الرّبّ يسوع فيهم. لذلك، هم يقبلون الضّرب، والشّتم، والإهانة، والتّعيير، والفقر، والمرض... ما دام الرّبّ محفوظًا في قلوبهم!!! لهذا السّبب، هم لا يهتمّون لأيّ كلام، أو تمجيد، أو تقريع، ولا لغنى العالم

ومجده؛ لأنّهم اقتنوا الآب في الابن والرّوح القدس؛ ومن ثمّ اقتنوا كلّ النّعمة. لذلك، يجلسون ويقولون بهدأة: "يا يسوع، ارحمنا"! كلّ الكون يُختَصَر باسم يسوع. هم مُولعون بحبّه. لذا، فإنّهم لا يهتمّون بشيء على الإطلاق. لقد حصلوا على الكنز، وهم يعرفون أنّهم يحيون وإيّاه في داخلهم؛ فيحافظون عليه، وينادون به، ويقولونه إن طُلبت منهم كلمة، حبًّا، حنانًا، رقّة، اتّضاعًا، لكلّ مَن حولهم؛ لا لأنّهم يتعلّمون هذا، بل لأنّ هذا الكنز يفرز شعاعًا كهذا، نتيجة كهذه! لأنّه يعطي ذاته! الكنز يُشعّ ذاته! وجوهر الكنز هو الحبّ، واللّطف، والأناة، والرّقّة. ويوم يهاجمهم العدوّ، من خلال الآخر، عنفًا، وبغضًا، وازدراء، ونقمة، واستعلاء... فإنّهم لا يجيبون؛ لا لأنّهم متّضعون، بل لأنّهم يريدون أن يحافظوا على ذلك الكنز، ويخافون عليه، كالدّجاجة الّتي تخاف على فراخها، فتبسط جناحيها فوقها، عندما يأتي العدوّ. هي لا تخاف على ذاتها، بل على أولادها. هكذا، نحن نخاف على الكنز؛ لذلك، نحميه بصمت. وإذ يحيا فينا زمنًا، نصير بكلّيّتنا شعاعًا من ذلك الشّعاع، نورًا من ذلك النّور، تواضعًا من ذلك التّواضع، رقّة من تلك الرّقّة، حبًّا من ذلك الحبّ... وإذ نصبح كتلة كنز، يخفق القلب قائلًا: لماذا الآخرون ليسوا كذلك؟! هنا، يبدأ إفراغنا لذواتنا بالصّلاة لأجلهم، بحبّهم، بالامتداد أمامهم جسرًا كي يسيروا فوقنا، ليأتوا إلى الله، كي يعرفوا الرّبّ، كي يحيوا تلك النّعمة.

كلّ ما تقوله الكنيسة عن آبائنا الكبار وأمّهاتنا الكبيرات في النّسك، والحبّ، والكلمات الإلهيّة، إنّما هو أنّهم اقتنوا الله، وبشّروا به، وأشعّوا بنوره...

هذا هو السّرّ العظيم. لذلك، أصلّي، أيضًا وأيضًا، أن يعطينا الرّبّ الإله أن نكون آنية شفّافة رقيقة، تحمل جوهرة الحبّ الإلهيّ هذا.

٢٠ كانون الثّاني ١٩٩٧

هيكل الله وهيكل النفس الفرّيسيّة

(لو١٨: ١٠- ١٤)

في هذا الأسبوع، تبدأ مسيرتنا نحو الصّليب والقيامة. مسيرة فصحنا تبدأ بالفرّيسيّ والعشّار. مَن "هو" الفرّيسيّ والعشّار؟! ولم أقل: "مَن هما؟!"، لأنّهما ليسا اثنين، إنّما واحد. الفرّيسيّ والعشّار "هو" إنسان السّقوط، "هو" آدم السّاقط، يظهر لنا بوجهين، لا بل بوجوه متعدّدة، من يوم سقوطه وحتّى المجيء الثّاني.

تبدأ قراءة الإنجيليّ لوقا بالقول: "وقال لقوم، واثقين بأنفسهم أنّهم أبرار ويحتقرون الآخرين، هذا هو المثل" (لو١٨: ٩). وفي فصل آخر، سأل التّلاميذُ الرّبَّ يسوع: "لماذا تكلّمهم بأمثال [أمّا نحن، فلا]؟! فأجاب وقال لهم: [لأنّكم اقتنيتم الرّوح القدس من خلالي]، لأنّه قد أُعطي لكم أن تفهموا أسرار ملكوت السّموات. وأمّا لأولئك، فلم يُعطَ... لأنّهم مُبصرين لا يُبصرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون، [وهم عميان، ولا يدرون الحقيقة]... لأنّ قلب هذا الشّعب قد غلظ، وآذانهم قد ثقل سماعها، وغمّضوا عيونهم لئلّا يُبصروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم" (متّى١٣: ١٠- ١٥). ونحن ما زلنا عميانًا؛ لأنّنا لو أبصرنا خلاص الرّبّ فعلًا، لَما كنّا نخطئ بعد، ولَكنّا ارتقينا معه إلى ملكوته. مَن ليس فيه شبه خطيئة، يذهب ليسكن مع الآب والابن والرّوح القدس. أمّا مَن فيه شِبه جهالة، فيبقى على الأرض ليتطهّر. وكيف يكون التّطهّر؟! يكون بالسّلوك في التّعاليم، والوصايا الإلهيّة. لقد سقط آدم من حضن الآب؛ فتجسّد الابن، ليُجلسه من جديد عن يمينه، فيه. وقد أعطانا هذا المثل، مثل الفرّيسيّ والعشّار، الّذي هو بدء الطّريق إلى الرّبّ. لا الفرّيسيّ ولا العشّار ركضا، كما فعل زكّا، ليريا يسوع. أحدهما لم يبتعد عن العائلة وعن الأب، كما الابن الضّالّ. هنا، ما من حركة، في إنجيل الأحد هذا، بل نرى هذين الإنسانين يصعدان إلى الهيكل ليصلّيا. لكنّ المشكلة أنّنا، في الهيكل، نرى أنفسنا أبرارًا. كلّ مَن كان يدخل الكنيسةَ، أو الهيكلَ، كان يظنّ نفسه بارًّا، لأنّه يعتبر أنّه لم يبتعد عن الله، بل أتى إليه. وفي وِقفته قدّام الله يقدّم الشّكر إليه: "إنّني أشكرك"! لكن، علامَ يشكر؟!

الفرّيسيّ يشكر الله، لأنّه ليس كسائر النّاس. لقد بدأ شكره بالدّينونة! خالف الوصيّة القائلة: "أنا لم آتِ لأدين العالم، بل لأخلّص العالم" (يو١٢: ٤٧). الرّبّ يسوع قال إنّ أباه هو الدّيّان. وإذ أزاح عن نفسه هذا الفعل، فعل الدّينونة، إنّما فعل ذلك ليقول لنا إنّ الإنسان، بالجسد، لا يحقّ له أن يدين أحدًا. إذًا، شُكْرُ الفرّيسيّ هو شكر كاذب. علامَ يشكر الله؟! ألأنّه أطعم الفقراء؟! أم كسا العراة؟! أم سقى العطاش؟!... لا، لم يشكره على هذا، بل على أنّه (أي الفرّيسيّ) ليس كسائر النّاس، على حدّ قوله! الفرّيسيّ أنانيّ، إذ يقول: "... لأنّي لستُ كسائر النّاس" (لو١٨: ١١). عينه كانت قاسية، وعين الأنانيّ دائمًا قاسية. هذه هي حركة النّفس الّتي يريدنا الرّبّ أن نلحظها، في هذا الإنجيل. الفرّيسيّ أراد ما لنفسه، بل أكثر. لقد أراد نفسه، رفع نفسه، جعل نفسه إلهًا، وعبد هذه الذّات، وصار تمامًا كالوثنيّين الّذين يعبدون العجل الذّهبيّ. إذًا، آدم السّاقط في الفرّيسيّ صار لا يعبد الرّبّ، بل يعبد ذاته، أي العجل الذّهبيّ، المائت، البرّاق خارجيًّا. وكانت الوصيّة الأولى أن "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ ذهنك، ومن كلّ فكرك..." (متى٢٢: ٣٧- ٣٩). الفرّيسيّ، في بدء وِقفته قدّام الله، لم يعرف الله. هذه هي الحركة الثّانية. صعد إلى الهيكل. ولكن، إلى أيّ هيكل؟! إلى هيكل أحلامه، إلى هيكل مقاييسه، وأفكاره، وظنونه، ورؤياه.. إلى الإله الّذي هو يريده، لا إلى الإله المتجسّد!

لذلك، نبدأ مسيرتنا، كما ذكرت، نحو الصّليب والقيامة، من هذا الموقف. فنحن نذهب إلى هيكل الله، لا لأنّنا نريده، بل لنرى أنفسنا ونتمجّد. هذه هي الحركة الدّاخليّة المريضة، حركة الموت، حركة السّقوط بعينه، إذ نسقط في ذواتنا. الموضوع ليس موضوع فعل وعمل، بل هو كلّ هذه النّفس. هذا ما يريد الرّبّ يسوع أن يرينا إيّاه. هذه النّفس ساقطة، مريضة، مائتة! حتّى عندما تسعى لدخول الهيكل، فإنّها تسعى لتمجيد إلهٍ غيرِ الإله الحقيقيّ. لذلك، يرينا الرّبّ، في نهاية المسيرة، مَن هو الإله الّذي يريدنا أن نعبده. نحن نأتي إلى الهيكل، لنعبد إلهنا نحن. كيف يمكننا أن نعبد الإله الحيّ المصلوب، ونحن مستكبرون؟! كيف يمكننا أن نعبد الإله المتّضع، المرذول، المبصوق عليه، ونحن معاندون، ومتكبّرون، ومتشامخون؟! كيف يمكننا أن نعبد الإله الحيّ، ونحن غير محبّين، وغير مستعدّين لأن نموت ذوب حنان قدّام الآخر، قائلين له: "خذنا، استخدمنا؛ فنحن عبيد

لك، ولكلّ إنسان يحمل هيئة المسيح!". هكذا، أتى المسيح ليخدم كلّ واحد منّا، لأجل خلاصه. لكن، مشكلة الفرّيسيّ أنّه لم يلتحم بكلّ النّاس، ولم يرَ ذاته فيهم. إذًا، هو لم يحبّ؛ بل نقض، كلّيًّا، النّاموس الجديد المتجسّد بالكلمة – الابن لخلاصنا. وبفرزه ذاته عن الآخرين، لم يرحم، أوّلًا؛ وثانيًا، لم يلتصق بهم من خلال الحبّ، ولم يمتزج بهم؛ بل استعلى عليهم، ناظرًا إليهم من فوق، وشتمهم معتبِرًا إيّاهم خاطفين، وظالمين، وفاسقين (لو١٨: ١١)... لقد لعن البشريّة؛ فأين منه طلبة يوحنّا الذّهبيّ الفم، في ليتورجيا حياتنا: "من أجل خلاص كلّ العالم"؟! وأين منه رغبة السّيّد: الّذي يريد "أنّ جميع النّاس يخلصون" (١تيمو٢: ٤)؟! هذه هي حالة السّقوط المريرة، حالة الموت، الّتي تبنّاها العشّار، وهي حالة الفرّيسيّ الّذي قال: "أنا لست مثل هذا العشّار" (لو١٨: ١١).

هذه المشكلة نستطيع أن نترجمها على صعيد جماعتنا الصّغيرة هذه؛ فنحن نتصرّف كالفرّيسيّ، حين نراقب أحد الإخوة، ونعتبره عدوًّا لنا، ونشعر بأنّه يزعجنا، ونراقب كيف يتصرّف، وماذا يفعل... سمعنا كلّنا، البارحة، قولًا مبتورًا خاطئًا يعبّر عن أنّنا نصبح أبرارًا، حين نأتي إلى الدّير! المشكلة أنّنا نأتي إلى الدّير بخطيئتنا، وماضينا، وأفعالنا... ونحن، إن لم نمارس فعل الزّنى في الدّير، إلّا أنّنا نمارسه، في أغلب الأحيان، في عقولنا، وأنظارنا، وأفكارنا... نحن نمارس السّرقة، في الدّير، حين نمتنع عن إعطاء الآخر كلّ ما عندنا، ونحتفظ بشيء جيّد لأنفسنا. ونمارس القتل، في كلّ يوم، إذا أعرضنا، ولو بالفكر أو بالنّظرة، عن أيّ شخص أو فرد من أفراد الشّركة...

أمّا العشّار، فليتنا نصل إلى ما وصل إليه، هو الّذي عرف خطيئته! كلّنا نبدأ فرّيسيًّا. نبدأ مستكبرين، ديّانين للآخرين، أنانيّين، سلطويّين، غير محبّين، متعالين، معاندين، منتفخين، غضوبين، غير منكسرين... مَن منكم لم يعاند، في أثناء وجوده في الدّير، مرّة، أو مرّتين، أو خمس مرّات، أو مئة مرّة؟!... مَن لم تغضب نفسه، داخليًّا، ولم يشعر بأنّه يريد أن يحطّم الآخر ويقضي عليه؟! أنا أعرف أنّ أحدكم، هنا، صلّى إلى الله كي يُزيل أحدَ الإخوة من أمامه! صدّقوني، لقد خفت على روح ذلك الإنسان، وبكيت مِدرارًا عليه؛ حتّى يعود إلى التّوبة والحبّ. أتفهمون، الآن، لماذا، عندما يبلغ الآباء الكبار قامةً كبيرة من الحبّ الإلهيّ، يبدأون بالصّلاة، حتّى من أجل الشّياطين؟! نحن لا نرى،

أحيانًا كثيرة، المسيح الواقف إلى جانبنا في الكنيسة، العامل معنا في الحقل، أو في المشغل، أو في المطبخ...

بداية الطّريق هي في السّقوط. وإذا كان الإنسان الأوّل – آدم قد سقط من حضن الله، فلأنّه تعوّد أن يرى الإله، لا بل صار الإلهَ، وعاند، واستكبر، ودان، ولم يحبّ! ثمّ كانت الخطوة الثّانية، بعد أن لمسه الله بالعشّار. الرّبّ الإله لمس العشّار، وأتى به خاطئًا، ولكن تائبًا، واضعًا نفسه تحت قدمي السّيّد، وصارخًا له: "ارحمني، أنا الخاطئ" (لو١٨: ١٢). وبطلب الرّحمة هذا، أتى الرّبّ، وقال للعشّار المصلوب إلى جانبه (أي لصّ اليمين): "اليوم، تكون معي في الفردوس" (لو٢٣: ٤٣)!

البشريّة كلّها إنسان واحد، إمّا هو إنسان السّقوط، وإمّا هو الإنسان الجديد في الرّبّ يسوع، الكائن في كلّ منّا. عندما يُخطئ أحدكم، نبكي؛ لأنّنا نحسّ أنّنا نحن أخطأنا. عندما يعاند أحدكم، نتوجّع؛ لأنّنا نحسّ أنّنا نحن عاندنا. عندما يغضب أحدكم، ننكسر؛ لأنّنا نحسّ أنّنا نحن غضبنا... كلّ وجع عند أخي هو وجعي. كلّ خطيئة يرتكبها أخي هي خطيئة أنا أرتكبها... لهذا، عندما تخاصم الرّهبانُ في دير القدّيس نكتاريوس، أقفل القدّيسُ على نفسه، أربعة أيّام، وبكى، وصام؛ لأنّه أحسّ أنه هو الّذي أخطأ. وقد بكى لأجلهم، حتّى يعودوا عن خطيئتهم.

كلّ واحد منّا هو آدم السّاقط، وهو الفرّيسيّ، وهو العشّار، وهو الابن الضّالّ، وهو زكّا... هو الكلّ في الكلّ. هذا هو بدء مسيرتنا. عندما يعرف كلّ واحد منّا أنّه هو كلّ البشريّة، فلن يبقى هناك خصام، ولا حرب، ولا استكبار. وإن عرفنا ذواتنا، فإنّنا نتألّم؛ لأنّنا نرى فينا الفسق، والظّلم، والكبرياء، والعناد، والكره، والإدانة... لهذا، إذا كنّا آدم السّاقط؛ فإنّنا، اليوم، نأتي كالفرّيسيّ والعشّار، لندخل إلى معرفة هذه النّفس المريضة، ونبكي عليها... مَن لا يبكي، فإنّه لا يعرف نفسه، ولا الآخرين؛ لا يحبّ نفسه، ولا الآخرين. مَن لا ينفجع ألمًا ويتوجّع، فلن يخلص، ولن يكون على استعداد لأن يخلّص الآخرين، ولا لأن يرصد، في عمق أعماق نفسه، ما يريده الرّبّ منه؛ ليدخل معه أيّام صومه، واعيًا ما هي هذه النّفس، وما هي مضامينها، وكيف سيقوم، باسم الرّبّ يسوع، من تخلّعه وفرّيسيّته.

١٧ شباط ١٩٩٧

طيب المحبّة

(مر١٤: ٣- ٩)

"الحقّ أقول لكم، حيثما كُرز بهذا الإنجيل في كلّ العالم، يُخبَر أيضًا بما فعلته هذه تذكارًا لها" (مر١٤: ٩). كثيرون أحبّوا السّيّد، وكثيرون أطعموه، وكثيرون سقوه. وهو أطعم كثيرين، وسقى أكثر، وشفى كلّ مَن به سوء أو مرض اعتراه في الجسد، أو شيطان لطمه بالرّوح بعد أن سكن فيه. وأتت هذه المرأة الّتي، في الحقيقة، لا نعرف مَن هي. بعض النّاس يقول إنّها مريم المجدليّة، وبعضهم يقول إنّها مريم أخت لعازر، وآخرون يقولون إنّها تلك الّتي أخرج منها سبعة شياطين. ليس المهمّ مَن هي. إنّها خلقة الرّبّ، وهي امرأة.

اليوم، يوم الجمعة من أسبوع الفرّيسيّ والعشّار، نسمع الرّبّ يقول إنّه سيُكرَز بخبر هذه المرأة تذكارًا لها، كلّما كُرز بهذا الإنجيل. وهو لم يقل هذا الكلام عن امرأة أخرى، ولا عن إنسان آخر. لقد وضع الكرازة بخبر هذه المرأة الخاطئة في مستوى الكرازة بإنجيله! لماذا؟! ألأنّها اشترت بعضًا من طيب غالي الثّمن؟! ربّما كانت غنيّة! إذًا، المال الّذي أنفقته ليس هو المهمّ. المهمّ، أوّلًا، أنّها أحبّت السّيّد في الخفاء، وربّت نفسها على حبّه، بعد أن عرفت بوجوده فيما بين تلك الجماعة من بني إسرائيل، وبدأت تحضّر نفسها للقائه. زفّت نفسها إليه، قبل أن تلقاه. صارت عروسًا له، في سرّها. لم تعلن حبّها له، إلّا عندما أتت السّاعة ليتمجّد. فقالت: "ماذا أقدّم إلى السّيّد؟! ماذا أقدّم إلى المعلّم؟!". وهذان اللّقبان، السّيّد والمعلّم، كانا الغالبين في أذهان النّاس. كانت تريد أن تعطي عربونًا ملموسًا، ماديًّا، حيًّا لحبّها له. كانت تريد أن تقدّم قربانًا إلى الرّبّ؛ فأتت بحبّها، أوّلًا، والحبّ يمنح الجرأة؛ فتجرّأت، ثانيًا، واشترت الطّيوب، وحملتها، واخترقت بها رهط الرّجال الجالسين في بيت ذي شأن، هو بيت سمعان الأبرص. وإذ كان الرّبّ يتّكئ، لا مع النّساء، بل مع الرّجال فقط، اخترقت حجب التّقاليد والأعراف، وأتت إلى مَن؟! إلى الّذي عرفت أنّه سيقبلها بالحبّ والرّحمة! وفي السّرّ، أعلنت له حبّها، أعلنت أنّه هو

المخلّص والعريس، وهي العروس، وأتت بجهازها، إليه لتزفّ نفسها عند قدميه؛ فأفاضت ذلك الطّيب، وغسلته من رأسه حتّى قدميه، في حين أنّ دفنه كان مزمعًا أن يتمّ. ربّما لم تسمعه قائلًا إنّه سيُصلَب ويموت، وفي اليوم الثّالث سيقوم. وربّما سمعت! ليس هذا المهمّ. المهم أنّها أحسّت بذلك، أنّها صارت، بكلّ كيانها الدّاخليّ، شعلةَ حبّ له؛ فمشت معه، بقلبها، إلى درب موته.

هذا هو عنوان حياتنا نحن، هنا، في هذا الدّير. كلّنا، من دون استثناء، وضع الرّبّ يده علينا، وساقنا خرافًا إليه، كما سيق هو كخروف إلى الذّبح. الذّبح ضروريّ؛ لأنّنا، هناك، على المائدة، نُذبَح لنتّحد بالآب. كلّ مَن لا يُسلم نفسه إلى الذّبح يكون رافضًا للآب والابن والرّوح القدس. هذا ما نقوله للغرباء، للّذين لا يعرفون الرّبّ بعد، للّذين لم يُسلموا أنفسهم بالكلّيّة إلى الرّبّ يسوع. أمّا نحن، فإذ نخرج من العالم، بإصبع السّيّد، نأتي إلى المكان الّذي اتّكأ فيه، ونفيض على رأسه حياتنا، كلَّ حياتنا. لا! ليس لنا طيب غالي الثّمن نشتريه من سوق النّخاسة! بعضنا ظنّ أنّه يأتي بما عنده ليعطيه للسّيّد. كلّنا ظننّا أنّنا نأتي حاملين، من العالم، عِلمَنا، وثقافاتنا، ومالنا، وأشياءنا، لنقدّمها إلى الرّبّ، في هذا الدّير، أو في ذاك. بئس ما فعلنا، لأنّ كلّ هذا لا قيمة له! باطل الأباطيل وقبض الرّيح! لقد اكتشفنا أنّنا نأتي إلى الرّبّ حاملين نجاساتنا، وكبريائنا، وأنانيّاتنا، وأوهامَ أفكارنا، واستكبارنا... نأتي حاملين إليه ظلمةَ هذا القلب، الّذي لا يعرف أن يحبّ. هو ساقنا إليه؛ وهو قد أفاض علينا طيبًا، قبل أن نأتي! أفاض علينا حبّه! أفاض علينا انجذابًا، حتّى نتبعه! أفاض سحرَ وجوده، وسرَّ كلمته، وحبَّه؛ فأتينا وتبعناه. وها نحن هنا، وقد تركنا العالم، وسُخْفَ هذا العالم، وكلَّ ما في هذا العالم. نعم، هذا العالم يقدّم المائتَ، والمنحلَّ، والمتغيّر. لكنّنا أتينا، ووقفنا في هيكل الرّبّ هذا، كالفرّيسيّ، وقلنا له: "ها إنّنا أفضل من غيرنا!". أمّا هو، فبحنانه العظيم، قَبِلَنا، وأفاض علينا طيبَ حبّه، وأراق حنانَه، وصبرَه، واتّضاعَه، وغسلنا من رؤوسنا حتّى أقدامنا. نحن قدّمنا إليه النّجاسات والأوساخ، وما زلنا نفعل؛ وهو يفيض علينا حبًّا، وحنانًا، وصبرًا، ورحمة!...

إذًا، ما هذا الإنجيل؟! كيف نخترقه، لنصبح ولو شيئًا من تلك المرأة؟! في الحقيقة، نحن غصن برّيّ لا ثمر فيه، في شجرة تين برّيّة غير مُنتِجة. لكنّنا مغروسون في

حقل الرّبّ. واليوم، في نهاية أسبوع الفرّيسيّ والعشّار، نقف وقفة وعيٍ، وصحوٍ، وحبّ؛ لأنّ الّذي لا يحبّ، لا يقدر أن يبقى في هذا الدّير. نحن لا نقيّد أحدًا، هنا، ولا نريد أحدًا قسرًا! الرّبّ حرّ، وقد أعطانا ملء الحرّيّة، إذ خلقنا على صورته ومثاله؛ فإمّا نبقى، هنا؛ لأنّنا، بكلّيّتنا، غلّفنا بعشقه، وحبّه، وصلاحه، وكلمته؛ وإمّا لا نبقى!

نحن مقبوض علينا بالحبّ، فلا نستطيع أن نخرج من مكاننا، لأن الرّبّ يسكن هنا بملء لاهوته؛ لذلك، نستطيع أن نقول له: "اقبلنا، وامنحنا أن نكون صورة تلك المرأة! حمّلنا طيبك؛ لأنّنا لا نملك طيبًا، ولا شيئًا سوى خطايانا؛ ونحن نجلون، يا ربّ؛ لأنّنا نغسلك بها، في كلّ يوم، وكلّ ساعة، وكلّ لحظة؛ ولكن، سامحنا! ففي عمق أعماق قلوبنا، هناك ضوء فتيل صغير مدخّن، وأنت وعدت بأنّك لن تطفئ فتيلًا مدخّنًا (متّى ١٢: ٢٠)؛ فحرّك هذه الجذوة*، وأنرها، واجعلنا نخترق بالحبّ، وتعال طعّمنا، شقّنا نصفين: فنكون نحن النّصفَ المائت، وأنتَ النّصفَ الحيّ، واربطنا، وقيّدنا بحبّك؛ لنصير أصحّاء بك، حتّى تمنع عنّا دود هذا العالم؛ فلا يجد طريقه إلينا! أسبغ علينا رحمتك، واصبر علينا بحنانك، واسقنا عطفك؛ فنكبر ونمو! يا ربّ، لا تحاسبنا بحسب أفعالنا! نحن عارفون أنّنا "لا شيء"، أنّنا هباء وقبض الرّيح. وإذا خبطتنا وقلّبتنا وعصرتنا، فلن يخرج منّا إلّا السّوء. أمّا ما فينا من صلاح، إن كان موجودًا، فهو أنت السّاكن فينا. فتعال، يا ربّ، تعال، وضعنا عند قدميك، كلّ أيّام حياتنا؛ حتّى ننهض معك كلّما تحرّكت، وتأخذنا قطيعًا صغيرًا؛ فنتبعك خرافًا تدبّ وراءك، حبًّا لك! يا سيّد، نحن لا نريد أن نكبر. لقد شخنا في العالم، والآن نريد أن نعود لنصبح أطفالًا يدبّون من حولك، ليس في عيونهم إلّا وجهك، ولا يأكلون إلّا كلمتك، ولا يغتذون إلّا بحنانك، ولا يشربون إلّا منه، ولا يلمسون إلّا هدب ثوبك حتّى يشفوا؛ فتعال، يا ربّ، تعال، لنمشي معك هذه المسيرة، مسيرة هذا العمر، في كلّ يوم؛ حتّى نلقاك، يا ربّ، في مجدك السّماويّ، مع أبيك، وروحك القدّوس، ووالدتكِ الكلّيّةِ الطّهارة، وسابقِك، وقدّيسك سلوانس، وجميع قدّيسيك".

٢١ شباط ١٩٩٧

* الجذوة: الجمرة الملتهبة.

أنشودة حبّ ليوحنّا الحبيب

(يو١٩: ٢٥- ٢٨، ٢١: ٢٤- ٢٥)
(متّى١١: ٢٧- ٣٠)

نعيّد، اليوم، لحبيب المسيح، التّلميذ الّذي كان هو يحبّه، يوحنّا اللّاهوتيّ الإنجيليّ البشير. فَمَن هو يوحنّا؟!

اسم "يوحنّا" معناه "حنان الله". والرّبّ، في حياته معنا على الأرض، لم يُظهر لنا إلّا حنانه. لم نعرف من الرّبّ يسوع المسيح، في السّنوات الثّلاث الّتي سجّلها التّاريخ، إلّا حنان الرّبّ. لم نعرف عنه ما عُرف عن الله، في العهد القديم، أنّه الحاكم، بل أتى إلينا، وكأنّه لا حكم له! أتى طفلًا في مذود، فقيرًا، لا مكان له في المدينة حتّى يدخلها ويولد فيها. حملته أمّه العذراء مريم، وإلى جانبها خطيبها، وحارسها، على الأرض، يوسف، وأخذاه إلى مذود للبهائم. لقد وُلد الرّبّ، خالقُ السّماء والأرض، الّذي يُرى والّذي لا يُرى! وُلد الكائن منذ القديم، الّذي قال عن نفسه، في العهد القديم: "أنا هو. أنا الأوّل وأنا الآخر" (إش٤٨: ١٢). "أنا هو" ظهر متجسّدًا كطفل فقير مُقمَّط، ومُضجَع في مذودٍ للبهائم، ولم يولد حتّى كأحد أطفالنا الرُّضَّع الفقراء. في كلّ العالم، يُهيّأ للطّفل، إذ يولد، ولو مكان بسيط. تهيّأ له الأقمطة، وتُهيّأ له الأفراح والابتسامات... ولكن، هنا، لم يُهيّأ له سوى الإعلان الإلهيّ للرّعاة الّذين في مدينة يهوذا، وللعلماء المجوس الّذين اختطفهم الكلمة الإلهيّة، من آخر الأرض، من خلال عِلمِهم؛ لكي يأتوا ويشهدوا بأنّ هذا هو خالق السّماء والأرض، هذا هو النّبيّ، هذا هو إله الكون.

... وكبر الطّفل وترعرع، ولم يفهمه أحد. لم يُعطَ لأحد أن يفهمه، إلّا مريم، تلك الّتي كانت تعلم، في أحشائها، أنّها تعرف ولا تعرف، في آن معًا، مَن هو ذاك الّذي أُعلن لها عنه، والّتي قالت بسببه: "ها منذ الآن، تطوّبني جميع الأجيال" (لو١: ٤٨)؛ لأنّها صارت أمًّا لذاك المولود منها بالرّوح القدس، بالإعلان الإلهيّ من خلال الملاك جبرائيل. لقد عرفت أنّها ستلد الإله، خالق السّماء والأرض والكون، وخالقها هي. لكنّها، أيضًا،

بفكرها، وضميرها، ووعيها... بإنسان عقلها، لم تعرف: بل سكنت، وصبرت، وسمعت. وكلّ هذا علّمها الاتّضاع والصّمت؛ ومن ثمّ المعرفة.

كذلك، يوحنّا الحبيب قد أُعطي أكثر من الآخرين، وحتّى أكثر من الرّسل. هل ميّز الله بين رسول ورسول، فأحبّ واحدًا أكثر من آخر؟! هل أعطى وزنة واحدة لنثائيل، مثلًا، وخمس وزنات لسمعان، وعشر وزنات ليوحنّا؟! في الحقيقة، نحن لا نعرف كيف يحبّ الله، وماذا يعطي! لكنّني أتجرّأ وأقول إنّني حصلت، بالرّوح القدس، على معرفةٍ، ولو يسيرة، من الرّبّ. وسأحاول أن أنقل إليكم ما عرّفني إيّاه الله.

نحن، حين نُسلِمُ أنفسنا إلى الرّبّ، بالنّذور، والمجيء إليه، وسماع السّؤال، والإجابة بـ"نعم"؛ يعطينا الله المعرفة! والمعرفة الأولى هي في أن نعرف خطايانا... ونحن البشر لا نعرف خطايانا، إلّا بإصبع الله الّذي، عندما يلمس القلب، يتفتّح على محبّة الله: فيفرز منه الخطايا، يَتفَتّق عن البشاعات، والقباحات، والأفاعي، والعقارب الّتي كانت تساكن الدّم الإلهيّ فينا، حتّى من قبل أن نعتمد، وحتّى من قبل أن نتناول جسد الرّبّ ودمه الكريمين: لأنّه هو عرفنا من البطن، ووضعنا في الأحشاء، وغرزنا بشرًا على صورته ومثاله، حاملين روحه القدّوس. ولكن، تبقى تلك المعرفة مخفيّة عن أهلنا، وعنّا بالطّبع، لكنّها تبقى معروفة عند الله. والأهل عندما يلدوننا، يرَوْننا أطفالًا في اللّحم والدّم: فيستقبلوننا بالفرح، لأنّ طفلًا وُلد لهم! وهم لا يعرفون، ولا يدركون أنّ هذا الطّفل ليس لهم، بل هو للإله، هو للّذي أعطاهم إيّاه، وأنّه منذور لخدمة الله والإعلان عنه! لإعلان اسم الله، وشأنه، وحكمه، حيث هو سيحيا. ولكن، "طوبى للّذين آمنوا ولم يروا" (يو ٢٠: ٢٩). فالأهل، الّذين عمّدهم الله بحبّه، وبروحه القدّوس، يحملون ذاك الطّفل بدموع: لأنّهم يعرفون، في أحشائهم غير النّاطقة، أنّه عطيّة من الله. لذلك، يضعونه عند قدمي السّيّد، في الهيكل، كما أُدخلت والدة الإله، معتبرين أنّ هذا من الأبوكريفا*، وأنّ دخولها الهيكلَ هو تكرار لِما حصل، أو لِما جُعل عليه ابنها الرّبّ يسوع المسيح. إنّ أعياد

* الأبوكريفا: الكتب المنحولة. دخول والدة الإله إلى الهيكل هو أمر ذُكر في الكتب المنحولة. والكنيسة، عندما رتّبت أعياد والدة الإله، ومن بينها عيد دخولها الهيكل، اعتمدت في ذلك على ما ورد في الأبوكريفا، واعتبرت دخولها الهيكل تكرارًا لدخول الرّبّ يسوع الهيكل.

والدة الإله تُعيَّد كما أعياد السّيّد. والكنيسة وضعت ذاك المسار الإلهيّ لوالدة الإله كما للسّيّد، لأنّ والدة الإله هي نُطق السّيّد في البشريّة، وإعلان الله في البشريّة بأنّها (أي البشريّة) ستَخْلُص بولادتها الرّبَّ يسوع المسيح، كما ولدت والدةُ الإله ابنها بالرّوح القدس. أعياد والدة الإله متراصّة ومتكرّرة مع أعياد الرّبّ يسوع، لأنّ والدة الإله والرّبّ يسوع صارا واحدًا بالرّوح القدس، إذ هي حملته في أحشائها، وقبلت الإعلان الإلهيّ، وهو انغرز في لحمها ودمها، وشرب دمها، وأكل من روحها، وتغذّى من الغذاء الإلهيّ، من كلمة الله، من الملاك جبرائيل، من الرّوح القدس. إذًا، والدة الإله والرّبّ يسوع المسيح تماهيا وصارا واحدًا، كما نعرف الوحدة المتمايزة، الأقنوميّة، الّتي لا تتجزّأ، إنّما هي منفصلة، وحاملة في كيانها الكلّ في الكلّ.

هذا هو التّاريخ المُعلَن بإصبع الله، الّذي كان لوالدة الإله، والّذي كان ليوحنّا الحبيب، والّذي يكون لكلّ مَن يطلب النّعمة في الملء. والنّعمة معطاة لكلّ مَن يقرع باب قلب الله، ويقول له: "أعطني نعمتك، أعطني خلاصك، أعطني حبّك، أعطني روحك، نفَسك، جسدك، دمك، أعطني ذاتك"!... لكنّ هذا يفترض منّا حبًّا كبيرًا، وتسليمًا كلّيًّا للكلمة، والمشيئة الإلهيّة. وهنا، تعجز الكلمات عن الإفصاح! لماذا يعطي الله لتلميذ، ولا يعطي لآخر؟! وأنا أتكلّم، هنا، على مَن يريد أن يكون تلميذًا لله، على عبيد الله، على أبناء الله، على الّذين خافوا الحياة، وقبضوا على الرّوح، ولم يفلتوه لا من قلوبهم، ولا من عقولهم، ولا من نفوسهم، ولا من أجسادهم، ولا من أيديهم.

كيف كانت نشأة يوحنّا الحبيب؟! من المؤكّد أنّه نشأ على تربية روحيّة إلهيّة. يوحنّا الحبيب كان ابنًا لأب وأمّ كانا يخافان الله، وقد عرفا الله، وقبضا على ذاك الرّوح؛ حتّى لا "يهرب" منهما. والرّوح هو خوف، هو حسّ بالخوف، وحسّ باليقظة، وحسّ بالمعرفة، ومعرفة بأنّنا كتلة تخاف، وتحبّ، وتتيقّظ، وتنتظر، وتصبر على إعلانات الله لها، في الفرح وفي الدّموع والحزن، في العطاء وفي الإحجام، في المرض وفي الصّحّة، في غلس القلب وفي هدأة اللّيل والانتظار. عندما يعي الإنسان هذا الواقع، ويسمع بالّذي لا يُسمَع به، بالآتي، وينتظر، ويتحقّق أنّه يتكلّم في أحشائه؛ يقبض على تلك الكلمة، ويربّي أولاده على ما أُعطي من وجود إلهيّ في حياته، بالكتب والشّريعة والتّقليد؛ فينجرف بكلّيّته،

ينجذب بكلّيّته إلى الكلمة الإلهيّة المعطاة له. والله لم يترك البشريّة، يومًا، من دون كلمته. وإذ يقبض الإنسان على تلك الكلمة، يُسْكنها في منزله، ويربّي أولاده عليها. هكذا، ينمو الأولاد بالخشية، والانتظار، والحبّ، واللّهف، والسّكون، والصّمت، والسّماع. كلّ كيانهم "يَتَبَوْتَق" حول السّماع، حول السّرّ المخبوء في أحشائهم، وهم يعرفون أنّه سرّ لا يُلمَس، ولا يُقبَض عليه. هكذا، ينمو الأطفال، في بيوت أهلهم المؤمنين، على الحبّ، والكلمة، والرّجاء، منتظرين الإعلانَ الإلهيّ. وكلّ هذا يزيّنهم بالفضائل المتوارثة. وبانتظارهم ذلك الإعلان الإلهيّ، يرون تَفَتُّق أجسادهم، وأفكارهم، وعقولهم، وقلوبهم، ونفوسهم عن خطايا، صغيرة أو كبيرة. يرون أنّهم ليسوا على وحدة، فهم مقبوض عليهم، ومفكّكون. وإذ يعرفون أنّهم مفكّكون، يسجدون، ويبكون، قائلين: "أين أنت، يا ربّ؟! خلاصك، يا ربّ، أعطنا! ضُمّنا إليكّ، فنحن لك! اجمعنا وحدة لا تتفكّك بك وفيك!". هنا أيضًا، يكون دور الأهل كبيرًا جدًّا في التّربية؛ فإمّا يطلقون الأولاد خارجًا، خارج بيت أنفسهم، إلى العالم، ويعرّضونهم لأهواء العالم، وعلم العالم، وثقافة العالم، وخطيئة العالم، وكبرياء العالم، وتناطح العالم، وكره العالم، وحقد العالم، وشكّ العالم، وعبادة العالم للمال والسّلطة، كما رأينا في وجوه التّلاميذ والرّسل؛ أو يُبقون على أولادهم في أحضان الإله! يعلّمونهم الكلمة الإلهيّة، والسّرّ الإلهيّ، والبساطة، والحبّ، والانتظار. هذا ما كان عليه، وما تعلّمه يوحنّا الحبيب؛ فبدلًا من أن تنمو طاقاته الخارجيّة، وتخرج عن قلبه ومن قلبه، وتتفتّت، ويتفتّت كيانه الدّاخليّ؛ جُمِعَ يوحنّا بعقله، ونفسه، وفكره، وجسده، وأحشائه، في قلبه؛ فتمحورت كلّ الطّاقات في كيانه، في سُدّة القلب ذاك. "يا بنيّ، أعطني قلبك" (أم٢٣: ٢٦). والرّبّ قال: "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ ذهنك، ومن كلّ فكرك، ومن كلّ كيانك" (متّى ٢٢: ٣٧).

إذًا، طاقة الإنسان هي قلبه. ينبوع الحياة فيه هو قلبه. هذا ما نعرفه، أيضًا، في الطّبّ، وفي العلم. حياة الإنسان هي قلبه. هكذا، شيئًا فشيئًا، غلسًا بعد غلس، ليلًا بعد ليل، يكبر القلب بالحبّ، ويصبح الإله هو سيّده، ويصمت الفكر، والشّكّ، ولا يعود هناك "كيف؟" أو "لماذا؟". والشّكّ هو "اللّاإله"، والّذي سمح به الله، لأنّ هذا ما أراده الإنسان يوم ساءَلَه (أي ساءل الله)، في الفردوس القديم والجديد: "لماذا معرفتي أقلّ من

معرفتك؟! ولماذا أنت إلهي وسيّدي؟! ولماذا أنا لستُ إلهًا وسيّدًا مثلك؟!"... نحن أوتينا الشّكّ بسبب إرادتنا ومشيئتنا. وفي إنجيل الإيوثينا، اليوم، أتى الرّبّ، بعد قيامته من بين الأموات، وقال لسمعان بطرس: "يا سمعان بن يونا، أتحبّني أكثر من هؤلاء؟!"، فقال له سمعان: "نعم، يا ربّ، أنت تعلم أنّي أودّك". فقال له: "إرعَ حملاني"! ثمّ كرّر السّؤال مرّتين، فحزن بطرس لأنّ الرّبّ سأله ثلاثًا. والرّبّ كان يعرف أنّ بطرس سيجحده. وعندما قال له: "اِرع خرافي"، وأخبره بأيّة ميتة كان مزمعًا أن يمجّد الله، قال له: "اتبعني". فنظر بطرس من حوله ليرى ما إذا كان الله قد دعا آخر غيره، وذلك بسبب حسده، فرأى الحبيب يوحنّا؛ فقال للرّبّ: "يا ربّ، ما لهذا؟! لماذا يتبعنا هذا الحبيب؟!"، هذا لأنّه لم يحبّ يوحنّا كفاية. فقال له الرّبّ: "ما لك؟! أنت اتبعني" (يو٢١: ١٤- ٢٥).

والآن، أودّ أن أقترب من يوحنّا الحبيب. في إنجيل اليوم، وَصَفَ يوحنّا الحبيب نفسَه قائلًا: "فلمّا رأى يسوعُ أمَّه والتّلميذَ الّذي كان هو يحبّه واقفًا، قال لأمّه: يا امرأة، هوذا ابنك" (يو١٩: ٢٦). هذا النُّطقُ لم يُعطَ إلّا ليوحنّا، لأنّه أحبّ الله. منذ طفوليّته، نشأ على حبّ الله، وحافظ عليه، ولم يحبّ آخر سواه. لقد انغرز الله في قلبه وفي أحشائه؛ فأبقى عليه، كما حافظت العذراء على نعمة الرّوح القدس في ملئها، في أحشائها، وصمتت عن نفسها، ولم نجدها، ولم نسمعها! هكذا أيضًا يوحنّا؛ فنحن نعرف أنّه كان التّلميذَ الحبيب، وكان الأصغر بين التّلامذة، والأكثر حبًّا وحنانًا ورقّة، كما كان متعلّقًا بسيّده وحبيبه وإلهه، وهو الّذي جلس عنده ومعه، وجُذب إليه بقلب الله، بالحبّ الّذي في قلب الله، والّذي كان في قلبه هو، من الله، وسكن بقرب إلهه وسيّده وحبيبه. لم ينطق، ولم يسأل، ولم يشكّ! ما كان عنده أيّ شيء من الأهواء، إلّا دفينًا وميتًا في نفسه. الأهواء كلّها كانت موجودة فيه، لكنّها كلّها كانت صامتة! كلّ شيء تمحور حول "تكلّم، يا رب، فإنّ عبدك يسمع" (١صم٣: ٩)، وقال له: "آمين"، بكلّ كيانه. "نعم، يا ربّ، أنت هو الإله، وأنا هو الّذي أردتَ أن تصيّره التّلميذ الحبيب، لأنّني حافظتُ على الأمانة. أنت أعطيتني ذاك الحبّ، وأنا حافظت على هذه الأمانة، وحفظتُك، كاملًا كلّيًّا، في قلبي، ونفسي، وجسدي، وكياني، وعقلي، وفكري، وسرّي. جاهدت لئلّا أثلمك، ولا أجرحك! هكذا، صيّرتني حبيبًا لك؛ لأنّني حافظت عليك،

في قلبي، كاملًا بكلّيّة الحبّ الّذي أعطيتنيه"... لماذا وضع يوحنّا رأسه على صدر السّيّد؟! ولماذا قال، في إنجيله، عن نفسه إنّه هو ذاك التّلميذ الّذي كان الله يحبّه؟! هل ادّعى ذلك؟! هل كتب عن نفسه؟! نعم، لقد كتب هذا عن نفسه، بالرّوح القدس؛ لأنّه عرف هذا في قلبه؛ ولأنّ الله أعطاه تلك الكلمة. يوحنّا أحبّ كثيرًا، حتّى صار هو والمسيح واحدًا! أحبّ حتّى صار المسيحَ! نعم، هو صار المسيحَ. "أنتم آلهة وأبناء الله تُدعون" (يو١٠: ٣٤؛ متّى:٥: ٩؛ غلا٣: ٢٦)! هكذا يريدنا الله. لذا، قال: "أنتم مسحاء"، "أنتم آلهة". إذًا، لا عجب، ولا غرابة، ولا تكبّر، ولا افتعال؛ إذا أحببنا بالكلّيّة، بالملء، وما شككنا، وما تساءلنا، وما طلبنا أيّ شيء لأنفسنا؛ لأنّنا نعرف، بالقلب، أنّه هو يعطينا كلّ شيء، وأنّه هو يحبّنا أكثر من ذاته، لأنّنا نحن ذاته!

لقد صرنا نحن إيّاه؛ فهو يتمازج معنا، ذاتًا بذات، وذاتًا من ذات. هو يعطينا، ونحن نأخذ منه، ونعطيه حبّنا. يُسائلنا الحبّ، ونحن نجيبه حبًّا بحبّ؛ فنصير وإيّاه واحدًا. هكذا كان يوحنّا الّذي لم يطلب أيّ شيء. فقط، هدأ بكلّيّته على قلب السّيّد، على صدره، في حضنه، تحت صليبه، وأخذ أمّه إليه؛ لأنّه صار وإيّاها واحدًا، كما هو والمسيح السّيّد الكلمة المصلوب واحد، وصاروا معًا ثالوثَ حبّ. والله أنطقه، بعد أن صعد إلى السّماء! النّور أَنطَقَه ألوهتَه؛ فأعطانا إيّاها إنجيلًا، ورسائل، ورؤيا! مَن يتجرّأ على لمس قدمي السّيّد، يتجرّأ على قراءة يوحنّا، وعلى الصّلاة وطلب شفاعة والدة الإله. ولكن، الله يريدنا أن نخلص، يريدنا أن نتجرّأ، يريدنا أن نضع شفاهنا ونستقي من الينبوع. لذلك، حمل الجمرة، وطهّر بها الشّفتين، وقال لإشعياء: "اذهب وانطق" (إش٦: ٦- ٩). وهذه النّار، الّتي يطهّرنا الله بها، هي التّجارب. فَمَن يحبّ الله، يحبّ تجاربه، ويقبلها، ويُنيخ الرّأس عند تجربته*، ويشكر؛ لأنّ تلك التّجربة ستطهّره، شيئًا فشيئًا، من دنس الخطيئة الّتي ورثها عن أمّه، وعن أبيه، وعن أجداده وأسلافه، وعن آدم وسقطته. هذا هو الحبّ الّذي يطلبه الله: أن نكون حاملين ملء حبّه، والمعرفة بأنّنا نحن هو. ولكن، علينا أن نتطهّر من كلّ ما ورثناه، حتّى يأتي بنا إليه، ويُقيمنا معه إلى حياة أبديّة، إلى النّور، إلى الجلوس عن يمين الآب. يوحنّا لم يطلب شيئًا، بل صمت عن ذاته، وعن مواتيّته، وعن جسده،

---

* أناخ رأسه عند التّجربة: بمعنى أنّه هيّأ نفسه لتقبّل التّجربة واحتمالها بشكر.

ونفسه، وفكره، وروحه، وعقله. فقط، أحيا القلب، وقال: "يا ربّ، أنطقني حياة". هكذا، أنطقه الله حبًّا له، وحياة، وكلمة؛ ليتمجّد اسم الرّبّ القدّوس إلى الأجيال، وحتّى المجيء الثّاني.

ونحن، في عيد يوحنّا، اليوم، إن أردنا أن نصبح "يوحنّائيّين"، مثل ذاك التّلميذ الحبيب، الّذي وضع فيه اللهُ ملءَ حبّه، كما وضعه في والدته – والله عندما يعطي الحبّ، فإنّه يعطي الملء، ولا يعطي جزءًا من ذاته، ولا شيئًا من ذاته، بل يعطي ذاته بالكلّيّة. ولكن، عندما تظهر تلك الذّات في أحد منّا، إنّما تظهر كما نحن نريد. نحن نُظهر الله كما نحن نريد، نُشعّ الله كما نحن نريد، نقتطع منه أجزاء، نتفًا نتفًا، ونُظهرها – إذًا، إن أردنا ذلك، فعلينا أن نُسكت عقولنا، وأذهاننا، وشرائعنا، وأنفسنا، وأجسادنا، ونُحيي القلب، ونحمله، ونقدّمه إلى الله قربانًا، يومًا فيومًا، صبحًا فصبحًا، غلسًا فغلسًا، ونركض بالحبّ، نخفيه حتّى لا يُلقى على قوارع الطّريق ويُداس! نصمت بالحب، كما صمتت والدة الإله وأخذت النّعمة، وكما صمت يوحنّا وأخذ النّعمة، وكما أحبّت حاملات الطّيب الله، فركض وراءه ليطيّبنه؛ لأنهنّ كنّ يعرفن أنّه هو، لا غضاضة* فيه، ولا اسوداد، ولا نتن، ولا موت.

هكذا، نحن نتخطّى الموت، ونتخطّى الجسد، ونتخطّى الأهواء، ونقبل التّجارب، ونفرح بها؛ لأنّها ستميت الشّكّ والحسد فينا، وحبّ الظّهور، والاستكبار، والأنانيّة، وعبادتنا لذواتنا، وعشقنا لأجسادنا وعقولنا. هكذا، سيظهر الله فينا "يوحنّائيًّا". هكذا، سيظهر الله فينا والديًّا، "مريميًّا". هكذا، سيظهر الله فينا "يسوعيًّا مسيحيًّا"، بالحبّ، والحنان، والقبول، وبـ"أبي أعظم منّي" (يو١٤: ٢٨)، وبـ"لتكن مشيئتك" (متّى٢٦: ٤٢). هذا هو الإخلاء الكامل للـ"أنا": "لتكن مشيئتك، لا مشيئتي"، "أنت هو إلهي، أنت هو خالقي، جابلي، ربّي، سيّدي، ختني، حبيبي، أبي. وأنتِ هي أمّي، يا والدة الإله. تشفّعي فيّ، فأنت تعرفينني، لأنّني أنا منك وأنت منّي؛ فخذيني إليك، ومنك إلى ابنك".

هكذا، ضمّ يوحنّا والدة الإله إليه؛ فصار ابنها، كما أنّ السّيّد ابنها، وصارا واحدًا في المسيح؛ فنقلهما المسيح إلى يمين الآب. هذا هو فعل البشريّة، وهذا ما علينا أن نفعله:

---

* الغضاضة: ج. غضائض: الذّلّة والمنقصة.

الرّكعة الكاملة الكلّيّة قدّام الله، والقول: "تكلّم، يا ربّ، فإنّ عبدك يسمع" (١صم٣: ٩). "كيف لي هذا؟!" (لو١: ٣٤)، "لتكن مشيئتك لا مشيئتي" (متّى٢٦: ٤٢)، "هأنذا عبد لك، فحمّلني كلمتك، عمّدني بحبّك، أنطقني حنانك، أهّلني لأن أصير لك خادمًا، ابنًا، ذاتًا... المسني، يا ربّ، فأنا لا كلمة عندي، ولا نطق، ولا معرفة، بل سرّ: فأهّلني لأن أصير سرًّا، أهّلني لأن أصير نُطْقًا منك، أهّلني لأن أصير أنا نُطْقك، سرّك، حبَّك، حنانَك، لكلّ مَن حولي!"... هذا هو التّلميذ الحبيب الشّاهد بهذه الأمور، والنّاطق بها، والكاتب لها. هكذا قال الرّبّ، وهكذا نصير نحن، فنقول مع الرّبّ: "كلّ شيء قد دُفع إليّ من أبي، وليس أحد يعرف الابن إلّا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلّا الابن، ومَن أراد الابن أن يكشف له" (متّى١١: ٢٧). "تعالوا إليّ، يا جميع المتعبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم" (متّى١١: ٢٨).

هكذا، نأتي، اليوم، في عيد يوحنّا الحبيب، وفي نصف الخمسين، بعد القيامة، ونحن ننتظر حلولَ الرّوح القدس علينا، وعلى الجماعة، وعلى الكنيسة، وعلى الكون أجمع، في العنصرة، قائلين: "أَرِحنا، يا ربّ، بالحبّ والحنان، بيوحنّا، وبوالدتك العذراء مريم؛ لنمجّد اسمك القدّوس، من الآن وإلى دهر الدّاهرين، هاتفين: المسيح قام".

٨ أيّار ٢٠٠١

الحبّ المذبوح

(مر١٥: ٢٠- ٣٣)

نحن ذاهبون، اليوم، إلى الصّلب، مع الرّبّ يسوع المسيح، لكنّ الألم ليس جسديًّا فقط. أودّ، اليوم، أن أتكلّم على ألم روحيّ كابده السّيّد، في هذا الأسبوع، إشارة إلى ولديه: الابن الشّاطر، والابن الأكبر.

الأب قائم في منزله، وله ابنان. وقد ملأ البيتَ لهما من الحبّ، والأطياب، والخيرات، والخدم، والأملاك، والقطعان... وأعطاهم كلّ ما يملك. زرعهما في حديقة قلبه، وقطّرهما بكلّ الخيرات الأرضيّة. وكبر الابنان، ووعيا ما في داخلهما من نزعة، من دون أن يدركا أنّ هذه الحركة ليست من أبيهما؛ فالأصغر، استجابةً لنداء جسده وغريزته وحسّه، خرج من أبيه، خرج من قلب أبيه، خرج على حبّ أبيه، وقال له: "أشتهي الحرّيّة دونك"! طلب أملاكه وأمواله، وارتحل، ذاهبًا إلى أرض غريبة (لو١٥: ١٢- ١٣).

هذا هو فعل الإنسان الأوّل، في الفردوس، عندما سقط من مملكة الحبّ الإلهيّ، وأصبح لا يرضى بالزّرع الإلهيّ؛ ذهب ليقتات من الزّرع البشريّ، من أهوائه. شطر نفسه عن الحبّ، واقتسم معيشته. عندما يشطر الإنسان نفسه عن الحبّ، يطلب حصّته من المادّيّ، من الفاني! لكنّ الابن الأصغر لم يكن يعرف أنّ هذا كلّه فانٍ. أراد، بحسّه الجسدانيّ، أن يحصل على أكثر ممّا كان له؛ لأنّه لم يعِ أنّه، إذا اكتفى بالرّوحيّات، فلا يطلب الجسدانيّات. هذا هو الفرق بين الإنسان الرّوحانيّ والإنسان الجسدانيّ. خرج على أبيه ليبني مجدًا آخر لنفسه، بعيدًا عنه؛ فأيّ مجد بنى؟! وأي زرع زرع؟! وأيّة ثمار أكل؟! الفسق، والنّجاسة، والشّهوة، وموت الجسد... صرف كلّ معيشته على الزّواني، أي على نفسه الزّانية. صار، بماله، صاحب سلطة على الجسد فقط؛ فاشترى له زنى الآخرين.

هكذا، عبادة الجسد تختلط بعبادة المال، والآخر، والشّهوة، والزّنى؛ لأنّنا بالمال

نشتري الجسدانيّات، ونبتعد عن الرّوحيّات. إن كانت لنا الرّوحيّات، فلماذا نتوق إلى الجسدانيّات؟! الابن الشّاطر أفرغ ذاته من حبّ أبيه وروحه، وارتحل إلى داخل ذاته، الّتي كانت شهوةً، وجسدًا، ومأكلًا، ونجاسة... لكن، الأقسى من ذلك هو أنّ الابن الأصغر أصبح فارغًا من الرّوح، وصار يقتني المادّيّات، من شهوة جسديّة وتهتّك... وعندما فرغ من المال، افتقر، بغناه، إلى ما هو عنده! افتقر حتّى إلى المأكل! إلى اللّقمة، الّتي هي إشباع للفراغ الّذي في القلب والنّفس الفارغة من الرّوح. حتّى تلك اللّقمة أصبح لا يستطيع أن يأكلها؛ فقال، وهو في حاجة طبيعيّة: "أعود إلى أبي" (لو١٥: ١٨). ولأنّه كان قد وعى أنّه أخطأ، قال: "أقول له: أخطأت إلى السّماء وقدّامك، ولست مستحقًّا، بعد، أن أُدعى لك ابنًا؛ فاجعلني كأحد أجرائك" (لو١٥: ١٨- ١٩). شهوة الجسد دفعته، أوّلًا، خارج أبيه؛ ومن ثمّ هي نفسها، شهوة الجوع، أرجعته إليه، جعلته يحتال، كالطّفل، ويقول: "أقول له: أخطأت إلى السّماء وقدّامك، ولست مستحقًّا، بعد، أن أُدعى لك ابنًا؛ فاجعلني كأحد أجرائك"؛ لأنّه كان يعرف، وهو الابن، كيف أنّ الأب يحبّه؛ فاستخدم حبّه الّذي كان قد وضعه جانبًا، من قبل؛ فكانت هذه الحركة، في الانشطار والرّجوع، طبيعيّةً، أهوائيّةً، جسدانيّةً فقط... لكن، في قلب الابن الصّغير، كان هناك فتيلٌ مدخّن، نزعةُ حياة تنبض فيه، والحياة دائمًا تحرّك؛ فحرّكته خارجًا، لأنّه كان في السّقوط؛ وحرّكته عائدًا، فيما كان الأب جالسًا، في ألمه، يبكي رحيل ابنه، منتظرًا عودته بصمتٍ ورجاء.

نحن لا نعرف كم أنّ الحبّ وقسوة الابتعاد عن الحبّ تبكي الآب، وكذلك الأب! لقد جلس الأب، في قصره، ينتظر ابنه عائدًا إلى أحضانه، على أوتار قلبه ودموعه. لقد صيَّر ألمه جسرَ عبور بين السّقوط والفردوس، وانتظر! انتظر طويلًا، حتّى عاد ابنه. وعندما عاد، خرج لاستقباله من دون عتاب! وماذا هيّأ له؟! الحلّة الأولى، حلّة الإيمان والمعرفة. هذه هي الحياة، وهذا هو المصدر، الّذي منه خرج الابن الأصغر، وإليه عاد؛ فغطّاه بحلّة الإيمان والمعرفة، وألبسه، في إصبعه، خاتم الملك، علامة الحبّ! بهذا ملك الثّالوث، وبهذا ملك، في مَثل الابن الشّاطر، على أرضه، ومملكته، وولديه: بالحبّ. وعندما عاد إليه ابنه الأصغر قائلًا له: "أخطأت إلى السّماء وقدّامك، ولست مستحقًّا،

بعد، أن أُدعى لك ابنًا؛ فاجعلني كأحد أجرائك" (لو١٥: ١٨- ١٩)، عندما عاد إليه ابنه تائبًا، باكيًا، محترقًا، مشويًّا بنار الحياة؛ رطّبه بخاتم الحبّ والحنان، وأنعل قدميه بنعل السّلام، والعودة، وخفّة الحركة والانتقال، والرّكض في الفردوس، بدءًا ببدء، والعودة الجديدة. لكنّ المهمّ أنّه لم يعاتبه، ولم يسأله: "أين كنت؟!"؛ لأنّه أدرك أنّ ابنه عاد مغسولًا بآلامه، ودموعه، وفقره، وحرقته... عاد إلى حنان أبيه؛ فضمّه الأب إلى قلبه، من دون أن ينطق بكلمة؛ لأنّ الحبّ أقوى من التّعبير، والصّمت أفعل من الكلمة.

من هنا، نعبر إلى قفا الميداليّة، إلى الصّورة المظلمة المفزعة، صورة الابن الأكبر. النّاس، عادة، يدينون الابن الأصغر. هذا لأنّهم لا يعرفون الطّبيعة البشريّة. كلّنا نضلّ، ونسقط من حبّ الآب، ونغادر الفردوس الإلهيّ، ونعود بالدّموع والتّوبة. أمّا ذاك الابن الأكبر المسكين، الّذي لم يخرج على طاعة الأب، فقد بقي معه هناك، بلا حركة حياة، مملوءًا، داخليًّا، أفاعيَ، وحسدًا، ومرارة، وطمعًا، واستكبارًا، ولعنة... كلّ هذه أخرجها؛ ولكن، في وجه مَن؟! أفي وجه العدوّ؟! لا، بل في وجه أخيه الكائن وإيّاه في حضن الآب، الخارج وإيّاه من روح الآب، المجبول وإيّاه من دم الآب وجسده! أخرج حقده كلّه، بعد ما كان يُخفي كلّ ما عنده رياءً. الابن الأكبر كان بعيدًا كلّ البعد عن الحبّ؛ لذلك، أخطأ الخطيئة الكبرى؛ فيما الحبّ نجّى الابن الأصغر، الّذي أخرجه حبُّه للحياة على الحياة الحقّ، لأنّه كان لا يزال في الجسد، في وَلَهِ الشّباب، وأخذه بعيدًا. لكنّه عاد وأرجعه إلى حضن الآب. لذلك، هذا الابن الأصغر غُفرت له خطاياه؛ لأنّه، كالزّانية، أحبّ كثيرًا، و"حيث كثرت الخطيئة، ازدادت النّعمة جدًّا"(رو٥: ٢٠)، كما قال الرّسول بولس. هذا لا يعني أنّني أبشّركم بأن تخرجوا وتزنوا وتخطئوا. ولكن، كلّ منّا خرج على حبّ الآب، زانيًا، بحبّه الأرضيّات. إلّا أنّ هذا الحبّ عينه هو الّذي أرجعنا إلى الآب. هذه الطّاقة، الّتي لم تُستخدَم، بل بقيت مخبوءة في الدّاخل، هي الّتي خلّصت الابن الأصغر، وتخلّص كلّ الّذين يُخطئون. لذلك، قال الرّبّ لكلّ الّذين أرادوا أن يرجموا الزّانية، الّتي أتوا بها إليه: "مَن كان منكم بلا خطيئة، فليرمها، أوّلًا، بحجر" (يو٨: ٧). هؤلاء، كالابن الشّاطر، يمثّلون كلّ البشريّة السّاقطة، الّتي أتى الرّبّ يسوع ليرحمها بالحبّ الرّوحيّ الكامل. الرّبّ يأتي ويصطادنا بحبّنا الحقير، البسيط، الصّغير، المادّيّ. ولكن،

بالحبّ يُجتذَب الحبّ؛ فنخلص. أمّا الابن الأكبر، السّاكن في نجاساته، في ذاته، في أنانيّته؛ فهذا لم يخلص. على العكس، أخرج من نفسه كلّ الحقد، والحسد، والضّغينة، والنّميمة... في وجه أبيه وأخيه، أي في وجه ذاته. لقد نحر نفسه، وأماتها؛ فوقف الأب متوسّلًا إليه؛ لكي يعود إليه من صمته السّلبيّ، ومن وجوده الميت! ولكن، لا نعرف إن كان قد عاد.

إنجيل الابن الشّاطر، في الحقيقة، ليس هو إنجيل الابن الأصغر. إنّما هو، أوّلًا، إنجيل الابن الأكبر، الابن الّذي انشطر، وأقام في ذاته، ولم يعرف الحبّ، ولا الحنان، ولا حسّ الانتماء... لم يبكِ، ولم يتحرّك، بل كانَ صنمًا. وقد راح يعاتب أباه، ويدينه (لو١٥: ٢٩- ٣٠)! هذه هي المشكلة الكبرى. هذا ما يفعله بعض النّاس مع الله: "لماذا أفقرتنا؟! لماذا لم تعطنا؟! لماذا...؟!". هؤلاء هم النّجسون. والمشكلة أنّ النّجاسة كامنة في الابن الأكبر، فيما الخطيئة هي في الابن الأكبر وفي الابن الأصغر معًا. أمّا الألم الكبير، فيكمن في قلب الآب الّذي يقف باكيًا حبّه على البشريّة، وعلى بيته، وأبنائه الّذين لا يدرون ماذا يفعلون. في كلّ يوم، يصلبونه، وينحرونه، ويتحدّونه قائلين له: "إن كنت أنت [الآب]، فخلّص نفسك!"(لو٢٣: ٣٩).

إنجيل الابن الشّاطر هو إنجيل الحبّ المذبوح، واستمرار الحبّ المسفوح، وانتظار رجوع الأبناء، بالحبّ، إلى أبيهم. إنّه إنجيل هذه المسكونة الّتي قطعت نفسها عن الحبّ، وفي بعضها رجعت إليه، وفي بعضها الآخر ما زالت ترميه بالحجارة، متّهمةً إيّاه بالظّلم.

ألا أعطانا الله ألّا نُحزن أبانا؛ وأن نعود، على مثال الابن الأصغر، من حبّنا للأرضيّات إلى حبّنا للسّمويّات، ومن سكنانا في الظّلمة إلى انتظار ضياء وجهه، يستقبلنا ضامًّا إيّانا إلى صدره.

٢٨ شباط ١٩٩٧

* * *

خبز الحياة الأبديّة

(يو٦: ٤٨- ٥٤)
(أع٨: ٤٠، ٩: ١- ١٩)

الإنسان كلّه باطل، من رأسه حتّى أخمص قدميه. وكلّ ما يفعله ويقوله باطل هو. "باطل الأباطيل، الكلّ باطل وقبض الرّيح" (جا١: ٢، ١٤). كلّ ما في هذا الكون باطل. والرّبّ أكّد هذا الأمر بقوله للّذين آمنوا به، إذ إنّه لا يعطي سرّه للّذين لا يؤمنون به: "أنا هو خبز الحياة" (يو٦: ٤٨). الإنسان يحتاج إلى خبز لكي يحيا؛ فإمّا أن يأكل الخبز التّرابيّ الّذي يقوده إلى الموت، أو يأكل خبز الحياة الّذي يقوده إلى الخلاص.

الموضوع، إذًا، يكمن في كيفيّة تعاطينا خبزَ الحياة، نحن الّذين نتناوله، يومًا بعد يوم. هل غَيَّرَنا هذا الخبز؟! هل أقامنا من موت نفوسنا؟! من أنانيّاتنا؟! من عجنة الفساد؟!... حاملات الطّيب أتين ليطيّبن الفساد، حتّى لا ينتن، إذ هذا هو الجسد الّذي اعتاد عليه البشر: جسد مائت فانٍ. ونحن، طول هذا الأسبوع، ننذهل بإزاء فرح هؤلاء النّسوة، وغبطتهنّ، وجرأتهنّ، هنّ اللّواتي يتبعن مَن يحببن إلى القبر؛ ليطيّبن جسده حتّى لا ينتن، وكأنّهنّ يقلن: "نحن نملك الطّيب". لكنّ النّتيجة كانت أنّهنّ لم يجدن الجسد، ولم يطيّبنه، ولم يقدّمن شيئًا إلّا ذاك الاندفاع.

الجسد الإلهيّ، في الحقيقة، لا يُطيَّب، ولا يحتاج إلى طيب بشريّ؛ لأنّه هو الطّيب. هنا، يقول الرّبّ لحاملات الطّيب: "أنا هو الطّيب". واليوم، يقول لليهود: "أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنّ في البرّيّة وماتوا" (يو٦: ٤٨- ٤٩)؛ لأنّ كلّ أكل هذا العالم لا يغيّر الإنسان، ولا يُحييه، إنّما، فقط، يُطيل أيّامه ليموت، في النّهاية، و"يضربه" العفن، وتأكله حشرات الأرض!...

هذه حقيقة علينا أن نتذكّرها، اليوم، ونحن خارجون من الفصح إلى سيرة الحياة

الفصحيّة. كم منّا تغيّر، اليوم، بعد هذا الفصح؟! كم منّا قال، في الحقيقة، للرّبّ: "تعال واسكن فيّ، وأخرجني من ذاتي، ومن موتي، وأطعمني جسدك الّذي لا يموت"؟! أكثرنا سقط، بعد الفصح، في تعب الجسد، في القلق، في الألم... لقد عدنا نأكل كما كنّا نأكله سابقًا؛ وعادت الشّهوات، من حسد وعناد وغيرهما، إلى نفوسنا؛ وعاد الخوف، والغضب، وعدم المحبّة الّتي تظهر نتوءاتها هنا وهناك، صبحًا، ونهارًا، ومساء... لقد عدنا وزبطنا بهذه النّفس الشّقيّة، وعادت انفعالاتنا، ومخاوفنا، وعاد نتننا، وضيقنا من الآخرين... فأين نحن من الفصح؟! هل الفصح هو عيد المآكل والمشارب؟! هل هو عيد تبديل خُلَلٍ كهنوتيّة؟! هل جديدنا هو الاحتفال بالحلوى والبيض؟! هل هو أنغام موسيقيّة كنسيّة نفرح بتردادها؟! ما هو الفصح؟! الرّبّ يقول لنا: "أنا هو الفصح. كلوا جسدي، واشربوا دمي، وأنا أعطيكم الحياة الأبديّة". وها نحن نأكل جسد الرّبّ، ونشرب دمه، ولا نتغيّر! لماذا؟! لماذا لا نتغيّر، ونحن نعرف أنّه هو الحياة الأبديّة؟! هذا لأنّنا لم نفرغ ذواتنا من ذواتنا، بعد! هذا هو مغزى رسالة اليوم: "شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟!" (أع٩: ٤). كلّ واحد منّا، في الحقيقة، يضطهد الرّبّ، يوميًّا، في هذا الدّير؛ إن لم يحبّ، ولم يبذل نفسه، ولم يعط جسده ودمه خبز حياة، ولم يسامح، ولم يبكِ عن الآخرين ومن أجلهم، وإن لم يحمل الشّركة في أحشاء هذا القلب، وروحه، وحسّه... نحن لا نحيا من أجل الطّعام المائت، بل من أجل الطّعام الأبديّ، من أجل الحياة الّتي لا عودة منها. المطلوب هو فقط حركة صغيرة: أن تفرغوا ذواتكم، وتقولوا للآخر: "أنت هو صورة المسيح الّتي أرسلها إليّ الرّبّ...". عندما ننظر إلى الآخر هذه النّظرة، نتوقّف عن اضطهاد بعضنا بعضًا، ونقوى على الأحاسيس المناهضة، والأفكار السّلبيّة، والانفعالات الغضبيّة، وعدم المحبّة... كلّ مَن لا يريد أن يُشرك الآخرين في حبّه، لا يعرف الحبّ، ولا يريد أن يشترك في حبّ المسيح. لذلك، اليوم، علينا أن نبدأ بالخوف! علينا أن نفكّر: إلى أين نحن ذاهبون؟! أين هي أورشليم العلويّة؟! كيف تمرّ الأيّام من دون أن نتغيّر؟! ما الجميل، في ذواتنا، حتّى لا نتغيّر، بل نبقى متمسّكين به؟! أهو الموت؟! أم الغضب؟! أم الحسد؟! أم الأنانيّة؟! أم الأهواء؟! أم الدّنس؟! أم الجسدانيّة؟! أم القلق؟! أم الخوف؟!... ما الجيّد، في ذواتنا، حتّى نتمسّك به؟! لا شيء! باطل الأباطيل، الكلّ

باطل! هذه هي الحقيقة الوحيدة، الّتي منها يجب أن ننطلق، لنسمع ما قاله الرّبّ: "إن أكل أحد من هذا الخبز، يحيا إلى الأبد" (يو٦: ٥١). عندما نأكل هذا الخبز، الّذي يعطينا إيّاه الرّبّ، تبدأ مسيرة التّغيّر، ويبدأ الإنسان الجديد بالحياة، جنبًا إلى جنب، مع الإنسان العتيق.

رجائي ألّا تُميتوا المولود الجديد، الّذي هو خبز الحياة، جسد الرّبّ المقدّس الّذي يطعمنا إيّاه، ودمه الكريم الّذي يسقينا إيّاه. هذا هو مولود كلٍّ منكم، وهو هديّة لكم من الرّبّ. إنّه يمشي؛ والإنسانُ العتيقُ، إلى جانبه، يحاول جاهدًا أن يذوّبه. فقط هنا، يأتي الشّيطان ليقتل الإنسان الجديد، ليقتل كلّ برّ، وكلّ حبّ فينا للآخرين، وكلّ سلام. إنّه يناهضنا، لكي نستمرّ بكره الآخرين، والانزعاج منهم؛ فلا نحبّ محبّة حقيقيّة! هكذا فقط، يدخل فعل العدوّ إلى كلّ واحد منّا؛ لأنّه لا يريد أن نصير مسحاء، على شبه مسيحنا، كلّما تناولنا جسد المسيح ودمه المحييَن، إذ إنّنا بهما نصبح مسحاء بالنّعمة، والبذل، والعطاء، والحبّ... فنقول للآخرين: "خذوا كلوا هذا الجسد، واشربوا هذا الدّم والرّوح". بهما نبذل أجسادنا، ودماءنا، ونفوسنا، وقلوبنا، لكلّ مَن حولنا، ممّا أعطانا الرّبّ في هذه الحركة، في هذا اللّقاء؛ هكذا، يصير الآخرُ نحن ونحن الآخرَ؛ نصبح جسدًا مبذولًا مثل الجسد الإلهيّ، ودمًا مهراقًا مثل الدّم الإلهيّ؛ نصير خالين من "أنانا" وإنسانِنا العتيق، نصير عطاءً، ومحبّةً، وخدمةً لا تنزعج، ولا تتعب، ولا تضطرب؛ لأنّنا نكون قد أخذنا من العطاء، والحبّ، والضّياء الأكمل.

هذه هي الوصيّة والكلمة لنا، اليوم: "أنا خبز الحياة" (يو٦: ٤٨)! فلْنأكله لنحيا؛ ولْنُطعم من ذواتنا، لنُحيي الآخرين! طوبى للّذي يريد أن يأكل الخبز الأبديّ، ويصير خبزًا محييًا لكلّ مَن حوله.

١٦ أيّار ١٩٩٧

سرّ علاقتنا الشّخصيّة بالمسيح

(يو١٠: ١٧- ٢٨)

حكاية المسيح معنا حكاية شخصيّة. هذا ما لم يفهمه اليهود. لم يفهموا أنّ المسيح أتى من أجل كلّ شخص منّا، على حسب طاقته، وقامته، ومراده. لذلك، الرّبّ يسوع لم يكن يجيب عن الأسئلة العامّة. وعندما كان يتوجّه إلى الكتبة والفرّيسيّين، كان يكلّمهم على ذاته، فلا يصدّقونه. وعندما يتكلّم عليهم، يقولون عنه إنّه مجنون (يو١٠: ٢٠).

السّرّ هو أنّ المسيح لا يريدنا إلّا في علاقة شخصيّة به، لا يريدنا قطيعًا ننطق بكلمة واحدة، ورأي واحد، وفكر واحد. هذا دورنا على الأرض وفي الملكوت. أمّا على الأرض، فيريدنا شخصانيّين بعلاقتنا به. لذلك، كلّ الكلام العامّ، الّذي لا يمسّ القلب، لا يسمعه السّيّد. والقلب لا يُمَسّ إلّا بوجع الخطيئة. إذا ارتكبنا خطيئة، ننقلها إلى السّيّد؛ فيسمعنا. وإذا تبنا عنها، ينجّينا منها. ومن خلال تلك الحالة الشّخصيّة الّتي نحياها، أو تلك الخطيئة، يأتي المسيح ويسكن فينا، ويصير مسيحَ كلٍّ منّا، مسيحَ ضعفنا وخطيئتنا، بحسب قدرة كلّ شخص واستطاعته. إنّه مسيحي أنا كما أعرفه في ألمي، في بكائي اللّيليّ، في حزني الخاصّ، في أوهان عائلتي، في ضياع روحي، في استكباري، في أنانيّتي، في رجائي!... هذا هو مسيحي، وهذا ما أتى لأجله الرّبّ يسوع: أن يكون مسيحًا لكلّ واحد منّا شخصيًّا. والمسيح أعطى وصاياه متوافقةً وقدرة كلّ واحد منّا، لنأتي إليه بطاعة الوصيّة، على حسب قدرتنا، واستطاعتنا.

هذا هو سرّ خلاصنا الّذي لم يفهمه اليهود. لم يفهموا أنّ علينا أن نقيم علاقة شخصيّة بالرّبّ يسوع المسيح. ما يؤكّد ذلك أنّه، بعد قيامته، أتى شخصيًّا من أجل توما الرّسول؛ لأنّه لم يكن حاضرًا مع الرّسل، عندما ظهر لهم. وعندما عرف توما أنّ السّيّد أتى إليهم ليخلّصهم، وأعطاهم هديّة كبيرة، وهو لم يكن حاضرًا؛ ثار غاضبًا، ورفض أن يصدّقهم، لا لأنّه لم يكن يصدّق التّلاميذ، عادة، بل ليقول: "أنا أريد الرّبّ يسوع، وأريد أن أراه وألمسه شخصيًّا"؛ فأتى الرّبّ إليه شخصيًّا ليقول له: "المسني، يا توما" (يو٢٠: ٢٤- ٢٨)!

لقد عرّى جنبه المطعون، مرّة أخرى، لأجل حبيبه وابنه توما. والرّبّ، حين نشكّ فيه، يعرّي نفسه قدّامنا، ويرجونا قائلًا: "آمنوا! لا تخافوا، أنا معكم. صدّقوني، أنا سأشفيكم كلّكم! وإن صلّيتم للكون، فسأشفيه لأجلكم، أنتم أحبّائي". بهذه الدّالّة، نرى أيضًا ما صنع السّيّدُ بالمخلّع عند بركة حسدا، تلك البِركة، الّتي كان النّاس مزدحمين عندها، وهم ينتظرون أن يأتي ملاك الرّبّ، ويحرّك الماء حتّى يغتسلوا، لأجل شفائهم من أمراضهم. صارت المياه فيها لهم مجرى حياة، يجلسون عندها، ويتحادثون، ويتبادلون أخبارهم. هناك، كان مُضطجِعًا إنسان مخلّع منذ ثمانٍ وثلاثين سنة. هذا لم يساعده أحد على النّزول في البركة، متى تحرّك الماء، لكي يشفى من تخلّعه؛ لأنّ الجماعة كانت مهتمّة بنفسها؛ فأتى يسوع شخصيًّا إليه، وشفاه من مرضه (يو٥: ١- ١٥).

الرّبّ يسوع المسيح هو وحده الشّافي. لذلك، لا تنظروا إلى مصدر آخر للشّفاء. نحن نستخدم بعض العقاقير، لأنّنا ما زلنا في هذا الجسد، وفي حاجة إلى مادّة. لكن، إذا صلّينا، وأصبحنا أنقياء، بكلّ ما للكلمة من معنى؛ فبالنّسبة إلينا، يكون الرّبّ يسوع وحده هو الشّافي... هكذا، أتى الرّبّ يسوع إلى بيت حسدا، وجعل علاقته بذاك المخلّع شخصيّة، وسأله: ما بك، يا بنيّ ؟!

— أنا مخلّع منذ ثمانٍ وثلاثين سنة.

— أتريد أن تُشفى، يا بنيّ، يا حبيبي ؟!

— ليس لي أحد يلقيني في الماء لأشفى، عندما يحرّكه الملاك.

— قم، أنا هو المسيح القائل لك: "قم، احمل سريرك وامشِ" (يو٥: ١- ١٥).

المشكلة ليست الشّفاء الجسديّ، بل الشّفاء الرّوحيّ. أعرف مخلّعين منتشرين في أقاصي الأرض، يبشّرون، ويرنّمون، ويصرخون بأهازيج النّصر والفرح... لقد غلبوا تخلّعهم الجسديّ. هؤلاء، في الحقيقة، ليسوا بمخلّعين! المخلّع هو الإنسان السّاكن في خطيئته، في دينونته للآخرين، في حقده، في عدم محبّته، في "أناه"... عندما يقوم الإنسان من تخلّعه، يتوقّف عن الاهتمام بمرضه. همّه الوحيد يصير أنّ "للرّبّ الأرض وكمالها" (مز٢٤: ١)، وهو من هذه الأرض، وللرّبّ الّذي جبله منها، والّذي أتاه، ويأتيه دومًا، ليقول له: "أتريد

أن تُشفى، يا بنيّ؟!". لقد أقام يسوع المخلّعَ، لأنّ هذا الأخير أراد أن يشفى.

على مدى أسبوع، كنّا نهذّ بخبر السّامريّة. مَن هي السّامريّة؟! إنّها كلّ واحد منّا. هي كلّ البشريّة الّتي خلقها الرّبّ، وما مشت على دربه، بل حادت عنه! لم تبقَ ملتصقة بمَن خلقها! انزاحت إلى آلهة أخرى، إلى رجال آخرين! سلكت بحسب أهواء جسدها؛ وزنت خمس مرّات؛ والّذي كان معها، حين التقت السّيّد، ليس برجلها (يو٤: ١٧- ١٨). مَن منّا لم يزنِ بالقلب، والفكر، والرّوح، والعقل، والإرادة؟! مَن منّا لم يبتعد عن الرّبّ يسوع خالقه، ولم يتركه؟! كلّنا خطئنا وأعوزنا مجد الرّبّ حتّى نشفى (رو٣: ٢٣). أصبح إيماننا بالملموس، بالمادّيّ فقط! لقد أتى السّيّد، وجعل بينه وبين تلك السّامريّة علاقة شخصيّة. لم يحدّثها لاهوتًا عامًّا عن موته وقيامته؛ فبعد القيامة، أصبح الحوار شخصيًّا. قال لها: "كان لك خمسة رجال، والّذي لك الآن ليس رجلك" (يو٤: ١٨). دخل الرّبّ إلى أعماق أعماقها، وكأنّه يقول لها: "هذه أنتِ، بكلّ خطاياك، وأنا أعرفك. لكنّني أحبّك، لأنّك ابنتي، وأنا خلقتك، وأريد خلاصك؛ فتعالَي إليّ لتخلصي". فأذاعت خبره بين السّامريّين. أخبرتهم أنّها خالطت المستحيل! هذا هو سرّ ما ذكرناه، اليوم، في علاقتنا الشّخصيّة بالرّبّ: أنّنا نذيع سرّ المستحيل في حياتنا.

فلْنجعل من المسيح حياة شخصانيّة؛ ولْنذِعْ به، في كلّ يوم، وكلّ ساعة؛ حتّى يتمجّد بنا، نحن أحبّاءه؛ فترتفع حياتنا من مستوى المأكول والمشروب إلى مستوى القداسة، الّتي هي معرفة يسوع، والتّعلّق بوجهه، يومًا بعد يوم: "نحن نراك، يا ربّ، فأنرنا بنورك"! فلْنسمّر أعينَنا على وجهه، وأفكارَنا على وصاياه، وأيديَنا وأرجلَنا على فعل برّه؛ عندها، نصبح أحبّته، وأصدقاءه، وأولاده. وإن خرج صوت من أحشائنا، يكون للتّمجيد والتّهليل؛ وإن سُمعت نبضة قلب، تكون للحبّ؛ وإن تمّ عمل، يكون للإبداع، باسم الرّبّ يسوع، وخدمةً لأحبّة الرّبّ يسوع. هكذا، تكون لنا حياة باسمه؛ فنُذيع به، ونكون أبناء له، ونعرفه، كما توما، وحاملات الطّيب، والمخلّع، والسّامريّة...

المسيح قام من بين الأموات، ووطئ الموت بالموت، ووهب الحياة للّذين في القبور، ولكلّ منّا أوّلًا.

٣٠ أيّار ١٩٩٧

الهذيذ باسم الرّبّ يسوع

(لو١١: ٢٣- ٢٦)

هناك روح نجس، والرّبّ يُقرّ بذلك، محذّرًا إيّانا. يبدأ إنجيل اليوم بالقول: "مَن ليس معي، فهو عليّ" (لو١١: ٢٣). هذا يعني أنّنا إمّا أن نكون مع الرّبّ، أو بعيدًا عنه. معه نكون في سلام، وحياة أبديّة، وفرح؛ وبعيدًا عنه نكون في اضطراب. معه نجمع، ونحبّ، ونأتي بكلّ النّاس إلى الملكوت؛ وبعيدًا عنه، نفرّق، ونكون فارغين من المحبّة، وهذا الأمر يأتي بنا إلى الشّيطان، ويأتي بالشّيطان إلينا...

اليوم، في عيد القدّيسة حنّة، يبدو هذا جليًّا؛ فقد قال الرّبّ، مرّة: "قولوا لإخوتي أن ينتظروني...". نحن إخوته، ووالدتنا هي والدة الإله، وجدّتنا هي حنّة القدّيسة. بهذه البساطة، جمعنا إليه؛ حتّى نسكن معه، ونحيا إلى جانبه، كما الإخوة يحيون ويسكنون في بيت واحد. لا تنتظروا على الأرض سعادة، فالرّبّ ابتُلي من أجل خطايانا على الأرض. لذلك، علينا أن نجاهد، ونبكي على خطايانا وخطايا الآخرين. علينا أن نمشي على الطّريق نفسها الّتي مشى هو عليها. هكذا، نكون إخوة للرّبّ، إذا جعلنا ذواتنا تتّحد به، وعشنا على رجاء القيامة في فرحنا وحزننا معًا.

لكن، كيف نطرد الشّياطين؟! هذا لا يحصل بأن نحيا معه فقط، بل بأن نذكر اسمه في كلّ حين: "ربّي يسوع المسيح، يا ابن الله، ارحمني، أنا الخاطئ". هكذا، في كلّ لحظة، يأتي المسيح ويسكن فينا؛ فيستحيل، إذ ذاك، اقتدار الشّرّير علينا. إن طردناه، فباسم الرّبّ يسوع نفعل؛ فلا تعود له سلطة علينا، ولا من مسكن فينا؛ لأنّ الرّوح القدس والرّوح الشّرّير لا يتساكنان معًا. هو يرحل، ونحن نكمل طريقنا، ونهذّ باسم الرّبّ يسوع، ونعمل أعماله. بهذا الإصرار، نحيا بالرّبّ، ونهذّ باسمه. وإن عاد الشّرّير، فإنّه يسمع اسم الرّبّ يسوع؛ فيهرب مباشرة...

هذه وصيّتي لكم، اليوم: أن تهذّوا باسم الرّبّ يسوع، كلّ حين؛ حتّى تصيروا

أحرارًا من أيّة سلبيّة، أو أيّ خوف؛ فيخرج الشّيطان منكم، ويسكن الرّبّ فيكم؛ فتكونون أبناء الله، وأحبّاءه؛ فتبتنون لكم الفردوس الأرضيّ، الّذي نتهيّأ به للحصول على الفردوس السّماويّ.

٢٥ تمّوز ١٩٩٧

الزّرع الإلهيّ

(متى ٢١: ١٨- ٢٢)

هناك نقطتان أريد أن ألفت النّظر إليهما، في إنجيل اليوم:

أوّلًا، هناك شجرة لعنها السّيّد، لأنّها لم تُخصب! أيبسها، قطعها، ألقاها في النّار، لا لأنّه كان جائعًا وأراد أن يأكل، ولا لأنّ فيه شهوة "البطن" – فهو كان يُقيت الجموع من فتات الخبز والسّمك – بل لأنّ الشّجرة لم تعطِ ثمرًا...

هذا درس مهمّ ومخوف، بالنّسبة إلى كلّ واحد منّا. كلمة الرّبّ تنزل من السّماء، لتخلق فينا أرضًا طيّبة، وبذارًا طيّبة، وثمارًا طيّبة. هذه غاية حياتنا: أن يخلقنا، فنعطيه نحن ثمرًا، ونعود إليه، في حركة ثلاثيّة: ننزل من قلبه، نحمله في هياكلنا، ثمّ نقدّم إليه ممّا أعطانا (الّتي لك ممّا لك نقدّمها لك). ليس لنا عمل آخر نعمله، أو فكر نفكّر فيه. كلّ حياتنا تتمحور حول الرّبّ الّذي أطلقنا من يده، وأنزلنا إلى الأرض؛ لنبثّ فيها اسمه، ونحمله، ونشهد له، ونعلّمه للآخرين... لنُذيع به، ونشهد بالكلمة، بالواقع، بالفعل، بالحياة، بالصّمت، بالمحبّة... ثمّ نعود إليه، بعد أن نكون قد بذرنا البذار، ونبتت كلّ ثمار الأرض؛ لتسبّح الرّبّ من خلالنا.

ثانيًا، تعجّب التّلاميذ كيف يبست التّينة من أصلها! في الحقيقة، عندما يتخلّى الله عنّا، عندما تغادرنا كلمته ونعمته؛ فإنّنا نذوي ونسقط. ليس من إنسان يقطع نفسه عن الله، بل اللهُ هو الّذي يقطعه عنه. نحن أدوات، ربّما نؤدّب، نعزل، نوفي نذورنا... ربّما نبتعد، أو نقرب... أمّا مَن يقطع الإنسانَ عن الله، فهو اللهُ نفسه؛ لأنّه لا يجد فيه ثمارًا! لا تَدَعوا اللهَ ينظر إليكم، ولا يرى ثماركم؛ حتّى لا يقطعكم! أثمروا حبًّا، صلاة، خدمة، طاعة، حياة في المسيح... فبهذه الثّمار تُطعمون البشريّة. لنا هذا في الصّلاة.

ما هي الصّلاة؟! إنّها نطفة الحبّ الّتي غرسها الرّبّ فينا، عندما خلقنا. والحبّ يتجلّى في ذكرنا اسم الله، في كلّ لحظة، في الكنيسة أو خارجها، في العمل، في النّوم: "ربّي يسوع

المسيح، ارحمني"... ثمّ نأتي ونمتلئ من نعمة الله تلك بالأسرار المقدّسة. هكذا، يكتمل فعل الله فينا، ونحن نكمّله بالخدمة، بالحبّ، بالطّاعة. ليس أحد يقول: "يا ربّ، يا ربّ" ويقدر أن يُغضب أخاه، أو يُحزنه، أو يُقلقه. إنّ نعمة الله تسكن فينا، لنثمر ثمارًا كثيرة، من حنان، وطاعة، وشهادة، وبذل...

هذه هي وصيّة الله، اليوم، لكلٍّ منّا. فإذا ما تعبنا، فلنصلِّ، والصّلاة ترفعنا إليه، تشدّنا إليه. بهذه الصّلاة والدّعاء يمكن أن تُثمر تينةُ أنفسنا غير المثمرة، وتنفجر من أحشاء أرضنا مياهُ الحياة الإلهيّة، والحبّ الباذل نفسه؛ فنتمكّن، حينئذٍ، من أن نزيل عنّا جبال أنفسنا، وتلك الصّخرة الّتي تجثو على صدورنا، وتخنق أفكارنا حتّى لا نصلّي. لا يخافنّ أحد منّا، بعد اليوم؛ لأنّنا لسنا تينة جرداء، بلا ثمر! نحن نعرف اسم الرّبّ، وباسمه نحيا، ونتهلّل، ونتعلّم الحبّ والطّاعة، وبه نصلّي، ولأجله نحيا. ألا أعطانا الله أن نكون أشجار تين مُثمِرةً زرعًا مباركًا إلهيًّا، من الآن وإلى الأبد.

١٨ آب ١٩٩٧

صليب الحياة

(يو١١: ٤٧- ٥٤)
(٢كو١١: ٥- ٢١)

صليب المسيح، الّذي سنعيّد له، غدًا، هو الصّليب الّذي فرضه الشّعب ورؤساء الكهنة على يسوع ليقتلوه؛ فحمل يسوع آلامهم، وأتى بها، طوعًا، إلى الصّليب. أمّا صليبنا نحن، فهو الألم الّذي يأتينا من أنفسنا ومن الآخرين. إنّه صليب هذه النّفس المريضة بأنانيّتها وأهوائها، لأنّها لا تريد أن تحبّ. وحين نرفض أن نحبّ، نقتل المسيح في قلوبنا وفي الآخرين؛ حين نرفض أن ننكسر، نصلب المسيح؛ حين نرفض أن ننفتح، نتآمر على المسيح، مع رؤساء الكهنة والفرّيسيّين، حتّى نصلبه! إنّنا نؤلم يسوع باستمرار، ونشترك مع أعدائه في صلبه. هذا هو عنوان إنجيل اليوم.

كذلك، يذكر الرّسول بولس، في رسالته، اليوم، أنّنا نأتي بثياب حملان ولسنا بحملان، نأتي بثياب الكهنة ولسنا بكهنة، نأتي بثياب الصّلاح ولسنا بصالحين... هذه هي الحقيقة، فماذا نفعل بإزائها؟! كلّ العالم يتآمر على المسيح! كلّ المخلوقات الّتي ولدت من بطن حوّاء القديمة تهلك المسيح، يوميًّا؛ فماذا نفعل؟! نحن الّذين جمَعَنا المسيحُ حوله بكلمته، بإنجيله، ماذا علينا أن نفعل؟! أنسلم سيّدنا، يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، ولحظة بعد لحظة؟! نحن نقول إنّنا لم نقتل المسيح ولم نصلبه، بل آخرون هم الّذين فعلوا هذا. لكنّنا، في الحقيقة، نصلبه، في كلّ لحظة، إذ إنّنا لا نحبّ الآخر، ولا ننكسر قدّامه، ولا نصلّي للعالم أجمع، وليست نفوسنا نقيّة وطاهرة، ولسنا بخورًا يعطّر الأرض برائحة شذيّة!... أين الثّمن الّذي ندفعه عن المسيح؟! رؤساء الكهنة واليهود أسلموا المسيح، يوم تجسّد بينهم. أمّا نحن، فالمسيح معنا، وفيما بيننا، وهو حاملنا، ومعطينا النّورَ، والحياةَ، والحبَّ، والصّحةَ، والمأكلَ، والمشربَ... وعلى الرّغم من ذلك، فإنّه لا يزال مطعونًا، ومتألّمًا، وعطشانًا!... لماذا؟! هو لا يزال معلّقًا على الصّليب، لماذا؟! لأنّنا خونة، ولا نحبّه، ولا ننكسر، ولم نحتضن دماءه النّازلة منه، ولم نشرب المياه القاطرة من جنبه!...

لأنّنا لم نُنزله عن الصّليب، كما أنزله يوسف الرّاميّ، ولم نحمل معه الصّليب لمّا حمله... لأنّنا ما زلنا نُشهر سهامنا ونطعنه بها، يومًا بعد يوم! كيف نفعل ذلك؟! إذا وُجّه إلينا الكلام، نستنكر قائلين: "هذا غير صحيح، فنحن نخدمه في أدياره، وكنائسه، ومجتمعه"... ولكن، لماذا لا يزال المسيح مطعونًا ومصلوبًا، إذا كان الأمر كذلك؟! لماذا لم يأتِ، بعد، في مجيئه الثّاني؟! لماذا لم يفتدِ هذا الكون، بعد؟!... في الحقيقة، المسيح لم يأتِ، بعد، لأنّنا ما زلنا على عتاقاتنا، ولمّا نحملِ الآخرين دموعًا في أعيننا! لأنّنا ما زلنا نتقاتل: مَن يصنع هذا؟! لماذا أخي يفعل ذلك؟! لماذا أختي تتقدّمني، ولست أنا المسؤولة؟! لماذا...؟! لماذا...؟! أحد منّا لم ينكسر، بعد، ولم ينحنِ عند قدمي الآخر ليقبّلهما، ويغسلهما بدموعه! المسيح لم يأتِ، بعد، لأنّنا لم نُصلَب على صليب الآخرين، ولم نَمُتْ عنهم، ولأنّ "أنانا" العتيقة ما زالت تصلبهم، وتُميتهم، وتعذّبهم...

أتعرفون أنّنا عندما نُغضب أخانا أو نجرحه، إنّما نجرح المسيح؛ فينعصر ألمًا، ويبكي هو أيضًا؟! المسيح، وهو على صليبه، صرخ قائلًا: "أنا عطشان"؛ فما الّذي أسرعنا لنسقيه إيّاه؟! ماذا قدّمنا إليه على القصبة؟! إسفنجة مملوءة خلًّا! هذه هي تقدمة البشريّة للمسيح! لم نقدّم إليه دمعًا، ولم نصرخ قائلين له: "سامحنا، يا ألله، لأنّنا علّقناك بضعفنا؛ لكنّنا ندمنا، واستيقظنا، ونريد أن نسقيك حبّنا، ودماءنا، ودمعنا"!... بدلًا من ذلك، سقيناه خلًّا! لقد نزل من حضن الآب ليخلّصنا، وتجسّد بيننا، آخذًا هيئتنا ومثالنا؛ فيما نحن، حتّى اليوم، لم نأخذ هيئته ومثاله، بعد؛ فلو فعلنا هذا، لَكنّا لا نستطيع إلّا أن نبكي أخانا، ونطعم الفقير، ونحبّ أعداءنا، ونصلّي لأجلهم... لو أخذنا هيئة المسيح، لَما كنّا نتقاتل، ونغضب، ونحسد، وننزوي متقوقعين على ذواتنا... ولَكنّا قاتلنا أنفسنا، والشّياطين في أنفسنا؛ لأنّنا متكبّرون، إذ إنّ الشّيطان لا يأتينا إذا كنّا ودعاء، بل يأتينا ثمرةَ تكبّرنا... إنّه يحاربنا لأنّنا منه... لو كنّا ملائكة متّضعين، لَكان العدوّ هرب منّا. في بستان الرّهبان، قال الشّيطان لأحد الإخوة المُسمّى يوسف: "لقد هزمتني بتواضعك، يا يوسف؛ فأنا ذاهب عنك"! إذا كان التّواضع يهزم الشّياطين، فهو يُفرح قلب الملائكة والله.

الصّليب هو الألم المغروز في أجسادنا، ونفوسنا، وعقولنا، وذواتنا بكلّيّتها. ألم الصّليب هو ألمُ الموتِ عن النّفس. والموتُ مؤلم، لكنّه هو الألم المحيي والمخلّص. نحن لا

نعرف الصّليب، إذا استمررنا بقتل الآخرين وصلبهم! بل نعرف الصّليب، صليب المسيح، فقط إذا ارتضينا أن نُصلَب، مثله، عن إخوتنا، وعن العالم أجمع. لذلك، صار الصّليب علامةَ الحياة للخلاص، بعد أن كان علامةَ اللّعنة.

صليب المسيح هو علامة الموت لأجل الحياة. عندما نصلب أنفسنا لأجل الآخر؛ إذ ذاك، نعرف المسيح. الصّليب ليس كلمة، بل هو فعل حياتيّ يسكن فينا ونسكن فيه، عندما نخرج من أنفسنا نحو الآخرين، ونصلبها لأجل فرح الآخرين... هذا هو صليب المسيح، هذا هو الألم المحيي الّذي علينا، يوميًّا، أن نقتبله في قانوننا؛ في وِقفتنا؛ في عملنا، خارج الكنيسة، مع الآخرين... هذا هو الصّليب الّذي يُخرج من أعيننا دموعًا لأجل خلاص العالم.

أمر مؤلم ألّا نحبّ المسيح، ونبذل أنفسنا وحياتنا عنه، هو الّذي بذل نفسه لأجلنا ولأجل العالم! مؤلم أن نقول إنّنا مسيحيّون، ونحن لا نصلب أنفسنا عن الآخرين! مؤلم أن نصلّي يوميًّا، ولا نريد أن نلبس ثياب المسيح، وآلامه، وعذاباته، في قلوبنا! مؤلم أن نقتل المسيح، يوميًّا، بعدم حبّنا، وعدم اتّضاعنا، وعدم مسكنتنا!...

في وداع ميلاد والدة الإله، اليوم، واقتبالنا الصّليب؛ فلنرمِ بأنفسنا عند قدمي والدة الإله، ونسلم ذواتنا إليها قائلين: "يا والدة الإله، يا أمّ الكون، يا حبيبة الإله، احملينا، وقدّمينا قربانًا تحت صليب إلهنا؛ لكي نخلص، ونحيا به مع كلّ شعوب الأرض المؤمنين به، من الآن وإلى أبد الآبدين.

١٢ أيلول ١٩٩٧

علامة الشّفاء

(لو٤: ٣٨- ٤٤)

اللّافت، في إنجيل اليوم، أنّ الرّبّ يسوع ينتهر الشّياطينَ، ولا يدعهم ينطقون، عندما يقولون إنّه ابن الله. ولكن، الحقيقة هي أنّه ابن الله. فلماذا ينتهرهم، عندما يعلنون ذلك؟!

عادة، كلّ شهادة ينطق بها شاهد زور لا تكون شهادة حقّة. وقد جرت العادة، منذ القديم وحتّى الآن، أن يتمّ اختيار الشّهود من عليّة القوم، لا لأنّهم ذوو أموال وسلطة، بل لمعرفتهم الحقيقةَ.

هناك مَن قال إنّ يسوع انتهر الشّياطين، لأنّه لا يريد أن يعرفه النّاس. لكنّ هذا التّعليل ضعيف، لأنّ يسوع صنع العجائب، وشفى المرضى. إذًا، لماذا ينتهر الشّياطين، عندما يقولون إنّه ابن الله؟! هذا، بالضّبط، لأنّ الشّيطان كان يقول عنه إنّه ابن الله، وفي الوقت نفسه، يعذّب السّاكنَ فيه. لو كان الشّيطان مُحِبًّا، وعارفًا أنّ الله وحده هو الشّافي، وهو الخلاص والمخلّص؛ لكان ألقى في نفوس النّاس معرفةَ هذا الخلاص، وبثّ فيهم سلامًا، وأرسلهم إلى الله ليعرفوا خلاصهم، ويسكنوا فيه. لكنّه لم يفعل ذلك. لهذا السّبب، عندما يسكن إنسانًا، يحجب عنه الرّؤية السّليمة، والمعرفة الحقّانيّة، والسّير في طريق المسيح.

كلّ مَن لا يتبع المسيح، كلّ مَن ينكر المسيح، كلّ مَن يرى النّور ولا يقول إنّه النّور الوحيد الحقيقيّ؛ يكون مسكونًا بالشّياطين. عندما يُعلن الشّيطان أنّ المسيح هو ابن الله، يرحل مباشرة من الإنسان، إذ لا خِلطة بين النّور والظّلمة. في كلّ مرّة كان يسوع يطرد الشّياطين، كانوا يعترفون بأنّه ابن الله، ويذهبون إلى الخنازير؛ بينما يسكن النّاس، الّذين خرج منهم الشّياطين، في صمت، وهدوء، وسلام؛ ويجلسون عند أقدام السّيّد، يسمعون كلمته. كلّ مَن به شيطان لا يسمع الكلمة، بل يبقى غاضبًا وثائرًا دائمًا،

لأنّ الشّيطان يحرمه من السّلام والهدوء. أمّا المسيح، فهو الهدأة، والسّلام، والدّعة. به نكون في حالة حبّ وسلام تجاه كلّ مَن حولنا. وإن اضطربت طبيعتنا، طبيعة السّقوط، فهو يقيمها إلى السّلام، وإلى فرحٍ وحبٍّ جديدَين، ومعرفةٍ، وميلٍ نحو الآخرين، ودمعةٍ على ما مضى، وما فعلنا من سوء، وما لم نفعله حبًّا بالآخرين... نحن نحيا بالمسيح، وكذلك بالأعمال. هذا واضح في الإنجيل، حين يقول الرّبّ: "يقولون لي: يا ربّ، يا ربّ، ولا يعملون أعمالي". هؤلاء لا يُدخلهم المسيح إلى خدره.

الشّيطان يعرف المسيح، لكنّه يؤذي الّذين يسكن فيهم ويسكنون معه. لذلك، المعرفة ليست كافية. نحن نقول إنّ الله واحد أحد، وإنّ المسيح هو كلمته، ونحن نعرفه بالرّوح القدس. ومع ذلك، نبقى على عتاقتنا، وأفعالنا القبيحة، وفي سقوطنا، وماضينا، وحبّنا لل"أنا"، وتقوقعنا، وعدم إفراغ أنفسنا تجاه الآخرين، وعدم البكاء مع إخوتنا، وعدم احتضاننا لضعفاتهم وضيقاتهم... فكيف نقول إنّ الله هو المسيح، ونحن لا نعمل أعماله؟! هذا من عمل الشّيطان فينا؛ فهو روح خبيث محتال، يُعلن أنّ المسيح هو الله، ولا يعمل أعمال المسيح. لذا، علينا ألّا نعترف بالرّبّ، إلّا بالرّوح القدس، وبفعله فينا. هذا هو المسيح الحقّانيّ فينا، القائم في أجسادنا، وقلوبنا، وأفكارنا. علينا أن نعلّم باسم المسيح، بالكلمة، والفعل، وبتطبيق الوصيّة الإنجيليّة. هذه هي المعرفة الحقّة، وهذا هو المسيح، وهذه هي الحياة الأبديّة: أن يعرفوك أنّك أنتَ ابن الله، وأن يحيوا على هذا الأساس.

هكذا عرف الرّسل المسيح، وهكذا عرفه القدّيسون، وكلّ الّذين تبعوه. ونحن، هكذا علينا أن نعرفه. هو يأتي إلينا، كما أتى إلى حماة بطرس، ويشفي كلّ مرض وسقم في أجسادنا وأرواحنا. إذ ذاك، نسارع إلى خدمته وخدمة الآخرين. هذه هي علامة الشّفاء: أن نأتي، بعد شفائنا، إليه وإلى الآخرين، وإلّا لا شفاء لنا.

هذه هي المفارقة بيننا وبين الرّبّ يسوع: نحن فيه، ونستمدّ قيمتنا منه؛ إذا نطقنا باسمه، وفعلنا أفعاله، وتمّمنا وصيّته. هو الخالق ونحن المخلوق. والمخلوق إذا سبّح باسم الخالق، يصبح مخلوقًا على صورته. نحن نمتاز بكياننا، إذا عرفنا المسيح، ولهجنا باسمه، وعملنا أعماله. هو فينا يجعلنا ننطق باسمه، بالرّوح القدس الّذي فينا، وبالأعمال الصّالحة. أمّا إذا لم نتكلّم لغته، فنكون غرباء عنه، ولا نعرفه. هو يعرفنا، ويدقّ أبوابنا، وينخس

قلوبنا، دائمًا، علّنا نسمع ونأتي إليه؛ فنشفى.

كلّ هؤلاء المرضى أتوا إلى الرّبّ يسوع، أو جيء بهم إليه؛ لكي يشفوا من كلّ مرض، ومن كلّ تعب، ومن كلّ وهن. لكنّ الأمراض ليست من الله، بل من طبيعتنا السّاقطة. أمّا الله، فهو الّذي يحيي ويشفي...

في إنجيل اليوم، تحدّث الإنجيليّ لوقا عن شفاء حماة بطرس، وإبراء المرضى، وإخراج الشّياطين. لقد شفى الرّبّ حماة بطرس، جسديًّا، لكي تنهض وتخدم الجماعة. ونحن أيضًا يشفينا، لكي ننهض إلى خدمته. هذه قيمتنا. لا قيمة لنا سوى أن نأتي إليه، ونخدمه بخدمتنا الآخرين، ونطيع وصيّته. هكذا، كلّما خدمناه، وأحببناه، وأحببنا الّذين من حولنا؛ صرنا أقرب إلى وصيّته، واتّحدنا به... الوصيّة هي الّتي تجعلنا نتّحد به. إن سمعنا كلمته، وسلكنا في وصاياه؛ يكون هو فينا ونحن فيه، ويبطل اقتدار الشّيطان علينا. ليس المهمّ أن نقول: "يا ربّ، يا ربّ"، بل أن نعمل أعمال الرّبّ. وصيّتي لكم أن تنطقوا باسم الرّبّ، وتعملوا أعماله. هكذا، تسكنون كلمةَ الرّبّ ووصيّتَه، في هذا الدّهر، وفي الحياة الأبديّة.

٢٩ أيلول ١٩٩٧

وكالة الحبّ

(لو١٦: ١- ٩)

هذا الإنجيل كان، دائمًا، يحيّرني، ولا أفهم ما قاله الرّبّ لذلك الوكيل. ولكن، ربّما، الله يعطينا، اليوم، كلمة من عنده؛ حتّى نستنير بها. الإنسان الغنيّ هو الرّبّ يسوع، ونحن الوكلاء. لقد أعطانا كلّ ما له. كما أعطى الآبُ الابنَ الملءَ، كذلك الابن أعطانا الملءَ بالرّوح القدس. لم يترك لنفسه شيئًا، أعطانا كلّ كيانه، وجسده، وأهرق دمه لأجلنا! أعطانا الأرض وكلّ ما فيها من غنًى ماديّ، وأغنانا بالوصيّة الإنجيليّة، فيما نحن كنّا كوكلاء الظّلم، بقينا في إنساننا العتيق، نلهو، ونتجبّر، ونستكبر على الآخرين، ونذلّهم، وبإذلالنا لهم نذلّ أنفسنا... بقينا في الأنانيّة، والفسق، والزّنى، والأفكار الباطلة، وفي ظلم الفقير، والمعوز، والمُتعب، والأضعف منّا... نأكل ونُشبع "بطوننا"، ولا نهتمّ إلّا بأهوائنا. بقينا نجمع المال والخيرات، ونكدّسها في الأهراء، ونترك لعازر أمام بيوتنا، ولا نطعمه من مالنا، وممّا أعطانا الله. بقينا نغضب، ونظلم، ونتحاسد... وبقيت الحروب المادّيّة والرّوحيّة، في هذه الدّنيا...

ربّما تتساءلون: كيف ينطبق علينا هذا في الدّير؟! فلنفحص قلوبنا! هل نحن، كمريم، في حبّ صادقٍ، ومعطاء، وفرح، تُجاه كلّ مَن حولنا؟! هل نقبل الآخر، ونتبرّك بوجوده، كأنّه المسيح فيما بيننا؟! هل نسجد له لنأخذ بركة، ولو في قلوبنا؟! هل نغفر له، إذا أخطأ إلينا؟! أو نقاصصه، ونلعنه، في قلوبنا، ونغضب عليه؟!..

هذه هي وكالتنا: اهتمامنا بالآخرين، وحبّنا لهم، ومسامحتنا لخطاياهم، حتّى ولو كانوا لا يزالون، بعد، في إنسانهم العتيق. مَن منّا لا يغضب على أخيه، إذا لم يفعل ما طلبه منه؟! مَن منّا لا يحقد على أخيه، إذا لم يتمّم إرادته؟! مَن منّا لا ينفر من أخيه، إذا لم يتصرّف كما يريد هو؟! مَن منّا، إذا رأى أخاه مريضًا، يحمله في أحشائه، ويبكي عليه؟! مَن منّا، إذا أتى أخاه ليستسمح منه، لا يثور عليه ويعاتبه، لأنّه يخطئ، دائمًا، تجاهه؟! مَن لا يضيق صدره من الآخرين؟!...

لقد أعطانا الله ذاته، أعطانا جسده ودمه الكريمين، وكلّ الخيرات الأبديّة. هذه هي وكالتنا. لقد أوكل إلينا ذاتَه، صورتَه، مثالَه، أي الأخَ السّاكنَ معنا، أوّلًا؛ وكلَّ مَن نصلّي له، ثانيًا؛ وكلَّ العالم، ثالثًا. فماذا نصنع نحن بهذه الوكالة، إذا كنّا لا نعرف أن نبذل أنفسنا بالكلّيّة، ونُطعم أجسادنا للآخرين، ونسقيهم دماءنا؟! أو إذا كنّا لا نرى كيف نعذّب الآخرين، ولا ننكسر قدّامهم ونسامحهم، إذا أخطأوا تجاهنا، حتّى تتفتّت خطايانا؟! إن كنّا لا ننكسر قدّام الإخوة، فكيف سننكسر قدّام الله؟! كيف سنقبل التّجارب، الّتي لا تصيبنا إلّا بسماح من الله؟! نحن نعلم أنّ الله لا يسمح بأن تمسّ شعرة من رؤوسنا، إلّا بإذنه؛ فلماذا يسمح بأن تتقاذفنا التّجارب؟! هذا حتّى ننكسر، ونتّضع، ونقبل. كلّ تجربة مادّيّة، أو نفسيّة، أو روحيّة، هي هديّة من الله؛ حتّى ننسحق قدّامه، وقدّام الإخوة.

اليوم، إذ نتهيّأ لدخول الهيكل مع والدة الإله، فلْنعتبرْ ونتمثّلْ بها*! مريم هُيّئت، في بيت أبيها، لتدخل بيتَ الله؛ ونحن، أيضًا، رُبّينا، في بيوت أهالينا، وأتينا إلى الدّير. مَن دخل الدّيرَ، فقد دخل الهيكلَ، دخل في خدمة الله؛ ومن هناك يدخل هيكلَ الرّبّ. بدخول والدة الإله الهيكلَ، ندخل معها، ونحن قد دخلنا منذ سنوات. لكنّ السّؤال المطروح: هل نريد، حقيقةً، أن ندخل قدسَ الأقداس؟! **وما هو قدس الأقداس؟! إنّه الصّليب**. إذ ندخل الهيكلَ، مع والدة الإله، بالدّفوف والكنّارات وآلات الطّرب؛ نبدأ بتهيئة نفوسنا لكي نحمل الصّليب والمسيح في قلوبنا. وإذ يولد المسيح فينا، يكون مصلوبًا، مقهورًا، مطعونًا، مهزوءًا به، مضروبًا على وجهه، مبصوقًا عليه! هذا هو سرّ دخول الهيكل؛ فنحن، إذ نقبل اللّطم، والبصاق، والطّعن في الجنب، وإكليل الشّوك، وإذ نقبل ميلاد المسيح السّيّد في قلوبنا، ودخول السّيّدة الهيكلَ، ليولد في أحشائها؛ فإنّنا نقبل عربون الصّليب والقيامة. إذا أردتم القيامة، فعليكم بالصّليب! إذا أردتم المجد الأبديّ، فعليكم دخول الهيكل، وتنقية النّفس والإرادة، وسحقها، وتفتيتها، يومًا بعد يوم، حتّى لا تقاوم، بعد، كلمة الله وكلمة الآخرين!

هذه هي وكالتنا، وبهذا نرضي الله: إن صنعنا مشيئته، وأرضينا الإخوة بالحبّ؛ حتّى

---

* نعتبر بها: نتّعظ بها، نأخذ عِبرَةً منها.

نتجاذب الحبّ، والمشيئة، والانسحاق، والانكسار، ونقبل بعضنا بعضًا بكلّ شيء، ونقبل التّجربة كي ننكسر... كلّ وَسْقٍ✣، وكلّ تعب، وكلّ تجربة هي لنا وعنّا وعن الآخرين. كلّ مَن يريد أن يحمل حِمْلَ الآخرين، يحمل ثقله وثقلهم؛ وكلّ مَن يريد أن يهدي النّاس بالكلمة الإلهيّة، يحمل ثقله وثقلهم. لهذا، حِمْلُ الرّهبان هو أكبر من حمل الآخرين؛ لأنّهم، وهم الضّعفاء بالجسد، والمرذولون في المجتمع، والفقراء؛ يحملون خطايا العالم على أكتافهم، ووَسْقَ خطيئة المجتمع في نفوسهم، وعلامة الخطيئة المطروحة في أجساد أقاربهم... كلّ الخطايا الّتي يحملونها من عائلاتهم، وماضيهم، ومجتمعاتهم، ومن الإنسانيّة كلّها، يأتون بها كلّها إلى المسيح، ليدخلوا هيكلَ الرّبّ؛ إذ ذاك، يمسحون القيح النّاتج منها بالكلمةِ الإنجيليّة، والصّومِ، والصّلاةِ، والحبِّ، والتّهليلِ؛ ويصبحون آنيةً مصطفاة، يولد السّيّد في قلبها.

هذا هو معنى الوكالة ودخول الهيكل، حيث نُنَظَّف بالآلام، وقطع المشيئة، والحبّ؛ ليولد السّيّد في هذه المغارة. ألا أعطانا الله كلّنا هذا الوعد؛ لندخل، بكلّ إرادتنا، هيكلَ السّيّد، قدسَ الأقداس؛ لكي نُمحَق، ونُطحَن كالقمح؛ فنصير مأكلًا للرّبّ يسوع، وللإخوة من حولنا، ولكلّ العالم. حينئذٍ، يأتي السّيّد ويقول: "تعالوا إليّ، كونوا مذودي ومغارتي، وأنا لكم بكلّيّتي". عندها، نقوم مع السّيّد، ونسلك معه في التّجارب والحياة اليوميّة، لنُرفَع معه على الصّليب، ولنشهد للقيامة، الآن وإلى الأبد.

٢٠ تشرين الثّاني ١٩٩٧

✣ الوَسْقُ: الحمْل.

البتوليّة وعفّة الرّوح

(لو٢٠: ٢٧- ٤٤)

هناك ناموس أرضيّ وناموس سماويّ، مفهوم أرضيّ ومفهوم سماويّ، حقيقة أرضيّة وحقيقة سمويّة... فأيّ الاثنين نريد أن نتّبع؟!

"الصّدّوقيّون" لا يؤمنون بالقيامة. لذلك، أتوا إلى الرّبّ، وسألوه: "... فكان سبعة إخوة. وأخذ الأوّل امرأة، ومات بغير ولد؛ فأخذ الثّاني المرأة، ومات بغير ولد. ثمّ أخذها الثّالث، وهكذا السّبعة، ولم يتركوا ولدًا، وماتوا. وآخر الكلّ ماتت المرأة أيضًا. ففي القيامة، لِمَن تكون زوجة، لأنّها كانت زوجة للسّبعة؟!" (لو٢٠: ٢٩- ٣٣). هذا ما كان موسى، واضعُ الشّريعة، قد كتبه لهم: "إن مات لأحد أخ، وله امرأة، ومات بغير ولد، يأخذ أخوه المرأة، ويقيم نسلًا لأخيه" (لو٢٠: ٢٨). إلّا أنّ موسى لم يعطِ الجواب عن سؤالهم الأخير، لا لأنّه لا يعرف، بل لأنّهم ما كانوا ليفهموا، لو أجابهم. لذلك، انتظر مجيء الرّبّ المتجسّد، ليجيب عن تساؤلات البشر بنفسه.

إذًا، هناك امرأة، ورجل، وعقم. وسأل الصّدّوقيّون الرّبّ: "[عندما يموت الرّجال والمرأة]، ففي القيامة لِمَن تكون زوجة، لأنّها كانت زوجة للسّبعة؟!" (لو٢٠: ٣٣)؛ فأجابهم السّيّد، بمنطق السّمويّات، قائلًا: "أبناء هذا الدّهر يُزوِّجون ويُزوَّجون. ولكن، الّذين حُسبوا أهلًا للحصول على ذلك الدّهر والقيامة من الأموات لا يُزوِّجون ولا يُزوَّجون. [أنتم تعيشون في هذا الدّهر. لذلك، أنتم تتزوّجون وتنجبون. أمّا أبناء القيامة، فلا يُزوِّجون ولا يُزوَّجون؛ لأنّهم ليسوا من هذا الدّهر، وليست لهم حكمة هذا الدّهر ولا نواميسه، ولا جسد لهم، ولا نزعة بشريّة، ولا هوى، ولا فعل هوى... إنّهم ملائكة، وأبناء النّور والقيامة]" (لو٢٠: ٣٤- ٣٦). ربّما أراد الرّبّ أن يقول إنّ أبناء القيامة يمرّون في هذا الدّهر، لكنّهم يخرجون منه إلى القيامة. مَن يحيا على هذا النّحو؟! مَن يحيا هذا الدّهر، ويخرج منه، بجسده العتيق، إلى القيامة؟! إنّهم الرّهبان الّذين تبتّلوا، وصاروا غير محكومين بأحكام هذا الدّهر.

البتوليّة، إذًا، هي العمل الإلهيّ، على هذه الأرض! هي أن نصبح بيت الإله. وهي لا تعني الامتناع عن الزّواج، بل أن نهيّئ هذا الجسد ليصبح بيتًا للإله، مغارة يولد فيها الإله. ونحن، إذ نقترب، الآن، من تجسّد السّيّد وميلاده، في بيت لحم، علينا أن ننظر إلى هذا الإنجيل كأنّه يدعونا إلى أن نصير بيتًا للإله. في بيت الإله هذا، لا مكان للزّواج، والحبّ الأرضيّ، والهوى الأرضيّ... حين نصير بيتًا للإله، نتحرّر، بشكل كامل، من كلّ أهوائنا؛ لا فقط من هوى الجسد، بل أيضًا من هوى الرّوح الّذي يكره، ويحسد، ويغضب... نتحرّر من أهواء الجسد، بالممارسة اليوميّة، إذ إنّنا نَقْتُلُ لأجل المسيح، ونبيد لأجل الملكوت، ونسحق لأجل القيامة، الأعداءَ، أي الأهواء الّتي تتحكّم فينا، وتسيطر علينا، وتقمعنا، وتقنعنا بمنطقٍ آخر غير المنطق الإلهيّ. المنطق الإلهيّ هو أن نصير، كالملائكة، تابعين إلهَ الأحياء، إلهَ إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ الّذين تزوّجوا، في هذه الدّنيا، وتركوا نسلًا، ومن ثمّ عبروا إلى القيامة، وهم أحياء؛ لأنّ إلهنا هو إله الأحياء. صدّقوني، هناك أفضل من إبراهيم وإسحق ويعقوب! إنّهم أبناء الملكوت، أبناء الرّبّ يسوع المسيح المتجسّد لأجلهم، أبناء الحياة الأبديّة. لذلك، البتوليّة هي القيامة، وأبناء البتوليّة هم أبناء القيامة، الّذين لا يعبرون بناموس أرضيّ، ولا حقد، ولا حسد؛ بل يتخطّون كلّ هذه الأهواء، ليصلوا إلى اللّاهوى، إلى القيامة، في هذا الدّهر. ولكن، أوّل وعد لهم هو البتوليّة، أي العفّة. البتوليّة بالجسد قاعدة للعفّة بالرّوح. إذ يقمع البتول جسده، يقمع هوى روحه... والّذي لا ينشغل بجسده، وبإتمام انفعالاته، واهتماماته؛ يعبر من البتوليّة إلى العفّة. والعفّة هي أن نعفّ عمّا نريد، عمّا هو مغروس فينا، عن مطالب أجسادنا، وحركات نفوسنا، وإرادة أرواحنا. هي أن نصير كالملائكة الّذين لا يُزوِّجون ولا يُزوَّجون، ولا هوى فيهم سوى هوى التّسبيح والصّراخ: قدّوس، قدّوس، قدّوس.

المطلوب، في هذا الإنجيل، عظيم جدًّا، وصعب جدًّا. لكنّ الله قادر، إذ يتجسّد ويولد فينا، على أن يجعلنا مغارة، ويحكي فينا حكاية الحبّ، حكاية الجهاد، حكاية الخلاص، حكاية القيامة من هذا الجسد وفيه إلى حياة لا أهواء فيها. أنستطيع، ونحن البشر الأذلّاء الّذين سقطنا من حضن الآب، أن نتمّ هذا المطلوب؟! نعم، نحن نستطيع! في هذا الإنجيل، بعد أن طرح الصّدّوقيّون سؤالهم هذا على الرّبّ، وسمعوا الجواب؛ لم

يتجاسروا على أن يسألوه بعد (لو٢٠: ٤٠)، لأنّه أجابهم بكلام غير مفهوم، بالنّسبة إليهم. لقد وضع السّيّدُ داودَ تحت قدميه، لأنّه هو السّيّد؛ وداس ناموس هذا الدّهر تحت قدميه، إنّما بالحبّ والصّليب والموت، بالاتّضاع والانسحاق، لا بالعظمة؛ ورفعَنا من جحيم أنفسنا إلى الموت، فإلى القيامة.

نحن، بالمسيح، صار بإمكاننا أن نغلب أهواءنا. هذا هو الجهاد اليوميّ المطلوب. رجائي أن تقتلوا، يوميًّا، أهواءكم، ومطالب أجسادكم، وحركات نفوسكم، وضعف أرواحكم. هذا ما يطلبه الرّبّ منّا، في هذا الإنجيل: أن نصبح بلا هوى، بيتًا له، مطهَّرين من الأهواء الجسديّة والنّفسيّة، ومن الأمراض الرّوحيّة. عندما نبدأ بهذا الجهاد صارخين: "يا ربّ، أعنّا، ولا تصرف وجهك عنّا"، فإنّه، من دون شكّ، سيأتي. وهو، في كلّ حال، آتٍ ليحرّرنا؛ فلا نبقى، بعد، عبيدًا للزّواج، والجسد، والأحاسيس، والأهواء... بل نخرج منها كلّها إلى الفرح! نترك الحزن، والمرارة، والدّموع اليائسة، ونأتي به ومنه وإليه، إلى قيامة الحياة الأبديّة، في هذا الدّهر، على رجاء الوقوف عند قدميه، وعن يمينه، في الدّهر الآتي.

ألا أعطانا الرّبّ الإله، ونحن في هذه المسيرة إلى الميلاد، أن يولد فينا؛ فلا تفنى حياتنا الأبديّة.

٨ كانون الأوّل ١٩٩٧

من أجل اسمك صبرت لك، يا ربّ

لست أنا أحيا بعد بل المسيح يحيا فيّ*

(متى٧: ٢١ – ٢٣)

"ليس كلّ مَن يقول لي: "يا ربّ، يا ربّ!" يدخل ملكوت السّموات، بل الّذي يفعل إرادة أبي الّذي في السّموات" (متّى٧: ٢١).

إرادة الآب هي أن ينزل الابن الكلمة إلى الأرض، إلى العالم، ويموت، ليخلّص جنس البشر. "ولا أحد يعرف الآب، إلّا الابن، ومَن أراد الابن أن يُعلن له" (متّى١١: ٢٧)، "أنا والآب واحد" (يو١٠: ٣٠)، "مَن رآني فقد رآى الآب" (يو١٤: ٩)... هذه هي حكاية الخلاص، وهذا ما يطلبه الرّبّ منّا: أن نموت، لنخلّص مَن حولنا والعالم.

يقول الرّبّ، في إنجيل متّى هذا: "كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم [يوم الدّينونة]: يا ربّ، أليس باسمك تنبّأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوّات كثيرة؟! فحينئذٍ أصرّح لهم: إنّي لم أعرفكم قطّ! اذهبوا عنّي، يا فاعلي الإثم" (متّى٧: ٢٢- ٢٣). ألا نرى تناقضًا، هنا؟! إن كانوا يقولون إنّهم فعلوا كلّ ما فعلوه باسم الرّبّ، فلماذا يطردهم، ويقول لهم: "اذهبوا عنّي يا فاعلي الإثم"؟!

المشكلة تكمن في اعتبارهم أنّهم هم مَن صنع هذه القوّات باسم الرّبّ. في الحقيقة، نحن لا نستطيع أن نفعل شيئًا. إنّنا جبلة الله، حفنة من تراب تذرّيه الرّيح، لا حياة فينا، بل موت، وهباء، وقبض الرّيح. هذا ما لا يعرفه معظمنا! إنّنا "لا شيء"! وإذا ما صرنا "شيئًا"، فبالله القدّوس، وروحِه، ومشيئته. إذًا، نحن شيء من الكلّ، نحن بشر من الإله، نحن موجودون لأنّ الله أوجدنا! قليلون هم الّذين يعرفون هذه الحقيقة؛ لذلك، هم يدّعون المعرفةَ والعلمَ، ويدرسون الله، ويقرأون الكتب عن الله، ويخاطبون النّاس بالله، ويعظون، ويعلّمون، ويبشّرون... لكنّهم لا يَحْيَوْن على اسم الآب والابن والروح القدس،

---

* غلا٢: ٢٠.

ولا يختفون في يسوع الّذي هو الكلمة الإلهيّة، ولا هم مستعدّون لأن يسيروا دربَ الجلجلة والجسمانيّة والصّليب، لكي يُصلَبوا معه! إنّهم يَحيَوْن كأنّهم لأنفسهم، بعيدًا عن الثّالوث، مُلتصِقين بمعلوماتهم، وأفكارهم، وحياتهم، كما هم يريدونها، وكما يَرَوْن أنّ الله يريدها لهم، ولا يعرفون أنّهم هباء، وليس عليهم إلّا الشّكر، والتّسبيح، والتّمجيد. كلّ الآباء أَنْهَوا حياتهم **بالصّمت**. كلّ القدّيسين وصلوا إلى نهاية واحدة، هي التّسبيح. الكلّ عرف أن لا جواب، إلّا في التّهليل والتّسبيح: "قدّوس، قدّوس، قدّوس أنتَ، يا أللّه". هذه هي الحقيقة الوحيدة. إذا صنعنا المعجزات، ولم نكن نهلِّل، ونسبِّح، ونبكي بصمت لخلاص العالم؛ فلا خلاص لنا.

من الواضح، في إنجيل اليوم، أنّنا لا يحقّ لنا أن نفعل شيئًا، إلّا بالمسيح. ليس المطلوب أن نفعل شيئًا له، فقد قال لمرتا: "أنتِ تهتمِّين بأمور كثيرة" (لو١٠: ٤١)، مع أنّها كانت تعمل لأجله. ولكن، هو يريدنا أن نحياه في الأشياء الّتي نفعلها؛ لأنّه هو الأساس، هو البداية والنّهاية، هو الألف والياء...

هذه هي المفارقة الّتي لا نستطيع أن نفهمها. ما هو الحدّ الفاصل بين ما نفعله لأجل الرّبّ، وما نفعله بالرّبّ؟! ما نفعله لأجل الرّبّ هو من ذواتنا: نستفيق نشيطين، نسجد، نرتّل، نسبّح، نقرأ، نؤدّي أعمال طاعتنا ونحن ملتهبون بنارٍ نظنّها إلهيّة... وفي اليوم التّالي، نصحو متعَبين، متألّمين، مضنوكين؛ فلا نسجد جيّدًا، ولا نرتّل جيّدًا، وتكون أنفسنا مسحوقة؛ فلا نستطيع أن نحتمل الآخرين، ونجرّ أنفسنا لفعل ما يُطلَب منّا... هنا يكمن السّرّ! حين نستطيع أن نفعل الأشياء، بأنفسنا؛ فهذا يعني أنّ فعلنا هو كفعل مرتا، الّتي كانت مرتاحة، سعيدة بخدمة الرّبّ. أمّا المسيح، فقال لها: "مرتا، مرتا، أنتِ تهتمّين بأمور كثيرة" (لو١٠: ٤١)، لأنّ ما يريده هو أن نكون مُتعَبين، وأن نحسّ أن لا خلاص لنا إلّا به، وليس باستطاعتنا أن نفعل أيّ شيء من دونه: لا أن نسجد، ولا أن نرتّل، ولا أن نقف في الكنيسة، ولا أن نحبّ، ولا أن نصبر، ولا أن نؤدّي عمل الطّاعة... في هذه الحالة، حالة الموت، والمعطوبيّة، والهشاشة... يأتي الرّبّ، ويعمل فينا، بروحه القدّوس السّاكن فينا! يأتي الآب والابن والرّوح القدس، الثّالوث، ويقبض علينا، إن صرخنا له، ويفعل فينا. هذه الحالة لا يعرفها إلّا الرّهبان، لا لأنّ الآخرين قد نسوها؛ بل

لأنّ الرّهبان، وكلّ الّذين أُعطي لهم أن يبكوا ضعفاتهم، عرفوها؛ وأحسّوا، في أعماق قلوبهم، أنّهم مسحوقون، ولا يستطيعون شيئًا من دون الله. هؤلاء يسكنون مع الله، ساعةً بساعة، ولحظةً بلحظة، ويعرفون، في كلّ حين، أنّهم "لا شيء". وعندما نعرف أنّنا "لا شيء"، نصبح "كلّ شيء" "في المسيح الّذي يقوّينا" (في٤: ١٣)، والفاعل فينا العظائم (لو١: ٤٩). هذا هو المطلوب: أن نقوى، في ضعفنا، باسم الرّبّ يسوع المسيح؛ وأن نقوم من ضعفنا، وهشاشتنا، ومعطوبيّتنا، وموتنا، بالرّوح القدس الفاعل فينا؛ وأن نصرخ من جحيمنا: "يا أبا الآب" (مر١٤: ٣٦)...

هذا هو العمل الّذي يرجوه الرّبّ منّا، والفعل المبارَك عند الله. وهذه هي طريقة خلاصنا، لأنّنا نكون قد اتّكلنا، بالكلّيّة، على الرّبّ يسوع المسيح. "طوبى لكم، إذا عيّروكم، واضطهدوكم، وقالوا عليكم كلّ كلمة سوء من أجلي، كاذبين" (متّى٥: ١١). في المجتمع، الضّعيفُ مضطهَد، والمُحِبّ غبيّ، والطّائع بلا شخصيّة، والمكسور يُداس ويُرذَل... هذا هو فكر العالِم والشّيطانِ، أميرِ هذا العالم. الشّيطان "يضربك"، ثمّ يطلب إليك أن "تضربه" أيضًا؛ هكذا، يجرّك إلى المقاومة، ومن ثمّ يتركك؛ لأنّك أصبحت شرّيرًا مثله، صرت معتادًا القسوةَ، والعنفَ، والإيقاعَ بالآخرين... لهذا، نسمع صراخًا عاليًا، في العالم، وفي المجتمع، ونشمّ رائحة الموت الكريهة؛ فالنّاس يَقتلون ويُقتَلون، يَذبحون ويُذبَحون... فتثور كراماتهم، ويحقدون، وينتقمون... هذا هو فعل الشرّ في العالم.

لكنّ الرّبّ يقول لنا، اليوم: "حتّى ولو شَفَيْتم باسمي، وأخرجتم شياطين باسمي... أقول لكم إنّني لا أعرفكم، لأنّكم لم تقبلوا الانسحاق، والموت الطّوعي، وأن تُذرَّوا كالرّماد، وأن يكون الرّوح القدس هو الفاعل فيكم... لم تقبلوا أن تقولوا لي: أنتَ الفاعل يا ربّ، لا نحن!"... علينا أن ننتبه لئلّا نأخذ المسيح واسطةً لأفعالنا وإنجازاتنا! المسيح حياتنا؛ إذًا، الموت حياتنا، والصّليب مآلنا: "وجهك، يا ربّ، أنا ألتمس" (مز٢٧: ٨). ووجه السّيّد، على الصّليب، هو وجه متألّم دامع، كما وجه القدّيسين وجهٌ لا يضحك، لكنّه يبكي بصمت، وكأنّه يحمل النّاظر إليه نحو مأساة هذا العالم. لا أحد يقهقه فرحًا، إن عرف مأساة هذا العالم؛ بل يبتسم للخروف الضّالّ العائد، وللأخ الّذي لامس روح المسيح. يبتسم بحزن القدّيسين وفرحهم! "كونوا قدّيسين، كما أنّ أباكم السّماويّ قدّوس" (١بط١: ١٦).

هذا هو إنجيل اليوم، إنجيلُنا، نحن الرّهبان الّذين نحبّ الرّبّ، وإنجيلُ كلّ الّذين يحبّون الرّبّ. "لست أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فيّ" (غلا٢: ٢٠). المسيح لا يغضب، ولا يثور، ولا يحقد، ولا يتعالى، وليس أنانيًّا... إنّه مخلِّص؛ محبّ؛ حنون؛ رقيق؛ دامع؛ حاضر، في كلّ لحظة، لأن يمشي، كما يريد الآب، إلى الموت، والصّلب، والقيامة، لأجل خلاص كلّ العالم.

كلّ واحد منّا هو مسيح؛ فكيف، إذًا، نستكبر، أو نستعلي، أو نغضب...؟! كلّ منّا ميت لأجل الآخرين، مسحوق تحت أقدام الآخرين، يغسل أرجلهم بدموعه... الآخر هو مسيحي، هو خلاصي وخلاص الآخرين. "توبوا، فقد اقترب ملكوت السّموات" (متّى٣: ٢)! دعوة يوحنّا المعمدان لنا هي هذه المعرفة، والتّوبة عن أنفسنا، وهي المقدّمة لحياة المسيح فينا. فلنتبْ، إذًا، عن أنفسنا، وندخلْ في هذا السّرّ العظيم، سّرِّ الموت؛ لكي يأتي المسيح، ويسكن فينا بقيامته.

٢٢ كانون الثّاني ١٩٩٨

الحياة المميتة والموت المحيي

(مر١٣: ١٤- ٢٣)
(٢بط٢: ٩- ٢٢)

في عيد القدّيس خرالمبوس، اليوم، قرأنا إنجيلًا للقدّيس مرقس، يكلّمنا فيه الرّبّ على رجسة الخراب القائمة في الهيكل. وفي السَّحَر، قرأنا إنجيلًا للقدّيس يوحنّا، يوصي فيه الرّبّ تلاميذه بأن يحبّوا بعضهم بعضًا، ويقول: "إن كان العالم يُبغضكم فقد أبغضني قبلكم" (يو١٥: ١٨). وفي رسالة اليوم، يذكر الرّسول بطرس أنّ هناك أناسًا "هربوا من نجاسات العالم بمعرفة الرّبّ والمخلّص يسوع المسيح"، ثمّ عادوا وارتكبوها، وغُلبوا؛ فصارت أواخرهم أشرَّ من أوائلهم (٢بط٢: ٢٠).

يُظَنُّ أنّ الرّسول مرقس، بكلامه على رجسة الخراب، كان يُنبئ بسقوط أورشليم في السّنة ٧٠م، ويحذّر العالم من الموت، في تلك الهجرة، بعد أن حوصرت أورشليم وسقطت. ولكن، كيف ينطبق علينا هذا الإنجيل، اليوم؟!

إسرائيل، اليوم، هي القويّة وهي الميتة، في الوقت عينه؛ لأنّها تحكم، بصلف، هذا العالَم، وقد ماتت في الرّوح والحقّ. ولكن، ما يهمّنا هو التّحذير، الّذي طرحه علينا البشير مرقس حول رجسة الخراب. ونحن، في بلدنا، مرّت علينا أيّام، رأينا فيها رجسة الخراب، في هيكل المسيح، وعرفنا أنّ هياكل قد نُسفت، وتخريبات كثيرة حصلت في كنائس المسيح: دُنِّسَت الهياكل، وسُرقت الأواني المقدّسة، واستُعملت للفسق والفجور، وأحاط بنا الجنود، وقتلوا مَن قتلوه، واستَباحوا الدّماء، وبقيت قلّة من النّاس الّذين هربوا واختبأوا، وصرخوا إلى الرّبّ لكي ينجّيهم من الموت... إنّني أُعيد هذا إلى الأذهان، لكي نعرف أمرًا واحدًا، هو أنّ الأزمنة تتكرّر، والحروب لم تنتهِ، وأنّ الفسق، والفجور، والاستكبار، وغير ذلك من الأهواء، كلّها ما زالت تحكم هذه الأرض، والنّاس لا يعرفون الرّبّ، ويرتدّون عنه، كما ورد في رسالة بطرس الرّسول؛ فأين الاستمرار؟!

وكيف السّبيل إلى سلامنا؟!

وصيّة المسيح لنا هي أن نحبّ بعضنا بعضًا. والحبّ يُميت الموت، لأنّ "الحبّ موت مُحْيٍ". الرّبّ مات، فأحيانا؛ فكيف لنا أن نحيا هذا الموت، وهذه الحياة؟! عندما نحبّ بعضنا بعضًا، نجد أنّ العالم يواجهنا بالكره؛ إذ حيث يجتمع تلاميذ المسيح، يكون الشّيطان واقفًا يترصّدهم. والشّيطان هو هذا العالم الّذي لا يريد الخلاصَ والحبَّ. العالم ورئيسه الشّيطان يريدان أن يقتلا الطّفل المولود في بيت لحم، في كلّ لحظة! "أروني هذا الطّفل، فأخنقه؛ حتّى لا ينمو بعد، ولا يموت، ولا يقوم عن البشريّة! أعطوني هذا الطّفل لأقتله!". أليس هذا ما فعله هيرودس، حين قتل أطفال بيت لحم؟! لكنّ الآب خلّص الابن من الموت المميت، لأنّه تجسّد فداء للعالم، وهو يبقى الحمل المذبوح، حتّى بعد القيامة، منذ البدء، وإلى الدّهر.

هذا الطّفل المولود هو كلّ واحد منّا، كلّ مَن ارتضى أن يُساق إلى الذّبح، ولا يفتح فاه. أشداق المجتمع مفتوحة لتبتلع المسيح، وتريد أن تمضغنا، وتُسقطنا واحدًا فواحدًا؛ لكي تجنح بنا، مجدّدًا، إلى هذا العالم، إلى الموت، إلى اللّذّة! واللّذّة تظهر بأشكال مختلفة: لذّة الجسد المرفقة بلذّة الطّعام، واللّباس الحسن، ورائحة الطّيب المضمّخ للأجساد... هكذا، يرتاح الجسد؛ فتفنى الرّوح! كلّ راحة جسديّة هي فناء للرّوح! هؤلاء الّذين نذروا أنفسهم للمسيح هم الّذين قتلوا العالم في نفوسهم. لذلك، العالم يبغضهم. هؤلاء أشاروا بإصبعهم إلى العالم، واتّهموه بالزّنى والعهر؛ فصار هناك شقاق بين أهل العالم وأهل الرّبّ. "أنا اخترتكم من العالم، والعالم أبغضني قبلكم" (يو١٥: ١٩). هناك حرب ضروس، وبغض، وكره، بين فريق العالم وفريق المسيح؛ فأين نحن من هذا؟! من أيّ فريق نريد أن نكون؟! لقد أتينا إلى المسيح، وما زالت في أنفسنا بذور الخطيئة؛ وما زلنا ننشدّ، ولو بالفكر، إلى العالم! هذا ما تحدّث عنه الرّسول بطرس بقوله إنّنا نرتدّ إلى العالم، بعد أن نكون قد عرفنا الرّبّ (٢بط٢: ٢٠)!

الرّسول بولس يقول إنّ مصارعتنا ليست مع لحم ودم، بل مع رئاسات الظّلمة وسلطاتها (أف٦: ١٢)؛ فتعالوا نتبّع طريق الفقر، مسلكًا نحيا به، يومًا بعد يوم، من دون أن نسقط ونعود إلى العالم! الفقر هو عنوان حياتنا. وليس هو الفقرَ المادّيّ، الّذي هو

عنوان الرّهابين والّذين يحبّون المسيح، إنّما هو، أوّلًا، أن نخلي ذواتنا من ذواتنا. هذا الإخلاء اليوميّ هو الّذي يقود إلى الفقر الرّوحيّ، وهو عنوان مجيء المسيح ليسكن في هذا المكان الفارغ؛ فلا يبقى للشّيطان مسكن فيه. إن أفرغنا ذواتنا من ذواتنا، فلا يبقى للشّيطان مكان فينا؛ لأنّ ذواتنا العتيقة هي فخّ للشّيطان. إنساننا العتيق، بتسلّطه، وعدم محبّته، وبخله، ونيّته السّيئة، وعدم صبره واحتماله، وبكلّ أهوائه، هو الطّعم الّذي يجذب الشّيطان، ويأتي به ليسكن في كلّ حركة من حركاتنا. أمّا الفقر الحقيقيّ عن الذّات، فهو الفقر الّذي يأتي بروح الرّبّ ليسكن فينا. نحن سكنى إمّا لروح الرّبّ، وإمّا لروح الشّيطان. لذلك، في كلّ يوم، نتعلّم من الرّوح القدس أن نُفرغ ذواتنا، كما أفرغ الرّبّ ذاته "آخذًا صورة عبد" (في٢: ٧). الإله صار عبدًا! السّيّد الملك، خالق السّماء والأرض، لُطِم، وبُصِق عليه، وصار خادمًا لكلّ واحد منّا؛ لكي نخلص! "تعالوا إليّ، يا جميع المتعبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم" (متّى١١: ٢٨). هو ينادينا لنخرج من ذواتنا إليه. مَن منّا ليس مُتعَبًا، أو ثقيل الحِمْل؟! فلْنأتِ إلى المسيح لكي يريحنا! وهو يريحنا، أوّلًا، من أنفسنا، من ماضينا المتكبّر الدّنس بحبّ هذا العالم. مَن منّا لم يحبّ العالم، ولم يغرق في شهوة هذا العالم، وفي تعظّم المعيشة، إنْ من مال، أو غنًى، أو مسؤوليّة، أو عمل نجح فيه؟! كلّنا مررنا بالنّجاح، وخسرنا وداعتنا؛ لأنّنا نجحنا، واستكبرنا، ودخلت فينا سوسة هذا العالم... نحن في الدّير لنصبح "لا شيء"، بالنّسبة إلى العالم. ومَن لا يريد أن يصبح "لا شيء"، فليس له مكان في ديار المسيح. هؤلاء المتعظّمون يعودون، بعد أن يعرفوا الرّبّ، إلى العالم، ويصيرون رجسة الخراب. في كلّ يوم، هناك رجسة خراب تدخل الهيكلَ، كالفرّيسيّ، وتقول: "**أنا** أعشّر، **أنا** أصوم، **أنا** أعطي المساكين...". مَن يستطيع أن يعطي شيئًا؟! نحن نعطي ممّا لله؛ ومع ذلك، نمنّنه! فقط بالفقر نخلص، لأنّنا به ننزل إلى أعماق أعماقنا، ونعرف أنّنا لا نملك شيئًا؛ فنفتقر إلى شيء ما، لأنّ الحياة فينا تتحرّك، لأنّ الحياة تحتاج إلى شيء ما؛ فيصبح طلبنا هو: "أنا هو الطّريق والحقّ والحياة" (يو١٤: ٦). بفقرنا ننتظر، وبالانتظار تتهيّأ مشاعرنا. نحن ننتظر القادم. وفي أثناء ذلك الانتظارِ الطّويل، نسمع همسًا وطَرْقَ باب؛ فنقوم ونفتح، لنرى السّيّد قدّامنا، آتيًا إلينا ليحملنا من فقرنا إليه، إلى الملء الإلهيّ.

قال الرّبّ: "اقرعوا يُفتح لكم" (متى٧: ٧). وهو قال ذلك لأنّه هو قرع، أوّلًا، أبواب قلوبنا ليدخلها. فلنسمع، إذًا! فلنصغِ ونسمع! ولكن، لا يمكننا أن نسمع إن كنّا أغنياء؛ لأنّنا، بغنانا، نستغني عن الله. الرّبّ يحبّنا بفقرنا ومرضنا. والرّسول قال: "إنّ قوّتي في الضّعف تُكمَل" (٢كور١٢: ٩). الرّبّ يريدنا أقوياء فيه، أغنياء منه. هذا هو الحبّ الخارج من غنى الرّبّ، ومن فقر الإنجيل، وفقر المغارة، وفقر الصّليب، وغنى القيامة. هذا هو ما يريد الرّبّ أن يُفقرنا إليه ويُغنينا به. لا يقولنّ أحد، بعد: "**أنا**"، بل "**هو**". حينئذٍ، نصبح آنية للرّوح القدس؛ ولا نكون، بعد، رجسة خرابٍ تنجّس الهيكل. تعالوا إلى فقر الإنجيل، وفقر المسيح الّذي هو ملء الحبّ والغنى! بحبّه، بلمسة حنانه، باتّضاعه، نستطيع أن نحبّ بعضنا بعضًا. فلتكن مسيرتنا هذه تهيئةً للصّوم الكبير، بأن نحني رؤوسنا، وأكتافنا، وقلوبنا وعقولنا، ساجدين عند قدميه، لنقول له: "هلمّ واسكن فينا، وطهّرنا من كلّ دنس، وخلّصنا بحبّك، وثبّتنا فيه، وسمّرنا على صليبك؛ لكي لا يُسقطنا الشّيطان إلى العالم، بل ترفعنا أنت معك إلى القيامة".

١٠ شباط ١٩٩٨

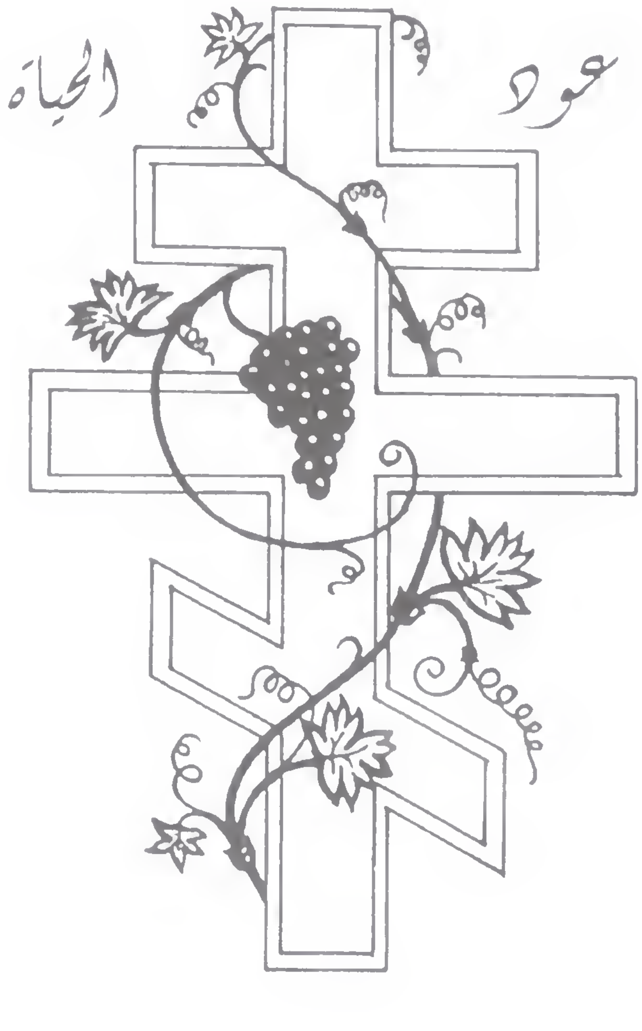

أرض النّور الإلهيّ

(متّى١٣: ١٠- ٢٣)

عندما سأل التّلاميذُ الرّبَّ: "لماذا تُكلّم الجموع بأمثال؟" (متّى١٣: ١٠)، قال لهم: "لأنّه لكم قد أُعطي أن تعرفوا أسرار ملكوت السّموات. وأمّا لهم، فلم يُعطَ" (متّى ١٣: ١١). وفي مكان آخر من هذا الإنجيل، قال لهم: "طوبى لعيونكم لأنّها تبصر، ولآذانكم لأنّها تسمع؛ فإنّي الحقّ أقول لكم إنّ أنبياء وصدّيقين كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا" (متّى١٣: ١٦- ١٧).

لماذا أُعطي للتّلاميذ أن يفهموا أسرار الملكوت، وللآخرين لم يُعطَ؟! حتّى ولا لأنبياء وصدّيقين كثيرين؟! أليس غريبًا أن يختار الرّبّ أناسًا يعطيهم أن يعرفوا أسرار الملكوت، فيما آخرون لم يُعطَوا هذه النّعمة؟! ولماذا هناك صدّيقون وأنبياء كثيرون اشتهوا أن يروا ويسمعوا ما يراه ويسمعه التّلاميذ، ولم يفعلوا؟! هذا، في الحقيقة، لأنّ الرّبّ لم يكن قد تجسّد بعد. هذا ما قصده الرّبّ، إذ تكلّم على الأنبياء. أمّا اليوم، فكيف نترجم هذه الأقوال على صعيد حياتنا نحن؟! لماذا هناك مختارون لله، يضع يده عليهم، ويأتي بهم إلى مرعاه؛ ويترك آخرين خارجًا، هو القائل إنّه يريد "أنّ الجميع أن يخلصون وإلى معرفة الحقّ يقبلون" (١تيمو٢: ٤)؟!

أوّلًا، الرّبّ حرّ في قراره. هو يعرف لماذا يختار مَن يختارهم، وكيف يختارهم، ومن أين يأتي بهم، وإلى أين يوصلهم. ولكن، ما أريد أن أشير إليه، هنا، هو النّعمة الخاصّة الّتي يمنحها الرّبّ للقلّة القليلة من النّاس، في هذا العالم، والمسؤوليّة الّتي يلقيها على عاتق كلّ واحد منهم. وعلى هؤلاء أن يحملوها، كلّ أيّام حياتهم، لأنّهم هم المختارون. لهذا، يعطي مثل الزّارع؛ لأنّ هناك مجموعةً جاحدة ما زالت موجودة، حتّى بعد مجيء السّيّد والتّجسّد الإلهيّ. هو يختار الّذين قبلوه ويقبلونه، في أعمق أعماقهم، على الرّغم من الشّكّ والتّردّي اللّذين يصيبانهم من الخارج. ولكن، في أعماق أعماقهم، هم سُمّروا على الكلمة الإنجيليّة، وهم

بذار زُرعت في الأرض الجيّدة. هؤلاء ستُفتح آذانهم وعيونهم، وقلوبهم ستنجذب بمحبّة السّيّد.

هذه هي الكنيسة، وهذا هو التّقليد الكنسيّ الّذي ورثناه من الآباء. كلّنا خطأة وأعوزنا مجد الله (رو٣: ٢٣)... كلّ البشريّة سقطت. لكنّ الرّبّ لا يترك هذا العالم من دون شهود. وهذا التّسلسل الرّسوليّ، الّذي بدأ يوم حلول الرّوح القدس، هو تسلسل الحبّ الكبير للسّيّد وللآخرين. وقد أعطانا المثل: هو الرّاعي وهؤلاء خرافه، إذ كلّ واحد مسؤول عن أخيه، لكي يرعاه إلى الملكوت. هذه الرّعاية اليوميّة هي المطلوبة منّا، نحن الّذين اصطفانا الرّبّ إليه. كلّ مجموعة مؤمنة باسم الرّبّ يسوع، حاملة كلمته، هي رعيّة صغيرة، وأرض جيّدة، يزرع فيها الرّبّ كلمته. هذه هي مسؤوليّتنا الكبيرة. صدّقوني، نحن لم نترك العالم من تلقاء أنفسنا! ففي هذا الجسد، والنّفس، والفكر، ما زال هناك بعضٌ من حلم يحرّك ذاته، يومًا بعد يوم، ويقول: "لماذا لم أتزوّجْ، وأتعلّمْ، وأعملْ لأكسبَ مالًا وأصلَ إلى منصب مرموق؟!"... قلّة منّا تحافظ على أمانتها للرّبّ يسوع، في كلّ آن. ولكن، الرّبّ يعرف ضعفنا؛ لذلك، يعزّينا برؤية وجهه في قلوبنا، وأحاسيسنا الدّاخليّة؛ ويأتي بنا، بدءًا ذي بدء، إلى مراعيه الخضر. نحن مسؤولون عن هذه المسيرة، عن هذا المجيء اليوميّ إلى المسيح، بلطف، ووداعة، وحنان. هكذا، يتكلّم الرّبّ فينا، وتشهد والدة الإله إن كنّا أمناء لله وللسّرّ. هذا هو سرّ ملكوت السّموات: أن نعرف، أوّلًا، أنّ الرّبّ اختارنا له، ليزيّننا بالكلّيّة بحبّه ورضاه. الرّبّ لا يطلب منّا شيئًا سوى أن نحبّ، ونبذل أحشاءنا من أجل الآخر. ليس من سرّ آخر، لا في السّموات، ولا على الأرض، سوى سرّ الثّالوث، سرّ الآب في الابن في الرّوح القدس.

"أحبّوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم" (يو١٣: ٣٤). ما معنى هذا الكلام؟! معناه أن نموت عن الآخرين، كما مات هو عنّا. وهذا الموت اليوميّ نتعلّم أن نحياه بالأُذن إذ نصلّي، وبالعين إذ ننظر إلى الأيقونة وعظمة هذا الكون، وبالقلب إذ ننفطر بالدّموع مصلّين في كلّ لحظة. السّرّ، كي نزرَعَ في الأرض الصّالحة، ونعطيَ ثمارًا جيّدة، هو أن نموت عن أنفسنا. دعوتي لكم، اليوم، أن تسعوا، بهدأة وحنان، لأن تموتوا عن أنفسكم من أجل الآخر، في كلّ ما تفعلونه. هكذا، يقبلكم الرّبّ بفرح، ويزرعكم في أرضه؛ لتصبحوا الثّمرَ الجيّدَ، والأرضَ الصّالحة. نحن الثّمر، ونحن الأرض، لأنّنا منه وفيه. إذًا، لا تربة جيّدة

فينا، أصلًا. هو التّربة الجيّدة. وإذ نسكن فيه، نصبح التّربة الجيّدة والزّرع؛ لأنّه هو ثمر الحياة. حين نأكل من هذا الثّمر، حين نأكل الجسد المقدّس والدّم الطّاهر، نصبح مادّة ذاك الجسد والدّم؛ فلا يحقّ لنا بعد أن نشكّ، أو ألّا نحبّ، أو أن نبقى في غضبنا أكثر من لحظة! أجل، سنبقى في الغضب، وفي أفكارنا، وانزعاجاتنا، وأنانيّتنا... ولكن، علينا أن نخرج منها، لحظة بعد لحظة، إذ نعرف أنّنا لا يحقّ لنا أن نُخطئ، بعد اليوم؛ لأنّنا نحمل وجهه وهو فينا! نحمل قلبه، ونحبّ بأحشائه! نحمل الدّموع، والصّلوات، والكون كلّه، في هذه الأحشاء.

هذه هي مسيرة عمرنا. لذلك، يهدأ الرّاهب، ويصير لا يحتمل العالم الخارجيّ؛ لأنّه يُبعده عن هذه المسيرة، ويمنعه من أن ينمو، ويكبر، ويتنقّى، ويتّسع، ويضمّ كلّ الكون الّذي لا يعرف الحبَّ، ولا أسرارَ ملكوت السّموات، ولا الإنجيلَ... أنتم أحققتم الحقَّ الإلهيَّ فيكم، والقولَ الإنجيليَّ في الدّير، وفي القرى من حولكم... لذلك، كلّ شيء يصير مضيئًا، إذا ما أضاء النّور فيكم. كلّما ازداد النّور فيكم، غطّى الظّلمات من حولكم. هذا هو الحبّ، والبذل الّذي أعطانا إيّاه الرّبّ، والّذي أهّلنا لأن نصير به أنوارًا. كلّما ازددنا حبًّا لله، ازداد النّور المشعّ من حولنا. هكذا، عندما نصير أنوارًا مضيئة، نعطي الآخرين النّور، نسلم الشّمعة إلى الآخرين كي يحملوها. على هذا النّحو بقي النّور، منذ الزّمن الأوّل للكنيسة حتّى اليوم، وسيبقى إلى المنتهى؛ لأنّ هناك أناسًا أخذوا النّور، وما زالوا يعطونه للّذين من حولهم، ولكلّ العالم، من خلال الإيمان، والحبّ، والصّلاة.

ألا أعطانا الرّبّ أن نسمع كلمة الحقّ، ونرى النّور، ونحيا أسرار ملكوت الله، ونصير زرعًا، وأرضًا جيّدة مباركة، وأنوارًا تشعّ في ظلمة هذا الكون! فلنكن أمناء على الحبّ الإلهيّ، ولا نَدعَنَّ شيئًا يختطفنا من قلب المسيح، الّذي اختارنا له، ليتمجّد فينا.

٥ تموز ١٩٩٥

❊ ❊ ❊

السّبيل إلى الشّفاء

(مر٥: ٢٤- ٣٤)

قال الرّبّ يسوع المسيح: "أنا اخترتكم، لستم أنتم الّذين اخترتموني" (يو١٥: ١٦).

في عيد القدّيسة مارينا، وفي معظم أعياد القدّيسات، يُقرأ هذا الإنجيل، الّذي يتحدّث عن امرأة بها نزف دم، ويطالعنا بالقول: "تبع يسوع جمع كثير وكانوا يزحمونه" (مر٥: ٢٤). إذًا، هناك جمع كثير يتبع يسوع. النّاس يتبعونه كما يتبع القطيع الرّاعي؛ لأنّهم يرجون الخلاص، يرجون جوابًا عن سؤال في نفس كلّ إنسان وُلد على هذه الأرض. نحن نريد الحقيقة، نريد جوابًا عن حزننا، عن تعبنا، عن مرضنا، عن جوعنا، عن عطشنا!... نريد تفلّتًا من هذا الواقع المميت، المريض، الّذي يزحمنا، ويخنقنا، ويقتلنا! نريد فكاكًا من أسرنا! الإنسان مأسور؛ لذلك، هو يتبع، دائمًا، معلّمًا ما. نعرف من التّاريخ، ومن واقعنا، الماضي والحاضر والآتي، أنّ النّاس دائمًا يبحثون عن مخلّص، عن قائد، عن إنسان يتبعونه. وغالبًا ما يَضِلّون، لأنّهم لا يبحثون عن الحقّ؛ إذًا، لا يجدونه، ولا يتبعونه. فالمعلّم كان، ولا يزال، وسيبقى هو الرّبّ يسوع القائل: "أنا هو الطّريق والحقّ والحياة" (يو١٤: ٦).

في إنجيل اليوم، هؤلاء النّاس يزحمون يسوع، لأنّهم يبحثون عن جواب. لكنّ الرّبّ يسوع لم يختر من هذه الجموع الكثيرة، الّتي تزحمه، إلّا امرأة واحدة. اختار مَن هي مريضة، منذ زمن بعيد! إنّها مريضة بأحشائها، ومتألّمة، ومعذّبة... لكنّها تبحث عن الشّفاء، تبحث عن الطّبيب. لماذا اختارها امرأةً، ولم يخترها رجلًا؟! لا نعرف، ولا نريد أن نخمّن. قلب الله هو قلب الله، وفكر الله هو فكر الله. هو حرّ في اختياره، وفي أن يرحم مَن يرحمه، ويقسو على مَن يقسو عليه. لماذا؟! لكي نعرف أنّنا هباء وقبض الرّيح!

نحن نتساءل دائمًا: لماذا يصنع بنا الرّبُّ هذا؟! لماذا اختارنا نحن حتّى نمرض، أو أهلنا، أو واحدًا من عشيرتنا...؟! لماذا اختار أجسادنا هذه حتّى تمرض، أو نفوسنا، أو قلوبنا، أو أفكارنا؟!... هذا حتّى يعطينا هو الشّفاء. الرّبّ رحوم، وهو الأب، والحاضن، والمعلّم،

والشّافي، وهو الّذي خلقنا من العدم؛ فلا بدّ له من أن يشفيَنا، إن مرضنا. لكنّه يختار المرض، بالضّبط، حتّى يأتي **هو** ويشفينا، ليعلّمنا **أن لا شفاء إلّا به، ولا جواب إلّا عنده**. هذا ما فعله مع هذه المرأة. منذ اثنتي عشرة سنة وهي تبحث عن الشّفاء، وتذهب من طبيب إلى آخر، وتتبّع العلاجات، وتعاني، وتبكي، وقد أنفقت كلّ ما تملك، من دون أن تستفيد شيئًا، "بل صارت إلى حالةٍ أسوأ" (مر٥: ٢٦)... وعندما رأت الرّبّ، اندفعت نحوه، وجاءت بين الجمع من الخلف، ومسّت هدب ثوبه. أمّا هو، فعرفها. والإنجيل يُظهر ذلك، من خلال انزعاج التّلاميذ، عندما سألهم الرّبّ لكي يعلّمهم: "مَن مسّ ثيابي؟"، وكأنّهم كانوا يودّون أن يقولوا له: "ما بك؟! لماذا تسأل هذا السّؤال الغبيّ؟!". هذا كان واضحًا في جوابهم له: "ترى الجمع يزحمك وتقول: مَن مسّني؟! فأدار نظره ليرى الّتي فعلت ذلك" (مر٥: ٣١- ٣٢). لم يقل الإنجيليّ مرقس إنّه أدار نظره ليبحث عمّن مسّه، بل "**ليرى** الّتي فعلت ذلك"، ليواجهها، ليقف وجهًا لوجه بإزائها، ليقول لها: "أنتِ فعلتِ ذلك، أنتِ تعذّبتِ، أنتِ تألّمتِ، أنتِ صرختِ سنين طويلة، أنتِ تبحثين عنّي... لذلك، أنا، الآن، آتي إليكِ لأشفيك". هذا هو الجواب! "أنا آتي إليك لأشفيك! ولكن، بعد الألم، والضّيقات، والتّجارب، والمحن، والعذاب، والبكاء، والتّرجّي..."! لماذا؟! هل لأنّ إلهنا إله يحبّ التّعذيب؟! لا! فكلّ واحد منكم، هنا، في هذا المكان، يعرف، بحسب تجاربه الخاصّة، أنّ إلهنا محبّ، وحنون، ورؤوف. ولكن، إذا كان الله قد اختارنا لكي نأتي إليه، كما اختار هذه المرأة الّتي أقعدها في آلامها سنوات طويلة؛ فهذا، بالضّبط، لكي نعرف أنّه هو الشّافي، لكي نأتي إليه، بعد أن نسأل سنوات مديدة:" لماذا فعلتَ بي ذلك؟! لماذا أنا مريض؟! لماذا أنا معاند؟! لماذا أنا متكبّر؟! لماذا أنا "مضروب" بالغضب؟! بالأنانيّة؟! بالحسد؟! بعدم الصّبر؟! بالتّراخي؟! باليأس؟!... لماذا؟!"... كلّ ذلك لكي نعرف أنّنا، نحن جبلّته، سقطنا في كلّ هذه الأهواء. نحن نريد هذه الحياة الدّنيا، وهو يريدنا إليه. على هذا النّحو كلّنا بدأنا حياتنا مع الرّبّ يسوع. نحن نريد العالم! نريد العلم، والثّقافة، والمال، والزّواج، والأولاد، واللّذّة، والحياة المرفّهة، والحصول على وظيفة نربح ونظهر من خلالها!... "أنانا" خنقتنا، وما زالت تخنقنا. فيما هو يريدنا له آنيةً مفرَغة من كلّ هذا العذاب، آنيةً تضيء نورًا: "أنتم نور العالم" (متّى٥: ١٤)!

البارحة، في "أحد" تذكار الآباء القدّيسين، قرأنا الإنجيل الّذي يقول: "أنتم نور العالم". هكذا يريدنا الله: أنوارًا له. لكنّنا ممتلئون غبشًا، وأهواءً، وأمراضًا. ما هي الأهواء؟ إنّها أمراض ورثناها، في هذا الجسد، وفي هذه النّفس، وفي هذا القلب. "هذا القلب نجيس مَن يعرفه؟!" (إر١٧: ٩)! الله فقط!

كلّ ما قرأناه، اليوم، في القانون، من قطعٍ للقدّيسة الشّهيدة مارينا، يقول إنّها اختارت النّصيب الصّالح. لقد "اختارت"! وأنا أقول لكم: "نحن لا نختار الرّبّ، بل، على العكس، نختار السّقوط، لأنّه حلو، ولذيذ طعمه! لكنّه يذلّنا، ويسحقنا، ويرمينا في الهاوية. بينما حياة الرّبّ تبدأ بالأوجاع، وتنتهي بالفرح، بالنّور، بالحبّ. وما بين ذلك الإذلالِ الّذي نحن نختاره، والشّفاءِ الّذي يمنحنا إيّاه الرّبّ، والنّورِ الّذي هو يختاره لنا ويعطينا إيّاه، هناك طريق ضيّقة يختارها الرّاهب. إنسان الله يختار أن يقبل الجهاد، وأن يعي، في كلّ يوم، أنّه يريد المسيح؛ إذًا، يريد أن يقوم، ويجاهد، ويمتدّ صوب الرّبّ، كهذه المرأة، ليلمسه. في زحمة أيّامنا هذه، في زحمة الأعمال، والأفكار، والمآسي، والنّاس؛ نحن نأتي إلى الرّبّ يسوع، "مضروبين" بالنّزيف. هذا الدّم الّذي نأخذه منه يخرج منّا. نحن ننزف الدّم المحيي الّذي يعطينا إيّاه الرّبّ في كلّ ذبيحة إلهيّة. ولو كنّا لنُبقيه، لا فقط رمزيًّا، في قلوبنا ونفوسنا، لو كان دمنا يتحوّل إلى دم الرّبّ، بإرادتنا، بهذا التّسليم الكامل له؛ لَكنّا صرنا قدّيسين، ربّما في غمرة سنوات قليلة. لكنّنا، بتمسّكنا القسريّ بخطايانا، ننزف الدّم الإلهيّ؛ لأنّنا جسدانيّون، ونريد أن نبقى في جسديّتنا، في عشقنا للمادّيّات؛ لأنّنا غضوبون، ونريد أن نبقى في غضبنا؛ لأنّنا لا نحبّ، ونريد أن نبقى في عدم محبّتنا؛ لأنّنا معاندون، ونريد أن نبقى في عنادنا؛ لأنّنا ممتلئون بالأهواء، ونريد أن نبقى فيها...

في العلم الإلهيّ، يُقال إنّ الأب والأمّ الرّوحيّين هما صورة الله على الأرض. لماذا؟! في الحقيقة، هما تراب. كلّنا تراب، ولا نساوي شيئًا! لكن، الأب والأمّ الرّوحيّان يحملان، بالنّعمة، كلمةً لأولادهما؛ حتّى يرشداهم إلى الطّريق الصّحيحة، ويعلّماهم ماهيّة الأهواء، وكيفيّة الخروج منها. لذلك، قال الرّبّ يسوع: "اطلبوا تجدوا" (متّى٧: ٧). ولكن، يجب أن نطلب الشّفاء؛ فنجد الجواب عند مَن اختاره الرّبّ أن يكون أبًا روحيًّا، أو أمًّا روحيّة لنا. "اقرعوا يُفتح لكم"(متّى٧: ٧). أيّ باب يجب أن نقرع؟! أهو باب

المجد، أم باب المال، أم باب الرّاحة؟!... لا بل هو باب حبّه وحنانه، باب الخلاص! لذلك قال: "إن لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السّموات" (متّى١٨: ٣). لهذا نحن هنا، ولهذا تطول أعمارنا: حتّى نرجع كالطّفل الّذي يسلم نفسه، بالكلّيّة، إلى أبيه وأمّه، حتّى يكبر. هذا ما فعلته المرأة النّازفة الدّم، وهذا ما يفعله كلّ مَن يطلب القداسة! يأتي إلى الرّبّ، ويسأل: "علّمني كيف أشفى! أنا أريد الشّفاء، فعلّمني كيف أشفى!"...

ليس من جواب إلّا بالحبّ... الطّفل يحبّ أبويه؛ فلا يرى إلّا كلماتهما، ووجهيهما، وما يعطيانه إيّاه. بالحبّ نخلص، بالحبّ نسمع، بالحبّ نكشف أنفسنا، بالحبّ نطيع!... ما من جواب، إلّا ذاك التّواصل في الحبّ بيننا وبين آبائنا والقدّيسين، حتّى نصل إلى الرّبّ يسوع. ونحن نصل إليه، في كلّ يوم، وكلّ لحظة، إن أحببنا، وسمعنا كلمة الله. عندما يرى الرّبّ هذا الانفتاح في قلوبنا، فإنّه يختارنا من بين تلك الجموع الكبيرة الّتي تزحمه. يختارنا، لأنّه يعرف أنّنا قبلنا أن نصير آنية له؛ فيصنع من هذا التّرابيّ، من آنية الهوان، آنيةَ مجد، ويقيمنا من أمراضنا، ومن أوجاعنا، ومن مخاوفنا، ومن سقوطنا... يقيمنا إليه، كما فعل مع تلك المرأة النّازفة الدّم، الّتي قال لها: "يا ابنة، إيمانك أبرأك، فاذهبي بسلام، وكوني معافاة من دائك" (مر٥: ٣٤)! فلنذهب بهذا اليقين وهذا الحبّ! فلنذهب على كلمته، وننظّف شباكنا من الاهتمامات الدّنيويّة، ومن الأهواء والخطايا؛ لكي نستقبله، ونقول له، على غرار والدته: "هوذا أنا أمة للرّبّ، فليكن لي بحسب قولك" (لو١: ٣٨).

١٧ تمّوز ٢٠٠٠

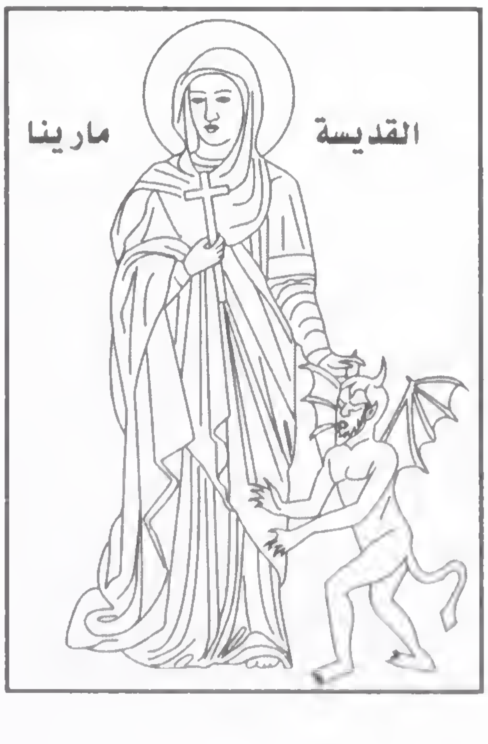

دانيال رجل الرّغائب

أحد الآباء الأجداد

(لو١٤: ١٦- ٢٤)

في خدمة غروب اليوم، رتّلنا، وسمعنا، وصلّينا مع الفتية الثّلاثة في الأتّون، ومع دانيال حارس الأسود. وقد ذُكر هؤلاء، اليوم، مساء الأحد، فيما ندخل في أسبوعٍ جديد وتهيئةٍ للميلاد، بعد ما عيّدنا للآباء الأجداد صباحًا. ما الّذي يميّز هؤلاء الآباء الأجداد؟! ولماذا عيّدنا لهم؟! ولماذا ذكرنا الفتية الثّلاثة في الأتّون، ودانيال رجل الرّغائب؟! دائمًا، عندما يُذكَر دانيال رجل الرّغائب، ويُذكَر معه الفتية الأطهار، أتوقّف عندهم وأسأل: ماذا كان يريد النّبيّ دانيال؟! ولماذا سُمّي برجل الرّغائب؟! وهؤلاء الفتية الأطهار، الّذين قُذفوا إلى الأتّون، ما الّذي حفظهم، وحماهم، وأخرجهم من الأتّون سالمين؟!

في الحقيقة، بإزاء هذه الوقفة عندهم، وعند الأجداد الّذين ذُكروا، اليوم صباحًا، يمكن للكنيسة أن تقول شيئًا واحدًا، وهو أنّ هؤلاء أتوا من روح الله، كما أنّهم أتوا من السّقوط! وقد تبعهم السّقوط الموجود في أجسادهم، ونفوسهم، وقلوبهم. ولكن، كلّ واحد منهم، من آدم إلى إبراهيم أبي المؤمنين إلى هؤلاء الفتية الأطهار، كان عنده خلاص وحيد، وقوّة وحيدة تشدّه هي الرّبّ يسوع المسيح.

في أيقونة التّجلّي، مكتوب: "الرّبّ هو الله"! "أنا هو الّذي هو"! "أهيه الّذي أهيه"(خر٣: ١٤). من التّكوين إلى اليوم، نعرف أنّ هناك إلهًا واحدًا، وربًّا واحدًا، هو يسوع المسيح. إذًا، من آدم إلى الفتية الأطهار في الأتّون، إلى دانيال رجل الرّغائب، إلى كلّ القدّيسين، وصولًا إلى يوسف الدّمشقيّ، والقدّيس سلوان الآثوسيّ، والدّوقة إليزابيت، إلى كلّ القدّيسين الّذين أُعلنت قداستهم في روسيا، في السّنة الماضية وقبلها، هناك ختم واحد يختمهم ويجمعهم معًا، هو ختم الرّبّ يسوع المسيح، واسم الرّبّ يسوع المسيح، وحضرة الرّبّ يسوع المسيح، ووجود الرّبّ يسوع المسيح في كيانهم.

الفتية الأطهار رُموا في الأتون، لأنّهم أحبّوا الرّبّ يسوع المسيح! قصاصهم كان أن يُحرَقوا. ويظنّ الجهّالُ أنّهم، بحرق الفتية الأطهار والقضاء عليهم، يحرقون الرّبّ يسوع المسيح، ويقضون عليه. هكذا كان جهل الجهّال عبر العصور: "اصلبوه، اصلبوه!" (لو٢٣: ٢١)، أي "اصلبوا الآب والابن والرّوح القدس"، أي "اصلبوا الحياة"، أي "اصلبوا القدرة والقوّة"، "اصلبوا ذاك المقلق، مُقلق إسرائيل، لأنّه يقول الحقيقة"! منذ البداية، كانت الحرب من أجل أن يموت غالبُ الموت. وهو أمات الموت، ليُحيينا بالرّوح القدس في الحياة الأبديّة. ودانيال تكلّم على المجيء الثّاني، لأنّ الرّبّ يسوع المسيح أراه إيّاه، أظهر له كيف يكون. وهو كان رجل الرّغائب، لأنّه كان يطلب إلى الرّبّ يسوع، باستمرار، وبإلحاح ولجاجة، أن يعطيه ما تتوق إليه نفسه.

هذا يدفعنا إلى التّساؤل: لماذا، منذ آدم الأوّل حتّى اليوم، نجد عند بعض النّاس توقًا كبيرًا إلى الإلهيّات، فيما نجد عند بعضهم الآخر صمتًا، وفتورًا، ولاشيئيّة؟! الجواب صعب جدًّا عن هذا السّؤال. هل، يا ترى، الرّبّ يميّز بين أناس وأناس؟! هل، يا ترى، الرّبّ غير عادل، ويحبّ إنسانًا أكثر من إنسان، ويميّز إنسانًا عن إنسان؟!... من السّهل جدًّا أن يقول الواحد منّا: "أنا لم يعطني الرّبّ! أنا لا طاقة لي لكي أحبّ، أو أصلّي، أو لأكون راهبًا، أو كاهنًا، أو أتكرّس للإلهيّات...". هذه هي كذبة الشّيطان الأولى والأخيرة. ما من كذبة أخرى عنده غير هذا الفكر، الّذي يزرعه في نفوسنا، أنّنا غير قادرين، ولا نستطيع أن نحبّ، ولم نُعطَ أن نحبّ، ونصلّي، ونعرف الله! هذا هو ضلال العدوّ! كيف نكتشف أنّ هذا ضلال؟! الكلام على هذا الأمر يطول، ليس علينا أن ندخل فيه.

نحن، في هذه اللّيلة، في عائلة الثّالوث القدّوس، نتكلّم مع أناس أحبّوا، واكتشفوا أنّهم يحبّون. ولأنّهم أحبّوا، واكتشفوا أنّهم يحبّون؛ تركوا كلّ شيء، وذهبوا إلى يسوع. إذًا، نحن نتكلّم مع الخُلّص، مع المختارين، مع القطيع الصّغير. لكنّ هذا القطيع الصّغير ما زال محكومًا بالخوف! والرّبّ يسوع المسيح قال: "لا تخف، أيّها القطيع الصّغير، لأنّكم أُعطيتم الملكوت" (لو١٢: ٣٢)! من هنا نبدأ. كيف نعرف الرّبّ؟! عندما نأتي إلى الدّير ونحن نحبّ يسوع، نحبّ الحياة الأبديّة، نحبّ السّرّ الإلهيّ، نعرفه ولا نعرفه، نريده ولا نريده، نخاف ولا نخاف، ضعفاء وأقوياء، غضوبون ومتسامحون، حقودون ومحبّون، ثرثارون

نمّامون ومسالمون هادئون، ديّانون للآخرين ورحومون، شهوانيّون جسدانيّون فاسقون وروحانيّون إلهيّون... وماذا بعد؟! "تعالوا إليّ، أيّها المتعبون والثّقيلو الأحمال، وأنا أريحكم" (متّى١١: ٢٨)، "أنا هو الّذي هو" (خر٣: ١٤). "أنا أريحكم"! كيف يريح الله أحبّاءه الآتين إليه؟! بإعطائهم **نعمة الصّلاة**! ما من راحة، على الإطلاق، لأيّ إنسان، وبخاصّة للمؤمنين بالرّبّ يسوع المسيح والآتين إليه، إلّا **بالصّلاة**. هذه هي هديّة الرّبّ لنا. "صلّوا ولا تملّوا، صلّوا بلا انقطاع" (لو١٨: ١، اتسا٥: ١٧)! والرّبّ كان يذهب تاركًا رسله لكي يصلّوا. نحن لا نعرف كيف نصلّي! لذلك، التّلاميذ طلبوا إلى الرّبّ أن يعلّمهم كيفيّة الصّلاة؛ فقال لهم: "متى أردتم أن تصلّوا، فقولوا: أبانا الّذي في السّموات..." (لو١١: ١- ٤). وهو بذلك، كان يؤسّس الكنيسة، ويؤسّس الهيكل، ويؤسّس الذّبيحة الإلهيّة؛ لأنّ الإنسان، بالصّلاة الرّبّيّة، يدخل الملكوت. أنتم تعرفون أنّ نهارنا يبدأ بالصّلاة الرّبّيّة، في صلاة النّهوض من النّوم؛ وينتهي بالصّلاة الرّبّيّة، في صلاة النّوم، ونصف اللّيل، وفي كلّ الصّلوات الأخرى: "أبانا الّذي في السّموات، ليتقدّس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السّماء كذلك على الأرض...". ومشيئة الله على الأرض هي مشيئته في السّموات، هي الخلاص لجميع البشر. ولكن، نحن لا نخلص إلّا بالصّلاة. الصّلاة معلّمة التّوبة! الصّلاة حياة المؤمن! الصّلاة مأكل المؤمن! الصّلاة روح المؤمن! الصّلاة رداء المؤمن ولباسه! الصّلاة هي الماء الحيّ الّذي يشربه المؤمن! الصّلاة هي مأكله، ومشربه، ونومه، وقيامه! هناك أنواع عديدة جدًّا من الصّلاة، تحدَّثتْ عنها مئات آلاف الكلمات والكتب. ولكن، نحن سنتكلّم، في هذه اللّيلة، بسرعة واختصار، على كيفيّة صيرورتنا نحن صلاةً. كيف يصير الإنسان صلاة؟!

الصّلاة هي، كما قلنا، عطيّة الرّبّ يسوع، وهديّته لنا. هذا يعني أنّ الصّلاة هي حضور الرّبّ يسوع معنا وفينا. الصّلاة هي "هو"! أن أصلّي يعني أن أتّحد بالله، أن أتّحد بالرّبّ يسوع. ولا يتّحد بالآخر إلّا ما هو من طبيعة الآخر. كثيرون منكم يقولون لي، في الإرشاد، إنّهم لا يتوصّلون إلى الصّلاة، ولا يُحسّون بها، وإنّ أذهانهم لا تصلّي بسبب الأفكار المشوّشة. هذا، لأنّ الصّلاة هي أصعب علم، إذا أردنا أن نقارنها بالعلم، وهي فوق العلوم كلّها! الصّلاة هي كلّ شيء! الصّلاة هي الرّبّ

يسوع! عندما نقول "الصّلاة"، كأنّنا قلنا اسم الرّبّ يسوع. لذلك، الآباء قالوا إنّ الصّلاة الدّائمة هي ذكر اسم الرّبّ يسوع: "ربّي يسوع المسيح، ارحمني، أنا الخاطئ".
كيف نقبض على الصّلاة؟! كيف نتّحد بالرّبّ يسوع، الّذي هو الصّلاة، ونحن مدنّسون بالجسد، ومثلومون في النّفس، ومجروحون في الفكر، ووَجِعون في القلب؟! الصّلاة الحقيقيّة، الّتي تخرج أوّلًا، هي صلاة الوَجع، الّتي تخرج من القلب الوَجِع! كيف ينعصر القلب، فينوجع؟! معظم الموجودين هنا، اليوم، جاءوا إلى الدّير، لأنّهم توجّعوا... هذه هي البركة الكبيرة! لا أحد يأتي إلى يسوع وَجِعًا، إلّا ويفتح له يسوع يديه، ويقول له: "تعال إليّ، أيّها المتعب والثّقيل الأحمال، وأنا أريحك"! الإنسان غير الوَجِع لا يأتي إلى يسوع. طالب الرّهبنة، الّذي يأتي وهو مرتاح إلى نفسه، وإلى ماله، وأفكاره، ومشيئته، وماضيه؛ هذا يبصقه الرّبّ يسوع! يطرده، لأنّه لا علاقة له به! من هنا، نستطيع أن نقول إنّ الرّبّ لا يميّز بين الأشخاص، ولا يحبّ أناسًا أكثر من أناس... لكن، كلّ أحبّة هذا الدّهر لا يعرفون الله... والله يريدهم أن يخلصوا، إن هم أرادوا الخلاص. لذلك، أوّل صرخة صلاة تخرج من قلب وَجِع هي: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ". إذًا، الوَجَعُ هو أوّل مدخل إلى الصّلاة، وإلى الصّراخ. إذا صرخنا من قلب وَجِع، فالرّبّ سيسمعنا، ويجيبنا بأدوية وعقاقير تأتينا من مُرشدينا. من هنا أهمّيّة الحبّ، حبّنا لمُرشدينا، وطاعتنا لكلمتهم؛ لأنّ الرّبّ يكلّمنا من خلال الآخرين. عندما نكون في جماعة، لا يكلّمنا الرّبّ من خلال ملاك حارس آتٍ من فوق، إنّما من خلال آبائنا، وبعضنا بعضًا... هذه هي أوّل حلقة من حلقات الصّلاة: الوجع، الصّراخ: "ربّي، ارحمني". وعندما يرحمنا الرّبّ، يرحمنا بعقاقير وأدوية تأتي من المرشدين وبالنّعمة.

هكذا، نتعلّم أن نسمع ونُطيع! ولا نستطيع أن نفعل ذلك إلّا بالحبّ! وعندما نسمع ونُطيع بالحبّ، فالرّبّ يعطينا الدّرجة الثّانية من الصّلاة، وهي **صلاة الحسّ**، صلاة الفهم؛ فيجعل أذهاننا تتركّز على الكلمة المقولة في الكنيسة، أو في الكتب الإلهيّة. أمّا عندما ينقضّ علينا حسّ "الأنا"، حسّ المشيئة الذّاتيّة، أو عدم الطّاعة؛ فإنّنا نفقد الصّلاة كلّيًّا. لذلك، لا تقولوا لي، بعد، إنّكم فاترون، ولا تصلّون! عودوا إلى أنفسكم، حتّى تكتشفوا أين لم تطيعوا، ولم تحبّوا، وأين تمّمتم مشيئتكم! عندما ندخل في الحبّ والطّاعة

وقطع المشيئة، يعطينا الرّبّ الصّلاة الواعية، الفاهمة. هذا الفهم لا نتعلّمه من الخارج! علم الصّلاة هذا نتعلّمه من الدّاخل، من أنفسنا؛ نتعلّمه بالحبّ، والطّاعة، وقطع المشيئة. عندما تكون هذه الثّلاثة فينا، نستطيع أن نركّز، لا بل يعطينا الله نعمة السّماع والتّركيز. عندما يزول من أنفسنا كلّ حسّ غريب، كلّ حسّ سلبيّ، كلّ فكر سلبيّ تجاه أيّ إنسان، كائنًا مَن كان؛ يعطينا الرّبّ نعمة الصّلاة. وهذه النّعمة تتعزّز بتعزية كبيرة؛ فحين نصلّي صلاة فهم ومعرفة وسماع، نشعر بنخس القلب، وكأنّ الرّبّ يدقّ على شغاف القلب✠. وعندما يدقّ بإصبعه على شغاف القلب، تتفجر ينابيع المياه الجوفيّة، وتبدأ الدّموع بالانسكاب.

هنا، أحبّ أن أتوقّف عند ما قرأناه، قبل أن نبدأ، حول الأفكار السّلبيّة وعمل الشّيطان. إذا كانت صلاتنا نابعة من الحبّ، والطّاعة، والسّماع، وقطع المشيئة، وعدم الإدانة، وكسر النّفس تحت قدمي الرّبّ يسوع وأقدام الإخوة في الشّركة، بل جميع النّاس؛ **فإنّنا، إذ ذاك، ندخل في نعمة نخس القلب**. والله يعطينا الفهم، قبل نخس القلب؛ وإبّان نخس القلب، يعطينا الدّموع. هنا، إذا تسلّل إلينا فكر، أو شعور بأنّنا قمنا بأمر عظيم إذ صلّينا؛ فهذا يعني أنّنا عدنا إلى "الأنا"، وأنّ صلاتنا كاذبة. عندما نعي أنّنا نصلّي حسنًا، لا تكون صلاتنا صلاةً حقيقيّة، وتكون أفكارنا من نتاج عمل الشّيطان. أمّا عندما نرفض هذا الفكر الشّيطانيّ، ونقول إنّ الرّبّ هو الّذي يصلّي فينا، بل الرّوح القدس هو الّذي يصلّي فينا؛ يتركنا فكر الشّيطان. هذان الأمران متلازمان فيما بينهما، إلى درجةٍ يصعب معها الفكاك بينهما. نحن نصلّي، ونفهم الصّلاة، لكنّنا واعون أنّنا نصلّي؛ إذًا، صلاتنا ليست صلاة حقيقيّة. في اللّحظة الّتي نعي فيها أنّنا نصلّي: "قدّوس أنت، يا ألله"؛ نخرج من إطار الصّلاة الحقيقيّة. أمّا إذا قلنا: "قدّوس أنت، يا ألله! أنت هو الفاعل فينا! أيّها الرّبّ يسوع المسيح، ارحمنا"، ونعود إلى الصّراخ؛ "يهرب" شيطان "الأنا"، وتعود صلاة التّائب، صلاة المنكسر، صلاة العارف بأنّه هو "لا شيء". إذا وصل الإنسان المصلّي إلى الإدراك أنّه "لا شيء"، وأنّ كلّ فكر فيه يعي أنّه يصلّي وهو ذو شأن في الصّلاة، يُفقده الصّلاة؛ فإنّه، إذ ذاك، يصير منتبهًا، ويحمل أسلحة حربه، ويجيّش كلّ طاقات وعيه وحسّه ليقول: "لست أنا أحيا بعد، المسيح يحيا فيّ" (غلا٢: ٢٠)، "اذهب عنّي، يا

✠ شَغاف القلب: غلاف القلب.

شيطان" (لو٤: ٨)، "ربّي يسوع، ارحمني"، "قدّوس أنت، يا أللهُ"... كلّ إغفاءة على كلمة الصّلاة، وعلى روح الصّلاة، مباركَة هي، حتّى ولو داخَلَتِ الفكرَ واللّاوعيَ أفكارٌ غريبة؛ لأنّ القلب يبقى في حالة سماع للصّلاة؛ وذلك لا بقدرتنا الخاصّة، بل بقدرة الرّبّ نفسه، الّذي يطرد عنّا الأفكار، ولا يسمح لها بأن تطاردنا.

المشكلة هي أنّ الرّاهب موجود في مستوى القلب. والرّبّ يسوع يأتي ويسكن معه في مستوى القلب. الإنسان مقسّم إلى ثلاثة مستويات: المستوى العلويّ، أي مستوى الفكر، حيث المشيئة الذّاتيّة، وحيث يسكن الشّيطان، إذ إنّه لا يسكن إلّا في العقل! لا يسكن إلّا في المشيئة الكائنة في العقل، وفي القرار الكائن في العقل! والمستوى السّفليّ، أي الجسد والحسّ الدّنس، حيث مشيئة الموت والجسدانيّة الدّنسة، وحيث يعمل الشّيطان أيضًا. والمستوى الوسطيّ، أي القلب، الّذي يسكن فيه الله: "يا بنيّ، أعطني قلبك" (أم٢٣: ٢٦)! "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك [أوّلًا]، ومن كلّ نفسك [ثانيًا]، ومن كلّ فكرك [ثالثًا]" (متّى٢٢: ٣٨)؛ لأنّ الحبّ يجب أن يجنّد جيوشه ليحاربَ الحبّ الدَّنِس الّذي تأتينا به النّفس العاطفيّة، وليطردَ الأفكار، والمشيئة الذّاتيّة، والعقلنة، وليطرد "الأنا". "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ فكرك". كيف يكون الإنسان إناء للهوان وإناء للبركة، في الوقت نفسه؟! هذا يحصل بسبب الأهواء الّتي ورثناها من آدم الأوّل حتّى اليوم. وتتداخل عمليّة التّنقية، والرّبّ ساكن في هذا القلب. لذلك، الآباء لا يسمحون بالدّالّة، ولا المزاح، ولا الميوعة، ولا الحبّ الرّطب، ولا الجسدانيّات، ولا وقاحة النّظر، ولا كثرة الأكل، ولا الكلام الكثير، ولا الضّحك الكثير، كما لا يسمحون بالحزن الكثير أيضًا، لأنّه أمر نفسانيّ، إذ إنّ المرء يظنّ نفسه أنّه أصبح مصلّيًا كبيرًا؛ لذلك، عليه أن يعقد حاجبيه ولا يبتسم... أرأيتم كم أنّ الأمور معقّدة؟! لكنّها، في الوقت نفسه، سهلة، إذا سمعنا، وأطعنا، وقلنا: "تكلّم، يا ربّ، فإنّ عبدك يسمع" (١صم٣: ٩).

هنا، أحبّ أن أعلّق على لفظة "عبد". العبيد هم هؤلاء، فقط، الّذين ناداهم الرّبّ، اليوم، في الإنجيل قائلًا لعبده: "اخرج سريعًا إلى شوارع المدينة وأزقّتها، وأَدخِل المساكين والجُدْعَ والعميان والعرج إلى ههنا..." (لو١٤: ٢١- ٢٢)، لأنّ الّذي اشترى حقلًا، أو بقرًا، أو تزوّج امرأة، هؤلاء منشغلون، ولا يريدون أن يأتوا

ليتعشّوا عند يسوع ومعه. هؤلاء هم أهل العالم، وربّما نكون نحن أيضًا منهم، فننشغل، ونرفض أن نأتي إلى الانكسار، والانسحاق، والعبوديّة للكلمة الإنجيليّة المخلّصة!

دائمًا، يأتي الشّيطان ويبثّ سمّه فينا؛ فنعاند، ولا نحبّ، ولا نرحم، ولا "نقطع" حتّى لا نتعلّق بأحد، على وجه الأرض، غير الرّبّ يسوع السّاكن في الآخر، لكي نأتي به إلى الصّلاة! العبوديّة، إذًا، هي مدخل إلى معرفة الله، لأنّ الله هو القدير القويّ، الرّبّ خالق السّماء والأرض. في البداية، هكذا يجب أن نعرفه؛ حتّى يسمح لنا، مع مرور الوقت، بأن نجلس، كمريم، عند قدميه، ونسمع كلامه؛ فيرفعنا كما رفع يوحنّا الحبيب تلميذه، ووضعه على صدره، وكما رفع معظم المؤمنين الكبار القدّيسين؛ فصاروا يعرفونه بلا اسم! الصّلاة لا اسم لها، ولا هيئة؛ والرّبّ يسوع لا اسم له ولا هيئة! تجسّد وارتفع، وجلس عن يمين الآب، وترك لنا وفينا الرّوح القدس، المالئ الكلّ في الكلّ، والّذي "لا هيئة له ولا منظر" (إش٥٣: ٢)، إنّما هو وجود كامل، لا اسم له إلّا "أنت"، وإلّا لا شيء. هذه الحالة متقدّمة جدًّا، نحن نرجوها، لكنّنا لا نستطيع أن نصل إليها، إلّا بالرّضى الإلهيّ، وبالجهاد، والدّموع، والتّوبة. هذه "يضربها" الشّيطان، ويحفر حَفْرًا في جسد المصلّي، وفي نفسه، وقلبه، وعقله؛ حتّى يُميته، لكي لا يصل إلى تلك المرحلة، حيث يتمّ الاتّحاد الكامل بين الإنسان والإله، وتتوقّف الصّلاة، ويسود الصّمت! ولكن، نحن يجب أن ندخل في فترة التّنقية، في عمل التّنقية، في عمل الجهاد اليوميّ! لا يمكن أن أعرف الله، إذا كنتُ بليدًا! لا يمكن أن أعرف الله، إذا كنتُ لا أفعل ما يُطلَب منّي! لا يمكن أن أعرف الله، إذا كنتُ قد نُبِّهتُ لأمر ما، وعدت أخطئ فيه من جديد! إذا أخطأتُ، فهذا لأنّني أعرف ذاتي؛ وإذا عدتُ ووقعت، فلأنّني منكبّ على "أناي"، ولأنّني لا أريد أن أموت لأجل الصّلاة، لأجل الرّبّ يسوع! لا يقولنّ أحد: لا أستطيع، لأنّني أنا "أنا"! إذًا، أنا لستُ "هو"! الرّحلة طويلة، والأمور لا تستقيم من السّنة الأولى، ولا من الثّانية، ولا من العاشرة، ولا من العشرين... إلّا حين يسكب الله نعمته! لكنّ المطلوب هو أن نبقى في صحو، في حسّ، في توبة، في تمييز!... حيث تسود "الأنا"، تبطل الصّلاة! الفتية الأطهار في الأتون، لو لم يصيروا واحدًا والرّبّ يسوع المسيح، لَكانت النّيران التهمتهم! دانيال راعي الأسود الّتي صارت كالخراف، لو لم يَصِر واحدًا والرّبّ يسوع المسيح،

لكانت افترسته الأسود! رجل الرّغائب طلب اللهَ فقط! طلب أن يكون واحدًا والله! طلب أن يتّحد به، أن يخرج من ذاته؛ فصار والإله واحدًا!...

إذًا، ما من صلاة إلّا إذا خرجنا من ذواتنا!!! ما من معرفة للإله إلّا إذا خرجنا من ذواتنا!!! ما من حياة حقيقيّة إلّا إذا متنا عن ذواتنا، إلّا إذا سمعنا، وأطعنا، وقطعنا مشيئتنا، وأحببنا. هذا ما يجعلنا نصلّي، فنعرف، ونحبّ. وعندما نرى الآخر، نقول له: "أنا أنت"، ونأخذ عنه، ونساعده، وننكسر قدّامه، ونفرح به، ونسامحه، كما سامحنا الله، ويسامحنا، في كلّ لحظة، على كلّ ما نقترفه، إن كان بالقول، أو بالفعل، أو بالفكر، بمعرفة أو بغير معرفة، في اللّيل أو في النّهار... إذ ذاك، نصير نارًا! عندما نحبّ، ونُطيع، و"نقطع" مشيئتنا؛ نتحوّل إلى نار آكلة! النّار تلتهمنا نحن، أوّلًا. تلتهم أهواءنا، وخطيئتنا، وأدناسنا، وجُبننا، وخوفنا، وتردّينا! نبقى حيث نحن، لأنّنا لا نريد أن نحترق! الحياة مع المسيح حياة جنون، وعشق إلهيّ، وحبّ! هكذا، الإنسان الفاتر يتقيّؤه الله، كما تقيّأ الملاكَ الفاترَ في سفر الرّؤيا: "لأنّك فاتر، ولستَ باردًا ولا حارًّا، أنا مزمعٌ أن أتقيّأك من فمي" (رؤ٣: ١٦). الّذي يعرف الصّلاة، لا يستطيع أن يكون فاترًا! لا مكان للفتور، عند الرّبّ!! هو يقبل الجميع، نعم. الرّبّ رحوم، وفي النّهاية سيخلّص البشريّة كلّها. ولكن، أين سيضع كلّ واحد؟! سيضع أناسًا على الأرض، في الطّبقة الأولى، وأناسًا في الطّبقة الثّانية، وآخرين في السّماء الثّالثة، وغيرهم في السّماء الرّابعة، وصولًا إلى العرش الإلهيّ.

إذًا، إذا أردنا أن نحصل على الصّلاة الدّاخليّة، وعلى صمت القلب؛ فعلينا أن نقبل بأن نُجرَح بالحبّ الإلهيّ. عندما نقول للرّبّ، صباح كلّ يوم: "هلمّ واسكن فينا، وطهّرنا من كلّ دنس"، فماذا يعني ذلك؟! هذا يعني "هلمّ واحمل مبضعك، وافتح قلوبنا، حتّى يخرج القيح منها، فتطهّرها بالدّم والجسد النّقيّين، الطّاهرين، المقدّسين، اللّذين نتناولهما". عندما نكون في حالة الحبّ هذه، فإنّه، كلّما قلنا له: "هلمّ واسكن فينا، وطهّرنا من كلّ دنس"، يدخل ويغسلنا. أحيانًا يوجعنا كثيرًا، وأحيانًا قليلًا. ولكن، يوميًّا، نحن مدعوّون إلى أن ننفتح، عند سماع صوته قائلًا لنا: "إفّاثا"، أي "انفتح". ويأتي هو ويسكن فينا، ويطهّرنا.

طوبى للّذين يطلبون الصّليب، في كلّ يوم؛ لأنّهم يطلبون الرّبّ يسوع المسيح؛

لأنّهم يطلبون الصّلاة. الصّلاة والصّليب هما واحد. ونحن لا نعرف الرّبّ إلّا مصلوبًا، كما قال الرّسول بولس: "لأنّي لم أَعْزِم أن أعرف شيئًا بينكم إلّا يسوع المسيح وإيّاه مصلوبًا" (١كور٢: ٢). لذا، مَن أراد أن يصلّي، فعليه أن يقول ليسوع: "هلمّ واسكن فيّ"، ويفتح يديه، وفكره، وأحشاءه، وقلبه؛ فيأتي الرّبّ، ويسكن فيه، ويصلبه معه على صليب حبّه وخلاصه. هذه هي حكاية الصّلاة. لذلك، قلّة قليلة من النّاس تصلّي. لا أحد يصلّي، إذا لم يكن يريد أن يتألّم. الّذي لا يريد أن يتألّم، لا يعرف أن يصلّي! الّذي لا يريد أن يُصلَب، لا يعرف الرّبّ. ولا يتمّ الصّليب إلّا بالحبّ. وثمرة الحبّ هي الطّاعة، والسّماع، وقطع المشيئة. وكلّ ما عدا ذلك يُزاد لنا، إن نحن أحببنا الرّبّ من كلّ القلب، ومن كلّ النّفس، ومن كلّ الفكر، ومن كلّ الكيان (متّى٢٢: ٣٧). إذ ذاك، نستطيع أن ندخل في صمت القلب؛ لأنّ القلب، عندما لا يطلب أيّ أحد إلّاه، يهدأ، ويدخل في الصّمت: يأخذ ما يُقدَّم إليه بشكر. أمّا إذا لم يُقدَّم إليه، فلا يطلب شيئًا؛ لأنّه يعرف أنّ صمت القلب يعطينا الصّلاة، أي يعطينا الله!...

١٦ كانون الأوّل ٢٠٠١

توبة العشّار اختلست نعمة الخلاص

(لو١٩: ١- ١٠)

يقول الرّسول بولس إنّ الرّبّ يسوع "جاء إلى العالم ليخلّص الخطأة الّذين أنا أوّلهم" (١تيمو:١: ١٥- ١٧). والتّرجمة، في اللّغة الإنكليزيّة: "I am their chief"، أي أنا رئيسهم. إذًا، مَن هو زكّا؟! زكّا هو أكبر الخطأة، في الإنجيل. لا نعرف خاطئًا أخطأ مثله. الزّانية كانت زانية، والمخلّع كان مخلّعًا، والّذي كان الشّياطين يسكنونه كان لا يعرف ذاته، ولا ما يعمله لأنّه ممسوس... والرّبّ شفاهم كلّهم، قائلاً لكلّ واحد منهم: "اذهب، ولا تخطئ بعد".

أمّا زكّا، فكان موظّفًا عند أعداء شعبه، عند الحكّام القامعين لشعبه، عند الرّومان. وأيّ نوع من الوظائف كانت وظيفته! إنّها وظيفة العشارة، وهي أسوأ الوظائف الّتي كان اليهود يعرفونها، في تلك الأزمنة. العشّار كان قامعًا، قاسيًا، يأخذ عُشْرَ أموال البيت؛ ليعطيها للدّولة. وإذا لم يجد المال الكافي في بيوت الفقراء، كان يأخذ كلّ ما يجده عندهم؛ فيضع يده حتّى على الأثاث، على الفلس، على روح حياتهم المادّيّة... هذا ما كان عليه العشّار العاديّ. أمّا زكّا، فقد كان رئيسًا على العشّارين، أي إنّه كان مسؤولاً عنهم، يعلّمهم العشارة، ويدرّبهم على الشّدّة والقسوة، وعلى إخلاء الكيان من القلب المتخشّع المتواضع، ويسحق إنسانيّتهم بالجبن، والخبث، والاحتيال، والعنف، وحبّ التّسلّط والامتلاك... كان يراقب العشّارين، حتّى يتأكّد من أنّهم يتمّمون عملهم الخاصّ الظّالم حسنًا، وأنّهم يسرقون وينهبون جيّدًا. والعشّار الّذي يجبي المال بهذه الطّريقة، ينتظر أن يحصّل ربحًا، لأنّ طبيعة وظيفته تجعله طمّاعًا، عاشقًا ربحَ المال والمقتنى. تفسد نفسه وتقبح؛ فيصير طمّاعًا، أنانيًّا، قاسيًا... ويبرّر عمله بادّعائه أنّه يتمّم فرائض القانون، بغضّ النّظر عمّا إذا كان النّاس قادرين على تسديد ما يتوجّب عليهم، أو لا. والمال يُقسّي القلب، ويجعل من الإنسان آلةً تنفّذ المطلوب، بلا حنان، ولا رفق، ولا امتداد صوب

الآخر. وأمثال هؤلاء النّاس يهدفون إلى إظهار نواياهم الحسنة أمام رؤسائهم؛ فيؤلّفون كتلةً سوداءَ بلا نور، ولا روح. هذا هو العشّار! لا يهمّه الإنسان، بل الوظيفةُ، والدّولةُ المرتَهَن لها، والمُلزَم بها، والأجير عندها. أمّا رئيس العشّارين، فكان يجمع إلى هذه الصّفات كلّها الكثيرَ غيرها، إذ إنّه كان يحصّل أكثر من الجميع؛ فهو يجبي من العشّارين منسوبًا من الأموال الّتي جبوها، هم بدورهم، من النّاس، ويأخذ منها حصّته من الأرباح، بالإضافة إلى ما يربحه من الدّولة أيضًا... وفوق الرّبح والغبن والقسوة، يتسلّط رئيس العشّارين على الآخرين، ويقمعهم، ويدينهم. لذلك، الكلّ كانوا يكرّمونه، حتّى يبقوا موظّفين عنده. وأنتم تعرفون أنّ هذه النّفس البشريّة، بمجرّد أن توجَد فيها خطيئة، فإن كبرت هذه الخطيئة، فإنّها تتكاثر بالأكثر لتصير كما صخرة تنحدر عن الجرف، لتسحق الكلّ...

هذا، ويرد في الإنجيل أيضًا أنّ زكّا كان غنيًّا (لو١٩: ١)... من أين له الغنى؟! رئيس العشّارين كان غنيًّا من خلال عمله، لأنّه كان يربح ضِعفَي الرّبح العاديّ، أو ثلاثة أضعافه. والغنيّ يشتهي أن يملك ما لا يحلّ له امتلاكه؛ ويظنّ دائمًا أنّه، بأمواله، سوف يشتري اللّذّة، والرّبح، والمركز، والمال، والسّطوة... هذا كلّه كان موجودًا في نفس زكّا، وفي نفس كلّ عشّار. لذلك، كان النّاس يكرهون زكّا... وهو كان يعرف أنّهم يكرهونه، ويمقتونه، ولا محلّ له بينهم. لهذا، يقول الإنجيل، في الآية الثّانية: "وكان يلتمس أن يرى يسوع مَن هو" (لو١٩: ٢). بكلام آخر، زكّا كان يبتغي ربحًا آخر، أيضًا، غيرَ ربح المال؛ إذ كان يريد أن يمتلك يسوع، أن يشتري معرفة يسوع. من هو يسوع هذا؟! ألم يكن زكّا يعرف مَن هو يسوع؟! ألم يسمع قطّ عنه، وهؤلاء البشر يعيشون على الثّرثرة، ونقل الأخبار وجبايتها، ليرسّخوا مراكزهم؟! ألم يكن يسوع معروفًا في تلك القرى الصّغيرة، الملتصقة بعضها ببعضها الآخر؟! بلى، كان معروفًا بأنّه هو الشّافي، والمعلّم، وبأنّه ابن داود؛ فالنّاس يخبرون بعضهم بعضًا، في قُرانا الشّرقيّة المتراصّة. لكنّ زكّا لم يكن مُصدّقًا، لأنّه كان رئيسًا، ومالكًا، ومُقتنِعًا، في ذهنه وعقله، بأنّه هو قرينٌ ليسوع، بأنّه ربّ وسيّد مثله... "أريد أن أعرف مَن هذا"! ومَن يتجرّأ ويقول: "أريد أن أعرف مَن هذا الإنسان"، سوى الإنسان ذي المركز الكبير؟! "أنا أعرف الكلّ، فلماذا لا أعرف هذا؟!"... هذا، بالإضافة إلى أنّ التماسَه معرفةَ يسوع كان، أيضًا، من أجل أن يُضيفه إلى لائحته. "كان يلتمس أن يرى

يسوع مَن هو" (لو١٩: ٢). يريد أن يراه بعينيه، حتّى يقول لاحقًا، في أوساطه: "أنا رأيت يسوع"؛ لأنّ العشّارين ما كانوا يهتّمون بأن يأتوا ليروا يسوع... كانوا يعتبرون أنه معلّم، يشفي المرضى، ويقول كلامًا لا يعجبهم، ويؤدّبهم، وينخس قلوبَهم، ونفوسَهم، وعقولَهم... فيقولون: "ما لنا وله، فلنذهب إلى أعمالنا"! وزكّا كان منهم. إلاّ أنّه، كرئيس، لم يكن يريد أن يخفاه شيء!

لكنّه لم يكن يستطيع أن يرى يسوع، "لأنّه كان قصير القامة" (لو١٩: ٢). في هذه العبارة معنى روحيّ عميق جدًّا. فعلى الرّغم من عظمة زكّا كرئيس على العشّارين، وكغنيّ ذي سطوة، غير أنّه "لم يكن يستطيع من الجمع [أن يراه]، لأنّه كان قصير القامة". والجمع كان مُقبِلاً، كأنّه في هجومٍ، على يسوع، وكانت هناك روح تشدّهم ليلحقوا به. فدخل زكّا، الّذي كان قزمًا بالنّسبة إلى طالبي يسوع، من تلك الحركة الدّاخليّة. مَن يعرف يسوع ويلحق به، يصبح طويل القامة، على الرّغم من قِصَرِه. أمّا زكّا، "فكان يلتمس أن يرى يسوع مَن هو"، ولم يكن، بعد، قد عرفه؛ لذلك، كان لا يزال قصير القامة. لكنّه، وباقتدار شخصيّته، تحرّك، خرج من قِصَرِ قامته، من واقعه، وصعد إلى الجمّيزة (لو١٩: ٣). كانت لديه طاقة ليصعد، فيصير أعلى من البشر، من عامّة النّاس الّذين يحكمهم، وكان أيضًا يريد أن يرى يسوع من فوق... لم يتصرّف كالمرأة النّازفة الدّم، الّتي أتت من وراء السّيّد، ومسّت هدب ثوبه. تلك كانت تعرف أنّها خاطئة، فأتت من ورائه حييّةً، لا تريده أن يعرف زلّتها، ولمست هدب ثوبه (مر٥: ٢٧- ٢٨). أمّا زكّا، فلم يكن يعرف خطيئته بعد، بل كان مُدّعيًا ومتكبّرًا؛ فصعد إلى الجمّيزة – والجمّيز شجر كثيف وغضّ الأغصان – ليرى يسوع من فوق؛ أوّلاً، حتّى لا يراه أحد. وثانيًا، حتّى لا يمنعه أحد من الوصول إلى مبتغاه. وثالثًا، لأنّه كان يريد أن يرى يسوعَ من دون أن يراه يسوعُ؛ لأنّه يظنّ أنّه هو (أي زكّا) ليس في حاجة إليه. وكان يسوع عابرًا. من المؤكّد أنّ يسوع عبر من هناك لأجل زكّا، لا لأجل سبب آخر؛ وذلك لأنّ زكّا كان رئيس الخطأة، لا رئيس العشّارين فقط، إذ لم نعرف خطيئة أكبر من خطيئة زكّا، في الإنجيل. الخطايا كلّها اجتمعت فيه؛ فمرّ يسوع لأجله، حبًّا به، بخروفه الضّالّ، ولأجل خلاصه. والرّبّ يسوع كان يعرف أنّ زكّا قد صعد إلى تلك الجمّيزة.

عظيم هو حبّ الله للإنسان! إنّ إنسانًا كزكّا كان يثير القرف والكره في نفوس النّاس، ويدفع بهم إلى رذله. لكنّ الرّبّ يسوع أتى لأجله، كيّ يخلّصه من ربقة الخطيئة عليه. أتى لأجل ذاك الخاطئ، لأجل ذاك العشّار رئيس العشارين؛ فرفع طرفه إلى مخبئه على الشّجرة، "فرآه، فقال له: يا زكّا، أسرع انزل، فاليوم ينبغي لي أن أمكث في بيتك" (لو١٩: ٤). "يا زكّا"! هذا معناه أنّ الرّبّ يسوع كان يعرف مَن هو زكّا. يسوع لم يأتِ إلى أريحا من قبل، ولم يلتقِه. لكنّه، على الرّغم من ذلك، كان يعرفه. وهل ينادي شخص شخصًا آخر: يا فلان"، إلاّ إذا كان يعرفه؟! "يا زكّا، أسرع انزل! [أسرع، لأنّ خلاصك قريب، لأنّني أنا هو الخلاص! يا بنيّ، يا خروفي الضّالّ، يا حبيبي، أسرع انزل، يا زكّا!]"؛ فأسرع زكّا ونزل، وفيما هو نازل، انقشعت الظّلمة عن عينيه، وعن قلبه، وعن كلّ كيانه. لقد اخترق صوتُ الرّبّ يسوع أذنيه، وقلبه، وأحشاءه. "يا زكّا"! سمّاه الله باسمه! عرفه! دعاه! والرّبّ قد تجسّد لأجله، كما لأجل جميع الخطأة والبشريّة. "يا زكّا، أسرع انزل! [لا تتوانَ! لا تدع الخطيئة تؤخّرك! لا تفكّر! لا تشكّ! لا تخف! بل أسرع إليّ لأضمّك إلى البرّ، والصّلاح، والنّور، والصّحّة]".

عندما يأتي الرّبّ يسوع المسيح، لا نستطيع أن نتوانى، أو نغضّ الطّرف، أو نماحك. عندما ينادينا الرّبّ يسوع، يحصل الخلاص. وزكّا استجاب، وأسرع، ونزل! نزل من خطيئته، من قِصَرِه، من قزميّة قامته؛ ليصير ابن يسوع، على صورته ومثاله. ثمّ وقف وجهًا لوجه، بإزاء يسوع؛ فقال له يسوع: "اليوم، ينبغي لي أن أمكث في بيتك، [أنا آتٍ لآكل عندك، يا حبيبي]" (لو١٩: ٤). وصار زكّا خليل الله؛ فالله أعطاه كثيرًا، أعطاه أن يمرّ لأجله وينزله، ليعرفه، فيحضر في بيته. ولأنّ الظّلمة كانت قد انقشعت عن ذهنه وقلبه وروحه، قبله فرِحًا، أوّلاً. "ولمّا رأى الجميع ذلك، تذمّروا قائلين إنّه دخل ليحلّ عند رجل خاطئ" (لو١٩: ٦)... قبل أن يقول زكّا كلمته، تدخّل النّاس، تدخّل الشّيطان ليدين!... الشّيطان لا يريد أن يخلص زكّا. ودائمًا، البشر يقولون "لا" للخطأة، ويدينونهم، كما فعلوا عندما أتوا بالمرأة الزّانية إلى يسوع، طالبين رجمها (يو٨: ١- ٥). لكنّ ردّ السّيّد يكون: "مَن كان منكم بلا خطيئة، فليرمها، أوّلاً، بحجر" (يو٨: ٧)! الكلّ أتوا ليرجموا الزّانية. وهنا، في هذا الإنجيل، الكلّ أتى ليرجم زكّا؛ لأنّه كان عشّارًا وخاطئًا...

وحدث ضجيج: "اصلبوه، اصلبوه"! هكذا كان صراخ الجمع. "تذمّروا قائلين إنّه دخل ليحلّ عند رجل خاطئ". وسمع زكّا ضجيج قلوبهم، لأنّه عرف يسوع، واستجاب له، فنزل فرِحًا وتائبًا... لم يعد الخوف سيّدًا عليه، بل أعلن عن توبته خوفًا من أن يخسر النّعمة.

هذه هي أهمّيّة وجود يسوع في حياتنا. عندما يحضر يسوع في حياتنا، فورًا نعترف بأنّنا خطأة. هذا ما عناه الرّسول بولس بقوله إنّ الرّبّ يسوع "جاء إلى العالم ليخلّص الخطأة الّذين أنا أوّلهم" (١تيمو١: ١٥- ١٧). لا أحد يعرف خطيئته ويقرّ بأنّه خاطئ، إلاّ الّذي يعرف الرّبّ يسوع المسيح. لا يمكن أن نعلن عن خطيئتنا، إلاّ من خلال الرّبّ يسوع، وإلاّ بمعرفة الرّبّ يسوع، وإلاّ إذا التقينا الرّبّ يسوع؛ فيدخل بنوره، ويكشف لنا ظلمة أعمالنا، ويخلّصنا منها بإرادتنا. وإذ نخلص طائعين، يحتضننا، ويجعلنا في أحضان إبراهيم، كما قال، هنا، عن زكّا إنّه "هو أيضًا ابن إبراهيم" (لو١٩: ٩)... الرّبّ يتقبّلنا، حالما نعترف بأنّنا خطأة.

وخاف زكّا! هنا، دخل الخوف إلى قلب زكّا. خاف من أن يعدل الرّبّ يسوع المسيح عن رأيه، إن سمع أصوات الاعتراضات؛ فلا يدخل بيتَه، ولا يتعشّى عنده، ولا يكرمه، أو يشرّفه، أو يخلّصه؛ لأنّ الجمع كان يضجّ: "اصلبوه! اصلبوه"! وخاف زكّا من أن يخسر النّعمة؛ فوقف! عندما خاف، وقف! لم يدخل البيتَ للحال، ولم يُدخل يسوع للحال، بل سمع ضجيج الشّعب، وكرههم، وحقدهم؛ فأدان نفسه في اللّحظة عينها. لو لم يخف، ولو لم يسمع الضّجيج – وكان قد سمع صوت النّعمة من قبل، الّتي لا يمكن أن تُنزَع من أحشائه بعد – لَما كان صرخ قائلاً ليسوع: "هأنذا، يا ربّ"... في البداية، كان يريد أن يعرف مَن هو يسوع!... لكنّه عرفه الآن، عرف أنّه هو الرّبّ يسوع المسيح، هو المخلّص؛ فخاطبه كإله! دخل إلى فكره، وعرف ما يطلبه الإلهُ منه؛ فقال له: "هأنذا، يا ربّ، أعطي المساكين نصف أموالي" (لو١٩: ٧). أقرّ للحال بأنّه سارق؛ وعرف، مِن حبّ يسوع، مِن نداء يسوع له، مِن عين يسوع في عينه، أنّ الله أتى لأجل المساكين، الّذين قد غبنهم هو، وظلمهم، ولم يحبّهم؛ فقال: "أعطي المساكين نصفَ أموالي". افتقر طوعًا! أعطى نصفَ أمواله! وهو، طبعًا، كان حكيمًا؛ فالعشّار يعرف كيف يقسّم. هو يملك عقلاً، وذهنًا حسابيًّا: "وإن كنت قد غبنت أحدًا في شيء – في أقلّ الأشياء – أرد

أربعة أضعاف" (لو١٩: ٧). قال ذلك ليُرضي النّاسَ الّذين كانوا يسمعونه، والشّريعةَ، ويسوعَ الّذي منحه نعمته. الرّبّ لم يكن قد وعد زكّا بشيء. فقط، قال له: "اليوم، ينبغي لي أن أمكث في بيتك" (لو١٩: ٤). "ينبغي لي"، أي أنا مُلزَم بذلك، أنا مدفوع إلى أن أمكث عندك!... هذه كانت الهديّة الّتي أعطاه إيّاها الرّبّ يسوع، أنّه آتٍ ليمكث عنده، في بيته، في هيكل جسده، ونفسه، وروحه. ولم يَعِده بشيء آخر، لأن هكذا ارتضى الآب بالابن والرّوح القدس: "أنّ الجميع يخلصون وإلى معرفة الحقّ يقبلون" (١تيمو٢: ٤).

أمّا الخطيئة الثّانية الّتي أقرّ بها زكّا، فتظهر من خلال قوله: "وإن كنت قد غبنت أحدًا في شيء، أردّ أربعة أضعاف" (لو١٩: ٧). ماذا يبقى لزكّا، إذا أعطى أربعة أضعاف؟! يبقى الأقلّ من القليل. لكن، كلّ ذلك صار تافهًا، ولا قيمة له بإزاء نعمةِ رؤية يسوع، وحبّه له. ويسوع كان صامتًا، خلال ذلك الوقت. لم يقل له شيئًا، بل كان يسمع. يسوع لا يطلب شيئًا. فقط يأتي ويجلس عندنا. لكنّ زكّا هو الّذي أعطى، وهو الّذي تاب، وهو الّذي أحسّ وعرف؛ فأخرج أحشاءَه القذرة، وبصق إنسانَه العتيق، قدّام يسوع؛ فأجابه يسوع عن كلّ ذلك بالقول: "اليوم، قد حصل الخلاص لهذا البيت" (لو١٩: ٩)! لم يحصل الخلاص فقط لزكّا، بل لكلّ بيته؛ إذ بتوبة إنسانٍ واحدٍ، بصلاة إنسانٍ واحدٍ، يَخلُص جميع أهل البيت. وخلص البيت بتوبة زكّا، لأنّه صار هو أيضًا ابنًا لإبراهيم. اليهود كانوا يظنّون أنّهم هم وحدهم صالحون، ومنزّهون عن الخطيئة، وأبناء لإبراهيم... فيما هم، في الحقيقة، كانوا العشّارين، والزّناة، والدّيّانين الخطأة... هم لم يتوبوا. لقد حكموا على زكّا، وقتلوا ربّهم، صلبوا يسوع!... أمّا زكّا، فتاب، عمّا كان عليه، إلى يسوع المسيح... ذاك الجمع كان يضجّ وراء يسوع المسيح: "اصلبوه، اصلبوه"... وزكّا كان مختبئًا في خطيئته على الجمّيزة... وإذ سمع صوت الرّاعي، نزل إليه ليختبئ في حضنه. ونحن، في الحقيقة، لا نعرف إن كان أولئك قد تابوا، لكنّهم كانوا مستمرّين بالإدانة... "لا تدينوا لكي لا تُدانوا" (لو٦: ٣٧)؛ فالرّبّ يكره الدّيّان، لأنّ هذا الأخير لا يعرف الحبّ، ولم يعرف يسوع بعد!

"اليوم، قد حصل الخلاص لهذا البيت، لأنّه هو أيضًا ابن إبراهيم، [لا أنتم فقط]" (لو١٩: ٩). هذا أيضًا ابن لإبراهيم، أدخله الرّبّ في الشّريعة. هم ما كانوا يعرفون أنّ الرّبّ يسوع هو ربُّ الشّريعةِ وخالقُها. هو خلّص زكّا العشّار، وأدخله في الشّريعة؛

"لأنّ ابن البشر إنّما أتى ليطلب ويخلّص ما قد هلك" (لو١٩: ١٠).

زكّا كان هالكًا، وكان ابنَ الهلاك، وعشّارَ الهلاك، وسيّدَ الهلاك! كان أبَ العشّارين. والرّبّ يسوع أتى "ليخلّص ما قد هلك"؛ حتّى نعرف أنّ أيّ إنسان، كائنًا مَن يكون، أخاطئًا، أم زانيًا، أم عشّارًا، أم متكبّرًا... إذا عرف يسوع عند ندائه له، وأدخله قلبه، فإنّه يأتي إلى الخلاص، والرّحمة، والنّعمة، والنّور، والحياة الأبديّة...

٣ شباط ٢٠٠٢

كلّ من له يُعطى ويزاد...*

(متّى ٢٥: ١٤- ٣٠)

يذكّرني هذا المثل بالمثل الّذي خرج فيه الرّبّ إلى السّوق، ليستأجر عملة لكرمه؛ فوجد أناسًا عبيدًا، يجلسون على الطّرقات بطّالين، وليس من يستخدمهم: فأرسلهم واحدًا تلو الآخر، لكي يعملوا في أرضه. ولمّا آن أوان الحصاد، أي الأوان الأخير، أوان الحساب، أوان الدّينونة، أوان الاستحقاق، ووجد ذاك الّذي بدأ العمل أوّل النّهار أنه أُعطي كما أعطي العبد الأخير؛ تذمّر على سيّده؛ فأنّبه السّيّد، وقال له: "ألم أتّفق معك على هذا القدر من المال؟! فلماذا تطالب بأكثر؟! لماذا تنظر إلى أخيك بعين شرّيرة، وتحسده؟! خذ مالك، واذهب؛ فإنّي حرّ في توزيع مالي كيفما أشاء..." (متّى ٢٠: ١- ١٦).

اليوم، يطالعنا هذا المثل، بعد مثل زكّا، ويدخلنا، أيضًا وأيضًا، في جوّ الدّينونة، الّتي نحن مقبلون عليها. ويأتينا الصّوم، في كلّ عام، باقة ورد وياسمين وعلّيق، نضمّها إلى صدورنا، لنتنشّقها، صبحًا فصبحًا، ونحياها، ونشذّبها، ونقطفها، ونضعها في قلالينا، وتشاك أصابعنا بها؛ فنبكي، ونلملم الدّم النّازل منّا، ونضعه عند قدمي الّذي يريد أن يُرينا، في كلّ سنة، من هو، ولماذا هو، وكيف هو، في تجسّده على هذه الأرض لخلاص جبلته!

بدأ الرّبّ يسوع، في إنجيل متّى، يقول: "إنسان مسافر دعا عبيده" (متّى ٢٥: ١). هذا الإنسان هو المتجسّد، الرّبّ يسوع المسيح، الإنسان الإله. أتى وصنع عالمه، ودعا عبيده، "وسلّمهم أمواله". وهنا، يركّز الإنجيليّ على "أمواله"، وكأنّه يريد أن يقول: "على كلّ ما يملك". إذًا، هذا الإنسان لم يحجب شيئًا عن تلاميذه، عن أولاده، عن عبيده. لكن، ما يلفتني قوله "دعا عبيده". لماذا سمّاهم "عبيدًا"، في حين أنّ الرّبّ قال: "لا أعود أسمّيكم عبيدًا، ولكنّي قد سمّيتكم أحبّاء وأبناء" (يو١٥: ١٥)؟! هذا لأنّ البنوّة تحصل بعد المرور بالعبوديّة. نحن قد اخترنا العبوديّة، منذ آدم. آدم تعب، ضجر من السّكنى في

---

* متّى٢٥: ٢٩.

الفردوس سيّدًا يتغنّى بجمالات الفردوس مع حوّاء... بل بالأحرى ضجر من الحبّ والفرح؛ فأتته الحيّة – الشّيطان، وقالت له: "أتريد أن تعرف؟! ذاك هو سرّ الشّجرة؛ فكُلْها"! ولم يُطع آدم قول الرّبّ له: "أمّا شجرة معرفة الخير والشّرّ، فلا تأكل منها". الرّبّ أراد للإنسان أن يكون في النّعيم، في الهدأة، في الهناءة، في بهاء الفردوس، في نور الجمالات الإلهيّة، في اللّاهوى، في الفرح الدّائم... لكنّ الضّجر جعل آدم يلجأ إلى الحيّة... لماذا ضجر آدم في الفردوس، والفردوس هو الله والنّور والحبّ، والله كان فيه، وقد أعطاه كلّ ما عنده من جمالات؟! ضجر لأنّه أزاح نظره عن قلب الله، وعن قَصْرِه... مال بحسّه، بعينيه، عمّا خلقه الله لأجله، وعمّا أعطاه إيّاه... تحرّك قلبه بعيدًا، ولو للحظة، عن الله؛ فأتاه الشّيطان، أتته الحيّة – الشّيطان لتسلبه هناءه، وحياته في فردوس النّعيم... وبما أنّ الشّيطان هو الكذّاب وأبو الكذّاب ومُغرٍ – وهكذا تأتينا الخطيئة: بإغراء شديد، واحتيال – قال لآدم: "تعال وانظر! ماذا تعمل أنت هنا؟! عندي لك مائدة أخرى أجمل، وطعم مآكلها أفضل، ومختلفة عمّا أنت تحياه الآن. تعال، فأنا أعطيك البديل المغري"... لكنّ "المختلف"، في الحقيقة، كان الشّيطان، والمغري كان هذا العالم الّذي سقطنا إليه بكامل إرادتنا...

الرّبّ خلقنا أحرارًا، حتّى ونحن في الفردوس! نحن أحرار في أن نبقى معه، ونكون له، ونحبّه، أو نتركه... أمّا ثمن السّقوط، فهو العالم والجحيم... إن اخترنا أن نكون معه، نبقى في الفردوس، في الهناءة... أمّا إذا سقطنا عنه، فنستقرّ في الجحيم. هكذا، في كلّ مَثَل، في كلّ ما يقوله الرّبّ لنا، في كلّ حياتنا على هذه الأرض، نحن موثقون بهذا الفعل الإراديّ، بالابتعاد عن وجه ربّنا يسوع، أو البقاء معه والقول له: "نحن نريدك، نحن معك، نحن لك، نحن مسمّرون عليك، كما سُمِّرت أنت على الصّليب، علينا، على خطيئتنا"... هذا هو مبدأ الحياة مع الله. لماذا أتينا إلى الرّبّ، من أقاصي الأرض إلى أقاصيها، ومن جنسيّات مختلفة، وتحلّقنا حوله، واحدًا واحدًا؟! هذا لأنّ الرّبّ دعانا، ولأنّنا سمعنا ومشينا، لنصير فكرًا واحدًا، روحًا واحدة، قلبًا واحدًا، نظرة واحدة معلّقة على مجد الرّبّ يسوع، وحنانه، وألوهته، وعلى خطيئتنا الّتي سنجاهد، يومًا فيومًا، وساعة فساعة، ولحظة فلحظة، حتّى نخرج منها إليه. وكلّما جاهدنا، حصلنا على إكليلٍ، ومدّ الرّبّ

يديه واحتضننا من على صليبه؛ ليخلّصنا إليه، إلى فردوسه، إلى قيامته...

الرّبّ سلّم عبيده كلّ أمواله، لم يترك لنفسه شيئًا، وذهب... "أعطى واحدًا خمس وزنات، وآخر وزنتين، وآخر وزنة" (متّى٢٥: ١٥). هذا كلّ ما عنده. والعدد "ثمانية"، وهو مجموع الوزنات كلّها، يُشير إلى الملكوت الآتي، إلى الأبديّة الخارجة عن هذا الزّمن. وأنتم تعرفون أنّ اليوم الثّامن هو يوم القيامة، يوم الرّبّ... إذًا، أعطى "كلّ واحدٍ على قدر طاقته" (متّى٢٥: ١٥). الرّبّ، لعظمته، لم يخلقنا الواحد مثل الآخر، بل خلقنا كلًّا كما ارتأى هو، كلًّا كما نفخ فيه، كما جبله. وفي آن، خلقنا كلّنا إخوة منه. فإذا كنّا له، نرى الآخر بالحبّ. أمّا إذا كنّا لذواتنا، فنرى الآخر بالحسد، والإدانة، والتّعيير، والخصام... وما أريد أن أؤكّده، هنا، أنّ الوزنات الخمس والوزنتين والوزنة، كلّها واحدة، إذ هي ممّا له، هي جسد المسيح الواحد، هي كلّ ما عنده. والوزنة تشابه الأخرى. إذًا، وزّع الوزنات، "وسافر للوقت. فمضى الّذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها" (متّى٢٥: ١٥- ١٦)، لأنّ الرّبّ، عندما أعطاه إيّاها، قال له: "خذها، واعمل بها. هذه لك، وأنا أعطيك ما لي، ما عندي، ممّا عندي؛ لأنّني أريدك أن تملك ما أنا أملكه. خذها، وكثّرها، ثمّ أَرْجِعْها لتُطعم الخمسة آلاف"... والرّبّ لم يُخفِ وزنته. أخذها من الآب، من قبل الدّهور، وأعطاها للكون. هو أُعطي وهو أعطى، بالرّوح القدس. هذا ما فعله، أيضًا، الّذي أخذ الوزنات الخمس. فهم إرادة سيّده؛ فأخذ الوزنات، وذهب، وتاجر بها، استثمرها؛ "فربح خمس وزنات أُخر. وهكذا، الّذي أخذ الوزنتين [ذهب وتاجر بهما]، وربح وزنتين أخريين" (متّى٢٥: ١٦- ١٧).

السّرّ العظيم، الّذي يستوقفني، هنا، بفرح كبير، أنّ الرّبّ يسوع المسيح شاركنا بما عنده، وأعطانا إيّاه كلّه، أي أعطانا ذاته؛ لأنّ ما عنده إذا كان منه، فعندما يعطينا، يعطينا منه، أي من ذاته. بهذا، جعلنا الله شركاء له في كلّ ما عنده! سلّطنا على ملكه، على عمق كيانه، على عنديّاته، وقال لنا: "اذهبوا، وتلمذوا"، "اذهبوا، واعملوا"، "اذهبوا، وبشّروا"، "اذهبوا، وكونوا لي كلٌّ حسب ما أعطيته"... هذه هي الشّموليّة الكونيّة الّتي يعطيها الله لعبيده. فيما هم عبيد لخطيئتهم، وللشّرّ الّذي اختاروه بأنفسهم، وللسّقوط والبعد عن الله اللّذين أرادوهما لأنفسهم! يأتي، هنا، هذا الإله الإنسان، ويسامحهم، أوّلًا؛ ثمّ يعود

ويُدخلهم إليه، إلى مُلكه، ويُعطيهم مُلكه، لأنّهم ساكنون معه، في هذا الكون، في الخليقة... هو أوجدهم معه في الفردوس، وهم سقطوا؛ فعاد بنفسه إليهم، لأنّهم خلقته، لكي يسترجعهم، بعد أن استُعبدوا للشيطان! الرّبّ أتى متجسّدًا، ليستردّ جبلته وصورته ومثاله إليه... وعلى الرّغم من ذلك، على الرّغم من أنّهم اختاروا إلهًا آخر، وعبدوا ربًّا آخر هو الشّيطان، عاد الرّبّ يسوع المسيح المتجسّد إليهم، ليعطيهم كلّ أمواله، كما في الفردوس... صار الإنسان عبدًا للخطيئة. لكنّ الله أتى به إلى منزله، كما أتى بأولئك العمّال البطّالين إلى العمل في حقله، وقال له: "خذ! الّتي لك ممّا لك، أقدّمها لك على كلّ شيء ومن جهة كلّ شيء"...

إذًا، الّذي أخذ الوزنات الخمس كان في ظلّ سيّده؛ ولكن، بقلب منشطر، وفهم ما يريده الله منه؛ فذهب وتاجر بما أعطاه. وكذلك، الّذي أخذ الوزنتين فهم، أيضًا، ما في قلب سيّده؛ فذهب وتاجر بهما. أمّا الّذي أخذ الوزنة الواحدة، فذهب وحفر في الأرض، وطمر فضّة سيّده. لماذا هذا الاختلاف بين الثّلاثة؟! لأنّ الله خلقنا أحرارًا، لكلّ منّا كيانه الثّابت في ذاته. العبد الأخير لم يكن يعرف أنّه سيأخذ وزنة واحدة. إذًا، كيف كان يحيا في مُلك سيّده؟! كان عبدًا بطّالًا، حتّى قبل أن يأخذ الوزنة. كان عبدًا للشّرّير، في منزل سيّده، مع إخوته. كان يوضاسَ الممتلئ حسدًا، وشرًّا، وعبوديّة... نعم، كان ممتلئًا بالعبوديّة لسّيد هذا العالم، للشّيطان، عدوّ البشر، كما يسمّيه الرّبّ يسوع المسيح. ونحن لو عرفنا أنّ الشّيطان هو عدوّنا، لَما أسلمنا أنفسنا إليه.

هذه هي المعرفة الحقّ، معرفة الخير من الشّرّ، الّتي علينا أن نفقهها، ونتعلّمها، ونرصدها. كثيرون يقولون: "لماذا خلقنا الله على هذا النّحو ضعفاء؟! نحن لا نريد أن نكون كذلك". ويُلقون باللّوم على الله، لا على أنفسهم؛ لأنّ الإنسان كلّما ابتعد عن روح الله، صار عبدًا لروح المضادّ. نحن نتأرجح، في حياتنا، بين النّور والخير، من جهة؛ والشّرّ والظّلمة، من جهة أخرى. لكنّ الرّبّ لم يتركنا، بل أتانا، أوّلًا، بالأنبياء؛ ثمّ بالرّسل، ومعلّمي الكنيسة، والآباء؛ وبالكتاب المقدّس، واللّيتورجيا؛ وبالّذين نذروا أنفسهم له، وسكنوا مغاورَ الأرض، والّذين ذُبحوا، وعُذّبوا، وعُلّقوا لأجله؛ وبالقدّيسين، والشّهداء، والأبرار؛ وبالرّهبان والرّاهبات؛ وبكلّ الّذين عرفوا، بالرّوح، ما في داخلهم من روح،

واختاروا الله، في حياتهم، تائبين عن خطاياهم!

هناك خيط مُمتَدّ من نفس كلّ واحد منّا إلى المسيح. عندما خلقنا الله، وجبلنا من روحه القدّوس، ربطنا بقدسيّته، ربطنا به، وبحبّه، وحنانه، وألوهيّته؛ فصرنا منه. فإذا علّقنا قلوبنا وعيوننا عليه، نبقى معه، ونصير مثله مسحاء. القدّيس أثناسيوس الكبير قال بالرّوح القدس: "الرّبّ تجسّد، وصار إنسانًا؛ لكي نصير نحن مسحاء، لكي يصير الإنسان إلهًا...". كذلك، كلّ مَن يتكلّم على الله، إنّما يتكلّم بالرّوح القدس السّاكن فيه، الّذي به خلقنا الرّبّ. يتكلّم بهذه الأقنوميّة الثّالوثيّة، إذ الثّالوث لا ينفصل: الآب في الابن بالرّوح القدس. إذًا، عندما خلقنا الله منه، أعطانا، بل ملّكنا هذه الوزنات، وزنات الرّوح القدس. فكيف نستطيع، بعد، ألّا نسمع، عندما يتكلّم الله؟! وألّا نعي، عندما يُرينا ويقبض علينا، على قلوبنا؟! وكيف لنا ألّا نحيا، عندما يجعل نفسه المثال لنا؟! في الحقيقة، نحن نفعل ذلك بإرادتنا، الّتي خلقها الله إرادةً حرّة في أن تختاره، ولم يُلزِمنا بنفسه. بتلك الإرادة، ذهب العبد الثّالث، وطمر فضّة سيّده في الأرض. طمرها، بادئ ذي بدء؛ لأنّه كان يحيا في بيت سيّده، وعينه ليست عليه، ولا على حبّه وسيادته، بل على نفسه، على قلبه، على ما يريده هو، على مشيئته، على ظنّه، على فكره، على أحاسيسه، على انفعالاته، على إرادته هو!...

كلّ هذه الأهواء تخرج من مشيئة الإنسان الذّاتيّة، والإرادة الشّخصيّة، والانفعالات، وهي كلّها من نتاج عبوديّتنا لأنفسنا، وأهوائنا، وخطيئتنا؛ ومن ثمّ للشّيطان. الحيّة – الشّيطان هي من نتاج عبوديّتنا لهذا العالم. لذلك، عندما أُعطي الإنسان وزنة، شعر بأنّ الوزنة هي أقلّ من الخمس وزنات، ومن الوزنتين. فلننتبه، هنا، جيّدًا! لو كان هذا الّذي أخذ الوزنة الواحدة يعرف، في عمق أعماق قلبه، أنّ الوزنة هي مثل الوزنات الخمس والوزنتين، وأنّ فيها الرّوح عينه الّذي في تلك؛ لَكان أخذ تلك الوزنة، وتاجر بها، وجعل لها، في عين ذاك الإنسان المسافر، أي سيّده، القيمة نفسها الّتي لتلك الوزنات الخمس والوزنتين؛ لأنّها، أصلًا، هي من تلك الوزنات، ومثلها كلّها، بالنّسبة إلى سيّده. ليس العدد هو المهمّ، بل النّوعيّة. سيّده أعطاه وزنة واحدة، لأنّ هذه طاقته على الحمل. فلو عمل بها، لَكان كثّرها، بأمانته وحبّه لسيّده، ولَكانت صارت موازية للوزنات الأخرى؛ لأنّه يكون قد

أطاع مشيئة سيّده، وتاجر بتلك العطاءات الّتي أعطاه إيّاها، وقدّمها إليه؛ ولَكان سيّده، أي الله، أدخله إلى فرحه، كما أدخل صاحب الوزنات الخمس وصاحب الوزنتين، إذ إنّه هو وزّع الوزنات كما يريد. الله يترك لنفسه حرّيّة التّوزيع كما هو يريد، لأنّه هو السّيّد ونحن العبيد! هذا جُلُّ ما أخذه الرّبّ لنفسه... صدّقوني، الرّبّ الإله لم يأخذ لنفسه شيئًا مختلفًا عمّا أعطانا إيّاه، إلاّ هذه الحرّيّة في أن يوزّع كما هو يشاء. أمّا ألوهيّته، فأعطانا إيّاها بالرّوح القدس، بالنّعمة؛ لنكثّرها وإيّاه في ملكوته ولملكوته. أعطانا أن نكون شركاء له ونعمل معه، ليُدخلنا إليه، ويُرينا ما هو فيه، ويعطينا ما عنده. وقد أعطانا، على هذه الأرض، الوزنات الخمس والوزنتين والوزنة الواحدة، ومنحنا ثقته. انتبهوا! منحنا ثقته، إذ إنّه أعطانا وسافر... لم يجعل نفسه رقيبًا علينا، بل سافر إلى مكان بعيد.

"وبعد زمان كثير، قدِم سيّد أولئك العبيد، وحاسبهم" (متّى٢٥: ١٩). هذه هي الدّينونة... هنا، يُدخلنا الإنجيليّ متّى، وتُدخلنا الكنيسة في واقعِ الدّينونة، وحقيقتِها، وسرِّها. نحن، هنا، على هذه الأرض، نؤدّي، في كلّ يوم، حسابًا من أجل الدّينونة.. والعبد الحكيم، بل التّلميذ الحبيب يعرف ذلك؛ فيؤدّي، في كلّ يوم، حسابه لربّه، كأنّ اليوم هو يوم دينونته وآخر أيّام حياته. لذلك، نقول: "انتبهوا"، "احترزوا"، "استفيقوا"، "استيقظ، أيّها النّائم"! الرّبّ منحنا زمانًا طويلًا، ثمّ عاد وأعطانا مُلكه. والمُلك هو الذّات. لقد أعطانا ذاته، لنعمل بها؛ فكيف ننام، ونسهو، والجوهرة الثّمينة ملك أيدينا؟! كيف ننام، ونسهو، ونار الرّوح القدس تحرق أحشاءنا وأشواك نفوسنا؟! كيف لا نحترق بالنّعمة وبالنّغمة الإلهيّة؟!... إذًا، علينا أن نحسب ونعرف؛ فنتاجر بالوزنة، لنكثّرها. علينا أن نعمل جادّين بعرقنا، ودمنا، وأتعابنا؛ لكي نجمّل ما عندنا، ونحسّنه، ونزيده... لكي نثمر، إذ نحن زرع الله، كما يقول الرّسول بطرس: "مولودين ثانية لا من زرع يفنى، بل ممّا لا يفنى، بكلمة الله الحيّة الباقية إلى الأبد" (١بط١: ٢٣)، لنصبح، فعليًّا، زرعَ الله؛ فيكثّرنا، ويسمّدنا. والله لا يجلس معنا ويحاسبنا: "افعلوا هذا، ولا تفعلوا ذاك"، بل يعطينا ويتركنا، كما ذكرنا سابقًا. وعندما نسأله، يجيبنا. وهو قد أرسل لنا الآباء القدّيسين، لكي يعلّمونا ما هم عرفوه منه من قبل، وما تعلّموه من أسلافهم وأجدادهم، بالرّوح القدس الّذي لم ينقطع عمله، منذ بدء الخليقة؛ إذ به خلقنا الله، وهو الّذي أتى إلى مريم وبشّرها.

إذًا، هو يأتي إلينا، ويبشّرنا بوجود المسيح الإله الرّبّ، الأقنوم الثّاني من الثّالوث، فينا، وفي قلب كلّ واحد منّا، إذا آمنّا!

وعندما يحين أوان الحساب والدّينونة، يبدو الّذي أخذ الوزنات الخمس فرحًا، ويعطي خمس وزنات أُخَر، قائلًا: "يا سيّد، خمس وزنات سلّمتني، هوذا خمس وزنات أُخَر ربحتها فوقها" (متّى ٢٥: ٢٠)، وكأنّه يقول: "لقد ربحت أكثر ممّا أعطيتني. كثّرت ما أعطيتني. أحببت ما أعطيتني. جمّلت ما أعطيتني. عملت بما أعطيتني. لأنّ زرعك جيّد، يا سيّد، فها إنّه أثمر عندي وفيّ. وبما أنّني كنت عاملًا، فقط، على هذا الزّرع: أعطيك فوق ما أعطيتني خمس وزنات أُخر. أنت أعطيتني خمس وزنات، وها أنا عملت بها؛ فأعطيك خمس وزنات أُخَر فوقها". إذًا، صار هذا العبد موازيًا لسيّده. الرّبّ أعطاه خمس وزنات، وهو بذاته يُعيد إلى الله ما أخذه منه، ويعطيه خمس وزنات أُخر ربحها بنفسه؛ لأنّه هو أيضًا خلق، وزرع، وسقى، وأثمر، ونمّى. إذًا، هو وسيّده صارا واحدًا. صار هناك سيّد، وسيّد صغير على مثال الأوّل؛ لأنّ الشّجرة تُعرف من ثمرها، كما يقول الرّبّ: "من ثمارهم تعرفونهم" (متّى ٧: ١٦).

هذه هي الألوهة. هذه هي الموازاة بيننا وبين الله. هذا ما يريده الله منّا: أن نصير مثله، نعطيه ما نأخذه منه، ونظير ما يعطينا إيّاه هو. عظيم هو الله في قدّيسيه، وعجيبة هي أعماله! هذا هو عمل الرّوح القدس فينا. واللّافت ما قاله ذاك العبد لسيّده، عندما أعطاه الوزنات الخمس الّتي ربحها. قال له: "ربحتُها". إذًا، هناك ربح، وهناك خسارة. والرّبّ يريدنا أن نربح دائمًا. معه، ليس هناك سوى ربح. ربحَ هذا العبد خمس وزنات، ربح الجعالة، ربح الله؛ فقال له سيّده: "نعمّا، أيّها العبد الصّالح والأمين. كنت أمينًا في القليل، فسأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيّدك" (متّى ٢٥: ٢١). هنا، نحن نعرف أنّ السّيد هو الرّبّ نفسه، وقد أدخله إلى فرحه، أعاده إلى الفردوس الّذي طرد هو نفسه منه...

المشكلة أنّنا، عندما نبدأ بالحياة، لا نعرف أنّ الله هو الله، وأنّ كلّ ما لنا هو منه؛ لذلك، نحن نعمل له، وفيه، ومنه، وإليه: "الّتي لك ممّا لك نقدّمها لك". هذا كلّ ما عندنا. قال له: "ادخل إلى فرح ربّك". أدخله إليه، جعله واحدًا وإيّاه. "ثمّ جاء الّذي أخذ الوزنتين، وقال: يا سيّد، وزنتين سلّمتني. هوذا وزنتان أُخريان ربحتهما فوقهما"(متّى ٢٥: ٢٢).

وأيضًا كان جواب الرّبّ: "نعمّا، أيّها العبد الصّالح والأمين. كنت أمينًا في القليل، فسأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيّدك"(متّى ٢٥: ٢٣).

إذًا، الله يعطينا التّماعات ممّا عنده، يعطينا وزنات قليلة، يبدأ بالعطاء، بالبذل. لذلك، أقول لكم: "فلْنبدأ بالعطاء! فلْنعطِ كلّ حياتنا لربّنا! وهو، معنا ومع الآباء الرّوحيّين، سيكثّر هذا العطاء، ويجعله مثمرًا؛ لكي نُعيده إلى سيّدنا، يوم الدّينونة؛ فنسمعه قائلًا: "نعمّا، أيّها العبيد الصّالحون الأمناء. كنتم أمناء في القليل، فسأقيمكم على الكثير. ادخلوا إلى فرح ربّكم"".

أمّا الّذي أخذ الوزنة، فقال له بجرأة ووقاحة، وبروح شيطانيّة وإدانة: "علمتُ أنّك إنسان قاسٍ، تحصد حيث لم تزرع، وتجمع من حيث لم تبذر"(متّى ٢٥: ٢٤). كيف علمت هذا، يا أيّها الإنسان؟! علمتَ لأنّك أَصْخْتَ بأذنك إلى العالم، أصخْتَ إلى الإنسان الفاسد، أصخْتَ إلى الشّيطان، أصخْتَ إلى الحيّة الّتي قالت لك: "أنتَ لستَ في مكان جيّد هنا، وهذا ربّكَ ليس بعادل"!

هذه هي الحرب الكبرى بين الشّيطان والرّبّ، بين الخير والشّرّ، بين إله السّموات والأرض والكون والأبديّة وإله هذا العالم. الشّيطان سقط، لأنّه أزاح نظره عن الله، لأنّه شكّ... هكذا، يريد أن يُسقطنا معه إلى هذا العمر، إلى هذه الحياة، إلى هذه الأرض. ولكن، هذه الأرض ليست لنا. نحن، هنا، نُمضي فترة بسيطة. أمّا الحياة، فهي الحياة الأبديّة. نحن سقطنا بإرادتنا، بفعل ابتعادنا عن الحبّ الإلهيّ، وعن وجه السّيّد. هذا ما يريده الله من هذا المثل. نزل إلينا ونحن عبيد للشّرّ، وأعطانا من ذاته، من عنديّاته، من ربوبيّته... ومن ثمّ ابتعد عنّا، ليرى ماذا نعمل، وكيف نعود إليه بملء حرّيّتنا، ليُصعدنا من هنا، ويُدخلنا معه إلى أزليّته، إلى فرحه.

إذًا، هذا العبد الأخير حكم على سيّده، لأنّه أصاخ بأذنه إلى الشّرّير، الّذي ليس له ما يفعله سوى أن يتّهم ويدين. ولكن، لا تخافوا ممّا فيكم، إذ إنّ ما فيكم هو ما في صاحب الوزنات الخمس وصاحب الوزنتين، وما في صاحب الوزنة الواحدة أيضًا. لكن، انتبهوا! صاحب الوزنة لم يماثل صاحب الوزنات الخمس، ولا صاحب الوزنتين؛ لأنّه

أصاخ بأذنه إلى "ضدّ المسيح". و"ضدّ المسيح" هو مَن يقول لكم: "لا تسمعوا الرّبّ يسوع، لا في إنجيله، ولا في كنيسته، ولا في تقليد الكنيسة، ولا في الآباء". أمّا ما يقوله الله، فهو أنّ كلّ مَن يختار الرّبّ عن حقّ، ويُلزم نفسه بالجهد، والأمانة له، والتّمييز، والسّماع، والطّاعة؛ فإنّه يكون ابنًا له إلى الأبد، ويعمل على الوزنة الّتي سلّمه إيّاها، ويتنقّى، ويبكي، ويجاهد... وفي النّهاية، الله يُكْرِمه إكرامًا عظيمًا. بينما صاحب الوزنة الواحدة، ذاك الّذي اتّهم سيّدَه وأدانه، وكان عبدًا للشّيطان، فعندما جدّف على الألوهة، عندما جدّف على الخير، عندما جدّف على البهاء؛ قال له سيّده: "أيّها العبد الشّرّير"(متّى٢٥: ٢٦). نعته بنَعتِه: "عبد شرّير"، "أنت هو الشّيطان"، "أنت عبد للشّيطان، وشرّير بذاتك، وكسلان؛ لأنّك لا تريد أن تعمل، بل أن تصرف أيّامك في اللّهو والزّنى، في هذا العالم، وفي حبّ مال هذا العالم، وفي كبريائه، وبهرجاته"... لذلك، قال له: "أنت عبد شرّير وكسلان"، لأنّ أولئك الّذين يسكنون في هذا العالم لا يريدون أن يعملوا. انتبهوا! نحن عمّال! نحن جنود للمسيح، نعمل في الخير، لنكثّر الخير لنا وللعالم! أمّا هذا الشّرّير، فإنّه لا يفعل شيئًا سوى أن يتسلّط، ويدين، ويحقّر، ويكره، ويجعل له عالمًا هو عالم الدّينونة والكسل...

من هنا، علينا أن نقول دائمًا: "لا لنا، يا ألله، لا لنا، بل لاسمك أعطِ مجدًا" (مز١١٤: ١). علينا أن ندعو باسمه. هكذا، نفرّ من كلّ ما في هذا الإنسان الحامل الشّرّ الكونيّ، الحامل الشّرّ في هذا العالم، صاحب الوزنة الواحدة؛ لنرتقي، ونحن هنا، من هذا العالم إلى عالم آخر، إلى الفردوس... نحن، هنا، عابرون، لا نتمسّك بشيء... لذلك، نحن تركنا كلّ شيء، تركنا أموالنا، وأهلنا، وبيوتنا... وتبعناه، لأنّه هو دعانا، قائلًا: "مَن لم يترك أبًا، وأمًّا، وابنًا، وبنتًا، وأموالاً، وأرزاقًا، ويحمل صليبه ويتبعني، فلا يستحقّني" (لو١٤: ٢٦- ٢٧). وما هو صليبنا؟! إنّه هذه النّفس الّتي استعبدَت للشّيطان، يوم استمعت إليه، ولا تزال تستمع إليه، ولا تريد أن تتوقّف عن الاستماع إليه! لذلك، علينا أن نُصِمَّ آذاننا، ولا نسمع نداء الشّيطان والكسل، وإلّا سيقول الرّبّ، في يوم الدّينونة، لكلّ مَن استمع إلى الشّرّير، ما قاله لهذا العبد الشّرّير الكسلان: "عرفتَ أنّي أحصد من حيث لم أزرع، وأجمع من حيث لم أبذر؛ فكان ينبغي أن تضع فضّتي عند الصّيارفة. فعند

مجيئي، كنت آخذ الّذي لي مع ربًا" (متّى٢٥: ٢٦).

لا تقدر، أيّها العبد الشرّير، أن ترمي ما أعطاك إيّاه الله! والله قد أعطى، على الأقلّ، وزنةً واحدة لكلّ إنسان على وجه الأرض؛ فلا تقولنّ نَفْسٌ: "أخي عنده أكثر منّي"، لأنّ كلّ الوزنات هي واحدة في الله. كما الثّالوث هو منفصل وواحد، كذلك الوزنات هي منفصلة، لكنّها واحدة؛ لأنّها تأتي من منبع واحد، من سيّد واحد، من ربّ واحد. وما علينا نحن إلّا أن نجعلها مُثمرة بالحبّ، والجهاد، والأمانة؛ ونكثّرها؛ لنصير والله واحدًا، حتّى لا يرمينا في الظّلمة الخارجيّة. هذه هي الدّينونة. الله يقبل أيَّ عطاء منّا له، حتّى ولو كان جهدًا بسيطًا أمانةً، "لأنّ كلّ مَن له يُعطى فيُزاد؛ ومَن ليس له، فالّذي له يُؤخذ منه. والعبد البطّال اطرحوه في الظّلمة الخارجيّة. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان"(متّى٢٥: ٢٩- ٣٠)...

١٠ شباط ٢٠٠٢

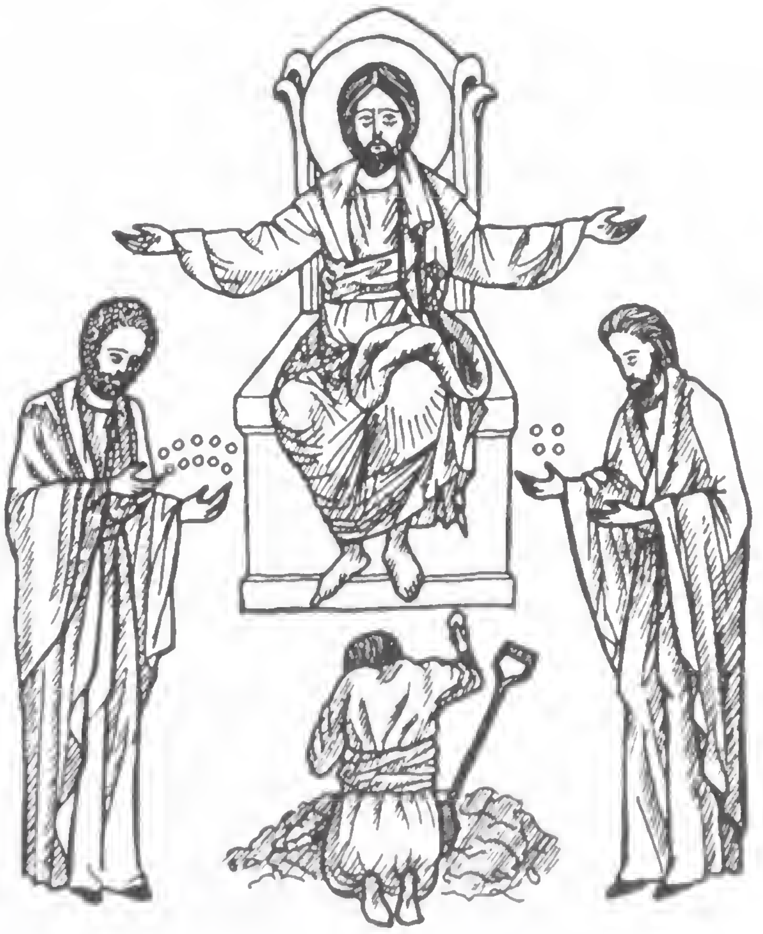

الجالسون في الظّلمة وظلال الموت
أشرق عليهم نور عظيم*

(متّى١٥: ٢١- ٢٨)

إنجيل الكنعانيّة هذا يُحَيِّر الكثير من النّاس، بسبب الموقف الّذي اتّخذه يسوع بإزاء المرأة الطّالبة الشّفاء لابنتها، من خلال طَرد الرّوح الشّرّير الشّيطانيّ منها... تلك المرأة كانت تعرف أنّ هذا الّذي يجوز في أرضهم، في نواحي صور وصيدا، حيث الظّلمة وظلال الموت، هو الرّبّ الإله، وهو ابن داود، وقد أتى ليخلّص العالم... هذا على الرّغم من أنّها امرأة كنعانيّة، وثنيّة المذهب والإيمان، ولا نعرف ما إذا كانت تحيا في الخطيئة، أو لا، وما إذا كانت ابنتها من زوج لها أو لا!... فهذا لا يوضحه الإنجيليّ، في إنجيل اليوم، وكأنّه يريد أن يتغاضى عن هذه الأمور الثّانويّة، ليصل إلى موقف تعليميّ عميق، مؤدِّب للتّلاميذ؛ يسمح الرّبّ، من خلاله، لتلك المرأة الوثنيّة بأن تجتاز من الأمميّة إلى الإيمان الحقّ، إلى معرفة ابن الله، إلى الصّراخ لله، إلى اليقين، الّذي كانت تشعر به في قلبها، أنّ هذا الإنسان قد أتى ليخلّص العالم وجميع الخطأة "الّذين أنا أوّلهم" (١تيمو١: ١٥)...

واسمحوا لي، هنا، بأن أُشير، لمحًا، إلى حسّ المرأة العميق بإعلانات الظّلمة، والإعلانات الإلهيّة أيضًا... إذ خلق الله المرأة روحًا من روحه، وحسًّا من حسّه، ولمحًا من نور نعمته، وعطاء أحشاء من عطائه... جعل المرأة أمًّا له، من خلال مريم الّتي ارتضى أن يولد من حشاها، ومن ثمّ جعلها أمّ الكون الّذي هو ألّهه!...

حبيبةٌ هي الكنعانيّة إلى قلبي، ولا أعرف لماذا! ألِأنّ مسكنها هو بلادنا، شواطئنا الّتي جاز فيها البحّارة، وسبَوا نقاوة أرضها، وخرّبوا، بتجارتهم، قلوب ساكنيها، واستباحوا نساءها؟! إنّني أخاف التّجارةَ، والمالَ، والظّلمَ، والعهرَ؛ وأسجد قدّام ربّي وإلهي

---

* إش٩: ٢؛ متّى٤: ١٦.

ووالدته، طالبةً إليهما أن يخلّصا شعب الله، ويحملاه إلى التنقية، إلى البرء من جميع خطاياه، إلى الخلاص؛ ليُسْكناه في عدل فردوس الإله الّذي أعطاه مجّانًا، وبحبّ كبير، لجميع أبنائه. "السّاكنون في الظّلمة وظلال الموت قد أشرق عليهم نور عظيم" (إش٩: ٢؛ متّى٤: ١٦).

هكذا، كانت تلك المرأة الكنعانيّة ساكنة في تخوم. لم يقل الإنجيليّ إنّها كانت ساكنة في مدينة، أو في قرية، بل في تخوم! تلك التّخوم كانت قابعة في الظّلمة، والسّواد، والقهر، والفقر، وعبادة الوثن، والدّنس، وأكل اللّحوم... بل أكثر من ذلك، في ما تعرفه كلّ نفس من نفوسنا. إلى أين بإمكانها أن تغوص في رداءتها، وخطيئتها، وحقارتها؟!... إلى تخوم العتمة تلك ذهب الرّبّ، الّذي كان في بلاد أورشليم. هو الّذي أتى، كما قال، فقط، لأجل الخراف الضّالة من بيت إسرائيل (متّى١٥: ٢٤). هكذا، خرج، في هذا الإنجيل، من إسرائيل، من بين الخراف الّتي له، من بين قطيعه، إلى الخروف الضّال في العتمات! خرج إلى الأمم، إلى الأمميّة. ونحن نعرف، من كتابة آبائنا، أنّ الله كان يريد أن يبشّر الأمم بالرّوح القدس، بعد صعوده وحلول روحه القدّوس على تلامذته، في العنصرة المجيدة. لكنّ إلهنا، دائمًا، يتعامل معنا بهذه الطّريقة. هو يخترق حُجُبنا، والسّقف الّذي نضعه للأشياء، والحدود التي نرسمها. يُخرجنا من محدوديّتنا إلى انفراجات حبّه وآفاقه، إلى التماعات نوره، إلى اللّايقين الّذي يريدنا أن ندخل فيه وبه ومنه، لنعرف الأسرار... لذلك، لم يَبْقَ يسوع عند الخراف الضّالة من بيت إسرائيل، بل أتى أيضًا إلى الأمميّين، إلى الوثنيّين الكنعانيّين، السّاكنين في نواحي صور وصيدا، إلى المرذولين، والمحتقَرين عند شعبه... أتى مع تلاميذه – وقد كان، في أغلب الأحيان، برفقتهم – ليلتقي تلك المرأة. أتى، في هذا الإنجيل، لينقض كلّ ما كان تلاميذه عليه، من فكر، وقلب، وروح، وحسّ، وعقيدة، وشريعة، وإيمان. كلّ هذا أتى ليمحوه بحبّه العظيم، وبرأفاته، وأحشائه، وخلاصه الّذي أعطاه، مجّانًا، لكلّ الأمم؛ ومن ثمّ لكلّ البشريّة. هو أتى إلى تخوم صور وصيدا، وتلك المرأة خرجت إليه لتلتقيه. موعد الحبّ هذا هو وعد الحياة الجديدة له فيها، ولها منه... هو أتى إليها وهي خرجت إليه... إذًا، هناك حالة خروج من قبله ومن قبلها ليلتقيا. وقد التقيا عند حاجة المرأة إلى الخلاص، عند صراخ المرأة له، هي الّتي كانت تعرفه إمّا بالسّماع، وإمّا بالقلب، وإمّا بحركة الرّوح في كيانها. عرفت أنّه الإله، وأنّه

الرّبّ، وأنّه ابن داود. وكانت تصرخ قائلة إنّ شيطانًا يسكن في ابنتها. الشّيطان يسكن في القلوب، والنّفوس، وكلّ الأماكن الخالية من وجود الله. والرّبّ أتى لينظّف تلك الأرض، وتلك النّفوس، وتلك البيوت، وذاك الإيمان، وذاك الشّعب، والأمّيّة بكلّيّتها من ربقة الشّيطان...

كانت تصرخ عاليًا. والصّراخ يحتاج إلى واقع يستدعيه... كانت تصرخ: "ارحمني، يا ربّ، يا ابن داود، فإنّ ابنتي بها شيطان" (متّى١٥: ٢٢). وبقولها "ارحمني" كأنّها تقول: "سامحني، فإنّ الشّيطان سكن ابنتي بسببي أنا، بسبب خطاياي أنا... سامحني! اغفر لي! بدّد خطيئتي، وانسها، وأدخِلني في رحمك، أدخلني في نورك! امدد لي يدك، إصبعك، قلبك، نَفْسَك، روحك! قُلْ كلمة فقط، فتُشفى ابنتي". هذا ما قاله له قائد المئة: "قل كلمة فقط، فيُشفى غلامي" (متّى٨: ٨). كانت تلك الأمّيّة تصرخ: "أَخرِجِ الشّيطان من ابنتي، لتشفى"... لكنّ التّلاميذ، حافظي الشّريعة، وحافظي الرّبّ يسوع المسيح، تضجَّروا منها؛ فهي وثنيّة، أمّيّة، كنعانيّة! وهي، بالنّسبة إلى الشّريعة والفكر اليهوديّ، مثل كلبة؛ فاليهود كانوا يُسمّون الأمّيّين والوثنيّين: "كلابًا"، وكانوا يخافون أن تنجّسهم تلك الكلاب... وأكثر من ذلك، في الفكر اليهودي، هناك دعاء يردّده الرّبّاي، أو الرّجل، صباح كلّ يوم، قائلًا: "أشكرك، يا ربّ، لأنّك لم تخلقني لا أمّيًّا، ولا امرأة، ولا كلبًا أو حمارًا". والتّلاميذ أيضًا كانوا يخافون من قربى تلك المرأة، حتّى لا تنجّسهم. فضرب الرّبّ يسوع بكلّ هذا عُرْض الحائط، وأتى إليها ليخلّصها وابنتها، ويطرد الشّيطان من ابنتها، ومن تلك التّخوم؛ فتذهب وتبشّر به... أوّلًا، المرأة الكنعانيّة آمنت من خلال سماعها بالرّبّ المخلّص. وثانيًا، انتظرت، لقاء إيمانها، أن يُطرَد الشّيطان من ابنتها؛ لتذهب من ثمّ وتبشّر جميع السّاكنين في الظّلمة وظلال الموت بأنّ الرّبّ شفى ابنتها وخلّصها، "وخلّصني أنا الخاطئة، أيضًا". وابنتها لم تكن معها في ذاك اللّقاء... هي لم تأتِ بها إلى الرّبّ، لأنّها التزمتها، كما التزم الرّبّ البشريّة... أحبّها في الحشا، وهي فعلت نظيره أيضًا... أمّا تلاميذه، فرفضوها. لكنّ الرّبّ يسوع لم يستمع إلى صراخ تلاميذه: "اصرفها، فإنّها تصيح في إثرنا" (متّى١٥: ٢٣)، بل أجابهم بما هم يريدون، بما هو موجود في قلوبهم. قال لهم: "لم أُرسَل إلّا إلى الخراف الضّالّة من بيت إسرائيل"

(متّى١٥: ٢٤)، وكأنّه يعطيهم أن يحملوا وزنة بقوله إنّه أتى إليهم، إلى الخراف الضّالّة، إلى اليهود فقط، ليتوبوا كلّهم إلى معرفة الحقّ الّذي ينكرونه... والمرأة لم تأنف منهم، لأنّها كانت تشتعل بالخلاص، تشتعل بالإرادة، إرادة الشّفاء لها، ولابنتها، وشعبها، ولكلّ الّذين تنتمي إليهم، السّاكنين في الظّلمة وظلال الموت، في تلك التّخوم...

"فأتت، وسجدت له، قائلة: أغثني، يا ربّ" (متّى١٥: ٢٥). كانت تعرف أنّه هو الشّافي، هو المخلّص، هو المعلّم، هو الطّبيب، هو الإله. كانت تغرق، وتختنق هي وابنتها، وكان الشّيطان يتآكلها وابنتها وأرضها، وينجّس قلبها، ويجعلها تضطرب صبحًا ومساءً. كانت مُختلّة!... أتعرفون كيف يتمزّق قلب السّلام في الإنسان، عندما يسكن الشّيطان في نفسه، أو تأتيه تجربة شيطانيّة كبيرة؟! وكيف تضطرب أحشاؤه، ويخاف، وتُظلِم عيون روحه وقلبه وفكره؟! "أغثني يا ربّ. فأجابها قائلًا: ليس حسنًا أن يؤخَذ خبز البنين ويُلقى للكلاب" (متّى١٥: ٢٥- ٢٦). هنا أيضًا، كأنّه كان يقول لتلاميذه والّذين معه: "أترون؟! أنا إلى جانبكم، أنتم الّذين تظنّون أنّ هذه الأمميّة هي كلبة". قال لها ما كان يجول في فكرهم هم. والرّبّ، هنا، كان يريد أن يعلّمهم أنّ الشّفاء يحصل بالله، بنظرته، بوجوده، بمعرفتنا إيّاه، عندما يلتفت هذا القلب إليه – وليس عليه، أحيانًا، أن يطلب – يشفينا؛ لأنّه "أتى ليخلّص ما قد هلك" (لو١٩: ١٠). لكنّه كان يريد أن يجاري أولئك التّلامذة واليهود بفكرهم، ليعلّمهم الدّرس الكبير، ألا وهو التّواضع... وعندما قال هذا، أجابته: "نعم يا ربّ، [نعم أنا أوافقك أنّني كلبة. أنا كنعانيّة، أنا وثنيّة. نعم، أنا أُوافقكَ]، فإنّ الكلاب أيضًا تأكل من الفتات الّذي يسقط من موائد أربابها" (متّى١٥: ٢٧). إذًا، أَعلَنَته ربًّا وإلهًا لها. وهي، كمريم، تريد أن تسجد عند قدميه، وتأكل من الفتات الّذي يعطيها إيّاه، من حنانه، من لَمْس قدميه. "أنتَ ربّي وإلهي": هكذا كان صراخها، كمثل صراخ توما الرّسول، يوم شكّ، إذ قال للرّبّ: "ربّي وإلهي"، فقال له يسوع: "لأنّكَ رأيتَ، آمنت، يا توما" (يو٢٠: ٢٧- ٢٩). هنا أيضًا، هذه المرأة صرخت! الكنعانيّة الوثنيّة صرخت إلى الرّبّ قائلة: "أنتَ ربّي وإلهي". لقد انكسرت حتّى الأخير، ولم تهمّها كرامتها، إذ ليس من كرامة في الحبّ... هذه كانت تحبّ ابنتها، وتحبّ خلاصها وشعبها، وتريد أن تخلص من الظّلمة وظلال الموت، تريد أن تنفجر

خارجةً من عتاقة جسدها، من عتاقة فكرها، من عتاقة إيمانها، من وثنيّتها، من أكلها للّحوم المستباحة للأوثان... تريد أن تخرج من ظلمة الشّياطين الّتي كانت مسيطرة على قلبها وفكرها، وعلى جسد ابنتها، على أحشائها، على كيانها، على كلّ أمّتها... كانت تطلب أرضَ ميعاد جديدة، أرضَ الحيّ الوحيد، أرضَ الحياة، لا أرضَ الموت... تعبت الكنعانيّة من شعبها وإرثها المستباح للظّلمة، وفي قلبها يسكن روح الرّبّ المخبوء في الظّلمة! أحسّته؛ فصرخت إلى مبدع ذاك النّور": فجّره لأحيا فيه، لأشفى أنا وابنتي، لأخرج من الموت إلى الحياة، من الصّليب إلى القيامة!"... كانت تريد أن تخرج هي وابنتها وشعبها، وكانت تعرف أنّها، حين تخرج هي، يخرجون هم أيضًا. لم تترك كرامةً لنفسها! ما من كرامةٍ في الخلاص! ما من كرامة، في الحبّ، للإنسان الّذي يريد أن يخلص، الّذي يريد أن يحيا. لذلك، قبلت الكنعانيّة أن تنكسر، شيئًا فشيئًا، تحت مطرقة الرّبّ، الّذي أذلّها أوّلًا، وثانيًا، وثالثًا. وفي كلّ مرّة، كانت تنزل إلى أعماق ظلمة كبريائها، ليتفجّر منها، أخيرًا، نور التّواضع، نور الحياة والصّحّة... هنا، كانت تصرخ طالبة أن تخرج من الموت الّذي أَسكنها فيه الشّيطان؛ فقال لها الرّبّ: "يا امرأة، عظيم إيمانكِ! فليكن لكِ كما أردتِ!" (متّى ١٥: ٢٨)، وأعطاها ما أرادت.

إرادتها في الخلاص كانت إرادة الرّبّ يسوع في الخلاص! وهنا، ساواها الرّبّ يسوع بنفسه. الرّبّ لم يعامل إنسانًا، في كلّ الأناجيل، كما عامل المرأة الكنعانيّة! لقد ساواها بنفسه، هو الّذي أُذِلّ، واحتُقر، وضُرب، وبُصِق عليه، وقيل عنه إنّه صديق الزّواني والعشّارين، ولم يُعرَف كإله... وهو قبلَ كلّ ذلك! وثمنًا لكلّ الظّلم الّذي حلّ به، قدّم قيامة. والمرأة الكنعانيّة كانت تحبّ من حبّ الرّبّ؛ فأذلّها هي أيضًا. صلبها على صليبه، وأَذلّها كما أُذِلّ هو، ليعرف الشّعبُ أنّ المرأة الأمميّة والكنعانيّة ليست برسم الخطيئة الأبديّة، ولا برسم الموت الأبديّ، بل هي، بالرّبّ يسوع، برسم الخلاص، وبرسم الإيمان العظيم!...

في هذا الإنجيل، ضرب الرّبّ يسوع المسيح بكلّ أفكار اليهود عُرضَ الحائط، وأقام الخلاصَ للبشريّةِ، للإنسانيّةِ المُحبّةِ. هو أعطاها الخلاص، لأنّه يريد الخلاص لكلّ النّاس الّذين يعرفون خطاياهم، ويحبّون، ويطلبون الخلاص، ويذلّون أنفسهم

ليخرجوا من مواتيّة أنفسهم، ومن مواتيّة خطاياهم، ومن مواتيّة الشّيطان القابض عليهم... "وبنورك نعاين النّور، يا ألله". تلك المرأة الكنعانيّة كانت عند الرّجال واليهود مُحتقَرَة، ومُهمَّشَة، وخادمة لأهوائهم، وبيوتهم: تمسح، وتكنس، وتربّي الأولاد... ولكن، لم يكن لها الحقّ في أن تحيا كما هم يظنّون أنّ الشّريعة تحييهم... فأتى الرّبّ، وضرب بكل ذلك عرض الحائط، وقال: "ليس رجل ولا امرأة، ليس عبد ولا حرّ، ليس وثنيّ ولا إسكيثيّ. الجميع واحد في المسيح" (غلا٣: ٢٨؛ كول٣: ١١). هذه هي الكونيّة الخلاصيّة، هذا هو الحبّ الكبير، الّذي لا نعرفه إلّا بالرّبّ يسوع وفيه ومنه، خلاصًا لكلّ الّذين يأتون إليه.

الكنعانيّة امرأة حبيبة إلى قلبي؛ أوّلًا، لأنّها طالبة الخلاص. وثانيًا، لأنّها امرأة. وحبّ المرأة عظيم! وِسْعُ المرأة عظيم! موتُ المرأة عن نفسها لأجل الخلاص، ولأجل الآخرين الخطأة عظيم أيضًا، لأنّها صورة والدة الإله! والدة الإله موجودة في كلّ امرأة، في كلّ وجه بشريّ على وجه الأرض. لكنّها، بخاصّة، موجودة في كلّ امرأة قَبِلَتْ أن تختفي، ليظهر ربّها؛ أحبَّتْ أن تموت لأجل خلاص إلهها؛ أحبّت أن تختفي وراءه، وسَعَت لأن تتنقّى باستمرار! وهذه الكنعانيّة أتت لتتخلُص من كلّ خطاياها وعتمات نفسها، من كلّ ذلّ خطيئتها؛ لتحتضن ابنتها قربها، خلاصًا جديدًا؛ ولتحتضن المسيح، في نفسها، مولودًا إلهًا لها ولابنتها ولشعبها، وأيضًا لأولئك التّلاميذ الّذين أتوا ليتعلّموا منها أنّ الفكر الرّجليّ مريض، إن لم يعرف السيّد؛ والرّجولة مريضة، إن لم تُشفَ بحنان السّيّد، وبوسعه، وعظمته، وألوهته!...

"عظيم إيمانكِ" (متّى١٥: ٢٨)! هذا ما قاله الرّبّ، أيضًا، للمخلّع، وللّذين أتوا بالمخلّع، ولقائد المئة. وكذا يقول لكلّ قلب من قلوبنا، لكلّ نفس من نفوسنا، لكلّ شهقة روح: "لا تخافوا، أنا هو (متّى١٤: ٢٧)، [أتيتُ لأجلكم، فاصرخوا فقط: بنات نفوسنا هي كلّ خطايانا؛ فتعال يا ربّ، تعال، واسكن في بنات أفكارنا، ونفوسنا، وقلوبنا، وعقولنا، وأَخرِج الشّيطان منّا! أَخرِج الظّلمة منّا، وسامحنا، وساعدنا، لكي نجاهد؛ فنخلص من أهوائنا، ونبشّر باسمك، حتّى آخر الأزمنة!]"...

فلْنطلبْ إلى الرّبّ أن يُعطينا إيمان الكنعانيّـة. والإيمان الكبير لا يأتي إلّا بعد الوجع الكبير، حين تستقرّ الخطيئة فينا، ويحاربنا شيطان أهوائنا، الّتي تدمّرنا لتقودنا إلى الموت.

بالرّبّ يسوع، فقط، نحيا، ونخرج من الموت الّذي أذلّنا، ويريد أن يذلّنا؛ إذ لا موت في المسيح، فهو قد أُذِلّ، وصُلِب، وقام. ونحن نُذَلّ بخطيئتنا، لنَصلَب على أهوائنا. وإن عرفناه، نصرخ إليه؛ فيقيمنا معه على الصّليب، في الوجع، في الصّرخة، إلى الخلاص، وإلى حياة أبديّة.

١٧ شباط ٢٠٠٢

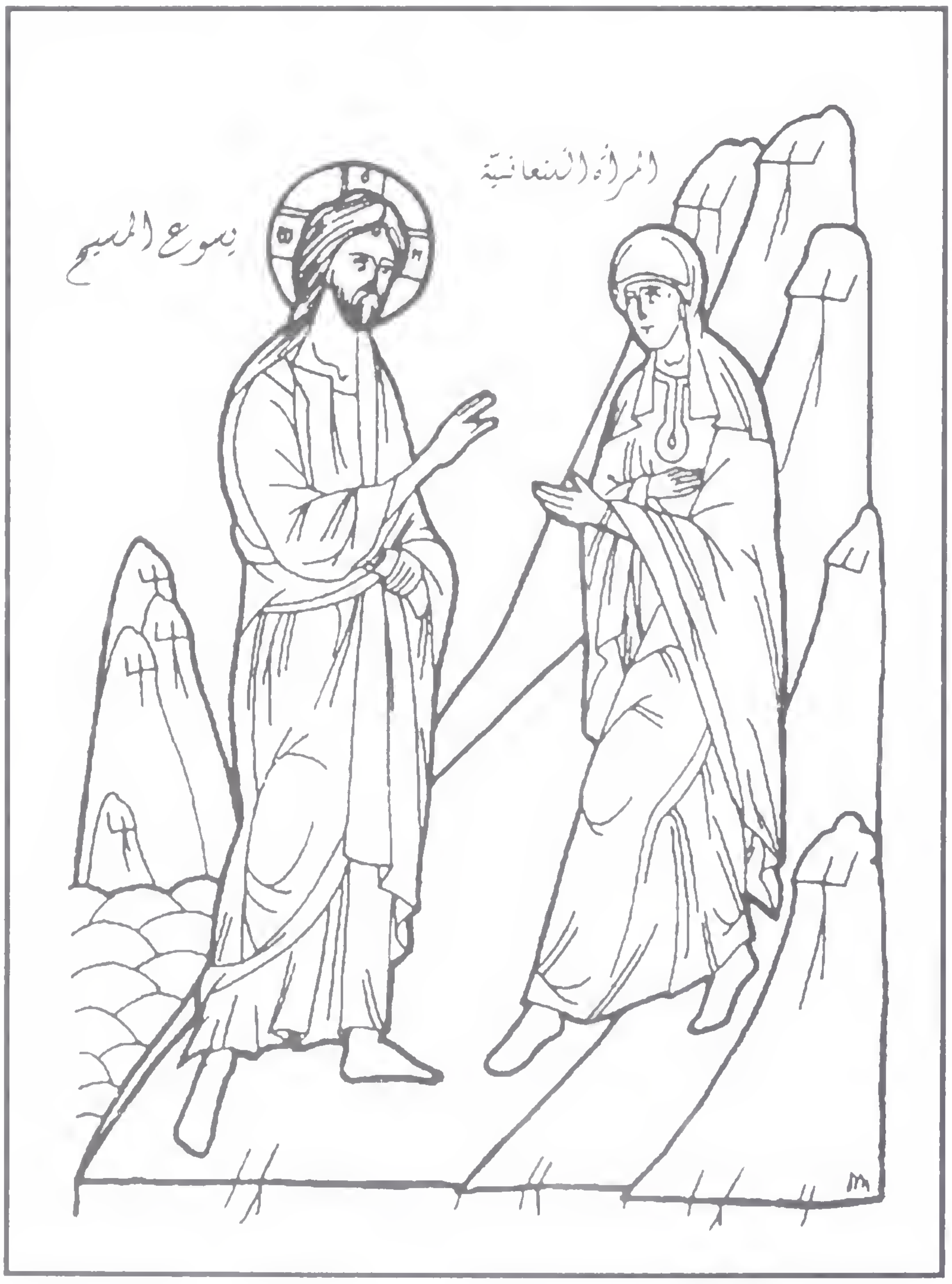

جسر الخلاص ما بين الفرّيسيّ والعشّار

(لو١٨: ١٠- ١٤)

إنجيل الفرّيسيّ والعشّار هو، في الحقيقة، إنجيل التّوبة: "توبوا، فقد اقترب ملكوت السّموات" (متّى٣: ٢، ٤: ١٧). يسبق "أحدَ" الفرّيسيّ والعشّار "أحدُ" الكنعانيّـة، تلك الرأة الّتي أتى المسيح، مع تلاميذه من ديارهم إلى ديارها؛ ليخلّصها. وقد شهدنا انكسارها حتّى النّهاية. لم يعرف الإنجيل كلّه اتّضاعًا، ووسعًا، وحبًّا للإله، ولِمَن لنا حتّى يخلصوا، كما في الكنعانيّـة. وقبل الكنعانيّـة، سِرنا مع الرّبّ مارًّا من تحت الجمّيزة الّتي صعد إليها زكّا؛ حتّى يُنزله من علياء مجد قبّته، ويضعه إلى حبٍّ، واستكانةٍ، وهدأةٍ في الرّبّ يسوع المسيح، وتوبةٍ، وعطاءٍ. أيضًا، لم نرَ، في الإنجيل، أحدًا أعطى وبدّد كما أعطى زكّا. بعد أن كان عشّارًا كبيرًا، صار تلميذًا للرّبّ يسوع من أجل خلاصه (لو١٩: ١- ١٠). واليوم، يعطينا الرّبّ يسوع المسيح، في بشارة القدّيس لوقا، هذا المثلَ، مثلَ الفرّيسيّ والعشّار، مُظهرًا لنا ما نحن عليه.

"إنسانان صعدا إلى الهيكل، ليصلّيا. واحد فرّيسيّ والآخر عشّار" (لو١٨: ١٠). يتبادر إلى ذهني، هنا، أنّ هذين الإنسانين هما إنساننا العتيق المتمثّل بالفرّيسيّ، وإنساننا الجديد المتمثّل بالعشّار. ربّما ما أرادنا الرّبّ، اليوم، أن نفهمه هو أنّ أحدًا منّا، نحن الّذين أتينا بملء إرادتنا وبيده الّتي ساقتنا إلى هذا الدّير، أو إلى أيّ دير آخر، أو إلى أيّة صلاة، أو إلى أيّة وقفة قدّام الرّبّ وحياة معه، أقول إنّ أحدًا منّا ليست له هذه العشارة الكاملة، ولا هذه الفرّيسيّة الكاملة، في نفسه. نحن لسنا فرّيسيّين فقط. ربّما نأتي إلى الرّبّ، بل من المؤكّد أنّنا نأتي إلى الرّبّ ونحن فرّيسيّون، ونقول له: "أترى؟ نحن آتون إليك، حاملين كراماتنا وما نريد أن نقدّمه، وما أوصيتنا به. انظر إلينا؛ فنحن عرفناك، أنت إلهنا، أتيتَ إلينا، نحن الشّعب المختار، وعرَّفتنا ذاتك، وصيّرتنا أطهارًا، ولأجلنا وبنا رَدَدْتَ كلّ الباقين، كلّ الشّعوب الأخرى المدنّسة". هذا ما قاله الفرّيسيّ، حين صعد إلى هيكل

الرّبّ، وراح "يصلّي في نفسه" (لو١٨: ١١). أريد، هنا، أن أتوقف عند هذه العبارة: "يصلّي في نفسه...".

كان هذا الفرّيسيّ مخبوءًا في قلبه، يتمخّض في أفكاره، في حياة نفسه الدّاخليّة، ولا يقول كلمته جهارًا؛ حتّى لا تصل الكلمة، حتّى لا تصعد الكلمة من قلبه، من نفسه إلى ذهنه، فيعيها، ويتبنّاها القلب. هنا، علينا أن نرى أنّ هذا الفرّيسيّ كان ساكنًا في خبايا نفسه، كان متقوقعًا على ذاته، بنى عالمه بوصايا الإله. لكنّه بناه لنفسه ومن نفسه، من بنات أفكاره، من مواقفه، من جحيمه، من جحيم ذاته، من تقوقعه، كما ذكرنا، على نفسه... ولم يكتشف النّور، لم يخرج إلى النّور، بل بقي في ظلمة قلبه، في ذاته؛ فأدركه التّقوقع والعمى، ليجعلاه يقول للإله: "اللّهمّ، أنا أشكرك لأنّي لست كباقي النّاس الخاطفين، الظّالمين، الزّناة، ولا مثل هذا العشّار" (لو١٨: ١١)... "أشكرك، يا إلهي"! هنا، يُرجع المسؤوليّة كلّها إلى الإله الّذي خلقه لا "كباقي النّاس الخاطفين، الظّالمين، الزّناة"، بل أفضل من كلّ البشر، وأعلى مرتبة منهم، وجلّله، وعظّمه بكبريائه. أيّ إله هو هذا الّذي يتكلّم عليه الفرّيسيّ؟! أهو الإله الّذي تجسّد ليأخذ على نفسه خطايا البشريّة بأجمعها، منذ سقوطها، ويصعد بها على الصّليب؛ حتّى تُنحر في جسده، في كيانه، في كلّيّته، وتموت معه على الصّليب؛ فيقوم لنا وفينا، إنسانًا جديدًا، إلى حياة أبديّة، إلى الفردوس الإلهيّ، إلى نور معرفة الثّالوث ومعرفة الخطايا؟!... لقد جعل هذا الفرّيسيّ من الله إلهًا فرّيسيًّا، إلهًا ظالمًا، لا محبّة فيه، ولا رفق، ولا صليب، ولا خلاص! هذا الفرّيسيّ رأى العشّار، وأدانه، بعين نفسه المظلمة، المتكبّرة، الدّيّانة! رأى، بعين نفسه هذه، الإله كما هو خلقه، إلهًا ظالمًا، يفضّل أناسًا على أناس. ومن يفضّل؟! يفضّل الدّيّانين والمتكبّرين، ويدين العشّارين الخاطفين، الظّالمين، الزّناة! هذا الفرّيسيّ رأى كلّ النّاس خاطفين، وظالمين، وزناة. أولئك الّذين، بحسب رأيه، لم يعرفوا الإله كما عرفه هو، ولم يرثوا الإله كما ورثه هو!... جعل من نفسه هو الشّعب المختار، ووريث الإله، وديّانًا للآخرين، لكلّ الآخرين، إذ قال: "أنا أشكرك لأنّي لست كباقي النّاس". من هم باقي النّاس؟! هم، بالنّسبة إليه، كلّ النّاس. ثمّ قال: "ولا مثل هذا العشّار". إذًا، صعد هذا الفرّيسيّ إلى الهيكل، ليقدّم إلى الإله قربانَ شكر له؛ لأنّه مجّده، وعظّمه، وخلقه لا كسائر النّاس الخاطفين، الظّالمين،

الفاسقين، ولا مثل هذا العشّار!...

تخيّلوا هذه النّفسيّة! تخيّلوا هذا الخُلق، الّذي تربّى عليه هذا الفرّيسيّ! "الشّجرة تُعرفُ من ثمارها" (لو١٦: ٤٤). ما هي ثمار هذا الفرّيسيّ؟! أوّل ثماره أنّه لم يعرف الله على حقيقته. جعله على صورته هو، على صورةِ إنسانه العتيق، صورةِ سقوطه، صورةِ إدانته للآخرين! جعل الإله على شاكلته هو، ظالمًا، لا يعرف الحبّ، ولا الحنان، ولا العدل، ولا يساوي بين البشر! إذًا، هذا الفرّيسيّ صعد إلى الهيكل، ليقول للإله: "لقد أتيت أشكرك، لأنّك أنت مثلي. هكذا عرفتك. ولأنّك إله، فإنّي أقدّم إليك قرابيني، فأشكرك لأنّك "لستَ عادلًا"، ولم تخلقني كسائر النّاس! أشكرك لأنّ أولئك النّاس هم خطفة، وظالمون، وفاسقون. أشكرك لأنّي لست مثل هذا العشّار، بل أنا طاهر، أصوم في الأسبوع مرّتين*، وأعشّر كلّ ما هو لي✣. أشكرك لأنّي عظيم، ولست مثل تلك الحثالة البشريّة"!...

هذا هو إنساننا العتيق. على هذا النّحو نأتي كلّنا إلى الله، دائمًا... نعم كلّنا! فلنفكّر، قليلًا، كيف أتينا إلى الرّبّ، إبّان مجيئنا إلى الدّير، وإبّان معرفتنا إيّاه، حتّى في العالم. كنّا واثقين بأنفسنا وثوق هذا الفرّيسيّ، ديّانين للآخرين؛ لأنّنا نعرف الإله، ونعتبر أنّنا ربّما ننتمي إلى عائلة مؤمنة، وقد رُبّينا تربية كنسيّة، ومارسنا الأصوام والصّلوات... وبعد أن كبرنا، التحقنا برعيّة كنيستنا، أو بمجموعة ما، بحركة ما، علّمتنا كيف نقرأ الكتب المقدّسة، لنستنبط منها المواقف والعظات... وربّما، أيضًا، جمعنا أطفالًا من حولنا، أو شبابًا، وكنّا مسؤولين عنهم في فِرَق ما، وعلّمناهم... وكلّما كنّا نعلّم، كنّا نستكبر؛ لأنّنا نعتبر أنفسنا أصحاب معرفة، ونستطيع أن نفتّق الكتب، بدلًا من أن نفتّق القلب على التّوبة! هذا هو موضوع الإنجيل، اليوم. هذا الإنجيل هو دينونة لكلّ واحد منّا عرف الشّريعة، وما في الكتب، والقوانين، والأحكام... لكنّه سخّر كلّ ذلك لكي يحصل على مجدٍ وكرامة قدّام الله، يدين بهما الآخرين... هذه هي الفرّيسيّة الّتي تُعدّد لنفسها ما هي عليه من

---

* الصّيام، عند اليهود، لم يكن مطلوبًا سوى مرّة في الأسبوع.

✣ العشارة أيضًا لم تكن واجبة ومفروضة على كلّ ما يملكه النّاس.

كرامات! هذا هو إنساننا العتيق! وكلّنا مررنا بهذه الفترة. لكلّ منّا إنسانه العتيق المخبوء في نفسه، المُدَجَّج بالفضائل، والأحكام، والشّريعة، والتّفاسير، والكتب... لكنّه يقف هناك، كما وقف الفرّيسيّ، ولم يمتدّ، قطّ، إلى إنسان العشّار الّذي لا نعرف، هنا، في هذا المثل الإنجيليّ، كيف تاب، وكيف أتى إلى يسوع، وكيف صعد إلى الهيكل، وكيف عرف نفسه!...

هنا، أودّ أن أتوقّف، ولو قليلًا، عند حركة خَلْقٍ في كلّ واحد منّا. الله جبلنا من تراب الأرض، ونفخ فينا روحه القدّوس. ترابيّتنا هي فرّيسيّتنا. أمّا روحه القدّوس، فهو عشارتنا، الّتي تدخل وتمتزج وتختلط بالتّرابيّة، تحياها، تتبنّاها نمطَ حياة، ربّما حتّى آخر يوم، وربّما تستفيق على نقرة إصبع الله، على نقرة إصبع الحبّ، على نقرة إصبع المرض، أو الجوع، أو العوز، أو الغربة... لتأتي بنا إلى المعرفة: معرفة ابن الله في خليقته، ومعرفة أنفسنا...

العشّار، في إنجيل اليوم، يُربكني! يُربكني لأنّه لم يصعد إلى الجمّيزة، كزكّا الّذي نزل استجابةً لصوت الرّبّ، وبصوته، وحبّه، ليتوب قدّامه (لو١٩: ١- ١٠). ولا هو مثل الكنعانيّة الّتي سمعت بالإله؛ فأتت راكضة إليه، ووقفت قدّامه، لازمته، قبّلت رجليه، تمسكنت، تذلّلت... لأنّ ذاك العدوّ المتسلّط لم يترك لها شيئًا، بل تسلّط عليها، وعلى بيتها، وعشيرتها، وعلى ابنتها، وأراد تحطيمهم جميعًا. لقد خسرت كلّ شيء، فلِمَ لا ترمي بآخر نُبلها قدّام سيّدها، قدّام ذاك الّذي يُقال إنّه الشّافي، والمعلّم، والنّبيّ الآتي لخلاص العالم؟! لِمَ لا ترمي ببقيّة ما عندها، بفتات كرامتها، ونفسها، وجسدها، وكيانها قدّامه؛ ليعود فيجبلها إنسانًا جديدًا، هي وابنتها، ويشفيهما (متّى١٥: ٢١- ٢٨)؟! إذًا، هذا العشّار، اليوم، في هذا الإنجيل، لا نعرف كيف انفتح قلبه، كيف نقر الله على قلبه ليعود إليه. ولكن، نحن نعرف أنّنا أُعطينا هذا العمر، بالضّبط، لكي يأتي الرّوح القدس، ويمسّ هذا القلب، في وقت ما، في فجر ما، في صبح ما، في ظهر ما، في غسق ما، في غلس ما، في ليل ما، في ظلمة ما... والقلب هو مُلتقى الدّم الّذي قطر من روح الله، يوم خلقنا؛ ومن جسده، يوم افتدانا؛ ليُعرّفنا مَن هو، وما هو، وكيف هو، وعلى مَن يجب أن نبني أيّامنا!... هكذا، افتقد الله هذا العشّار، ربّما بصراخ امرأة مسكينة أتى ليسلبها منزلها ومالها، أو بِصَمْتِ رجل لم يكن معه ما يدفعه عشارةً، أو بصرخة طفل جائع أتى العشّار ليأخذ أموال عائلته ويقدّمها إلى الدّولة... نحن لا نعرف، وليس علينا أن نعرف؛ لأنّ للإله

طُرُقه في تسيير خطى البشريّة نحوه: خطى الفرّيسيّين، وخطى العشّارين؛ خطى إنساننا العتيق المجبول بالكبرياء، والإدانة، وحبّ السّلطة والتمركز في موقع ما، وفي شخصيّة ما، وفي عمل ما، حبًّا بالظّهور... وخطى البشريّة المتمركزة في القلب المتخشّع المتواضع، الّذي لا يرذله الله... خطى البشريّة المتمركزة في العشارة، في طلبها من الآخر فلسَ كرامة، أو معاملة طيّبة... لكنّ الله لا يترك خليقته تتمخّض وتتألّم إلى المنتهى، فاقدة الرّجاء بالخلاص!

هنا، أيضًا، أريد أن أتوقّف، لأتساءل وإيّاكم: "هل ترك الله الفرّيسيّ بلا توبة؟! وهل أمال اللهُ العشّارَ إليه بحبّه؟! ألم يحبّ الرّبُّ الفرّيسيَّ أيضًا، ليتوِّبه عن خطاياه، هو الّذي يريد: "أنّ الجميع أن يخلصون، وإلى معرفة الحقّ يقبلون (١تيمو٢: ٤)"؟! أنتعلّم من هذا المثل أنّ الفرّيسيّ هلك، بينما خلص العشّار، الّذي لا نعرف كيف أتى إلى الله، إلّا بذاك الرّوح السّاكن فيه، والّذي نُفخ في قلبه، وفي كيانه، منذ طفوليّته؟!"... أترك هذا السّؤال مطروحًا أمامنا، لأعود إلى إنساننا الجديد الّذي قلت، في البداية، إنّه مُتمثّل بالعشّار.

عندما يتدرّج الإنسان من الفرّيسيّة إلى العشارة، فإنّه ينتهي إلى الخلاص بإلهه. هكذا نحن، تبدأ حياتنا، على هذه الأرض وقدّام الرّبّ يسوع، فرّيسيًّا. ثمّ، بسبب فرّيسيّتنا، وإدانتنا للآخرين، واستكبارنا عليهم؛ نبدأ بمعاملتهم وكأنّهم أرقّاء عندنا، خدّامًا لنا! نبدأ بسَلْبهم ما لهم، لأنّ الفرّيسيّة تجعل منّا حكّامًا نسيطر على الآخرين. نريدهم أن يفعلوا مشيئتنا نحن، لأنّنا نعتبر أنفسنا ورثة الموعد. ونبدأ بقهرهم، وإلزامهم بما كنّا خدّامًا له؛ فنجعلهم خدّامًا لدولة إنساننا العتيق، لدولة الظّلمة، لدولة رئيس هذا العالم... كلّنا، في فترة ما من حياتنا، خدمنا الشّيطان، ربّما من دون أن ندرك، ولبسنا أعمال الظّلمة؛ لأنّنا لبسنا الخطيئة، إذ رغبنا فيها، وشعرنا بلذّتها، وعشناها. وقد ظهرت تلك الخطيئة إمّا في كبرياء أذهاننا، أو في كبرياء قلوبنا، أو في كبرياء نفوسنا، أو في كبرياء أجسادنا، أو في إدانة الآخرين، وعدم محبّتهم، والاستكبار عليهم، والشّكّ فيهم، والثّرثرة عليهم، وعدم احترامهم، أو في مشاركتهم في عمل فحشاء الجسد، أو امتلاكهم باللّذّة، والمال، والسّلطة، والعلم... لنصير أفضل منهم، لأنّنا نعرف أكثر منهم. نعتبر أنفسنا أسيادًا عليهم؛ لأنّنا أغنياء فيما هم فقراء، نحن أذكياء فيما هم أغبياء لا معرفة لهم، نحن متعلّمون فيما هم لا علم لهم... نحن نتميّز عنهم، لأنّنا درسنا في المدارس والجامعات، وحصّلنا شهادات ولغات... كلّنا مررنا بكلّ

ذلك. لقد استكبرنا على الآخرين بعلمنا ومعرفتنا، فيما الله قال: "تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (متّى ١١: ٢٩).

هل سمع هذا العشّار هذا الكلامَ من الرّبّ يسوع: "تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم"؟! لا نعرف. لكنّنا نعرف أنّ الله يريد "أنّ الجميع يخلصون، وإلى معرفة الحقّ يُقبلون" (١تيمو٢: ٤). هذه هي مشيئة الآب والابن والرّوح القدس. بهذا القول، أتى الله بالعشّار إلى هيكله ليصلّي. والصّلاة كانت مفروضة، كانت جزءًا من حياة شعب إسرائيل، ومن حياة كلّ البشر، في تلك الآونة، وفي كلّ أوان الله. وعندما صعد العشّار إلى الهيكل ليصلّي، ووقف قدّام جبروت الله، وحبّه وحنانِه، قال له: "أللّهمّ، ارحمني، أنا الخاطئ" (لو١٨: ١٣). وقف عن بُعد، ولم يتقدّم إلى الأمام (لو١٨: ١٣)، لم يجعل لنفسه دالة، لم يَخْتَرِ الأماكن الأولى! وقف عن بُعد، لأنّ الله كان قد لمسه، وعمّده بالتّوبة، وألزَمَه بالحقيقة. وحقيقة الله هي هذا الاتّضاع! عندما وقف العشّار هناك، عن بُعد، لأنّه عرف أنّه غير مستحقّ، لم يُرِد، أيضًا، أن يرفع عينيه إلى السّماء (لو١٨: ١٣)؛ لأنّه كان خجِلًا من أفعاله، خجِلًا من دينونته، خجِلًا من سرقته، خجِلًا من تَعنُّتِه على الآخرين، واستعبادهم، وأذيّتهم!... لقد كشف الله لذاك العشّار خطيئته، وجعله يبكي دمعة دمعة، توبة توبة؛ لتخرج منه الأفاعي، لتخرج منه الظّلمات، لتخرج منه العشارة، لتخرج منه المذلّة... كان يقرع على صدره، ليحرّك دموع التّوبة، وحسّ التّوبة، وكيان التّوبة؛ وكان يقول: "أللّهمّ، يا ألله، يا إلهنا، ارحمني، أنا الخاطئ". هذا هو الإنسان الجديد! إنساننا الجديد هو إنسان المعرفة بأنّنا خطئنا، وأثمنا، ولسنا بأهل لأن نرفع أعيننا وننظر إليك، يا ربّ السّماء والأرض، حتّى لنقول: "أللّهم، ارحمنا، نحن الخطأة"!

تكفي الله هذه الصّرخة من كلّ القلب، ومن كلّ النّفس، ومن كلّ الفكر، ومن كلّ الكيان: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ". هذه هي الوصيّة الأولى، هذا هو الحبّ الأوّل. هذا كان قصد الله، عندما قال لنا، في وصيّتيه الأولى والثّانية: "أحببْ الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ فكرك... وقريبك كنفسك" (متّى٢٢: ٣٧- ٣٩). هاتان الوصيّتان الأولى والثّانية، اللّتان أعطانا إيّاهما الله، تختصران وتُترجمان حياتيًّا بهذه الصّرخة الملُقاة عن بُعدِ إلى الإله، بعين منكسرة، وقلب مُمزّقٍ، خاشعٍ، طالبِ الرّحمةَ،

وقائلٍ: "أللّهمّ، ارحمني، أنا الخاطئ". لا يستطيع الإنسان، أيًّا كان، أن يتمّم الوصيّة الأولى الّتي أعطانا إيّاها الله، ولا الوصيّة الثّانية؛ إن لم يَتُبْ ويَقُل: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ". لماذا؟! لأنّنا ورثة السّقوط. كلٌّ منّا هو آدم الأوّل! كلٌّ منّا هو حوّاء الأولى! كلٌّ منّا قد خطئ وأَثِم. ونحن نحمل في كياننا هذا فرّيسيّتنا، وعشارتنا، وتوبتنا. في هذا الملء ومن هذا الملء، في هذه المعرفة ومن هذه المعرفة، نستطيع أن نأتي إلى الله، لنقول له: "عمّدنا، أيضًا وأيضًا، بالتّوبة، وبنورك القدّوس، بمعرفتك الحقّ". عندئذ، يقول لنا:"اذهبوا إلى بيوتكم مُبَرَّرين، وبشِّروا بعظائم ربّكم؛ لأنّكم لم ترفعوا نفوسكم، بل اتّضعتم، وأنا رفعتكم" (لو١٨: ١٤).

هذه هي الحكمة من إنجيل اليوم: أنّنا كلّنا نأتي إلى مداخل التّوبة: "افتح لي أبواب التّوبة، يا واهب الحياة". أنت تهبني الحياة، وأنا أنكرك بفرّيسيّتي وعشارتي. لكنّك لم تأنف، أنتَ يا مسيحي، من دنسي، ولا من كبريائي، ولا من ظلمتي، ولا من سقوطي. بل، بحبّك الكبير العظيم، تريدني أن أخلص أنا وأهل بيتي. هكذا، تأتي بي إلى الشّفاء بك. وسقوطي كان بُعدي عنك. أمّا شفائي، فهو بك، بحبّي إيّاك، بالتزامي روحَك السّاكن فيّ، الّذي يطهّرني من نتانة جسدي، وحقارة نفسي، ودنس قلبي، وتعظّم فكري... أنا، بك فقط، أصير مبرَّرًا. بدأت فرّيسيًّا، لأنّني سقطتُ عنك بسقوط آدم. وهذا السّقوط هو سقوط يوميّ. آدم ما زال يسقط، والفردوس ما زال كائنًا، ونحن لا نريده...

بعض النّاس يقول إنّ حكاية آدم وحوّاء وسقوطهما خرافة. وفي الحقيقة، هؤلاء يحدّدون الله، ويعلّبونه كما هم، على قدر عقولهم، ولا يعرفون أنّ الله كان وكائن وسيكون، وأنّ كلّ كلمة، في كتبه المقدّسة، كانت وكائنة وستكون؛ لأنّ الله لا ابتداء له، ولا انتهاء. لم يكن آدم في الفردوس، في حقبةٍ معيّنة. وبعد سقوطه، لم يكن الفردوس، ولم يكن السّقوط؛ لأنّ الله، وما يخلقه الله، هو هو، منه. إذًا، هو الّذي كان منذ الابتداء وإلى الانتهاء، هذا الإله العظيم، دعا أيضًا كلّ خليقته لتكون من الأزل وإلى الأبد. لذلك، كلّ يوم، كلّنا نسقط سقطة آدم، ونسمع بآذان قلوبنا فحيح الحيّة، ونتجرّأ ونلمس المُنكَر، ولا نطيع كلمة الله، ونتردّى* في خطايانا وفرّيسيّتنا وظلماتنا، من جهة؛ وفي عشارتنا وتوبتنا

* نتردّى: نسقط.

ورجائنا، من جهة أخرى. هكذا، يا ألله، نأتيك إنسانين: إنسانًا فرّيسيًّا، وإنسانًا عشّارًا. نأتي إليك، أنت الهيكل والمنقذ...

هكذا، نرى حقيقتنا، من خلال هذ المثل الإنجيليّ، إذ نحن إنسانان: إنسان عتيق، وإنسان جديد، أتيا إلى هيكل الرّبّ؛ إليه هو؛ إلى جسده الحامل جراحَ خطيئتنا؛ والمصلوب لأجل سقطتنا؛ والّذي يريدنا، إذ نتدرّج من الفرّيسيّة إلى العشارة والتّوبة، أن ندخل في كيانه هو، وفي هيكله هو؛ لأنّه هو الهيكل. في القديم، كان النّاس يظنّون أنّ الهياكل هي من حجارة. وحتّى الآن، أكثرنا يظنّ أنّ الكنائس، فقط، هي هياكل الله، ولا يعرف أنّ هيكل الله هو هذا الكيان وهذا القلب، كما قال الرّبّ على لسان الرّسول بولس: "أنتم هيكل الله الحيّ" (٢كور٦: ١٦)، و"ملكوت الله في قلوبكم" (لو١٧: ٢١). عظيم أنت، يا ألله، وعظيمة أعمالك، وليس بقول يفي بحقّك! ماذا نقول، يا ألله؟! أنت أحببتنا من قبل، وعرفتنا، وختمتنا. والآن، نحن، فقط، نأتيك سامعين إيّاك، صارخين: "تكلّم، يا ربّ، فإنّ عبيدك يسمعون" (اصم٣: ٩)... ونحن نريد بكلّيّتنا أن نكون لك عبيدًا، يا ألله. اليوم، عرفناك. اليوم، أدركناك بانحنائنا عند قدميك كالكنعانيّة، وكزكّا، وكهذا العشّار. نحن أتيناك، يا ربّ، سامعين كلمتك، صارخين إليك: تكلّم، يا ربّ، تكلّم! فإنّ عبيدك يسمعون. كلّنا نسمعك، لأنّنا كلّنا قد خطئنا وأثمنا...

نحن، الآن، نعرفك، ربًّا وسيّدًا وإلهًا، بعد ما خُنّاك، وتركناك، وجحدناك، وسقطنا عنك، وأنكرناك، وتكبّرنا عليك... لأنّنا عبدنا نفوسنا آلهةً، ولم نعبدك أنت!... نحن نعرفك، اليوم، إلهًا؛ لأنّنا خطأة، ولأنّنا تلبّسنا خطيئتنا، وحملناها، وعشناها، والتزمناها، ومتنا فيها؛ لأنّنا عاشرنا الظّلمات والجحيم؛ لأنّنا ملّكنا علينا أمير هذا الدّهر، ولم نملّكَ أنت، يا إلهنا، يا رفيق أرواحنا، ونفوسنا، وأحاسيسنا،، يا حبيبنا، يا إلهنا، يا سيّدنا، يا مخلّصنا!...

تعال، يا ربّ! تعال برقّتك، بحنانك، بافتدائك لنا، بدمك الطّاهر، بماء جنبك المُخلّص؛ وعمّدنا، أيضًا وأيضًا، في كلّ يوم، بدموعنا، بتوبتنا! أرجعنا إليك، يا ربّ، وخلّص الّذين لا يعرفونك! خلّص أمم الأرض كلّها بكلمتك، بإنجيلك، بوصاياك، بحياة التّوبة الحقّانيّة! نحن لا نعرفك إلهًا لا وجه له. "وجهك، يا ألله نحن نلتمس" (مز٢٧: ٨)، في

مسيحك. أنت هو الإله الحقّ وحدك، وكلمتك هي الكلمة وحدها، وحياتك هي حياة الفداء وحدها. نحن لا نعرفك إلهًا لا وجه له؛ فعرِّفنا، يا ألله، عرّفنا ذاتك في هذه الأرض، وخلّصنا من خطيئتنا وكبريائنا، ومن تسلّط إثمنا، وعِلمنا، ومالنا عليك! خلّصنا من إلهنا المائت، وأَلبِسنا الإله المصلوب، يا حبيبنا، يا ربّنا! يا إلهنا، ارحمنا، نحن الخطأة، وارحم عالمك الّذي أنت خلقته! وارحمني، يا ألله، أنا الخاطئ.

٢٤ شباط ٢٠٠٢

أتريد أن تبرأ؟!*

(يو٥: ١- ١٥)
(أع٩: ٣٢- ٤٢)

في الرّسالة الّتي قُرئتْ من أعمال الرّسل القدّيسين، في أحد المخلّع، وفي إنجيل اليوم أيضًا، هناك حادثتا شفاء متشابهتان. إنسان مخلّع اسمه إينياس كان مضطجعًا على سرير، منذ ثماني سنين، لا يستطيع أن يحرّك رجليه، يُحمَل حملًا. هذا الإنسان يبدو أنّه كان مُلقى في السّوق؛ لأنّ الرّسالة تقول إنّ بطرس كان يطوف في جميع الأماكن ليبشّر، بعد قيامة الرّبّ، مع القدّيسين والرّسل. فنزل إلى لدّة، وهناك وجد إنسانًا اسمه إينياس مخلّعًا (أع٩: ٣٢- ٣٣). واللّافت، في هذه الرّسالة، أنّ المخلّع لم يطلب الشّفاء. لكنّ بطرس، عندما رآه، تحرّك قلبه، حنَّ عليه. ويبدو أنّه كان يعرفه، أو يعرف عنه؛ فقال له: "يا إينياس، يشفيك يسوع المسيح. قُم وافترش لنفسك، [حتّى لا تبقى عالة على الآخرين]" (أع٩: ٣٤). وفي الرّسالة أيضًا، يكمل لوقا كلامه؛ فيذكر طابيثا، الّتي كانت تعمل بيدَيها أعمالاً جيّدة للكنيسة، ولخدمة المؤمنين. ويبدو أنّها كانت صبيّة، خادمة للرّسل والكنيسة الأمّ، فماتت بسبب مرض لم يذكر ما هو. فأرسل التّلاميذ إلى بطرس رجلين يسألانه المجيء إليهم (أع٩: ٣٦- ٣٨). لماذا؟! لأنّهم كانوا يعرفونه، ولأنّ الّذي لازم الرّبّ يسوع، وما زال يلازمه، لا بدّ من أن يكون قد اتّخذ روحًا منه، ليشفي باسمه. ونحن نعرف أنّ بطرس شكّ في السّيّد، وتركه، وأنكره. لكنّه تاب، وبكى بكاءً مرًّا، حتّى إنّ ظلَّه فقط، بعد صلبِ الرّبّ وموته وقيامته وصعوده، صار يشفي المرضى الّذين يظلّلهم. هكذا، شفى إينياسَ باسم يسوع. وعندما أرسلوا في طلبه لكي يأتي ويشفي طابيثا، أي ظبية، الّتي كانت قد ماتت، وغسلوها ووضعوها في العلّيّة؛ جاء، وصعد إلى العلّيّة، "فأخرج الجميع خارجًا، وجثا على ركبتَيه، وصلّى. ثمّ التفت إلى الجسد، وقال: يا طابيثا،

---

* يو٥: ٦.

قومي! ففتحت عينيها. ولمّا أبصرت بطرس، جلست" (أع٩: ٣٩- ٤٠). هذا معناه أنّها كانت تعرفه، وأنّها واحدة من الجماعة. واللّافت، هنا، أنّه لم يَقُل لها كما قال لإيناس: "يشفيك يسوع المسيح"، بل فعل أكثر من ذلك: "جثا على ركبتَيه، وصلّى". أي إنّه اتّخذ القدرة من الرّبّ يسوع المسيح، اتّخذ القدرة من العلاء، من فوق!

في حادثة الشّفاء الأولى، لم يدَّعِ بطرس لنفسه أنّه هو الّذي يشفي، بل قال: "يا إينياس، يشفيك يسوع المسيح. قُم وافترش لنفسك" (أع٩: ٣٤). والأمر نفسه حصل في الحادثة الثّانية، إذ إنّه "جثا على ركبتَيه وصلّى". انتبهوا! لقد "أخرج الجميع خارجًا". لماذا؟! حتّى لا يشوّش عليه أحد ببكاء، أو فكر، أو بأيّة حركة. اختلى لنفسه، بينه وبين ربّه، وطلب القدرة من العليّ، ثمّ قال لها: "يا طابيثا، قومي"، وذلك بروح الرّبّ القدّوس، بالرّوح القدس، بقوّة العليّ. "جثا على ركبتَيه وصلّى"، أي إنّه اتّضع قدّام الله بأنْ جثا، ثمّ صلّى، واستَنزَل الرّوح القدس الفاعل فينا... هذا بالنّسبة إلى الحادثتين اللّتين وردتا في رسالة اليوم.

أمّا إنجيل المخلّع، فهو إنجيلٌ من واقعِ حياة الإنسان، في العالم. كلّ إنسان، بشكل من الأشكال، مخلّع، ولا يستطيع الوقوف وحده. ونحن نعرف أنّ البشريّة، بعد السّقوط، صارت كلّها مخلّعة. أمّا عربون سقوطنا وقيامتنا، فهو أنّ "الرّبّ يسوع المسيح أتى إلى الخطأة الّذين أنا أوّلهم [ليشفيهم]"، بحسب قول الرّسول بولس (١تيمو١: ١٥)... المخلّع الّذي كان عند بركة حسدا، بقي مضطجِعًا هناك مدّة ثمانٍ وثلاثين سنة، لا شفاء له، "مضروبًا" بمرض اعتراه، لا نعرف ما هو. كان مريضًا جسديًّا ونفسيًّا، لأنّ التخلّع هو موت للنّفس والجسد معًا. وما يؤكّد ذلك، ما قاله الرّبّ في آخر الإنجيل: "ها قد عوفيت، فلا تَعُدْ تخطئ، لئلّا يصيبك أشرُّ" (يو٥: ١٤). هذا يعني أنّ مرض هذا الإنسان كان نتيجة الخطيئة.

هنا، السّؤال يُطرَح: هل، يا تُرى، كلّ مرض يعتري الإنسان، جسديًّا كان أم نفسيًّا، هو نتيجة خطيئته؟! الرّبّ، في الإنجيل، لا يحابي أبدًا. قوله "لقد عوفيت" يعني أنّ العافية هي من الرّبّ يسوع الشّافي وحده، بينما الخطيئة والمرض هما من الإنسان

السّاقط. بعض الآباء المفسّرين يقول إنّ الثّمانيَ والثّلاثين سنة هي إشارة إلى عدد السّنوات الّتي سُبي خلالها شعبُ إسرائيل إلى صحراء مصر حتّى يتوب؛ لأنّ الإنسان، حين يبقى في بلاده، بين خاصّته، في تَرَفِهِ وتنعّمه، لا بدّ له من أن يسقط في الخطيئة... الرّاحة والتّرف والتّنعّم أمور تُسقطنا في الخطيئة. لذلك، أرسل الرّبّ المرض، لا تأديبًا، إنّما محبّةً بنا، لكي نخْلُص بالجهاد؛ فنخرج من المرض، بالصّلاة، والاتّكال الكامل على الرّبّ يسوع المسيح. هذا من جهة. من جهة أخرى، أرسل إلينا المرض، لأنّنا اخترنا الخطيئة بملء حرّيّتنا؛ حتّى نعي أن لا خلاص لنا من مرض الخطيئة وتخلُّعها الّذي فينا، إلاّ بالرّبّ يسوع المسيح. الشّعب الإسرائيليّ أُعطي له أن يعرف الله القدّوس، لكنّه أنكره. والبشريّة كلّها، وهي شعب الله، أنكرت الله، وابتعدت عنه؛ لذلك، سقطت في خطيئة النّكران... وعندما أنكرت الله، اتّكلت على ذاتها. لاحظوا هذا التّضادّ: الإنسان الّذي يعرف الله، يتّضع، وينكسر قدّامه، ويعرف أن لا خلاص له إلاّ به. أمّا الإنسان الّذي يُنكر الله، فيتّكل على ذاته، ويصبح وجسدَه إلهًا لذاته؛ فيسقط في المتعة والزّنى! تصبح نفسه إلهًا له؛ فيدور حول ذاته، وأحاسيسه، ومشاعره، وانفعالاته، وحزنه، وبكائه، وغضبه... أو يسقط في عبادة فكره، إذ يتعلّم، ويصبح قادرًا على أن يخلق ويبدع؛ فيعبد فكره ومنطقه... ماذا يبقى للإنسان بعد، وهو إمّا عابِد لجسده، وانفعالاته وأحاسيسه؛ أو عابِد لفكره وعقله؟! هذا هو السّقوط من الرّبّ، من حضنه، وعنه! هذا هو سقوط البشريّة! هذا هو تخلّع البشريّة الّذي يتحدّث عنه الرّبّ يسوع، اليوم، في إنجيل المخلّع، وفي الرّسالة الّتي تضمّنت الكلام على إينياس المخلّع منذ ثماني سنوات، وطابيثا الّتي كان يُفتَرَض أن تعيش، لكنّها ماتت من غير سبب. إذًا، هناك تخلّع منذ ثمانٍ وثلاثين سنة، وآخر منذ ثماني سنوات، وموت بلا سبب. عَلامَ يدلّنا هذا؟ هذا يدلّنا على أنّ كلّ واحد منّا؛ سواء أطفلاً كان، أم شابًّا، أم صبيًّا، أم صبيّة، أم كبيرًا، أم صغيرًا؛ كلّ واحد منّا ساقط في بؤرة الموت. الإنسان، منذ سقوطه، سقط في بؤرة الموتِ، موتِ الجسد، موتِ النّفس، موتِ الفكر، موتِ الرّوح... وافتِداءً لنا، تجسّد الرّبّ، من أجل خلاصنا. وكلّ ما مررنا به، إن في الصّوم الكبير، أو في الأسبوع العظيم، أو الفصح، أو أحد توما، أو أحد حاملات الطّيب... كلّه كان مَدخلاً لمعرفة مَن هو الله، وكيف يعمل فينا!...

ولكن، لماذا رتّبت الكنيسة أن يكون "أحد" المخلّع في يوم الأحد الّذي يلي "أحد" الفصح، و"أحد" توما، و"أحد" حاملات الطّيب، حيث الكلام على القيامةِ، ولَمْسِ توما للرّبّ يسوع، وحاملاتِ الطّيب اللّواتي ذهبنَ ليطيّبن جسد الرّبّ يسوع، ويخدمنه، متحدّيات، هنّ النّساء الضّعيفات، العسكرَ، والجيشَ، والأنظمةَ، والرّجالَ... كلّ هذا عشقًا، وحبًّا، ومعرفة، ورغبة في الخلاص؟! لماذا تأتي الكنيسة، فجأة، وتزيل هذه الأفراح كلّها، وتكلّمنا على التّخلّع والموت؟!

لقد وضعت الكنيسة "أحد" المخلّع اليوم، لأنّ كلّ واحد منّا، في الحقيقة، هو مخلّع، ويحمل، في نفسه، خطيئةَ المخلّع، ومرضَه! يحمل، في نفسه، موتَ طابيثا، وموتَ المخلّع، وخطيئةَ الكبرياء الّتي فيه! نحن لا نعرف ما كانت خطيئة إينياس، ولا خطيئة طابيثا، ولا خطيئة المخلّع الّذي كان جالسًا ينتظر شفاءه، منذ ثمانٍ وثلاثين سنة. كلّ تلك المدّة، كان ينتظر أن يأتيه الشّفاء! ولكن، من أين؟! من إنسان يرميه في الماء! مدّة ثمانٍ وثلاثين سنة بقي جالسًا قرب بركة حسدا، ينتظر مَن يرميه في الماء ليُبرَأ! وأتجرّأ على القول، هنا، إنّ هذا الإنسان لم يكن يصلّي، ولم يلتجئ إلى الرّبّ يسوع، بل كان جالسًا ينتظر؛ لأنّ التخلّع إنّما هو تخلّع في النّفس، يجعل الإنسانَ غيرَ راغب في الشّفاء! يجلس في خطيئته، ومع خطيئته؛ فتسكن هي فيه، وهو يسكن فيها! المشكلة الكبيرة، الّتي لا يعرفها البشر، هي أنّهم هم ساكنون في الخطيئة، وليست الخطيئة ساكنة فيهم. الخطيئة أصبحت أقنومًا في ذاتها، كيانًا في ذاتها، وقد جعل منها الإنسانُ شيطانًا، بفعل سقوطه! لقد أصبح الإنسان عبدَ خطيئته. والشّيطان المتمسّك بخطيئته والمتمركز فيها، والّذي هو، أصلًا، روح لا يُرى، صار يظهر لنا بشكل بشريّ. إنّه قويّ إلى درجة أنّه صار يظهر لكبار المؤمنين، بشكل جسدانيّ، أو للّذين يرتضونه ويعبدونه إلهًا.

هذا المخلّع كان ساكنًا في الخطيئة، ومستحليًا إيّاها، ومرتاحًا لها؛ فهل نظلمه، إن قلنا إنّه لم يصلِّ، ولم يطلب؟! لا أدري! لكنّني أعرف شيئًا واحدًا، وهو أنّه لو ألحّ في الطّلب إلى الرّبّ يسوع: "اشفني، يا ربّ"، لَكان الله شفاه. لو أنّ هذا المخلّع كشف ذاته بكلّيّتها، شَقَّ ذاته ورمى بكل أوساخه قدّام الرّبّ يسوع، صارخًا بدموع: "يا ربّ، اشفني"، لَكان الرّبّ شفاه. لا يمكن إلاّ أن يشفيه! فالله "رحوم، وطويل الأناة، وكثير

الرّحمة. ليس إلى الانقضاء يسخط، ولا إلى الدّهر يحقد. لا على حسب آثامنا عاملنا، ولا على حسب خطايانا جازانا" (مز١٠٢: ٨- ١٠)... الرّبّ لا يحاسبنا بحسب خطايانا! إذا تبنا، إذا تغيّرنا، إذا لجأنا إليه، إذا صرخنا من أعماق أعماقنا قائلين: "خلّصنا، يا ربّ"؛ فلا بدّ من أن يشفينا. كثيرون منّا يعرفون هذا الكلام جيّدًا، وقد اختبروه، حين تابوا عن خطيئة ما، وصلّوا بدموع كثيرة ولأيّام عديدة؛ وفجأة، التمع نور الخلاص والقيامة، وحرّرهم منها. لماذا؟! لماذا نتحرّر من بعض خطايانا، فيما لا نتحرّر من بعضها الآخر؟! هل يريد الرّبّ، يا ترى، أن يعذّبنا بخطايانا، ويبقينا فيها؟! طبعًا، لا! لكنّ المشكلة هي أنّنا نستحلي الخطيئة، نستحلي المرض، نستحلي التخلّع الفكريّ والرّوحيّ، نستحلي التخلّع "الجسدانفسانيّ" الّذي يقودنا إلى التخلّع الفكريّ والرّوحيّ!...

بين مخلّع بركة حسدا وإينياس مخلّع لُدَّة وطابيثا، نلاحظ أمرًا مشتركًا واحدًا، وهو أنّ أحدًا منهم لم يطلب الشّفاء. إينياس كان جالسًا في تخلّعه منذ ثماني سنوات، حين مرّ بطرس، وقال له: "يا إينياس، يشفيك يسوع المسيح. قُم وافترش لنفسك" (أع٩: ٣٤)، من دون طلب منه. وطابيثا ماتت، فكيف يمكنها أن تتكلّم بعد الموت! لكنّ أحدًا آخر تكلّم عنها، وصرخ طالبًا شفاءها؛ فاستجاب بطرس (أع٩: ٣٧- ٤٠). كذلك، المخلّع، عند بركة حسدا، بقي مدّة ثمانٍ وثلاثين سنة مرتاحًا في خطيئته، إلى أن أتى إليه الرّبّ يسوع المسيح، وسأله: "أتريد أن تبرأ؟!" (يو٥: ٦). أرأيتم أين الموت والتّخلّع؟! التّخلّع لا يعني أنّ الإنسان مصاب بمرض. **التّخلّع هو أن نصاب بعدم الحسّ**، بالابتعاد عن الله! نحن نعرف أنّ هناك قدّيسين مرضوا أمراضًا جسدانيّة شديدة وطويلة، لكنّهم ما كانوا منزعجين منها، ذلك لأنّهم كانوا مع الله! كانوا ساكنين في أحشاء الرّبّ، والرّبّ كان ساكنًا فيهم. لذلك، المرض أصبح أمرًا ثانويًّا، بالنّسبة إليهم؛ فصاروا لا يطلبون أن يشفوا منه، ولا يحسّون به؛ لأنّ الرّبّ يسوع هو شفاؤهم، وهم كانوا ساكنين معه. من هنا، فإنّ أبسط الأمراض هي الأمراض الجسديّة. أمّا أشرّها، فهو الأمراض النّفسانيّة والفكريّة والرّوحيّة. هل كان المخلّع، عند بركة حسدا، متّكلاً على الرّبّ يسوع؛ لهذا السّبب، قَبِل مرضه؟! نشكّ في ذلك، لأنّه كان خاطئًا كبيرًا جدًّا، والدّليل ما قاله له الرّبّ يسوع، في نهاية الإنجيل: "ها قد عوفيت، فلا تَعُد تخطئ، لئلا يصيبك أشرّ" (يو٥: ١٤).

ما هي العِبرة الّتي نستخلصها، نحن كرهبان، في حياتنا الرّوحيّة، من الإنجيل والرّسالة، اليوم؟! العِبرة هي أنّ كلّ مرض نُصاب به سببه خطيئتنا؛ فنحن نحمل خطيئة آدم، وهناك آثار وجراحات متروكة في الجسد والنّفس. والتّخلّع الحقيقيّ هو أن نبقى في كبريائنا، ونكرّر السّقوط في الكبرياء، والتّعالي على الآخرين، والنّميمة، والإدانة، وعدم المحبّة، والغضب غير المشروع*، والثّرثرة، وعدم الانضباط، وطلب ما هو لنا وليس للآخر... كلّ هذا هو تخلّع، نحن نريده، ونطلبه، ونسكن فيه، ولا نريد الخروج منه! لا يقولنّ أحد إنّه يريد التّخلّص من خطيئة ما، فيأتي إلى الرّبّ، ويقول له: "حرّرني، أنا عبدك! أخبِرني ماذا عليّ أن أفعل!"، ولا يقولنّ أحد إنّه يسمع كلمة الله، من خلال الشّخص المسؤول عنه روحيًّا، ويمتنع عن هذه الخطيئة، حتّى ولو كان سيموت، وإنّه حين يسقط فيها يموت حزنًا، ويستسمح بدموع وبكاء؛ ومع ذلك لا يخلص! هذا غير ممكن! كلّ سيرة الآباء والتّعليم الرّوحيّ، في الكنيسة، تقول إنّنا، عندما نمرض، نلتذّ بالمرض والخطيئة، ونرغب في أن نبقى فيهما، نرغب في أن نبقى في خطيئة الكبرياء، في الدّرجة الأولى. لذلك، الرّبّ يسوع أتى، في إنجيل اليوم، إلى ذاك المخلّع، وسأله: "أتريد أن تَبرأ؟" (يو٥: ٦)، [هل تريد أن تتعافى، يا إنسان؟! إن كنت تريد، فهيّا قُم. أنا إلى جانبك، أنا معك، أنا لك، أنا موجود لأُقيمك]. لكن، ما كان جوابه؟! راح يقدّم إليه الأعذار: "يا سيّد، ليس لي إنسان متى حُرِّك الماء يُلقيني في البركة، بل بينما أكون آتيًا، ينزل قبلي آخر" (يو٥: ٧). هذا تَعَلُّلٌ بعلل الخطايا! يسوع كان عالمًا بحاله. لذلك، سأله: "أتريد أن تَبرأ؟!".

ونحن كيف نشفى؟! كيف نعرف أنّنا خطأة، لكي نشفى؟! نحن، في الحقيقة، لا نستطيع أن نعرف أنّنا خطأة وأن نشفى، إلاّ بالحبّ. "إن لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال، فلن تدخلوا ملكوت السّماوات" (متّى١٨: ٣). الطّفل مفطور على الحبّ، لأنّه ضعيف. الطّفل مفطور على صدر أمّه ووجه أبيه، لأنّهما يشكّلان عالمه، الّذي ليس له سواه. هما حياته. إذا أعطياه ليشرب، فإنّه يشرب. وإن أعطياه ليأكل، فإنّه يأكل. وإن تركاه

---

* هناك غضب مشروع هو الغضب الإلهيّ، وهناك غضب غير مشروع هو الغضب البشريّ التّافه، والسّخيف، والنّفسانيّ.

بلا طعام ولا شراب، فإنّه يموت. الحبّ يخلّص! لذلك، قال الرّبّ: "إن لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال"، لأنّ الطّفل لا يمكنه العيش من دون أمّه وأبيه. كذلك، المؤمن والرّاهب الحقيقيّ وكلّ إنسان على وجه الأرض، كلّهم لا يخلصون من خطاياهم إلاّ بالحبّ. عندما يقترب الإنسان من الرّبّ يسوع ومن والدة الإله، ويفتح يديه باتّضاع كبير، ويقول لهما: "خلِّصاني، فإنّني لا أستطيع أن أقوم! جسدي يشدّني إلى الرّاحة، إلى النّوم، إلى الخطيئة، إلى الموت! نفسي تشدّني إلى ذاتي! فكري يشدّني إلى الأرض، إلى أعمالي، إلى كبريائي؛ حتّى أظهر، فتموت روحي، ولا يعود بإمكاني أن أصرخ: يا ربّ ارحمني"؛ عندما يفعل الإنسان ذلك، لا يمكن إلّا أن يأتي الرّبّ ويشفيه. والرّبّ بقوله للمخلّع: "اذهب ولا تخطئ بعد، لئلا يصيبك أشرّ" (يو٥: ١٤)، كان يقصد خطيئةَ الابتعاد عن الله. المخلّع كان يفكّر كيف يمكنه أن يشفى، ولم يفكّر في الشّافي. لم يعرف أنّ هناك شافيًا واحدًا هو الرّبّ يسوع. راح يفتّش عن الشّفاء بوساطة الأدوية، والنّاس، والماء، والملاك... لا عن الشّفاء بالله.

الحلّ بسيط: "أحبب الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ فكرك" (متّى٢٢: ٣٧- ٣٨). إذا أحببناه بهذه الكلّيّة، فلا يمكن إلاّ أن يأتي إلينا، ويُسكِننا في أحشائه، ويُخرجنا من تخلّعنا؛ فنصبح بشرًا قياميّين. لذلك، رتّبت الكنيسة أن يكون "أحدُ" المخلّع بعد فرحِ الفصح، وبهجته، والتّغنّي به وبالرّبّ يسوع القائم من بين الأموات؛ حتّى تقول لنا إنّ هذا هو واقعنا. أجل، الرّبّ قام. أمّا نحن، فماذا نفعل؟! هل نبقى مخلَّعين، أمواتًا كإينياس، وطابيثا، والمخلّع عند بركة حسدا؟! إذا أردنا أن نُشفى، فما علينا إلاّ أن نقول: "ها نحن، يا ربّ! أعنّا على ضعفنا، أقمنا من تخلّعنا، اشفنا بحبّك لنا وباستجابة حبّنا لك". أرأيتم لماذا نتناول جسد الرّبّ ودمه الكريمين باستمرار؟! حتّى نلتصق به! حتى نتّحد به! حتّى تصير إرادتنا من إرادته، وأفكارنا من فكره، ودمنا من دمه، وأرواحنا من روحه... يسوع غلب الموت بقيامته. ونحن، شيئًا فشيئًا، نقطّع أوصال الموت والتّخلّع والخطيئة، ونصير واحدًا والرّبّ. إذًا، نحن نعبُر بموت وقيامة، بسقوط وقيامة، بحركة نزول وصعود... ولا ننظر إلى الخلف، بعد، مثل امرأة لوط؛ حتّى لا نصير عمود ملح، ولا يصيبنا أشرّ، كما قال الرّبّ لهذا المخلّع: "اذهب ولا تخطئ بعد، لئلا

يصيبك أشرّ". والرّبّ لم يقل ما هي الخطيئة، لأنّ هذا المخلّع كان يحمل كلّ خطيئة البشريّة، وكلّ سقوط آدم وحوّاء، بابتعادهما عن الله، وعدم حبّهما له، وعدم طاعتهما لكلمته.

إذًا، هلمّ لنستقيَ من مياه الشّفاء، من ينبوع الماء الحيّ الّذي خرج من جنب الرّبّ يسوع، بالحبّ، والطّاعة، والاتّضاع، والصّبر، والجهاد... هذه هي أقانيم حياتنا الرّهبانيّة. ألا أعطانا الله أن نسكن فيها، حتّى نخرج من تخلّعنا، ولا نرتاح له، ولا نرضى به، بل أن نبقى في هذا السّعي المتواتر للخروج من ذواتنا، فنقول للرّبّ: "وجهك، يا ألله، نحن نلتمس" (مز٢٧: ٨).

المسيح قام، حقًّا قام !

٢٦ أيّار ٢٠٠٢

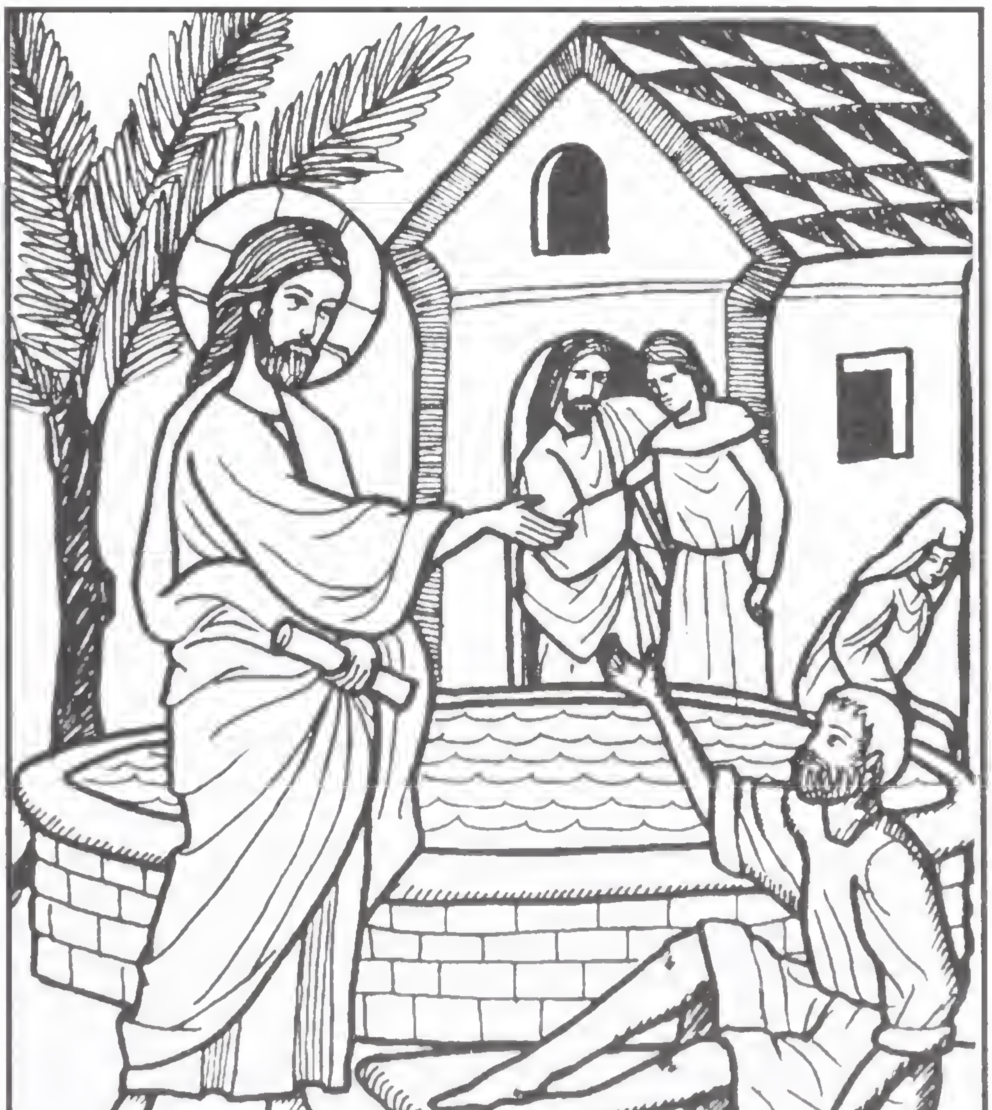

تفلة الخلاص

(يو٩: ١- ٣٨)

هذا هو الأحد الأخير، "أحد" الأعمى، قبل وداع الفصح، وقبل صعود الرّبّ إلى السّماء، لكي يرسل إلينا المعزّي، روح الحقّ، يوم العنصرة. في إنجيل هذا الأحد، يحدّثنا البشير يوحنّا عن إنسان أعمى منذ مولده، رآه الرّبّ يسوع فيما كان مجتازًا مع تلاميذه. والرّبّ مَرَّ من هناك مع تلاميذه، لأجل ذاك الأعمى تحديدًا. فهو، في كلّ أناجيله، وفي كلّ مسيرته على الأرض، كان يمرّ بالّذين يريد أن يشفيهم، بالّذين يريد أن يخلّصهم، كما فعل مع المرأة السّامريّة، ومع كلّ الّذين كانوا بُرصًا، وعميانًا، وعرجًا، وممسوسين بالأرواح النّجسة...

المسيح كان فقط مجتازًا مع تلاميذه، حين "رأى إنسانًا أعمًى منذ مولده". هو كان يعرف ذاك، وكذلك التّلاميذ كانوا يعرفونه؛ لأنّ ذاك كان مولودًا أعمًى. ويقول الإنجيليّ يوحنّا: "فسأله تلاميذه: يا ربّ، من أخطأ، أهذا أم أبواه حتّى وُلد أعمى؟! فأجاب يسوع: لا هذا أخطأ، ولا أبواه. لكن، لتظهر أعمال الله فيه" (يو٩: ٢- ٣). أعمال الله في هذا الأعمى هي الشّفاء. هذا الأعمى، منذ الولادة، يمثّل البشريّة، كلّ البشريّة المولودة عمياء، أو الّتي صارت عمياء، بعد أن أنكرت الله؛ إذ إنّها لم تولد، أصلًا، عمياء. آدم وحوّاء كانا في الفردوس مع الله، في فردوس النّعيم، في فردوس الحبّ الإلهيّ، في فردوس الرؤية. كانا يريان الله، ويسمعان خطاه في قلبيهما، في فردوس قلبيهما، في كيانهما، في واقعهما. لكنّهما أصاخا الأذن إلى صوت آخر، غير صوت الله؛ فسقطا في حبّ إلهٍ غيرِ إلههم، وفي سماع كلمةٍ غير كلمة إلههم؛ فأُصيبا بالعمى، وسقطا. ونتيجة لذلك، وُلدنا كلّنا حاملين ثمرة ذلك السّقوط، وذاك العمى... لذا، أجابهم الرّبّ: "... لتظهر أعمال الله فيه. ينبغي لي أن أعمل أعمال الّذي أرسلني ما دام نهار" (يو٩: ٣- ٤). أعمال الله، إذًا، هي الشّفاء. والرّبّ يسوع، ابن الله، الكلمة، تجسّد لكي يعمل أعمال أبيه، أي لكي يشفي كلّ مخلّع، وكلّ

أعمى، وكلّ نازفة دم، وكلّ زانية، وكلّ غير مؤمنة أو غير مؤمن، وكلّ أبرص، وكلّ ممسوس... وأن يُطعم كلّ جائع ومحتاج... هذه هي أعمال الله النّابعة من قلبٍ مُحبّ، من قلب الله! وجود الله هو وجود حبّ، لأنّ الله محبّة، الله حبّ، وكمال الحبّ. لذلك، لا يرضى بأن يَمرَض أيٌّ من خليقته، من أولئك الّذين نفخ فيهم روحه القدّوس، وجبَلهم بروحه القدّوس والتّراب.

هنا، تعود إلينا صورة آدم الأوّل المجبول بروح الله، في هذا الأعمى، عندما قال يسوع: "ينبغي لي أن أعمل أعمال الّذي أرسلني، ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمتُ في العالم، فأنا نور العالم"✠. قال هذا، وتفل على الأرض، وصنع من تفلته طينًا، وطلى بالطّين عينَي الأعمى. وقال له: اذهب واغتسل في بركة سلوام الّذي تفسيره: المرسَل" (يو٩: ٤- ٧). إذًا، نجد هنا ولادةً جديدة، تفلةً جديدة، ترابًا جديدًا منفوخًا فيه روح الله، وفيه أيضًا ماء قلب الله، الّذي خرج من جنبه، بالتّفلة هنا، وروح الله، وكيان الله الدّاخليّ، وقلب الله. وكأنّ الرّبّ يسوع يقول للأعمى: "أنت لن تكون أعمًى، بعد، لأنّ الله الآب أرسلني لأعمل أعماله". وأعماله هي النّور، أن نسكن في النّور؛ لكي نراه مجدَّدًا، ونعرف أنّه هو الإله الآب الضّابط الكلّ، خالق السّماء والأرض؛ وأنّ المسيح، الابن، الكلمة المتجسّد، أتى ليعمل أعمال الآب. وهو أيضًا في الآب والآب فيه. وهو حاملٌ النّور، وحاملٌ الحياة. لذلك، عاد وخلق خليقة جديدة غير عمياء، تراه وتعرفه. تفل وكوّن خلاصًا جديدًا، دواءً جديدًا، شفاءً جديدًا. وكأنّي بالمسيح يقول هنا: "أنتم، بتَفلتي أنا، بروحي أنا، تصيرون بشرًا لا عمى في نظركم الخارجيّ، ولا في نظركم الدّاخليّ، ولا في قلوبكم، ولا في كيانكم. اذهبوا واغتسلوا في بِركة اسمها المرسَل". ويسوع هو المرسَل وحده. هو وحده الّذي أرسله الله الآب ليخلِّص البشريّة.

هذا هو الإنجيل الأخير، قبل صعود الرّبّ إلى السّماء. نرى فيه أنّ الرّبّ جبَل جبلة جديدة، وطلى الإنسان العتيق الّذي جبله، منذ آدم. ولأنّه ابتعد عنه، أتاه ليُعيد خلقته مجدّدًا، ويشفيه من عماه، بجبلة جديدة، هي جبلة قديمة جديدة، من التّراب، وفيها

✠ الله هو النّور، وابن الله هو النّور.

روح الله وتفلة الله؛ ليشفي آدم السّاقط. هذا عنوان الحبّ الكبير الّذي كان، والكائن، والّذي سيكون. والحبّ مؤلِم! نلاحظ، في هذا الإنجيل، أنّ الله ارتضى أن يشفي البشريّة من عماها، قبل أن يصعدَ، ويرسلَ روحه القدّوس؛ لأنّه يريدها بشريّة مُضاءة به، بتفلته، بحبّه، بنوره. لم يترك البشريّة عمياء قبل الصّعود، بل شفاها بهذا الأعمى منذ الولادة. لماذا؟! لأنّ البشريّة سقطت، منذ آدم. وما من خليقة، بعد آدم وحتّى اليوم، إلاّ وهي مُصابة بالعمى؛ لأنّ آدم أعطانا ذلك الإرث الكبير، إرث الخطيئة. أمّا الله، فأعطانا، بآدم، ذاك الشّفاء.

الأعمى واقف، لا حَول له ولا قوّة. ربّما كان يستعطي، إذ إنّ العميان، دائمًا، يقفون ويستعطون عند قارعة الطّريق. وهذا الأعمى يمثّل كلّ واحد من منّا. كلّنا واقفون نستعطي رحمة الله، نستعطي البصر، نستعطي النّور، نستعطي الحياة الجديدة من المرسَل، الّذي علينا أن نذهب إليه، ونغتسل فيه، بعد أن يطلينا بتراب جديد منه، وبتفلة جديدة منه، وبقدرة الشّفاء الّتي بثّها في ذاك الطّين وتلك التّفلة. الرّبّ، في هذه الجبلة الجديدة، جبل آدم جديدًا لا عمى فيه، جبله من روحه، أيضًا وأيضًا، نفخ فيه روحه القدّوس، ووضع في تلك الجبلة تفلته، ماء جسده الدّاخليّ، ماء الحياة. ووضع فيه أيضًا حبّه، وقلبه، ونور عينيه. الله يعطي ذاته، لا شيئًا من ذاته فقط. هنا، أعطى ذاته مجدَّدًا. هذه الخليقة، الّتي تتفكّك في الموت لتعود إليه، أعطاها بصرًا جديدًا، قلبًا جديدًا، روحًا جديدًا، ماءً جديدًا من داخله، من تفلته، من خاصّيّته، من خواصّه الدّاخليّة... كلّ هذه أعطاها للجبلة الجديدة الّتي صنعها، لشفاء الأعمى الّذي يمثّل البشريّة بكلّيّتها، قبل صعوده. بذلك، ترك الرّبّ البشريّة برؤية جديدة؛ لكي تبحث عنه، وعنه فقط؛ لكي تستنير به، وبه فقط؛ لكي تراه، ولا ترى إلاّ وجهه؛ لكي تركض وراء النّور... هذا هو عمل الله الآب، وهذا هو عمل الابن المُرسَل، وهذا هو عملنا نحن، بالرّوح القدس الآتي إلينا في العنصرة: أن نستمرّ بهذا السّعي لأن نبحث عن النّور، ولا نُغمض، من بعد، عيون قلوبنا ونفوسنا، ولا عيوننا الخارجيّة؛ لأنّنا أخذنا جبلة جديدة، وروحًا جديدة، وتفلة جديدة، واغتسلنا في ماء جديد، هو ماء المعموديّة، منه هو المُرسَل. "اذهب واغتسل في بِركة سلوام الّذي تفسيره المرسَل" (يو ٩: ٧).

إذًا، هذا الأحد الأخير، قبل وداع الفصح، وقبل صعود الابن إلى الآب، هو

"أحد" الكينونة الجديدة، والكون الجديد الّذي رعاه المسيح مجدَّدًا، وخلقه مجدّدًا، وأعاد وجوده مجدّدًا، بروحه القدّوس. هذا هو عربون الحبّ. كثيرًا ما تكلّمنا على الحبّ المجروح، على الحبّ المطعون الّذي أنبع ماءً ودمًا خلاصيًّا لحياة البشريّة. الآب مصلوب في الابن بالرّوح القدس. والخليقة ترى، اليوم، من روح الله الآب، بالابن، جبلةً جديدة، وروحَ قدس ساكنًا فيها، بتفلة جديدة وماء جديد. هذا هو الحبّ المبذول، المصلوب، الّذي يعطي ذاته بالكلّيّة، ولا يترك شيئًا لنفسه! هذا هو التّخلّي الكامل! هذا هو الإخلاء الكامل! هذا هو الكون الجديد الكامل، الّذي ليس هو كونًا نعرفه، ولا كونًا لا نعرفه، بل هو خليقة جديدة، وروح جديد، وجبلة جديدة لا عمى فيها، ولا خطيئة؛ لأنّ الّذي يبصر لا يُخطئ. الّذي يبصر بالرّوح القدس، يرى خطيئته، ويقبض عليها بالنّور الّذي فيه، ويقزّمها، ويحجّمها؛ حتّى لا تتسلّط عليه، بعد. هذا هو الإنسان الجديد، وهذا هو الرّوح الجديد، وهذا هو النّظر الجديد. لا فرق إن كانت هذه العين الطّبيعيّة البشريّة الزّائلة سترى أو لا. المهمّ المهمّ أن نرى بقلوبنا، أن نرى بعيون قلوبنا، وبعيون نفوسنا، وبعيون أرواحنا الّتي هي روح الله القدّوس! المهمّ أن نرى نور الله ونتبعه، فلا نبقى في الظّلمة، ولا في الموت، ولا في الخطيئة. طوبى للّذي يعرف أنّه كان أعمى؛ لكنّه، الآن، بجبلة جديدة، وتفلة جديدة، وروح جديد؛ صار يرى. "كنتُ أعمى، والآن أُبصر. فيا ربّ، اجعلني بصيرًا، اجعلني نذيرًا باسمك، اجعلني حبيبًا لك، أغترف حبّك، وأُعطيه للعالم من حولي، لكلّ إنسان طالب له"! وحبّ المسيح، هو حبّ مبذول، مكسور، وسيبقى مصلوبًا حتّى المجيء الثّاني؛ لأنّ الفصح يأتينا، سنة بعد سنة، ويومًا بعد يوم، إلّا أنّنا نبقى، بعد الفصح، عميانًا جزئيًّا، لا إرادة لنا في الخلاص، ولا حبّ لنا يموت عن الآخرين، ولا إفراغ لذواتنا، كي يأتي المسيح ويسكن فينا!...

صرخة اليوم، في "أحد" الأعمى هذا، تقول: "أبصروا! أبصروا الحبّ، أبصروا النّور، أبصروا الخلاص، أبصروا، وتعالوا اتبعوني، لأنّي أنا معطيكم النّورَ الجديد، والنّظرَ الجديد، والرّؤيةَ الجديدة، لخلاصكم، ولخلاص الكون أجمع بصلاتكم، وحبّكم، وبذلكم! لا تبقوا عميانًا، بل استنيروا! استنيري، يا أورشليم، استنيري!"... نحن أورشليم الجديدة، الّتي وَدَّ الله أن يسكن فيها، بتجسّده على الأرض. ولكنْ، ها هو يشفينا من عمانا، أوّلاً؛

حتّى نراه ويرانا: "أنا واقف قدّامك وتراني" (مز٥: ٣)! "ما أعظم أعمالك، يا ربّ. كلّها بحكمة صنعت" (مز١٠٣: ٢٤)! هذه هي حكمة الله. هذا هو حبّ الله. هذا هو نور الله؛ فلا عمى من بعد، ولا كره، ولا حسد، ولا ضغينة، ولا إدانة، ولا تكبّر، ولا "أنا"... "لست أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فيّ" (غلا٢: ٢٠). لهذا، في كلّ لحظة، ليلاً ونهارًا، أصرخ: "تعال، يا ربّ، واسكن فيّ! هلمّ، واسكن فيّ، وطهّرني". "هلمّ، واسكن فينا، وطهّرنا من كلّ دنس، وخلّص، أيّها الصّالح، نفوسنا؛ لكي نعرفك في النّور، في الحبّ، في البذل، في الموت والقيامة". لا موت، بعد، ولا ظلمة، ولا عمى! نحن ساكنون في الحبّ، في قلب الله، في حضن الله، وحضن والدة الإله؛ فكما ارتضى الله أن يسكن في أحشاء والدته، فلْنرتضِ نحن أيضًا أن نسكن في أحشائه؛ لكي نصير واحدًا مع الابن، ومع أمّه والدة الإله، الكلّيّة الطهارة، مريم البريئة من كلّ عيب.

يا أمّ الله، ويا أيّها الكلمة، هلمّ! تعاليا؛ فأذرعنا مفتوحة، ونحن مصلوبون على عمانا، وعلى ضعفنا، وعلى هشاشتنا. أنيرانا بالرّوح القدس، بالنّور الجديد، بالحبّ الجديد، بحبّ الثّالوث – الآب بالابن بالرّوح القدس، والابن بوالدة الإله – ونحن، في هذا الكلّ الّذي أُعطي لنا مجّانًا، نحن الخطأة، أعطينا الثّالوث وحياة الابن في أحشاء أمّه، وأعطينا التّجسّد، وأعطينا أن نصرخ: "قدّوس، قدّوس، قدّوس أنت، يا ألله، من أجل والدة الإله ارحمنا وخلّصنا"، آمين.

١١ حزيران ٢٠٠٢

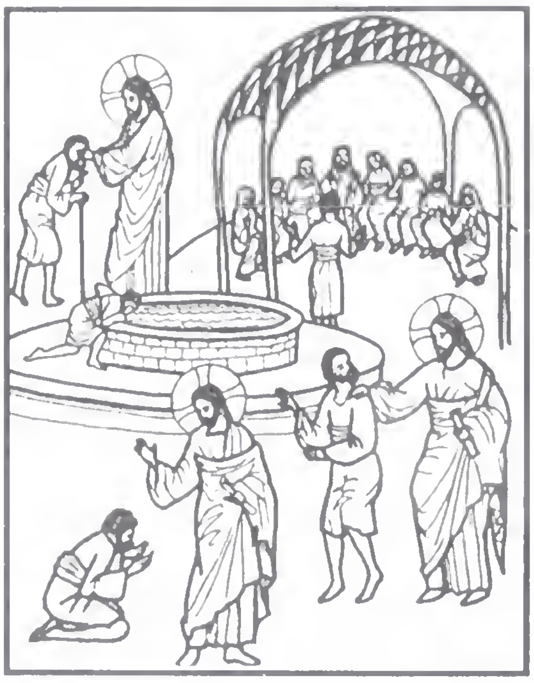

البشريّة النّازفة الدّم!

(مر٥: ٢٤- ٣٤)
(غلا٣: ٢٣- ٢٩، ٤: ١- ٥)

تتبعنا هذه المرأة النّازفة الدّم، وتطالعنا في كلّ إنجيل من الأناجيل المخصّصة للقدّيسات، خلال السّنة. لماذا أرادت الكنيسة أن تضع هذا الإنجيل، أمامنا، في كلّ عيد من أعياد القدّيسات؟! أليس هناك أناجيل أخرى؟! أليس هناك كلمات أخرى؟! في الحقيقة، العِبرة عظيمة، هنا، لأنّ هذه المرأة ليست امرأة أو شخصًا محدّدًا، إنّما هي البشريّة بأجمعها، الّتي تئنّ وتتمخّض، والّتي كانت، "قبل أن يأتي الإيمان، محفوظةً تحت النّاموس"، كما قرأنا في رسالة اليوم، في عيد القدّيسة مارينا الشّهيدة العظيمة: "قبل أن يأتي الإيمان، كنّا محفوظين تحت النّاموس" (غلا٣: ٢٣). وإذ كنّا تحت النّاموس، "كان النّاموس مُؤدِّبَنا" (غلا٣: ٢٤). أمّا الآن، فنحن تحت "الكلمة"، وفي "الكلمة"، منه نولد، وبه نتحرّك، وله نسجد.

هذه المرأة أتت السّيّدَ بين جمع عظيم، وكأنّها كانت تحمل في أحشائها كلّ البشريّة. كانت تحمل في أحشائها خطيئة الإنسان الأوّل، خطيئة حوّاء الأولى. أتت بخطيئة حوّاء وآدم إلى الرّبّ، ليشفيها من سيلان الخطيئة في جسدها، من الدّم المتّسخ، الغريب عن دم الرّبّ الّذي أُهرق على الصّليب لخلاص البشريّة!

دم الرّبّ المُهرَق هذا صار حياة للبشريّة، مقابل دمها الّذي أُهرق، منذ مئات آلاف السّنين، والّذي كان نزفًا وسيلانًا للخطيئة الّتي أضعفها الرّبّ إلى الموت. خطيئة الجسد لبست البشريّة، لأنّ هذه الأخيرة أشاحت وجهها عن الرّبّ يسوع، صارت لا تنظر إليه، لم يعد هو النّور الّذي يشدّها إليه، لم يعد هو الموئل، لم يعد هو النّبع، لم يعد هو المغناطيس الّذي يجتذبها إليه... سمعت صوتًا آخر، أتى بها إلى حقيقة كاذبة. أشاحت نظرها، وكلّ كيانها، عن إله السّموات والأرض، وأتت لتعبد صوتَ النّجاسة، صوتَ

العظمة، صوت الكبرياء، صوتَ الحيّة الّتي هي حوّاء الأولى!... الحيّة هي حوّاء الأولى، وهي آدم الأوّل أيضًا. تلك كانت في الفردوس، وفي آن، كانت فيها بذرة الحسد. والحسد هو أوّل الشّرور ورأسها، هو مبدأها. إنّه حسد الشّيطان من الله. لأنّه (أي الله) أعلى منه، وهو يحكم حياته. هذا ما رفضه الشّيطان. هذا ما لم يرضَ به الشّيطان– الحيّة. هذا ما مجّه واختنق به. وإذ هو شيطان حسود، ومتكبّر، وغير طائع، أتى وبثّ سمّه في آدم وحوّاء، وقال لهما: "لا تطيعا! كُلا، واشربا، وتنعّما؛ لتصيرا مثل الإله". وهما أطاعا الصّوت الغريب؛ فسقطت البشريّة في بَلادَتِها، وبدأ نزف القيح والدّم والخطيئة يلوّث الأرض الّتي أوجدها الرّبّ لعافية الإنسان، ولحياته الأبديّة وخلاصه!...

على هذا النّحو عاشت البشريّة، جيلًا بعد جيل. الأطفال تلوّثوا، والشّباب تلوّثوا، والكهول والشّيوخ تلوّثوا... وأحاط الموت بكلّ إنسان مخلوق، على وجه الأرض؛ فماتت البشريّة، وغرقت في دنسها وقيحها، وفي بؤرة الفساد، وبذرة الشّرّ الّتي تحملها في أحشائها، وفي نزف دمها. لقد صارت البشريّة امرأةً، إذ حين تسقط البشريّة، تسقط المرأة. لكنّ المرأة عظيمة، لأنّها هي حضن الإله، هي حضن "الكلمة"، هي الّتي اختارها الله الآب ليَسكِنَ الابنَ في أحشائها، بالرّوح القدس. لهذا، كلّ أمّ تلد طفلًا، في هذا العمر، ولا تقدّمه إلى الإله؛ تكون أمًّا من ذلك النّزف المستمرّ، من ذلك القيح المستمرّ، من ذلك الموت الّذي ما زال يكبّل البشريّة، ويحتكم فيها، لكي لا تأتي إلى الرّبّ مخلّصها. عظيمة هي هذه "المرأة – البشريّة"، الّتي **تعبت**! **تعبت** من نزفها! **تعبت** من الموت الّذي فيها! **تعبت** من خطيئتها! والإنجيليّ مرقس لا يذكر، هنا، في هذا الإنجيل، ما كان سبب نزف دمها، بل فقط قال إنّه نزف دم أتى بها إلى السّيّد، ليتحوّل دمها من دم فاسد مقيّح، إلى بُرْءٍ ودمٍ مطعون، لأجل الرّبّ يسوع المسيح، بالشّهادة له على خشبة حياتها وصليبها...

الرّبّ عرف المرأة، الّتي مسّت ثيابه! ويقول الإنجيل، هنا، بصراحة، إنّه عندما سأل تلاميذه: "مَن مسّ ثيابي؟!" (مر٥: ٣٠)، أجابوه قائلين: "ترى الجمع يزحمك، وتقول مَن مسّني؟! فأدار نظره ليرى الّتي فعلت ذلك؛ فخافت المرأة" (مر٥: ٣١- ٣٣). إذًا، هو كان يعرف مَن مسّه. وكيف لا يعرف اللهُ كلَّ واحد منّا، كلَّ مَن يأتي إليه، وهو جابلنا وخالقنا، وهو الإله؟!... تلك المرأة أتت إليه لتشفى. لقد شدّها نوره، كيانه، حقيقته،

ألوهته!... وعندما يأتي النّور، تتكشّف الظّلمات! المرأة كانت في الموت، وفي الظّلمات، وفي النّزف. وعندما عجزت، عندما تعبت من ذاتها، أتت إليه! والإنسان الحقّانيّ في المسيح يتعب من ذاته، من خطيئته، من نزفه، من كبريائه، من صلفه، من أنانيّته، من دونيّته، من حسده، من حبّه للسّلطة، من مشيئته الذّاتيّة، من غضبه، من جسدانيّته الّتي هي أساس الغضب، من حبّ الامتلاك، والظّهور، والشّهوة... عندما لا تَتَشَبّت الشّهوة ولا تتفعّل، فإنّها تغضب، وتغضب غضبًا نَجِسًا، تغضب كبرياءً، أنانيّة، تملّكًا، حسدًا... لتوقع بالإنسان – البشريّة! هكذا، جيلًا بعد جيل، ما زالت البشريّة تموت في ذاتها، في جسدانيّتها، في أنانيّتها، في كبريائها، في مشيئتها، في تسلّطها، في "أناها"... هكذا نحن، أيضًا، نموت، يوميًّا، في أنانيّاتنا، وفي ذواتنا. لكنّ الرّبّ شدّنا، يومًا، إليه؛ فأتيناه، تبعناه. هنا، هو القائد، والجموع تزحمه. ولكن، أيّة جموع؟! ولماذا أتت؟! هل أتت لتحصل على الشّفاء، ومن ثمّ تذهب وتترك الإله؟! أو لتنحني وتبقى عند قدميه، مثل مريم، وتسمع كلامه؟! ها نحن "واقفون في بيت الرّبّ، وفي ديار بيت إلهنا" (مز١٣٤: ٢)، نراه آتيًا إلينا، في كلّ يوم، واقفًا ينتظرنا، لكي نلمس هدب ثوبه؛ فنشفى! "لا لنا يا ألله، لا لنا، بل لاسمك أعطِ مجدًا" (مز١١٤: ١)...

القدّيسة مارينا، الّتي نعيّد لها اليوم، تأتينا مع المرأة النّازفة الدّم، في هذا الإنجيل، مع البشريّة؛ لتقول لنا، مع الرّبّ يسوع، قولًا واحدًا، لا ثاني له: "تعالوا إليّ، يا جميع المتعَبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أُريحكم. تعلّموا منّي، لأنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (متّى١١: ٢٨- ٢٩).

واللّافت، في آخر الإنجيل، أنّ الرّبّ يسوع لم يقل لنازفة الدّم: "اذهبي ولا تُخطئي بعد"، كما قال للمخلّع الّذي كان عند بِركة حسدا، وللأعمى، والأبرص، ولكلّ الّذين أبرأهم؛ بل قال لها: "يا ابنة، إيمانك أبرأكِ؛ فاذهبي بسلام، وكوني معافاة من دائك" (مر٥: ٣٤). قال لها: "اذهبي بسلام"، وهو القائل: "سلامي لكم، سلامي أُعطيكم" (يو١٤: ٢٧)؛ فكيف يحمّل تلك المرأة كلّ خطيئة البشريّة، هو الرّحيم، والرّؤوف، والّذي يعرف مكنونات القلوب؟!... لقد أتت البشريّة إليه، بهذه المرأة، كما أتت الشّهيدة مارينا إليه، وسكنت في بيته، وتنقّت، وتطهّرت بالنّعمة، وجاهدت، لكي تشفى.

وإذ أتت إليه، شفيت؛ فقال لها: "اذهبي بسلام، إيمانك خلّصك" (مر٥: ٣٤).

إيماننا بأنّ الرّبّ هو وحده المخلّص يجعلنا نجاهد. إيماننا بأنّه هو وحده الإله، وهو الختن، وهو الحبيب، وهو الرّجاء، يجعلنا نأتي إليه، ونبكي عند قدميه، صارخين، وطالبين البُرءَ لنا وللبشريّة جمعاء، وقائلين: "ها نحن، يا ربّ، عبيد لك، فاجعلنا كأحد أجرائك". هكذا نشفى، وبه نشفى، وهنا نشفى، لكي نذهب بسلام؛ لأنّ هذا هو إلهنا، هو البداية والنّهاية، منه الحياة، وله هذا العمر كلّه؛ فبشفاعة قدّيسة الله مارينا، يا ربّ، اجعلنا نبرأ كلّنا، ونسكن فيك بسلام.

١٧ تمّوز ٢٠٠٢

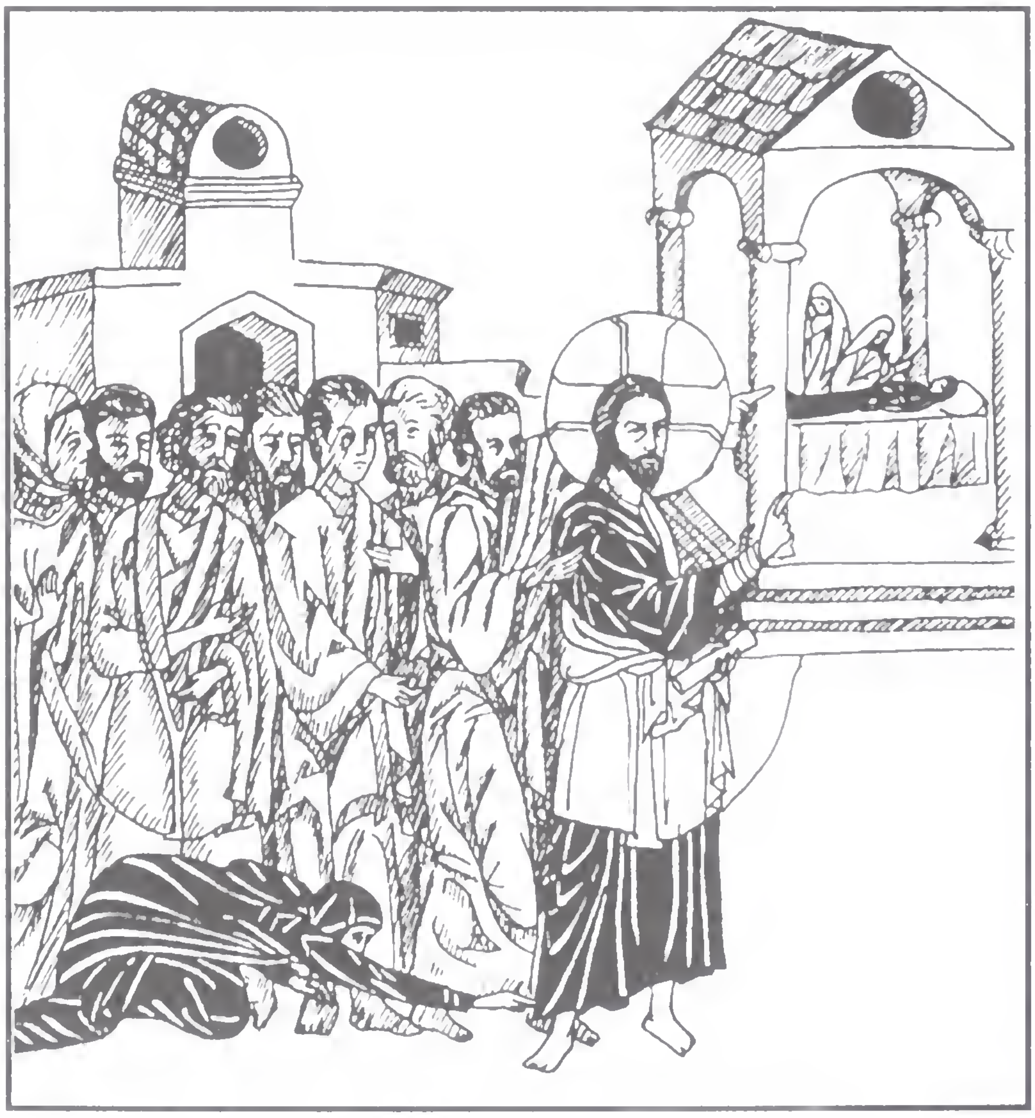

مَن هم الفرّيسيّون الحقيقيّون؟!

(متى١٢: ١٤- ١٦، ٢٢- ٣٠)

منذ اليوم الّذي وُلد فيه الرّبّ يسوع، بدأت المؤامرات عليه... دائمًا، الظّلمة تتآمر على النّور، والباطل يتآمر على الحقّ، والمجرم يقتل البريء، والقاسي يُذلّ المتواضع... لقد لحقت المؤامرات بالرّبّ يسوع، منذ طفوليّته، حين هرّبوه إلى مصر حتّى لا يقتله هيرودس، لكنّ الشّرّ لم يقدر عليه؛ لأنّه هو إله الخير. إلّا أنّ الشّرّ حاول، ويحاول، وسيحاول دائمًا أن يقتله، ويذبح مُريديه، وأبناءه، والّذين يتبعونه من كلّ قلوبهم. وفي إنجيل اليوم، نشهد أمرًا آخر أيضًا. يقول البشير متّى: "في ذلك الزّمان، تآمر الفرّيسيّون لكي يهلكوه" (متّى١٢: ١٤). لماذا أراد الفرّيسيّون أن يهلكوا يسوع؟! ماذا فعل لهم؟! لماذا عادَوْه؟! لماذا صار غريمًا لهم؟! يريدون أن يقتلوه، وكأنّه سارق ينهب أراضيهم، ويذبح أولادهم، ويسرق بيوتهم! لماذا؟! لماذا تآمر الفرّيسيّون على يسوع؟! لماذا يقوى الشّرّ على الخير دائمًا؟! لماذا دائمًا يلطم الشّيطانُ المسيحَ وأحبّته؟! لماذا يتوجّب، دائمًا، على محبّي الله أن يدخلوا من الباب الضّيّق؟! لماذا عليهم أن يسجدوا، أن يبكوا، أن يجوعوا، أن يعطشوا؟!... لماذا، تُذبح البشريّة، الّتي تحبّ المسيح، كلّ يوم، فيما المسيح قام من بين الأموات؟! لماذا نتعذّب ونُصلب، كلّ يوم، فيما الخلاص قد تمّ بالمسيح؟! لماذا هناك حفنة قليلة جدًّا تتألّم عن البشريّة الّتي ترتع في فجورها؟! لماذا الضّيق مكتوب على قلّة قليلة من أبناء هذا الدّهر؟!...

الجواب هو أنّ مسيحنا، وربّنا، وإلهنا، خالق السّموات والأرض، قد تجسّد ليخلّص آدم من تهوّره، ومن موته. لكنّ الإنسان لم يُرِد أن يخلص! في الحقيقة، الإنسان لا يريد أن يخلص! وعندما يعرف العدوّ ذلك، يأتي إليه ليعذّبه، لا مرّة أو مرّتين فقط، بل ألف مرّة... هذا هو اقتدار الشّيطان علينا. هذا هو اقتدار الشّرّ على الّذين تبعوا يسوع. لذلك، قال الرّبّ لنا: "إن أردتم الحياة الأبديّة، فعليكم أن تدخلوا من الباب الضّيّق"

(لو١٣: ٢٤). والباب الضّيّق هو موت! وفي العالم، هناك موت أيضًا؛ فأيَّ موت نختار؟! نحن، في هذا الدّير، قد اخترنا موت إلهنا، موت الدّخول من الباب الضّيّق، لنخلص، ونفتّت عنّا كلّ أثقال أجسادِنا، ونفوسِنا، وقلوبِنا، وأرواحِنا، وعقولِنا، وكلّ هذا الكيان. لذلك، صعد المسيح، بل ارتضى أن يصعد على الصّليب، ويموت ذاك الموتَ الطّوعيّ؛ ليقول لنا، للّذين يحبّونه: "هذا هو الطّريق: الصّلب، المصلوبيّة. هناك نجد الخلاص".

إذًا، علينا أن نختار، ونحن في هذا الدّير، وعلى طريق الرّبّ، وقد ارتضينا الباب الضّيّق، أيضًا وأيضًا علينا أن نختار إمّا موتَ أنفسنا عن شهواتنا، ورداءتنا، وكبريائنا، وتعنّتنا، وقسوتنا، وحبّنا للمجد الباطل، والتّعظّم، والحكم على الآخرين، وتسييرهم ليصيروا لعبة بين أيدينا، وعن سقوطنا في زنى الفكر، وزنى القلب بأن نحبّ أشياءنا الّتي نملكها في قلالينا، أو في حدائقنا، أو في أراضينا، أو حتّى في مطابخنا، ومشاغلنا، وفي كلّ ما نعمل... إمّا أن نموت عن كلّ ذلك، وإمّا أن نتركه كلّه وكأنّه لنا، خاصّتنا، بحجّة أنّنا موكَلون على هذا العمل أو ذاك؛ فنجد أنّنا صرنا مالكين ذاك العمل وإنتاجاته؛ فنكبر، ونتعظّم... هذا هو الموت الّذي يتبعنا، نحن الّذين هربنا من الموت، ومن العالم، ومن غنى هذا العالم، وأتينا إلى هنا. موت الخطيئة هذا متمسّك بنا، ويقهرنا. لماذا؟! لأنّه صار جزءًا منّا! الموت صار جزءًا حيويًّا من الإنسان، ومن طبيعته، ومقاصده، وحركته، ولَهَفِه حتّى إلى الله!... وهذا ما لا نكون قد عرفناه، بعد، عند مجيئنا إلى الدّير، وما نخبط بينه وبين الصّلاح خبط عشواء، سنين طويلة، إن لم نطع أوّلًا، لأنّنا نحبّ الرّبّ إلهنا ومسؤولينا من كلّ قلوبنا، ومن كلّ نفوسنا، ومن كلّ أجسادنا، ومن كلّ كياننا، ومن كلّ أفكارنا. لا شيء بإمكانه أن يطرد موت العالم، وموت الخطيئة السّاكن فينا، والمعشّش في أحشائنا وقلوبنا وكياننا، إلّا الالتزام بموت جديد آخر يُحيينا، كما يقول المثل الشّعبيّ: "وداوني بالّتي كانت هي الدّاء".

إذًا، الدّواء من أجل موت الشّرّ والشّرّير والعالمِ المجبول فينا هو أن نلتزم موتَ الإله، موتَ الصّليب، ذاك البابَ الضّيّق الّذي أوعز به لنا الله قائلًا: "ادخلوا من هذا الباب الضّيّق، ومن هناك إلى الحياة الأبديّة" (لو١٣: ٢٤). والباب الضّيّق هو هذا الوعي، هذا الحسّ، هذا النّفَس الأخير الّذي فينا، أن: "يا ربّ، أنا لستُ أقوى، وليس

عندي رجاء بنفسي، لأنّني حاولت مرّة، ومرّتين، وثلاث مرّات، أن أخلص من أدوائي، من خطاياي. لكنّني لم أستطع. أقوم وأمشي كالطّفل المتعثّر خطوة، ثانية، فثالثة، ثمّ أعود وأقع. فأصرخ إليك، يا ربّ، لكي تخلّصني". لكنّ الرّبّ لا يخلّصنا سريعًا. لماذا؟! ألأنّه إله قاسٍ؟! حاشا! لكنّه يريد أن يسمعنا نناديه، مرّات ومرّات، قائلين: "نحن نريد أن نخلص، يا ربّ. نحن نريد أن نؤمن، يا ربّ. نحن نريد حبَّك، من كلّ قلوبنا، وكلّ نفوسنا، وكلّ أجسادنا، وكلّ كياننا؛ فخلّصنا"؛ فيهدّئنا الرّبّ ويصمت، ولا يخلّصنا سريعًا. هكذا، نبقى، مرّة بعد مرّة، وسقطة بعد سقطة؛ حتّى نيأس، بالكلّيّة، من أنفسنا؛ فنصرخ قائلين: "لا لنا، يا ألله، لا لنا، بل لاسمك أعطِ المجد" (مز١١٤: ١)، "لماذا، يا ربّ، تصرف وجهك عنّي؟! فقير أنا، وفي الشّقاء منذ شبابي، وحين ارتفعت اتّضعت، وتحيّرت" (مز٨٧: ١٤- ١٥)... هذا هو الجواب: وَعْيُنا أنّنا ارتفعنا، وتعظّمنا، وتكبّرنا. لذلك، نعود فنسقط، مِرارًا وتكرارًا.

"الفرّيسيّون"، في الحقيقة، هم خطايانا الّتي تحارب هذا الإنسان الضّعيف، البسيط، السّاكن في قلوبنا، وفي أحشائنا. تحارب المسيح الّذي التزمناه؛ فأحببناه، وأتينا إليه لنخلص. ولكن، في أغلب الأحيان، لا نعرف ما الّذي نريد أن نخلص منه. لذلك، تتبعنا خطايانا، تتبعنا فرّيسيّتنا، أي بذرة ذاك الشّرّ الّذي فينا. والرّبّ ينفخ في مزماره، ليسوقنا إلى المراعي الخضر. هذه هي قصّتنا مع هؤلاء الّذين يريدون أن يُسقطونا، مع الفرّيسيّين الّذين يريدون أن يُهلكونا، مع شرورنا وخطايانا وكلّ ما هو معشّش فينا، منذ السّقوط حتّى الآن. حين نعي أنّنا نسقط لأنّنا لا نحبّ، ولا نُطيع؛ يبدأ الرّبّ عمله... لماذا لا يُصغي إلى بكاء شخص معيّن وصراخه، فيما يُصغي إلى بكاء آخر وصراخه؟! لأنّه يريد أن يُبقي ألمنا، وشقاءنا، ومرضنا فينا؛ حتّى نلجأ إليه! لأنّ الإنسان لا يتذلّل، إلّا بالمرض، والألم، والتّجارب. لذلك، يسمح الرّبّ بأن تُصيبنا الآلام والتّجارب والضّيقات، هديّةً منه، وبلْسمًا للموت المعشّش فينا؛ لكي، بخطايانا، يُزيل خطايانا، إذا وعينا أنّنا خطأة وأشرار، وأنّه هو المنقذ والمخلّص. فقط بالوعي، يبدأ الرّبّ بتحرّكه. "أنا لا أريد نفسي بعد، يا ربّ. ولكن، أحافظ عليها؛ لأنّك أنت ساكن في هذا القلب، ولأنّك أنت قلت إنّ هذا الجسد هو هيكل للرّوح القدس". بهذا الوعي، وبهذا الإدراك أنّنا أتينا إلى هذا الدّير لنموت ميتتة محيية للبرّ، ولوجه الرّبّ وروحه القدّوس السّاكن فينا، وبالتزامنا حمْلَ السّيف النّاريّ

بأيدينا، لقتل خطايانا، وذبحها، وإماتة الشّيطان بالرّوح القدس السّاكن فينا؛ نصبح آلهة ومسحاء، كالرّبّ يسوع المسيح، ونشفي أمراضنا به، ونهرب من فرّيسيّة خطيئتنا؛ لنصل إليه بروحه القدّوس.

بالنّسبة إلينا، نحن الرّهابين، "الفرّيسيّون" ليسوا بشرًا. لا المصريّون، ولا الفرّيسيّون، استطاعوا أن يسلبوا يوسف العفيف عذريّته، ويزجّوه في الخطيئة. ولا ملك الملوك، بختنصّر، استطاع أن يحرق الفتية الثّلاثة في الأتّون المحمّى حتّى الذّروة. ولا الشّرّ يقدر علينا، لأنّنا محفوظون بالنّار الإلهيّة، وبالنّعمة السّمويّة، وبندى حنان الرّبّ، ووالدته مريم العذراء، وقدّيسيه. لذلك، لا تخافوا، لا من ضيق، ولا من مرض، ولا من موت هذا الجسد، ولا من تجربة! فقط اعرفوا أنّ المُضِلّ الشّرّير سيحاربنا، وسيبقى يحاربنا، كلّ يوم؛ لكي نعود إلى ماضينا، إلى خطايانا السّالفة، إلى موتنا الّذي حيينا فيه عمرًا، قبل أن نأتي إلى الوعد بأنّنا "سنموت بكَ، يا ربّ، عن خطايانا". هذا هو التزام الرّاهب اليوميّ، والصّراخ اليوميّ، والجهاد اليوميّ: "أنا متكبّر؛ فاسحق، يا ربّ، كبريائي! أنا لا أحبّ؛ ففتّت، يا ربّ، قسوتي! أنا لا أطيع، ولا أريد أن أطيع؛ فذلّل، يا ربّ، عنادي! مبارك أنت، أيّها الألم الآتي إليّ، كلّ يوم، باسم الرّبّ، وبسماح منه؛ ومباركة أنتِ، أيّتها التّجارب الّتي تقضّين مضجعي، كلّ يوم! تعالي إليّ، يا أيّتها التّجارب والضّيقات، لأنّكِ أنتِ المرهم المبلسم الّذي به سأشفى. أنا أناديك، إذ بسماح من الرّبّ أنتِ تأتين إليّ، لشفائي"...

هكذا، لا نكون، بعد، متذمّرين، ولا متكبّرين، و لا قساة، ولا معاندين؛ بل نقول للرّبّ: "ها نحن عبيد لك، فهلمّ واشفنا، واجعلنا كأحد أجرائك". هذا هو الخلاص. فلنبارك الرّبّ، في كلّ حين، ونسبّح قيامته، وموته، وصلبه الّذي نريد، بوعيٍ كامل، أن نلتزمه لخلاصنا وقيامتنا، الآن وإلى الأبد.

٢٣ تمّوز ٢٠٠٢

بزار النعمة في القلب المنفتح

(متّى١٣: ٣- ٩)

كثيرًا ما تساءلتُ، منذ بدء حياتي الرّهبانيّة، كيف يطبَّق هذا الإنجيل علينا، نحن الرّهبان! ولم أجد جوابًا طول هذا الوقت، أي منذ ما يقارب الاثنتي عشرة سنة على الأقلّ. أمّا الآن، في هذه اللّحظة، وإذ خرجتُ من معاينة نور ناريٍّ غريب، في الهيكل، في القرب من قطعة النّسيج المأخوذة من الثوب الّذي يغطّي جسد القدّيسة باراسكيفي، في رومانيا، والّتي سنجسد لها؛ فقد جلستُ على كرسيّ، وشعرت بالكلمات تفيض، والمعنى يرتكض في قلبي! ووجدت الجواب، الّذي يمكنني أن أختصره بأنّنا لا نملك شيئًا، هنا، ولا نعرف شيئًا. حتّى ولو صلّينا، وصمنا، وسجدنا، وضربنا مئات المطّانيّات، وبكينا، واحترقنا... فإنّ كلّ ما عندنا هو من الله، وله!... سأحاول، في عيد القدّيسة باراسكيفي الشّهيدة، اليوم، أن أنقل لكم ما أعطانيه الله، وما أعطتني إيّاه هذه القدّيسة العظيمة الجميلة بين الشّهيدات، تفسيرًا لهذا المثل الإنجيليّ.

"خرج الزّارع ليزرع"... (متّى١٣: ٣). الزّارع هو الرّبّ يسوع المسيح. ليس أحد يزرع إلّاه!... "وفيما هو يزرع، سقط بعضٌ على الطّريق، فأتت الطّيور وأكلته" (متّى١٣: ٤). هذا هو وضعنا، قبل أن نأتي إلى الدّير: نسمع الكلمة الإلهيّة، نتحمّس، نحترق بها، نتحرّك بها، نقول: "نحن نريد الله، نريد خدمته، نريد أن نحيا معه كلّ أيّام حياتنا". لكنّ الاهتمامات الدّنيويّة اليوميّة تأتي، فتمنعنا من الاستمرار، وتحرمنا النّعمةَ الّتي أعطانا إيّاها الله. إلّا أنّنا نأتي إلى الدّير، بدفع منه، بالّذي لم تأكله هذه الطّيور. البقيّة الباقية الّتي تركتها لنا تأتي بنا إلى الأديار، لنعبده بها.

"وسقط آخر على أرض حَجِرة، حيث لم يكن تراب كثير؛ فللوقت نبت إذ ليس له عمق تراب" (متّى١٣: ٥). **الأرض الحَجِرَة هي عقل الإنسان.** نحن نأتي إلى الدّير، ونظنّ أنّنا، بسماعنا الكلمة، وبعقلنا، وفهمنا، وإرادتنا، نريد الله. نظنّ أنّنا نفهم، لأنّنا نمتلك

عقولًا تريد أن تعرف الله. نظنّ أنّ العقل مهمّ، لأنّه ينتج ثمرًا. ولا نعرف أنّ هذا الثّمر العقليّ هو ثمر آنيّ. نفكّر، نقرّر، نريد؛ فنعمل. وهذا يحصل في الجزء الخاصّ بالمعرفة من العقل. والرّبّ قال على لسان الرّسول بولس إنّ "المعرفة تنفخ وتعظّم" (١كور٨: ١). هكذا، يأتي العالم، أيضًا وأيضًا، ويسرق منّا ما عرفناه، بعقلنا، من الكلمة الإلهيّة. نعرف آنيًّا، ثمّ نعود فننسى؛ لأنّ الإنسان ليس باقيًا... ويتابع الرّبّ القول: "فلمّا أشرقت الشّمس احترق، وحيث لم يكن له أصل يبس" (متّى١٣: ٦). إذًا، كلّ ما نعرفه بالعقل هو يباس. كلّ ما نعرفه بالمعرفة الذّهنيّة ييبس، إذ تشرق عليه الشّمس. أيّة شمس؟! الشّمس الّتي تشرق وتيبِّس ما في العقل هي الشّمس الّتي تُحرق، الشّمس العقليّة الإلهيّة، النّار الإلهيّة، النّور الإلهيّ الّذي يحرق كلّ ظلمة. وهذه الشّمس الّتي يتحدّث عنها القدّيس متّى، في إنجيله اليوم، هي شمس العدل، شمس البِرّ، شمس الاتّضاع، شمس الحياة الّتي اخترقت الموت، ونزلت إلى الجحيم بالرّبّ يسوع، والّتي خرج منها ناطقًا بالحياة. لذلك، قال الرّبّ لمريم: "لا تلمسيني، لأنّي لم أصعد، بعد، إلى أبي" (يو٢٠: ١٧). لو سمح لها بأن تلمسه، وهو خارج من الجحيم، لكانت احترقت؛ لأنّها لم تكن، بعد، قد مرّت بخبرة الموت والقيامة الّتي بدأت بالجحيم. ولم يقل لها ذلك لأنّها كانت زانية! لا، أبدًا! بل لأنّها لم تكن قد ذاقت الموت، بعد، ولا القيامة الّتي هي في الجحيم، بجحيم نفوسنا وعقولنا. من هنا، إذا سلّط الرّبّ شمسه العقليّة على ما تعلّمناه بالمعرفة والعقل، فإنّ المعرفة تيبس...

"وبعض سقط في الشّوك، فطلع الشّوك وخنقه" (متّى١٣: ٧). ما هو الشّوك، في الدّير؟! الأشواك الّتي في الدّير هي على نوعين: أشواك العمل اليوميّ "المَرتاويّ"[✠]، الّذي يحذّرنا منه الله، في إنجيله، إذ يقول لمرتا: "أنت تهتمّين بأمور كثيرة، والحاجة إلى واحد" (لو١٠: ٤١- ٤٢). وأشواك أهوائنا، الّتي تقتل الآتي إلينا بالزّرع الإلهيّ. إذا أتانا هوى ما، كهوى العقل، مثلًا، أو المعرفة، أو الجسد، أو أيًّا كان... فإن لم نعترف به، ولم نجاهد لنتخلّص منه؛ فإنّه يأكلنا ليميتنا! إن لم نعترف، مباشرة، بحركة هذا الهوى المميت إيّانا، فإنّه يعمل ويعمل، ليتضاعف عمله، ويخنق الرّوح الإلهيّ، الّذي يكون "بذرة

✠ المرتاويّ: نسبة إلى مرتا الّتي كانت منشغلة بأمور كثيرة اهتمامًا بالرّبّ (لو١٠: ٤٠).

صغيرة" نأتي بها إلى الدّير... والهوى الّذي "يضربنا"، أوّلًا، هو هوى الكبرياء، هوى المعرفة الّذي تحرقه الشّمس. الشّمس العقليّة الإلهيّة تحرق معرفتنا الضّحلة، الميتة، المتكبّرة... ثمّ "يضربنا"، ثانيًا، هوى الحسد، ليُميت الرّاهب الّذي لا ينظر إلى خطيئته وجهاده هو، إنّما ينظر إلى أخيه، ويحسده. هذا الهوى يخنق روح الرّبّ القدّوس السّاكن فيه! يخنق تلك البذرة الّتي تحتاج إلى نور وفرح وتفتّح، لا إلى انغلاق على الّذات! كلّ إنسان ينغلق على ذاته، في الحياة الرّهبانيّة، يُميت بذرة الحياة الّتي يزرعها الزّارع، أي الرّبّ يسوع، فيه. إيّاكم والحسد! فهو يُنتج النّميمة، والانتقاد، والإدانة؛ وهذا يصل بنا إلى التّعظّم، واعتبار أنفسنا أفضل من إخوتنا. وبذلك، نصبح "قايين"؛ فنقتل، يوميًّا، إخوةً لنا، في الدّير، من دون أن نشعر... هكذا، تتلاحق الأهواء الأخرى!...

"وبعض سقط في الأرض الجيّدة" (متّى١٣: ٨). الأرض الجيّدة هي القلب، وهي الرّوح. هذه هي الأرض الّتي يزرع فيها الرّبّ زرعه المبارَك. لذلك، قال في وصيّتَيه الأولى والثّانية: "أحبّ الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ قدرتك، ومن كلّ فكرك، [ومن كلّ جسدك، ومن كلّ كيانك، ومن كلّ الكلّ الّذي فيك]، وقريبك كنفسك" (متّى٢٢: ٣٧- ٣٩). عندما نقبض على هذا القلب، ونعاينه، ونُسلمه إلى الرّبّ يسوع؛ فإنّه يُخرجه من جفافه وقحطه. وإذ يُفتّح الرّبّ يسوع هذا القلب، ويزرع فيه زرعه، بذاره، نوره، حقّه، إنجيله، كلمته، حبّه، حنانه، شفقته، رحمته... فإنّه يضيء هذا الكيانَ، يضيء هذا القلبَ، ويأتي بالعقل وبالنّفس إليه، يعمّدهما بنور القلب، بذاك النّور الإلهيّ والنّار الإلهيّة؛ حتّى يحرق القلبَ بحبّه، يوميًّا؛ ويحرق، بفعل إراديّ، نارَ أشواكنا، خطايانا، ونارَ ما أتينا به من العالم من أفكار، وظلمات أفكار، ومعرفة، وظنٍّ أنّنا نعرف، وتعظُّم مشيئة... وعندما تُزرَع الكلمة في القلب، في الأرض الجيّدة، وتُحرق تلك النّارُ الإلهيّة جحيمَ أشواكنا وأهوائنا؛ نبدأ بالإثمار، بمقدار ما نُفرغ أنفسنا: بعضنا مئة ثمرة، والآخر ستّين، والآخر ثلاثين (متّى١٣: ٨)... المهمّ أنّنا كلّنا نعطي ما أعطانا إيّاه الله. "الّتي لك ممّا لك، نقدّمها لك على كلّ شيء، ومن جهة كلّ شيء".

هذه هي طريق الرّاهب المرسومة في هذا الإنجيل المبارَك، إنجيل الزّارع، والأرض الّتي هي نحن، والزّرع الّذي هو الكلمة الإلهيّة، والحبّ الإلهيّ، والنّور! الزّرع هو

القداسة الّتي يرميها الله في قلب كلّ واحد منّا وكيانه. فإمّا أن نتلقّفها ملءًا، أو أن نأخذ جزءًا منها، ونبقى، بل نُبقي على أشواك نفوسنا، ظانّين أنّها هي الحقيقة الّتي ستخلّصنا. من هنا، المطلوب هو أن نُميت، كلّيًّا، كلَّ ما فينا، من فكر، ومعرفة، وقول، وحسّ، وكبرياء... وكلَّ ما أتينا به من العالم إلى الرّبّ، لكي نصير به إلى القداسة، وهو يريدنا كلّنا قدّيسين...

لذلك، أرفع صلاتي، اليوم، في عيد القدّيسة باراسكيفي، الحاملة في حضنها شفاء الأعين، طالبةً إليها أن تشفينا، أن تشفي عيون نفوسنا الدّاخليّة، وتُعمي عيوننا الخارجيّة عن كلّ منظر، وكلّ شهوة عالميّة، وكلّ إرادة متكبِّرة... هذا هو الوعد: القداسة... والقداسة تكون في القلب. والزّرع هو قلب الله في قلوبنا. فلنفتح أنفسنا، وقلوبنا، وعقولنا، وكلّ ما فينا؛ لنتقبّل النّعمة الإلهيّة من الرّبّ يسوع. ولْيَدُمِ اسمه مبارَكًا، من الآن وإلى الدّهر.

٢٦ تمّوز ٢٠٠٢

كيف نصير حنطة بلا زؤان؟!

(متّى١٣: ٢٤- ٣٠)

الرّبّ يسوع قال لنا: "يشبه ملكوت السّموات إنسانًا زرع زرعًا في حقله، وفيما النّاس نائمون، جاء عدوّه وزرع في وسط القمح زؤانًا ومضى"(متّى١٣: ٢٤- ٢٥)... وقال أيضًا: "صلّوا ولا تملّوا، صلّوا بلا انقطاع" (لو١٨: ١؛ ١تس٥: ١٧)... وذلك، بالضّبط، حتّى لا يأتي العدوّ علينا وإلينا، ونحن في غفوة نوم غافلين؛ ليفسد أرضنا، وترابنا، وزرعنا...

الشّرّير والشّرّ في حرب مع الرّبّ يسوع وكنيسته وخليقته، منذ الدّهر. فلا يقولنّ أحد منّا إنّ الشّيطان لا وجود له، وليس من قوى غريبة تسعى، في كلّ لحظة، لتفسد علينا حياتنا مع خالقنا، مع الرّبّ يسوع المسيح مخلّصنا!... الحيّة تتبع نسل الإله إلى عمق أعماق الصّحراء، لتلسعه، وتفسد دمه بسمّها. ولو استطاعت، لَقتلت كلّ أولاد الكنيسة العذراء، وأفسدتهم!... نعم لَأفسدتهم!... الشّيطان – الحيّة يريد أن يفسد نسل إبراهيم، ويجعل ذرّيّته (أي ذرّيّة إبراهيم) من ذرّيّته هو (أي الشّيطان)... من زرعه هو، من نبته هو... ثمرًا شرّيرًا...

والرّبّ يشير، اليوم، في الإنجيل، إلى هذه الحقيقة بوضوح، إذ يبدأ القول: "يشبه ملكوت السّموات"... ويُنزل ملكوت السّموات من حيث نظنّه بعيدًا، أو غريبًا عنّا، إلينا، إلى مستوانا... إلى حياتنا اليوميّة الّتي نفهم، ونعي، ونتمثّل... لنتعلّم فيها من المثل... والرّبّ قال أيضًا، في إنجيله: "ملكوت السّموات في داخلكم" (لو١٧: ٢١)... إذًا، الرّبّ يتحدّث إلينا، اليوم، عن ملكوت السّماوات الّذي هو في داخلنا، أي في قلوبنا؛ لأنّه هو أيضًا قال، في العهد القديم: "يا بنيّ أعطني قلبك" (أم٢٣: ٢٦). وإذ طلب الرّبّ القلب، إنّما طلبه ليجعله عرشًا يسكن فيه وعليه، ومنه نحيا حبًا له وللقريب... إذًا، ملكوت السّموات، الّذي هو قلب الإنسان وعرش الملك الرّبّ، استعمله الإله حقلًا له؛

ليزرع فيه زرعه، أي كلمته ووصاياه...

"وفيما النّاس نائمون، جاء عدوّه" (متّى١٣: ٢٥)... النّاس ينامون. هذا أمر طبيعيّ. الرّبّ قال، في مزاميره، "والرّبّ يعطي حبيبه نومًا" (مز١٢٦: ٢)... فكيف يكون هذا التّناقض، أو هذا التّضاد؟!... أيضًا وأيضًا، يقول سليمان الحكيم، في نشيد الأنشاد: "أنا نائم وقلبي مستيقظ" (نش٥: ٢)... إذًا، أنا أستطيع أن أنام بجسدي. لكنّ قلبي عليه أن يبقى ساهرًا... والقلب لا يسهر، ولا يستطيع أن يعي ما يجري معه، إلّا بالصّلاة؛ فهي كلمة الحياة، لأنّها تحمل اسم الرّبّ يسوع المسيح... هو المحيي، وهو الحياة... إذًا، إذ أقول "اسم يسوع"، فاسم يسوع سيُحييني، وينعشني، ويقيني موتة الموت والنّوم؛ فأبقى، بجسدي هذا الضّعيف، نائمًا، لكنّ قلبي يظلّ صاحيًا مستيقظًا... "الجسد ضعيف، لكنّ الرّوح نشيط" (متّى٢٦: ٤١). هذا ما عبّر عنه الرّبّ يسوع، في بستان الجثسمانيّة... كانت روحه معلّقة على الصّليب، ليجتذبها الآب إليه؛ وجسده يتصبّب عرقًا، خوفًا من إماتة اليهود لهيكله القدّوس... الرّبّ لم يخف الموت... لكنّه خاف أن يلَوِّث إبداعَ الإله بتلك الأيدي الأثيمة... لقد تألّم، وأطاع الآبَ، ونزل متجسّدًا إلى العالم؛ ليخلّصه... وكان صراعه ذاك كبيرًا!!! أن يبقى في حضن الآب، وأن يطيع مشيئته الإلهيّة، بتركه إيّاه إلى خليقته، ليخلّصها!!! لذا، الكنيسة تشدّد، في عقيدة سرّ تدبير الخلاص، على أنّ الابن الكلمة تجسّد، لكنّه لم ينفصل عن حضن الآب... وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تألّم الابن، إذًا؟!... لقد تألّم؛ لأنّه كان عارفًا أنّه سيواجه الكره، والخطيئة، والإعراض عن الحبّ الّذي يحمله هو في أحشائه من لدن الآب؛ وليقول لنا، أيضًا، إنّ الطّبيعة البشريّة، الّتي سقطت عن الإله، تبقى ضعيفة حتّى تتّحد به!...

الإنسان يُميتُ الإنسان بالإعراض عنه... وإذ يُعرض الإنسان بوجهه عن إلهه، وخالقه، وحبيبه؛ يُعرض بالقلب أيضًا؛ فيسقط هو نفسه في اللّاحب، أي في الخطيئة، ويترك الآخر، حتّى الإنسان الآخر، منتظِرًا، يتعذّب من حبّه، وينتظر عودته... هذا ما فعله الإنسان بالإله... لقد أعرض عن خالقه، وبقي الإله منتظِرًا رجعة جبلّته، وصنع يديه، وخليقته، إليه... لا يريد الإله رجعة الإنسان إليه ليمتلكه، بل ليحرّره من ربقة العدوّ عليه، من سكناه في حضن الخطيئة، والنّسيان، والموت، والنّوم... لذلك، أعطاه اسمه، بعد

صعوده، ليمتلكه باسمه؛ فيصير الاسم درعًا واقيًا، يحتمي الإنسان فيه وبه من الشّيطان، ومن غفلته، وضعف جسده، وكيانه، ونومه نومة الموت عنه، عن الحياة... هذا هو الأمر المهمّ الأوّل، في إنجيل اليوم.

أمّا الأمر الثّاني، فهو أنّ العمّال، أو عبيد ربّ البيت، أتوا، واستأذنوا ربّ الحصاد، لكي يسمح لهم باقتلاع الزّؤان؛ "فقال لهم: لا، لئلّا تقلعوا الحنطة مع الزّؤان" (متّى١٣: ٢٨- ٢٩)... هكذا، عشّشت الخطيئة في الإنسان، بل تملّكت عليه... هذا هو الصّراع بين الخير والشّرّ، في قلب الإنسان، ونفسه، وكيانه، حتّى آخر يوم من أيّام حياته... وهذا هو حقل الجهادات الرّوحيّة، اليوميّة، للإنسان؛ حتّى يقوى، ويظفر باسم الرّبّ، وبوصاياه، وكنيسته، وتعاليم الآباء، على كلّ شبه شرّ معشّش فيه... لهذا، نحن أُعطينا هذا العمر، لكي نعود إلى الإله، بعد أن نتنقّى من أدران النّفس والجسد... ولهذا أيضًا، يحبّ النّسّاك الموت، إذ إنّه يعيدهم إلى حبيبهم، وربّهم، وخالقهم... فطوبى للّذين يعرفون هذا؛ بل طوبى للّذين لا يلتهون في البحث عن الغثّ فيتركون الثّمين...

في العالم، بل في الدّير أيضًا، يحذّرنا الآباء كي لا نغرق في الاهتمامات الدّنيويّة، ونترك الأهمّ... وكلمة الرّبّ، في نهاية إنجيل اليوم: "دعوهما ينبتان جميعًا إلى الحصاد" (متّى١٣: ٣٠)... جاءت حتّى يعطينا الرّبّ الفرصةَ لأن نجاهد بوعي وتمييز؛ حتّى لا يكبر الزّؤان على الحنطة، في قلوبنا، وكياننا، وحياتنا في الدّير؛ حتّى لا نترك الأهمّ، ونغرق في المهمّ؛ حتّى نعي أنّ الشّرّير، في كلّ لحظة من حياتنا هذه على الأرض، يقف لنا بالمرصاد، ويريد أن يهجم علينا، ليرمي بذاره الشّرّيرة في أرض الرّبّ الخيّرة، الّتي هي أجسادنا، ونفوسنا، وعقولنا، وقلوبنا...

فلننتبه، إذًا، لأنّنا زرع الرّبّ، وعبيده الموكلون بزرعه، أي بصورته في هذا الكيان الحيّ، إلى الأبد، وعلى الدّوام... فلنحفظ أجسادنا هياكلَ للرّوح القدس السّاكن فينا؛ ولْنحفظ نفوسَنا موئلًا لوصاياه، وعقولَنا مصفاةً لأعمالنا وأفعالنا الدّنسة؛ حتّى نترك له الأجمل الّذي منه فينا، ونرمي الغثّ الّذي هو من الشّرّير؛ ولْنحفظ القلبَ، الّذي هو الأهمّ، عرشًا لحبّه وحضوره؛ ولْنتعلّم الصّبر، في كلّ لحظة، حتّى نرعى به هذا الكنز

الثّمين، ونحافظ على اللؤلؤة الغالية الثّمن، الّتي هي المسيح المقتسم معنا جسده ودمه، لغفران الخطايا، وللحياة الأبديّة... ألا أعطانا الرّبّ أن نصير حنطة لا زؤان فيها، في حقله الّذي هو نحن...

٣٠ تمّوز ٢٠٠٢

صرخة العشّار بدء الحياة الرّهبانيّة

(لو١٨: ١٠- ١٤)

ما سأقوله، هذا المساء، هو من وحي زمن التّريودي الّذي يبدأ، اليوم، تهيئةً للدّخول في الصّوم الكبير.

سألتني، مرّة، امرأة من ذوي القُربى: "كيف تتهيّئين لاستقبال الصّوم؟"، فابتسمت، وأجبتها بأنّ الرّاهب ليس لديه وقتُ تهيئةٍ لاستقبال الصّوم، لأنّه يجب أن يعيش الصّوم، كلّ يوم من أيّام حياته. لذلك، أنا لا أنتظر زمن الصّوم الكبير، حتّى أعيش صومي، أو توبتي؛ إنّما أفعل ذلك يوميًّا، منتظِرةً أنّ يحلّ الفصح؛ فأفرح به وبالقائم من بين الأموات. لكنّ الكنيسة، مَحَبّةً بالمؤمنين، وضعت لهم هذه التّرتيبات الصّياميّة، أو التّوبويّة؛ حتّى يتهيّأوا للفصح، ذلك أنّ عالمهم بعيد جدًّا عن الجوّ التّوبويّ الحقيقيّ، والّذي يُفترَض بهم أن يتهيّأوا، من خلاله، للدّخول مع الرّبّ يسوع في آلامه، وصلبه، وموته، وقيامته!

كيف يجب أن ننظر، نحن كرهبان، إلى هذا الموضوع، وأن نعيشه؟! الفرّيسيّ والعشّار هما كلّ واحد منّا في إنسانه العتيق، وفي إنسانه الجديد! الفرّيسيّ هو إنساننا العتيق، قبل أن يأتي إلى الكنيسة، أو قبل أن يأتي إلى الحياة الرّهبانيّة، وحتّى حين يكون في الكنيسة – إذ لا أحد يأتي إلى الرّهبنة من دون أن يكون قد عبر في الكنيسة أوّلًا، وإلّا فإنّ دعوته لا تكون صادقة ومرتكزة على أساس – إذًا، إنساننا العتيق، في الكنيسة، يكون فرّيسيًّا؛ فهو يتّكل على أعمال البرّ الّتي يتمّمها، وعلى حفظ الشّريعة، والتّمسّك بالتّفاصيل الدّقيقة: كيف يجب أن يصوم؟ وكيف يجب أن يعمل؟ وكيف يعشّر؟ وكيف يعطي؟ وكيف يساعد الإخوة في الدّير؟ وما شابه ذلك من أعمال برّ يقوم بها ليعظّم نفسه.

لكنّه، إذا كان يمتلك حسًّا إلهيًّا، يدخل، شيئًا فشيئًا، في النّعمة، الّتي تجعله يستمع إلى الصّلوات، ويفهم الكلمة – كلمة الصّلاة، وكلمة الإرشاد، وكلمة الاعتراف، وكلمة الحبّ المبذول في الشّركة؛ حتّى يعرف خطيئته، ويتوب عنها؛ فيأتي كالعشّار. والعشّار، في إنجيل الفرّيسيّ والعشّار، كان يعشّر المال. أمّا نحن، في حياة الشّركة، فنعشّر عدم محبّة للإخوة والأخوات، وندينهم، ونظلمهم، ونبرّر أنفسنا، كما فعل الفرّيسيّ. لكن إن ثبتنا، وطلبنا عون الله، وجاش الحبّ، في أنفسنا، للرّبّ يسوع المسيح؛ فإنّنا نحسّ بخطيئتنا؛ فنصير كالعشّار، الّذي كان ظالمًا جدًّا، بعد أن نكون قد وقعنا وقمنا عدّة مرّات، وسقطنا مرارًا وتكرارًا بسبب كبريائنا، إذ لا أحد يُسقطنا، إنّما نحن نُسقط أنفسنا، بسبب فرّيسيّتنا. إذا وعينا هذه الحركة من الكبرياء، والسّقوط، وعدم المحبّة، وإدانة الآخرين؛ فإنّ العليّ يباركنا، وندخل في نعمته، ونصبح كالعشّار الّذي قال: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ" (لو١٨: ١٣)؛ فنخرج مبرَّرين من بيته، إليه.

إذًا، كلّنا نبدأ حياتنا مع الله فرّيسيًّا. ولكن، الويل لنا، إذا بقينا في الفرّيسيّة. أمّا أن نصبح كالعشّار، فبركة من الرّبّ؛ لأنّ العشّار، بعد أن سقط وظَلَم الكثيرين، كان لا يزال في نفسه، بعد، شيء من نور، جعله يصرخ إلى الرّبّ طالبًا رحمته: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ"(لو١٨: ١٣). والرّبّ يعمل دائمًا، حتّى في ظُلُماتنا، لينقلنا من الفرّيسيّة إلى العشارة. لا أحد من الّذين كتبوا في الفرّيسيّة والعشارة دخل قلبَ العشّار، وقال كيف عرف الرّبَّ، وكيف تاب! **العشّار تاب بنعمة من عند الرّبّ، أوّلاً**؛ لأنّ الرّبّ يريد "أنّ جميع النّاس يخلصون، وإلى معرفة الحقّ يقبلون" (١تيمو٢: ٤).

الرّبّ حاضر في حركة ظُلمنا للآخرين، وفي حركة استكبارنا، وديونتنا، وعدم معرفتنا لخطيئتنا! هذا هو عمل الله فينا: أن يدخل إلى مساوئنا، وخطايانا، وأهوائنا، وظُلُماتنا، **كالإبرة**، الّتي، شيئًا فشيئًا، تثقب الجدار الحديديّ الّذي تنشره وتبنيه خطايانا حولنا؛ فينتشر النّور من حولها، حتّى تقضي على الظّلمة. وفي لحظة ما من حياتنا، ينفجر القيح، والظّلم الّذي في الدّاخل، ونبدأ بالصّراخ، مرّة وتكرارًا، ولا يُصلح المرءَ أحد وينتشله؛ فيصرخ إلى الإله: "إنّني متألّم من نفسي"! والعشّار لم يقل كالفرّيسيّ: "أنا أفضل من غيري"، بل أتى ليقول، حين لمسته النّعمة: "أنا متألّم من نفسي! ربّي، ارحمني، أنا

الخاطئ"! وذلك لا يحدث، إلّا بانغراز هذه الإبرة الدّقيقة جدًّا في قلوبنا، حاملةً معها نور الحياة. هذا يُظهر أنّنا قابعون في الخطيئة، والرّبّ يأتي إلينا بنوره، من خلال هذه الخطيئة، تمامًا كالإبرة الّتي تحمل النّور والدّواء، حتّى تُفجِّر القيح؛ فيخرج. هذا هو واقعنا. هذا واقع كلّ واحد منّا، على تفاوت في الدّرجات. كلّنا قابعون في الخطيئة، والسّوء، والجحيم، والدّنس، والهوى، والمرض، والقيح... لكن، بهذه الإبرة الّتي يغرزها الرّبّ في قلوبنا، نحن الّذين أتينا من بلاد غريبة إلى أرض الميعاد، أي إلى الدّير، يبدأ عمل الله في كلّ واحد منّا.

أمّا نحن، فما هو عملنا؟! إذا كان الرّبّ قد نادانا من أصقاع الأرض، وأتى بنا إليه، ليشفينا؛ فكيف نشفى؟! كيف ننظر إلى هذا الواقع؟! كيف نتعامل مع أمراضنا ومع الرّبّ؟! هنا أيضًا، قد نستغرب، إذا عرفنا أنّنا نشفى بإصبع الرّبّ؛ فتنفتح أعين القلب، ونبدأ بالرّؤية. لا يمكن لأحد منّا أن يرى خطيئته وأن يحسّ بها، إلّا بنعمة من عند الرّبّ. إذًا، إذا كنّا، كبشر، مكبّلين بالخطيئة، والأهواء، والسّقوط، إلى هذا الحدّ؛ فليس لدينا سوى باب واحد للخلاص من هذا الواقع، وهو أن ندخل، مثل العشّار، إلى أرض الميعاد، إلى الهيكل، **ونصرخ**: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ". **هذه الصّرخة هي** بدء الحياة الرّهبانيّة، وبدء تثبيت الإيمان. **إنّها بدء فاعليّة الإيمان ومفعوليّته.** وهي تستمرّ حتّى آخر يوم، في حياتنا، إذ نقول، ونحن نُطلق النَّفَس الأخير: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ". في أوّل المسيرة، يطلب المبتدئ الرّحمة؛ لأنّه خاطئ. هذا ما نتعلّمه من الكتب، والآباء، والكنيسة، ومن مرشدينا، وآبائنا، والمعرِّفين، وأيضًا من حياتنا. هنا، تظهر حركة النّفس والوعي كأمر ضروريّ ومهمّ جدًّا؛ إذ يمكننا أن نعيش هذا الكلام، الّذي قلناه، خارجيًّا؛ ولا نعي، في العمق، مصيبتنا الكبيرة، الّتي هي تعلّقنا بالخطيئة وبموت الخطيئة! هنا تكمن المفارقة الكبرى الّتي نميّزها بالوعي. لا يمكن الإنسان أن يعرف كُنْهَ الحياة الرّوحيّة وحقيقتَها، إذا كان غير واعٍ، وإلّا يموت في الخطيئة بسبب أهوائه، وعناده، وتمسّكه بذاته، وبمشيئته، وفكره وشخصيّته... فالموضوع، إذًا، هو أن ينفجر هذا القيح، ويخرج، حتّى **نتبيّن**، إراديًّا وطوعيًّا وإيمانيًّا وحبّيًّا، **الموتَ الجديد؛ حتّى نخرج من الموت العتيق، موتنا في أهوائنا، ونتبيّن الموت الجديد، وهو موتنا عن أهوائنا؛** لكي نحيا ونموت في المسيح، ونُفني أنفسنا في

الحبّ الإلهيّ، ونموت في الآخر، وفي الطّاعة، وفي الحبّ!...

فلنتدرّج مع الرّبّ يسوع في الشّفاء، وندخل معه إلى أورشليم، حيث نقبل الصّلب، والاتّهام، والموت عن إنساننا العتيق، الّذي سنصلبه، ويصلبه الرّبّ فينا ومعنا على صليب حبّه، على الصّليب! عندما نقبل الصّليب والموت، إلّا أنّنا نبقى دائمًا في حالة ارتجاج؛ فهذا يعني أنّنا لا نقبل الموت، وأنّ عرقنا يتقطّر دمًا، في الجتسمانيّة مع الرّبّ يسوع، لأنّنا لا نريد أن نموت؛ فيحملنا الإله – الإنسان لكي نُصلب معه عن خطيئتنا. فقط، في اللّحظة الّتي نموت فيها على الصّليب، مع الرّبّ يسوع، عن خطيئتنا، نصرخ وإيّاه: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟!"؛ فيأتي الإله، ويقيمنا إلى حياة أبديّة وجديدة فيه. إذ ذاك، ندخل في القيامة، أي في الموت الجديد عن أهوائنا. وحين نموت عن أهوائنا، ونتبنّى الموت، يوميًّا؛ نستطيع أن نقول: "المسيح قام". لذلك، الرّاهب لا يعيّد المواسم، إلّا لكي يساعده الرّبُّ، ولكي يساعد نفسَه على الدّخول في هذه العمليّة اليوميّة، كمثل البحر الهائج، المضطربة أمواجه، يوميًّا، قاذفةً الأقذار إلى الشّاطئ؛ حتّى يدخل في عمق المعرفة الإلهيّة، الّتي لا تأتي إلّا بقبول أوساخنا، وخطايانا، وأهوائنا، والإقرار بها، والإرادة الواضحة للشّفاء؛ حتّى لا نبقى مخلَّعين، كذاك المخلّع عند بركة حسدا، الّذي أتى الرّبّ إليه ليسأله: "أتريد أن تشفى؟!... قم، احمل سريرك، وامش" (يو٥: ٦...).

هذا لا يحصل إلّا بهذا الوعي الكامل أنّنا كمثل ثمرة "الأرضي شوكي"، الّتي تكون ممتلئة أشواكًا، والّتي حتّى عندما ننزع عنها قشرتها وأشواكها، ونصل إلى لبّها الّذي نأكله؛ نرى في الدّاخل بعض الأشواك. هذا هو الرّاهب! إنّه هذه الثّمرة، ثمرة "الأرضي شوكي"، الممتلئة أشواكًا. الرّاهب يبقى دائمًا عديم الثّقة بنفسه، وعارفًا أنّه لا يمتلك أيّ برّ، وليس فيه أيّ خير! عندما يعرف الرّاهب ذلك، بالنّعمة، لأنّه قال للرّبّ "نعم"، وقَبِلَ أن يأتي إلى الدّير؛ فإنّ هذه الإبرة، الّتي تكلّمنا عليها، سوف تستمرّ بالانغراس فيه، حتّى تصل إلى أعماق خطاياه، وتفجّر القيحَ الّذي في الدّاخل. إذ ذاك، يقول: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ". هذه المسيرة هي مسيرة العمر، كلّ العمر. لذلك، طروباريّة القدّيسين تقول: "في مجاري دموعك أمرعت، وبالتّنهّدات الّتي من الأعماق...". ودائمًا يُصَوَّر القدّيسون، في الأيقونة، وكأنّ هناك مجرى دمع تحت عيونهم. الرّاهب الحقيقيّ هو الّذي عرف خطيئته وتبنّاها،

وعرف سقوطه وتبنّاه. ولكن، هو، أيضًا، الّذي يسعى، كلّ يوم، لأن يعود ويتبنّى الرّبّ يسوع، وطبابةَ الرّبّ يسوع له، ويقبل نخس هذه الإبرة، ونخزها، ووجعها، تلك الإبرة الّتي تدخل في أحشائه، حتّى تُخرج منها قيح الإنسان العتيق. والقيح الأساسيّ، في الإنسان العتيق، في كلّ واحد منّا، هو **"الأنا"** الّتي تولّد الكبرياء، مُدخِلَةً الإنسان في جبّ الهلاك، وفي بؤرة الموت؛ فيأتي الرّبّ يسوع إلينا. وما كان الإنسان ليفهم هذا الأمر، إلّا حين تبنّى الرّبّ يسوع، الإله – الإنسان، هذا الواقع المقيت للإنسان، وحَمَلَه، وأخرجه منه، شيئًا فشيئًا، على الصّليب.

نحن، إذ ندخل في هذه المرحلة الجديدة القديمة المؤقّتة، والّتي هي في كلّ وقت وزمان، من حياتنا اليوميّة، إذ ندخل زمنَ التّريودي؛ ندخل معه زمنَ التّوبة. مسكينٌ هو الّذي لا يريد أن يتوب! مسكين الّذي لا يعرف خطيئته! مسكين الّذي لا يبكي على خطاياه! مسكين الّذي لا يريد أن يتغيّر، وأن يُلقي بأحماله وأوساخه قدّام الرّبّ! مسكين الّذي يظنّ أنّ فيه خيرًا ولو واحدًا، أو برًّا ولو واحدًا! إنّه مسكين وفقير العقل! هذا هو الّذي يريد أن يُلقي بنفسه، طوعًا، في الجحيم، وفي الموت.

فلْنعِ أهمّيّة التّوبة، ولْنأتِ صاغرين إلى أحضانها، ونطوّبْها مع تلك الإبرة الّتي تنغرس في أعماقنا، وفي أحشائنا، وتؤلمنا. لماذا ننادي الرّبّ يسوع قائلين: "تعال، يا ربّ، تعال"؟! أَلِيَأْتي ويتسلّى معنا؟! طبعًا لا! إنّما نصرخ إليه قائلين: "تعال واشفِ جراحاتنا. هلمّ واسكن فينا، وطهّرنا من كلّ دنس"! ولكن، كيف يطهّرنا؟! يطهّرنا، تمامًا، بوساطة هذه الإبرة، وهذا المِبضَع الّذي يفجّر خطايانا، وقيحَنا، وأدناسَنا. وعلينا أن نعي ذلك؛ لأنّنا، إن لم نساعد الرّبّ في عمله فينا، فإنّنا لا نخرج إلى خلاصنا. علينا، في بدء هذا الموسم الشّريف المبارك، أن نتبنّى فرّيسيّتنا الملتصقة بأحشائنا الدّاخليّة، والخارجة إلى الخارج، وأن نصرخ يوميًّا: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ"! إذ ذاك، لا يعود أحد منّا يدين أخاه قائلًا: "هو أغواني، وأطعمني من ثمرة معرفة الخير والشّرّ"، بل يقول: "أنا السّبب لوقوع أخي". عندما يسمح الرّبّ بتجربة شخص من خلال أخيه؛ فأوّلًا، عليه أن يصمت؛ ومن ثمّ يقول لأخيه: "سامحني، لأنّي أُعثرك"! الكلمة الأولى الّتي تخرج من الفم، في سجال

مع الآخر، هي بداية السّقوط؛ فإذا تبنّى كلّ واحد منّا هذه الطّريقة في الصّمت، أي أن يقول لأخيه: "سامحني، أنا الخاطئ"؛ يتداخل، إذ ذاك، الموج بعضه ببعضه الآخر، وتصبح جهودنا أمواجًا من بحر واحد، تسعى لقذف الأوساخ إلى شاطئ المدينة؛ حتّى نتطهّر، يوميًّا؛ فندخل أورشليمَ العلويّة.

صلاتي ورجائي أن نبدأ بالسّعي، منذ اليوم، لتبنّي هذا الموت الطّوعيّ عن خطايانا؛ حتّى ندخل في الموت الجديد، موتِ الحبّ الإلهيّ، أي الموت في العشق الإلهيّ، وننشطر إلى شطرين: الشّطر الأوّل هو إنساننا العتيق الّذي يلاحقنا يوميًّا، لأنّنا تركناه وراءنا؛ والشّطر الثّاني، الّذي نبدأ مسيرتنا به، هو إنساننا الجديد الّذي يتبنّى الموت الطّوعيّ الإراديّ مع الرّبّ يسوع، وفي حبّ الرّبّ يسوع؛ حتّى ننتهي معه على الصّليب في القيامة. إذ ذاك، لا نقول إنّنا قمنا، بل نقول: "المسيح قام". والمسيح لا يقوم في المطلَق، بل في كلّ إنسان تبنّى هذه المعرفة، وهذا الإقرار بأنّه خاطئ، والتزم السّعي للخروج من خطيئته بالنّعمة! هذه المسيرة تبلّغنا إلى قامة الآباء الكبار، الّذين صاروا قدّيسين، وقد ظلّوا، حتّى آخر يوم من حياتهم، يقولون: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ". هذه هي قيامة الرّاهب: أن يقول: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ"، أن يصير كالعشّار، قدّام الرّبّ، جالسًا في هيكله، وعارفًا أنّه خاطئ؛ فيخرجه الرّبّ إلى البرّ، قائلًا له: "ادخل إلى فرح ربّك" (متّى٢٥: ٢١)، "تعال واسكن معي في مُلكي".

ألا أعطانا الله كلّنا أن ندخل هذه المسيرة، منذ اليوم، ونعترف بخطايانا، ونكشف أهواءنا الدّفينة، المحتالة، غير الطّاهرة؛ وأن نتوب عنها، ونُجهد أنفسنا لكي نطيع، بالنّعمة، ونقبل ما يُقال لنا؛ وأن نضبط جماح هذا الحيوان الشّرس، وهذا الشّيطان السّاكن في الخطيئة الّتي فينا؛ وأن نذَوِّب هذه كلّها بالدّموع، والوداعة، والألم، باستقبال وجع انغراز هذه الإبرة في أحشائنا؛ حتّى نتطهّر! هذه المسيرة طويلة، والعمر أمامنا طويل! لكن، فلْنبدأ ولو بخطوة واحدة في مسيرة الألف ميل؛ حتّى نصل إلى إنعامات الرّبّ الّتي يسبح فيها الكون، وما علينا نحن إلّا أن نأتي ونشرب من ذلك الينبوع، وذاك النّور الّذي أعطانا إيّاه الرّبّ، إذ أهّلنا لأن نصير رهبانًا في بيته. هذه هي الحديقة: الدّير! وما علينا إلّا

أن نلتقط منها البركات؛ ولكن، بالمعرفة أنّنا، بالضّبط، مثل هذه الثّمرة المُشوِكة، الّتي لا تنعم بالاستقرار، إنّما هي في حالة انشداد دائم، وكأنّها مضبوطة في الملقط، وذلك حتّى لا تتراخى، وحتّى تبقى في السّعي، وتقبل أنّ قيامتها هي في أن تعرف أنّها خاطئة، وتصرخ دومًا: "ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ".

١٦ شباط ٢٠٠٣

قراءة رهبانيّة لإنجيل زكّا

(لو١٩: ١- ١٠)

اليوم، سنقرأ ونحكي زكّا رهبانيًّا...

كتب الإنجيليّ لوقا: "فيما يسوع **مجتاز** في أريحا..." (لو١٩: ١). لفظة "مجتاز" تدلّ على أنّ يسوع يمرّ بكلّ قرانا وبلادنا؛ لأنّ في الاجتياز حركةَ عبور. وأريحا هي بلد زكّا. إذًا، يمكننا القول إنّ يسوع اجتاز كلّ بلد من بلداننا، وكلّ قرية من قرانا، وكلّ واحد منّا؛ ليصطحبنا معه! إذًا، نحن زكّا العشّار. "فيما يسوع مجتاز في أريحا، إذا برجل اسمه زكّا، كان رئيسًا على العشّارين، وكان غنيًّا" (لو١٩: ١- ٢). غنى زكّا كان، وقتئذٍ، غنىً مادّيًّا. ويسوع لا يمرّ ببلد من دون أن ينادي النّاس ليتبعوه. لقد أتى إلى أريحا، ليدعو زكّا، الّذي كان رئيسًا على العشّارين، وكان غنيًّا. هذا يُشير إلى أنّ يسوع يدعو مَن هم أغنياء، أيضًا، لا مَن هم فقراء فقط... وقد مرّ بقرية كلّ واحد منّا، ودعانا، نحن الأغنياء أيضًا. ولكن، بماذا نحن أغنياء؟! سأجيب عن هذا السّؤال لاحقًا.

إذًا، "فيما يسوع مجتاز في أريحا، إذا برجل اسمه زكّا، كان رئيسًا على العشّارين، وكان غنيًّا، وكان يلتمس أن يرى يسوع من هو" (لو١٩: ١- ٣). الإنسان الفقير، الّذي لا يملك وزنة أو أكثر، في نفسه، يكون منشغلًا، دائمًا، عن يسوع؛ إذ إنّه يسعى جاهدًا ليحصّل خبزه، ومعيشته؛ إذًا، هو لا يملك الوقت ليتبع يسوع، إنّما فقط يصلّي له طالبًا أن يوفّقه. أمّا الغنيّ، بما عنده، فإنّه يريد أن يزيد غنًى على غناه؛ فيذهب ليرى مَن هو يسوع. المنشغل بتحصيل لقمة العيش ليس لديه الوقت ليسوع. أمّا المرتاح مادّيًّا، فإنّه يملك الوقت حتّى يبحث عن يسوع؛ لأنّه يريد أن يعرف مَن هو، بسبب فضوله. "فلم يكن يستطيع من الجمع، لأنّه كان قصير القامة" (لو١٩: ٣). هذا هو التّضادّ، الّذي جعلنا الإنجيليّ لوقا نقف بإزائه، من خلال هذا المثل: كان زكّا غنيًّا ورئيسًا، وفي الوقت نفسه، كان قصير القامة! ليس من غنًى، في العالم، يُكمّل الإنسانَ! الإنسان الّذي لا يعرف

يسوع، حتّى ولو كان كثير الغنى؛ يبقى قصير القامة، يبقى صغيرًا... ولم يقل الإنجيليّ إنّه "يبقى صغيرًا"، بل "قصير القامة"، وكأنّه يريد أن يقول إنّه كان قزمًا. وقد حدّد أنّه قصير القامة، حتّى يقول لنا إنّ زكّا كان قزمًا من حيث معرفة يسوع. كان غنيًّا بما عنده وبما هو فيه، لكنّه كان قصير القامة في المعرفة الإلهيّة.

"فتقدّم مسرعًا، وصعد إلى جمّيزة لينظره، لأنّه كان مزمعًا أن يجتاز بها" (لو١٩: ٤). الإنسان الغنيّ غالبًا ما يكون قد عمل على تحصيل المال؛ إذ إنّه يكون ذا شخصيّة قائدة وقويّة، وصاحب فكر ومنطق وسعي، ويكون في حركة مستمرّة، واحتيال، ربّما؛ حتّى يحصّل ويجمع أكثر ما يمكن من المال والغنى لنفسه. ركض زكّا وصعد إلى جمّيزة، لا فقط ليرى مَن هو يسوع من باب الفضول، وإنّما أيضًا لأنّه أراد أن يضمّ يسوعَ إلى مجموعته، إلى مجموعة غناه؛ وحتّى يتفاخر، قدّام أصدقائه، بأنّه، هو أيضًا، يعرف مَن هو يسوع... إذًا، بهذه القدرة الدّاخليّة الّتي يمتلكها، أسرع وصعد إلى الجمّيزة، على الرّغم من قِصَرِ قامته وقزميّته؛ حتّى يرى مَن هو يسوع. و"كان [يسوع] مزمعًا أن يجتاز بها" (لو١٩: ٤). هنا، كلمة "مزمعًا" تشير إلى أنّ يسوع كان قد قرّر أن يمرّ من تحت تلك الجمّيزة؛ لأنّه، وهو الإله، عرف أنّ زكّا هذا، القصير القامة والغنيّ جدًّا، سوف يصعد إليها ليراه؛ وهو أراد أن يأتي به إلى الخلاص. "فلمّا انتهى يسوع إلى الموضع، رفع طرفه، فرآه، فقال له: يا زكّا، أسرع انزل، فاليوم ينبغي لي أن أمكث في بيتك" (لو١٩: ٥). لاحظوا هذه الصّورة: مرّ يسوع بتلك الجمّيزة، الّتي كان زكّا قد صعد إليها ليرى مَن هذا. وتعلمون أنّ شجر الجميز كثيف؛ إذًا، لم يكن زكّا ظاهرًا وهو على الجمّيزة، بل كان مَخفيًّا بين أوراقها؛ إذ إنّه كان قزمًا صغيرًا. لكنّ يسوع ما إن رفع طرفه قليلًا حتّى رآه؛ فقال له: "يا زكّا"! لقد سمّاه باسمه، لأنّ الله يعرف كلّ واحد منّا باسمه: "من البطن عرفتك" (إر١: ٥). "أسرع"، أي لا تفكّر، ولا تتوانَ! لا يمكنك أن تتوقّف! حين ينادينا الرّبّ، لا يمكننا أن نتوقّف، بل علينا أن نركض. وقد قال لزكّا ما عليه أن يفعله. يسوع يعطينا الأوامر، ولا يتركنا حتّى نقرّر بأنفسنا. قال له: "أسرع انزل [عن الشّجرة]، فاليوم ينبغي لي أن أمكث في بيتك"(لو١٩: ٥)، وكأنّه يقول له: "انزل من حيث اختبأت، حتّى تعرف مَن أنا، وحتّى أدخل بيتك، إذ لا أحد يختبئ ليعرفني. مَن يعرفني، أجلس عنده، في بيته. آتي أنا

وأبي وأصنع عنده منزلاً، (يو١٤: ٢٣). أسرع، انزل! تعال إليّ! أنت تحرّكت لتعرف مَن أنا، وأنا أتيت إليك؛ فتعال إليّ، لأدخل معك إلى بيتك". هذه هي الحركة الثّنائيّة بين الرّبّ وبيننا. هكذا يكون الحوار، دائمًا... لاحظوا ردّة فعل زكّا! قال له: "أسرع انزل، فاليوم ينبغي لي أن أمكث في بيتك. فأسرع، ونزل، وقبله فرِحًا" (لو١٩: ٥- ٦). لقد أطاع، وقبله فرحًا؛ لأنّه كان يعرف أنّه لا يستحقّ يسوعَ، بسبب كونه رئيسًا على العشّارين، وغنيًّا بما عنده، ويظنّ أنّه لا يحتاج إلى يسوع، إنّما فقط كان يريد أن يراه كواحد من البشر، إذ سمع الكثيرين يقولون عنه إنّه المعلّم، وأراد أن يتباهى قدّام صحبه، كما ذكرنا سابقًا. إذًا، قبله فرِحًا. في تلك اللّحظة، تغيّر زكّا. حين تحرّك نحو يسوع، بدأت حركة التّغيير... إلّا أنّ التّغيير الأساسيّ حدث في قلبه، حين لمسه صوت يسوع، وناداه قائلًا: "أسرع انزل". تجدر الإشارة، هنا، إلى أنّه لم يقل له: "أُريد أن أُحاسبك، أو أُقايضك، أو أحاكمك، أو أُعاتبك"!... إنّما قال له: "ينبغي لي أن أمكث في بيتك. [أُريد أن أدخل وأجلس معك في بيتك]". العدوّ لا يدخل البيت. والغريب، أيضًا، لا نستقبله في البيت. لكنّ يسوع هو الإنسان المعروف، والضّيف المكرَّم، الّذي نستقبله بفرح؛ لأنّه هو ربّ البيت.

"فلمّا رأى الجميع ذلك، تذمّروا قائلين إنّه دخل ليحلّ عند رجل خاطئ" (لو١٩: ٧). عبارة "تذمَّروا قائلين" تدلّ على أنّهم تكلّموا بصوت عالٍ، حدث احتجاج: مَن هذا؟! ماذا فعل؟! لماذا يمكث عنده؟! هذا هو المعلّم والرّبّ؛ فلماذا دخل بيتَ رجل خاطئ، رئيس على العشّارين، غنيّ؟! العشّارون كانوا مكروهين، لأنّهم كانوا يجمعون الجباية من فقراء النّاس، من بيوتهم، من الأرامل، وكانوا يسرقونهم، ويطردونهم من بيوتهم، ويسجنونهم... وزكّا، لكونه رئيسًا على العشّارين، كان مكروهًا جدًّا. لهذا السّبب، لم يمشِ مع الجمع، ليرى مَن هو يسوع، بل اختبأ، وصعد إلى الجمّيزة؛ حتّى لا يراه النّاس؛ وحتّى لا يطردوه من بينهم... هؤلاء النّاس الفرّيسيّون أنفسهم، الّذين يحابون الوجوه، ويحاكمون بحسب الظّاهر، وقد أدانوا زكّا لأنّ أفعاله كانت سيّئة، هؤلاء لم يحاكموا زكّا فقط، إنّما أيضًا حاكموا الرّبّ يسوع، وتذمّروا عليه قائلين: "دخل ليحلّ عند رجل خاطئ"؛ إذًا، اعتبروه خاطئًا كهذا الإنسان، بحسب المثل الشّعبيّ القائل: "قُل لي مَن صديقك، أقل لك مَن

أنت". إذًا، أدانوا يسوع، وأدانوا زكّا أيضًا. وبما أنّ زكّا كان قد لمسه يسوع، وعرف أنّه صار صديقًا له، وأنّ يسوع قَبِله واختاره، وهو مزمع أن يمكث في بيته؛ فقد وقف وقال له: "[ها أنا أعرف ما تريده منّي...]! هأنذا، يا ربّ، أُعطي المساكين نصف أموالي" (لو١٩: ٨).

هنا، نصل إلى ما يختصّ بنا، نحن كرهبان، وإلى الجواب عن السّؤال الّذي طرحناه في البداية: بماذا نحن أغنياء؟! حين يأتي إلينا يسوع، نكون أغنياء بكراماتنا، وعائلاتنا، ومَحْتِدِنا*، وجمالنا، وعِلمنا، وشخصيّاتنا، و"أنانا"، وأفكارنا، ومشيئتنا... إذًا، نحن كالعشّار. نحن عشّارون، ورؤساء عشّارين أيضًا، كزكّا. والرّبّ يسوع لا ينادي إنسانًا، إلّا ويكون هذا الأخير غنيًّا بخطاياه وبإنسانه العتيق؛ لأنّ الرّبّ يريد: "أنّ الجميع يخلصون، وإلى معرفة الحقّ يُقبلون" (١تيمو٢: ٤). والرّسول بولس قال: "الرّبّ يسوع أتى لأجل الخطأة الّذين أنا أوّلهم" (١تيمو١: ١٥). وأنتم تعرفون ما كان عليه الرّسول بولس. لقد قتل آلاف المسيحيّين، واضطهدهم؛ لأنّهم كانوا يعترفون بالرّبّ. إذًا، يسوع يأتي إلى مَن هو مملوءٌ خطايا، إلى الغنيّ بالخطايا، إلى رئيس العشّارين؛ لأنّ رحمته كبيرة إلى درجة أنّه يقول لِمَن يناديه: "أنا آتٍ إليك، لأمكث في بيتك"!...

كيف كانت ردّة فعل زكّا؟! فرح بأنّ يسوع آتٍ إليه. ويسوع لم يطلب منه أن يعطي أحدًا شيئًا، بل هو قال له، على الفور: "هأنذا، يا ربّ، أُعطي المساكين نصف أموالي" (لو١٩: ٨). بدأ زكّا بتقديم تقادِمِه، وبدفع ضريبته! بدأ يردّ ما سرقه من النّاس: "أُعطي المساكين نصف أموالي"! وهو كان يعرف أنّه كان غابنًا للمساكين. على هذا النّحو، يعطي الرّاهب كلّ ما له ليسوع، وللجماعة الّتي حوله، والّتي تحتاج إلى ما عنده من المعرفة والفكر، إلى ما عنده من غنًى خطيئيّ؛ لأنّ الإنسان، إن استعمل غناه الخطيئيّ هذا من أجل خدمة الآخرين، يمكن أن يتغيّر. إذًا، عليه، في البداية، حين يأتي إلى يسوع، أن يعطيه كلّ ما له من أموال، أو عِلم، أو فكر، أو أعمال يدويّة، أو محبّة... كلّ هذه يأتي بها إلى الدّير: "أُعطي المساكين نصف أموالي". بعد ذلك، يتحرّك **ضميره الجديد**، فيقول: "وإن كنتُ قد غبنتُ أحدًا في شيء، أردُّ أربعة أضعاف" (لو١٩: ٨). هذه هي مسيرة

---

* المَحْتد: الأصل.

الرّاهب، طول حياته. نحن دائمًا ما نغبن بعضنا بعضًا، إن كان بالفكر، أو بالقول، أو بالشّكّ في الآخرين، أو بانتقادهم، أو بعدم محبّتهم، أو بإدانتنا لهم، أو بعدم بثّ أجواء سلاميّة فيما بينهم، أو بالغضب عليهم، أو بإفرازهم وإبعادهم عن روح الرّبّ، الّذي "أتى لأجل الخطأة الّذين أنا أوّلهم". والرّاهب يعرف، في قلبه الخفيّ، أنّه خاطئ ويريد أن يبقى في "أناه" ليستولي على الجميع!...

إذًا، زكّا أعطى المساكين نصف أمواله، وردّ أربعة أضعاف لكلّ مَن غبنه، ولم يترك لنفسه شيئًا. هذه هي مسيرة الرّاهب، اليوميّة، الّتي يطلبها يسوع منّا: أن يعطي كلّ ما له، ويردّ لِمَن غبنه أربعة أضعاف، دائمًا. ولا يمكننا أن نردّ للآخر، إلّا بأن نستسمح منه: "سامحني، يا أخي"، "سامحيني، يا أختي"... بكلام آخر، أردّ للآخر، إن كنت قد آذيته بكلمة، أو فعل، أو ردّة فعل، أو غضب، أو حقد، أو غيظ، أو إدانة... وأردّ له أربعة أضعاف، أي أُكرمه أربعة أضعاف أذيّتي له؛ فأتّضع قدّامه، وأنكسر له، وأُبارك عليه، وأُصلّي له، وأخدمه... هكذا، يمكننا أن نفهم ما يريده يسوع منّا في زكّا. وحين يعي الإنسان أنّه خاطئ، ويدفع ثمن خطيئته؛ للحال، يقول له يسوع ما قاله لزكّا: "اليوم، قد حصل الخلاص لهذا البيت" (لو١٩: ٩). لماذا لم يقل لزكّا: "قد حصل الخلاص لك، يا زكّا"، بدلًا من قوله: "قد حصل الخلاص لهذا البيت"؟! هذا لأنّ الإنسان، حين يعطي نفسه للرّبّ يسوع، يخلّصه الرّبُّ هو وأهل بيته. "بصلاة إنسان واحد يخلص جميع أهل البيت"! لكن، يجب أن تكون الصّلاة نقيّة، من قلب نقيّ، من شخصيّة نقيّة، من فكر يتنقّى باستمرار، من حياة تتدرّج منتقلةً من حالة الهرب، إلى النّزول، إلى الفرح، إلى الوقوف قدّام الرّبّ!...

وعندما يرى الإنسانُ يسوعَ، حين يضع عينه في عينه؛ فلا بدّ من أن يغيِّره يسوعُ؛ فيقدّم كلّ ما عنده إليه، ويخلص مع أهل بيته. بكلام آخر، كلّ واحد منّا هنا، في الدّير، سوف يخلّصه الرّبّ يسوع مع كلّ أهل بيته؛ لأنّه قدّم نفسه إليه، شرط أن يكون أمينًا في حياته مع يسوع، يوميًّا. ومَن هم أهل بيوتنا؟! هم مَن نصلّي لهم من قلب نقيّ. لذلك، هناك قدّيسون تمكّنوا من أن يخلّصوا بصلاتهم، لا فقط أهل بيوتهم، بل العالم كلّه؛ لأنّهم لُمِسوا؛ فتابوا، وتخلّوا عن خطاياهم؛ فأتى يسوع وسكن عندهم: "قلبًا نقيًّا اخلق فيّ، يا ألله،

وروحًا مستقيمًا جدّد في أحشائي" (مز٥٠: ١٠)، "لأنّ ابن البشر إنّما أتى ليطلب ويخلّص ما قد هلك" (متّى١٨: ١١)، و"حيث تكثر الخطيئة، تزداد النّعمة أيضًا" (رو٥: ٢٠). كلّنا، في الحقيقة، زكّا، وكلّنا أغنياء بخطايانا، وكلّنا ديّانون، وقد آذينا الآخرين، وظلمناهم، وأكلنا أموالهم، وسرقنا محبّتهم وحنانهم، ودنّاهم، وأذللناهم.... وقد أتى يسوع "ليخلّص ما قد هلك". كلّنا هالكون! لكن، بمجيئنا إلى الدّير، وبعلاقتنا بيسوع، وبمعرفتنا أنّنا عشّارون، وبتوبتنا إليه، وبحبّه وحنانه... نخلص نحن وأهل بيوتنا، والشّركة الّتي نحن فيها، والعالم بأسره .

هذا العشّار قابل سلبيّة النّاس، الّذين كانوا يكرهونه ويدينونه، بالمسامحة والحنان؛ لأنّ يسوع أحبّه. لذلك، إذا كان هناك شخص واحد يمتلك فكرًا إيجابيًّا، فإنّ كلّ الشّركة تتأثّر بإيجابيّته. كذلك، إذا كان هناك شخص واحد في نفسه حقد، أو كره، أو غضب، أو استكبار... فإنّ كلّ الشّركة تتأثّر به... إذا كان في نفس أحدنا عدم محبّة، أو فكر دينونة تجاه الآخر؛ فإنّ كلّ الشّركة تتأثّر بذلك، ويصبح هناك خطّ يستطيع الشّيطان، من خلاله، أن يعمل على إخراج ما فيه من سلبيّة إلى الخارج. حين يمرّ أحدنا بفترات سلبيّة، عليه أن يعرف كيف يواجهها، على الفور، بالانحناء، والاتّكاء، والمحبّة، وإدانة النّفس... فيقطع، إذ ذاك، على الشّيطان عمله. أمّا إذا تمكّن هذا الأخير، مرّة واحدة، من أن يُسقِطه في فكر إدانة للآخر، أو عدم محبّة له، أو استكبار عليه... فإنّ روح الشّركة الإيجابيّ يموت، ولا يعود بإمكانه أن يخلص لا هو، ولا الّذين حوله. هذا هو الرّوح الإيجابيّ الّذي يطلبه يسوع. يسوع لم ينظر إلى الّذين أتوا معه، ومشوا من حوله، ولم يهتمّ بهم؛ لأنّ هؤلاء هم رفقته وجماعته. إنّما اهتمّ فقط بهذا الخاطئ العشّار، رئيس العشّارين؛ فأنزله، وتوّبه... هناك قاعدتان أساسيّتان: الرّبّ يسوع ينادي، ونحن نُجيب. الرّبّ يسوع يلمس القلب، ونحن ننسكب قدّامه. هناك توبة ودَفْعُ ثمن عن الخطيئة، من جهة؛ وغفران وخلاص، من جهة أخرى.

هذه هي المسيرة، الّتي يُفترَض بكلّ واحد منّا أن يسيرها، وهو على طريق التّهيئة للصّوم. علينا أن نُكرم زكّا، لأنّه كلّ واحد منّا. نحن ممتلئون خطايا، لكنّ رحمة الرّبّ سوف تملؤنا أيضًا، ولقد بدأت تملأ بعضنا، أو كلّنا، أحيانًا. إلّا أنّها تتخلّى عنّا، في بعض

الأحيان، عندما نُصيخ* للشّيطان، لشيطان الاستكبار، وإدانة الآخرين، والأنانيّة، والطّمع، وعدم المحبّة... فإذا عرفنا أنّنا كلّنا "مضروبون" بالخطايا، نصبح أكثر رحمة بالآخرين، ويسود علينا روح محبّة الله، عندما ينادينا. وقد نادى كلّ واحد منّا، حتّى نأتي إليه، ونعطيه نصف أموالنا، ونتوب، ونحبّ الآخرين؛ إذ ذاك، يأتي ويدخل بيوتَنا، وينجّينا... يدخل كياننا كلّه، لينيره بالخلاص.

٢٥ كانون الثاني ٢٠٠٤

* أصاخ له: استمع إليه.

الفهرس

- الإهداء.......... ٣
- المقدّمة.......... ٥
- حبل حنّة بوالدة الإله.......... ٩
- طابيثا قومي.......... ١٢
- التّهيّؤ للميلاد.......... ١٥
- الميلاد.......... ١٩
- حسّ الخطيئة.......... ٢٣
- وعد الحياة الجديدة.......... ٢٦
- سرّ الشّفاء.......... ٣٠
- تجربة السّلطة.......... ٣٤
- أين يسكن يسوع.......... ٣٦
- الشّهادة.......... ٤٠
- بيتي بيت الصّلاة.......... ٤٢
- أنتم نور العالم.......... ٤٦
- زمان الشّفاء.......... ٤٩
- مجد الصّليب لنا وفينا.......... ٥٣
- اطلبوا تجدوا.......... ٥٧
- الطّعام السّماويّ.......... ٦٠
- الرّاعي الصّالح.......... ٦٥
- رأس الحكمة مخافة الرّبّ.......... ٦٩
- الطّاعة ملح النّعمة.......... ٧٢

- السّبت وشريعة الحبّ........................ ٧٥
- البتوليّة في الحبّ والكره المبارَك........................ ٧٩
- سلطان الرّوح........................ ٨٣
- مأساة السّقوط........................ ٨٧
- الدّخول في الآلام........................ ٩١
- سرّ صليب الحبّ في الابن الشّاطر........................ ٩٥
- إكليل الآلام........................ ٩٩
- الارتقاء إلى السّموات........................ ١٠٣
- محكمة الرّبّ........................ ١٠٧
- الإناء الفارغ مسكن الشّيطان........................ ١١٠
- الدّم المحيي........................ ١١٤
- نور التّجلّي الإلهيّ........................ ١١٨
- صحراء العبور........................ ١٢٢
- المنّ السّماويّ........................ ١٢٦
- تأديب الرّبّ الخلاصيّ........................ ١٢٩
- الرّفيع عند النّاس رجس قدّام الله........................ ١٣٢
- العاقر تلد حياة........................ ١٣٤
- اقطعوا الخطيئة الّتي فيكم........................ ١٣٧
- سرّ السّقوط العناد........................ ١٤٠
- أنت ابني الحبيب........................ ١٤٣
- جوهرة الحبّ الإلهيّ........................ ١٤٦
- هيكل الله وهيكل النّفس الفرّيسيّة........................ ١٤٩
- طيب المحبّة........................ ١٥٣
- أنشودة حبّ ليوحنّا الحبيب........................ ١٥٦
- الحبّ المذبوح........................ ١٦٤

- خبز الحياة الأبديّة.. ١٦٨
- سرّ علاقتنا الشّخصيّة بالمسيح.. ١٧١
- الهذيذ باسم الرّبّ يسوع.. ١٧٤
- الزّرع الإلهيّ.. ١٧٦
- صليب الحياة.. ١٧٨
- علامة الشّفاء.. ١٨١
- وكالة الحبّ.. ١٨٤
- البتوليّة وعفّة الرّوح.. ١٨٧
- لست أنا أحيا بعد بل المسيح يحيا فيّ.. ١٩٠
- الحياة المميتة والموت المحيي.. ١٩٤
- أرض النّور الإلهيّ.. ١٩٨
- السّبيل إلى الشّفاء.. ٢٠١
- دانيال رجل الرّغائب،أحد الآباء الأجداد.. ٢٠٥
- توبة العشّار اختلست نعمة الخلاص.. ٢١٤
- كلّ من له يعطى ويزاد.. ٢٢١
- الجالسون في الظّلمة وظلال الموتأشرق عليهم نور عظيم.. ٢٣١
- جسر الخلاص ما بين الفرّيسيّ والعشّار.. ٢٣٨
- أتريد أن تبرأ؟!.. ٢٤٧
- تفلة الخلاص.. ٢٥٥
- البشريّة النّازفة الدّم.. ٢٥٩
- مَن هم الفرّيسيّون الحقيقيّون؟!.. ٢٦٣
- بذار النّعمة في القلب المنفتح.. ٢٦٨
- كيف نصير حنطة بلا زؤان؟!.. ٢٧٢
- صرخة العشّار بدء الحياة الرّهبانيّة.. ٢٧٦
- قراءة رهبانيّة لإنجيل زكّا.. ٢٨٣

أنجزت مطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في شهر آب ٢٠١١
صوم السيّدة

عائلة الثالوث القدوس
دير مار يوحنا . دوما

أحاديث ديريّة

الأمّ مريم (زكّا)

دير القدّيس
يوحنّا المعمدان
دوما - لبنان

آب ٢٠١١

الجزء الثاني